علم الاجتماع

في الحياة اليومية

قراءة سوسيولوجية معاصرة لوقائع معاشة



د. مأمون طربيه

دار المعرفة
بيروت - لبنان

علم الاجتماع

في الحياة اليومية

علم الاجتماع

في الحياة اليومية

قراءة سوسيولوجية معاصرة لوقائع معاشة

د. مأمون طربيه



ISBN: 9953-85-271-5

الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

تقديم

«على الباحث عندما يدرس لا ينسى أنه يعيش وعندما يعيش لا ينسى أنه يدرس» بهذه المقولة يختصر الأنتروبولوجي كلود ليفي ستروس آلية عمل الباحث الاجتماعي في مقاربته للواقع الذي يعيش، ولعلها مهمة أساسية في أن يتابع السوسيولوجي كل ما يدور حوله ويكون معنيًا به عبر إعادة النظر في دلالات ما يحدث من قضايا في عالمه.

وعلى هذا يأتي إيجاز مفاهيم ومصطلحات علم الاجتماع منذ ولادته في شرح أكاديمي قريب من فهم الناس العاديين والطالب الجامعي خطوات عملية في تلك المهمة الأساسية. إلا أن الخطوة الأهم كانت في توليف مسيرة رواد علم الاجتماع وما قُدِّم من دراسات وأبحاث ونظريات على مر العصور ومقاربة ذلك على الواقع المعاصر..

لقد افترض التطور الاجتماعي تبصيرًا أعمق للموضوعات السوسيولوجية ومعايشة الحالة دراسيًا ـ عملًا بمقولة ستروس ـ على ضوء ما استجد من وقائع، ففي الدين مثلًا ـ كموضوع سوسيولوجي ـ أصبح فيه تحولات جديدة على صعيد الممارسة مع ظاهر التدين الجديد، والتدين بدوره أفرز جماعات تعمل على إعادة بناء الهوية عبر أصوليات، والحركة الأصولية رافقها ظاهرات التزام غير مسبوقة تجلت في جماعات ورموز وشعائر.

كذلك الحال في موضوع الهجرة فهي وإن كانت موضوعًا قديمًا في الأدبيات السوسيولوجية، إلا أنها وكظاهرة عالمية أخذت تطرح الآن مشكلات عديدة عند الحديث عن تهريب المهاجرين، الدخول غير الشرعي، اللجوء السياسي، هجرة الأدمغة وانتشار يد العمالة النسائية على نطاق واسع بين الدول حيث يتم استقدامهن للخدمة في المنازل أو للعمل في الأماكن

السياحية، مما نتج عن ذلك تداعيات جديدة في تاريخ الهجرة.

وبالمثل أيضًا يمكن القول عن مسببات التغير الاجتماعي فلم تعد تكنولوجيا القرن التاسع عشر أو مخترعات منتصف القرن الماضي هي المؤشر الوحيد عليه، مع بروز تقنيات حديثة في بداية الألفية الثالثة والحديث عن تغيير اجتماعي صارخ نتيجة دخول تكنولوجيا الاتصال وما أفرز هذا الدخول من ظاهرات على صعيد لحظنة التواصل وفورية الحدث ومآثر الشبكة الإلكترونية العنكبوتية، وغيرها الكثير من الظواهر التي أخذت تبرز أمام أعين الباحثين المعاصرين على أنها «ظاهرة الزمن الآني» ولينتج عن ذلك كله مصطلحات جديدة في معجم علم الاجتماع.

وفق هذه التصور جهدت على أن أقدم للراغبين في دراسة علم الاجتماع شرحًا مبسطًا للمفاهيم والمصطلحات السوسيولوجية المتداولة، أقارب فيها الواقع بالنظرية، الظاهرة بالمفاهيم، الحاصل بالمفترض.. عبر جهد علمي متواضع يتضمن معطيات وأبحاث ونتائج دراسات عن وقائع معاشة، لهذا جاء عنوانه «**علم الاجتماع في الحياة اليومية**».

والله الموفق

مأمون طربيه

بيروت 3/ 9/ 2010

مدخل

لو تساءلنا عما يحدث من حولنا ولما يحدث، لاجتهد كثيرون في تقديم الإجابة المقنعة وغير المقنعة، وعندما يتعرض علم من العلوم لمآل الأحداث فإنه يحاول أن يقدم التبريرات والتفسيرات لما يحدث، وهذا حال علم الاجتماع الذي يجهد بالبيّنة لتقديم إجابات تتعلق بمواقف الحياة اليومية، العادات والتقاليد ومختلف التصرفات الإنسانية من أبسطها حدوثًا حتى أكثرها تعقيدًا. كأن يبحث في الجرائم المنظمة، الاغتيالات السياسية، آثار الحروب، الصراع العرقي، التفاوت الطبقي، انتشار الأمية والفقر، أسلوب حياة الأثرياء.

لكن هذا العلم لا يكتفي فقط بتناول مثل هذه الظاهرات، وإنما يتوسّع في دائرة ضوئه حتى يقدّم معطيات علمية قائمة حول ما حدث، ولماذا حدث وما سيترتب عنها من تداعيات، فهو يبرر لنا على سبيل المثال:

- ✓ ما الذي يدفع آلاف الناس لمغادرة مكان إقامتهم للعمل في مناطق نائية (ظاهرة الهجرة الدائمة).
- ✓ ما الذي يدفع الشباب للانخراط في حركات سياسية أو مدنية أو اجتماعية أو حتى «مافياوية»؟.
- ✓ كيف يمكن لثورة التكنولوجيا أن تغير الواقع الحياتي لكثير من الناس وتساهم فيما يسمى اللامساواة المعرفية (يقال اليوم أن الأمي من لا يعرف استخدام الحاسوب وليس من لا يعرف القراءة).
- ✓ لماذا العلاقة بين الرجل والمرأة في اليابان تختلف عن تلك التي في أمريكا.
- ✓ لماذا تقاليد الزواج والموت والولادة في مجتمعنا العربي لا يجري مثلها

في البرازيل أو سنغافورة أو إيرلندا. . .

وعليه نفهم علم الاجتماع على أنه:

* الدراسة العلمية لمختلف التصرفات الإنسانية في أي مجتمع بشري، حيث يشير إلى مسار العلاقات القائمة بين الإنسان والمجتمع وكيف يمكن أن يؤثر مسار هذه العلاقات على أمور حياته، وبالتالي يحاول ـ علميًا ـ شرح الكيفية التي يتطور بها المجتمع ويتقدم أو يتأخر.

* مجال علمي يعنى بدراسة الحياة الاجتماعية والجماعات والمجتمعات الإنسانية ككل، موضوعه الأساسي هو سلوكنا اليومي بمختلف تنوعه الاقتصادي السياسي المهني والعقائدي، من هنا يعتبر علم الاجتماع من المجالات العلمية التي تتسم بالشمول والاتساع البالغ بدءًا من اللقاءات العابرة بين الأفراد في الشارع وصولًا إلى استقصاء الأحداث الاجتماعية الكبرى في العالم.

* إنه حقلٌ معرفيٌ يتقصّى الترابط بين ما يفعله المجتمع بنا من جهة وما نفعله بأنفسنا من جهة أخرى، لأن أنشطتنا هي التي تشكل العالم الاجتماعي حولنا مثلما العالم الاجتماعي يبني ويشكل هذه الأنشطة في الوقت ذاته، صحيح أن البشر يعتبرون أنفسهم أفرادًا يتمعتون بالإرادة والحرية الشخصية إلّا أن أنماط سلوكهم كثيرًا ما يجري تشكيلها وصياغتها بقوى خارجة عن نطاقهم قد تؤثر فيهم ولما يقدمون عليه (كالانتحار/ الطلاق/ الانحراف. . .)، لأن السياقات الاجتماعية التي نجد أنفسنا فيها تؤثر فينا جميعًا وبذاك يصبح محور علم الاجتماع الفرد والمجتمع وما ينتج عنهما من ظاهرات.

(مثال: لو توقفنا عند مسألة اجتماعية مثل: الزواج بدون أطفال (أو الإنجاب المحدد)، يتبين من بعض الاستطلاعات أن هناك رغبة لدى بعض المتزوجات في البقاء بدون أولاد، و17% من النساء يتجاوزن مرحلة الخصوبة ولا ينجبن، وكذلك ارتفعت نسبة النساء المتزوجات اللواتي قررن البقاء بدون أطفال إلى 20% (أمريكا/ 2006) بعدما كانت قرابة العشر بالمئة في العام 1980.. هذا يعني أن هناك نسبة لا بأس بها من الأزواج

ترغب ليس فقط بأن تقرر الإنجاب لاحقًا أو لعدد محدود، وإنما أن يبقوا «بدون أطفال» (child-free) فهم لا يعتقدون بأن الزواج هو من أجل الإنجاب ورعاية الأولاد؛ ولكن لماذا مثل هذا الاتجاه؟ العامل الاقتصادي برأيهم هو السبب الرئيس، فإنجاب الأولاد وتربيتهم وتعليمهم وتنشئتهم أصبح بالنسبة لهم عبئًا ماديًا مكلفًا وتزداد الكلفة مع دخوله الجامعة حيث تتضاعف مصاريف الأبناء خاصة إذا دخلوا جامعة متخصصة. لهذا يفضل من يسمون أنفسهم (childless couples) البقاء متحررين من ضغوط متطلبات الأولاد في الرعاية والدراسة والنشاطات الترفيهية... فهل أثر فينا المجتمع لدرجة أصبحنا معه غير راغبين بالمسؤولية الاجتماعية المترتبة على الزواج؟.

*** النظرية الاجتماعية:**

إذا كانت النظرية بمفهومها العام تعني قواعد شرح الوقائع والمواد الطبيعية والأفكار والأحداث الحاصلة في ظرف معين، فالنظرية الاجتماعية هي مجموع التقارير أو البيانات التي تفسر ما يحدث في المجتمع من مشكلات/ آفات/ أزمات/ أفعال/ تصرفات، إنها المعادلة الرياضية التي تبين علاقة متغير بمتغير آخر حيث يمكن معرفة التوقعات الحاصلة من جراء هذه المتغيرات. مثال: تشير منظمة الصحة العالمية ـ وحسب إحصاءات العام 2006 ـ أن هناك ما يقارب ال 900000 إنسان ينتحرون سنويًا، ولكن هل ينتحر جميع هؤلاء لنفس السبب أو الظروف؟ بسؤال أكثر دقة: **لماذا يُقدم الناس على الانتحار؟**

تخمينات كثيرة تُطرح على أنها الإجابة، ومنها:

1. قد يكون لديها نزوع داخلي نحو المخاطرة واللعب مع الموت.
2. أو لأنها مرت بظروف قاسية ولم تستطع تحمل أعبائها.
3. أو لأنها لا تؤمن بجدوى الحياة فوضعت حدًا لها، وغير ذلك.

إلَّا أن مثل هذه التبريرات الواهية لظاهرة اجتماعية معقدة لا يسلّم بها علم الاجتماع إذ لا يتوقف عند: لماذا انتحر فلان؟ وإنمّا يتحرى عن مختلف الظروف الاجتماعية التي يمكن أن تؤدي إلى ظاهرة الانتحار، وعندما يقدم

الباحثون الاجتماعيون تحليلاتهم إنما يصوغون بذلك نظرية محددة تتناول السبب الذي دفع بهؤلاء للانتحار، عندما قرر أحد رواد علم الاجتماع وهو أميل دوركايم دراسة هذه الظاهرة منذ أكثر من 100 عام، وجد أن هناك علاقة بين الانتحار وعوامل اجتماعية أخرى، لم يتوقف هذا الباحث عند الدوافع الشخصية لهذه الظاهرة بل ذهب أبعد من ذلك وبيّن كيف أنها تختلف بين مجتمع وآخر، بين جماعة وجماعة وأخرى في معدلاتها.. وبالدراسة الإحصائية للبيانات التي جمعها دوركايم عن الدوائر الرسمية لعدد المنتحرين في كل من فرنسا والدانمارك وبريطانيا، وجد اختلافات عديدة في مقتضيات الانتحار، لقد بيّن في دراساته بأن السبب الرئيس الكامن وراء الانتحار هو في افتقاد اللُحمة الاجتماعية وبدرجة انخفاض إيمان الناس وابتعادهم عن معتقدات دينهم ومن استنتاجاته مثلًا:

☆ إن عند البروتستانت تكون نسبة الانتحار أعلى مما هي عند الكاثوليك.

☆ إن نسبة المتحرين غير المتزوجين أكثر ارتفاعًا من المتزوجين.

☆ إن الجنود هم أكثر إقدامًا على الشهادة والموت من الناس المدنيين.

واللافت بالأمر ما وجده هذا الباحث من أن حالات الانتحار تكثر في فترات السلم أكثر مما هي حاصلة في ظروف الحرب. في فترات الاهتزاز الاقتصادي وتراجعه أكثر مما هي في فترات الرخاء الاقتصادي ..

بناء على استنتاجاته حاول دوركايم ـ وكأي باحث اجتماعي ـ أن يطور نظرية علمية اجتماعية تفسر كيف يمكن فهم تصرفات الأفراد ضمن المحيط الاجتماعي الذي ينتمون إليه، وإلى أي حد يمكن للواقع الاجتماعي (social context) أن يلعب دوره في التأثير. بيّن كيف يمكن للجماعة أو لقوى اجتماعية أخرى (الدين/ الأعراف/ التقاليد/ القيم / المؤسسات) أن تؤثر بشكل أو بآخر على تصرفات الأفراد (كما في مثال الانتحار لوحظ من معدلاته كيف تتفاوت تبعًا لمدى التزام الفرد بالدين وإيمانه به أو ابتعاده عنه، بمدى انخراطه في الجماعة أو انعزالها عنها، بمدى مشاركته في نشاطات الجماعة

أو اغترابه عنها..) وبالطبع تبقى نظرية دوركايم نسبية ليست مطلقة أو نهائية مرهونة بظروف الزمان والمكان التي حدثت، وهذا شأن كل النظريات السوسيولوجية التي تبقى محكومة بالظروف التي أنتجتها وتظل مفتوحة على دراسات واختبارات أخرى، فقد يتوصل باحثون آخرون إلى استنتاجات مختلفة.. لهذا لا شيء مطلق في العلم.

ما تقوم به النظرية الاجتماعية أنها تلقي نظرة أوسع على الأسباب التي جعلتنا على ما نحن عليه وإلى تقديم الأسباب التي تدعونا إلى الفعل والتصرف بهذه الطريقة أو بتلك، وأن ما نعتبره طبيعيًا ومحتّمًا أو ممكنًا قد لا يكون كذلك في واقع الأمر بل إن معطيات حياتنا تتأثر بقوى ظرفية..من هنا يُمكن فهم السياقات التي تكتنف تجربتنا الاجتماعية من خلال ما يعرف بالمخيّلة السوسيولوجية.

*** المخيلة السوسيولوجية:**

تطلب هذه المخيلة في المقام الأول أن ننأى بأنفسنا عن المجريات الروتينية لأمور الحياة ليتسنى لنا أن نلقي عليها نظرة جديدة، لأن دراسة علم الاجتماع ليست مجرد عملية اكتساب المعرفة الاجتماعية، بل يفترض في عالم الاجتماع أن يكون قادرًا على التحرر من الظروف الشخصية المباشرة ويضع الأمور في سياق أوسع. فظاهرة الطلاق مثلًا والتي تعتبر مسألة ذات شأن خاص بين رجل وامرأة قررا الانفصال، لا تغدو في مخيلة السوسيولوجيين مجرد مسألة شخصية بقدر ما هو حدث اجتماعي:

- ✓ **لماذا يحدث الطلاق؟.**
- ✓ **ما مصيرالأبناء في حالة الطلاق؟.**
- ✓ **ما هو السبب الرئيس للطلاق: البطالة أم عدم التكافؤ أو ...؟.**
- ✓ **ما هي السبل الآيلة للحد منه؟.**
- ✓ **هل كل حالات الزواج قد تؤدي إلى حالات طلاق؟.**
- ✓ **ما هو موقف الأهل / دور المؤسسة الدينية/ الهيئات الحكومية /**

المدرسة/ العمل أزاد الانفصال . . .

تتيح لنا المخيلة الاجتماعية أن الكثير من الأحداث التي تؤثر ظاهريًا على الفرد إنما تعكس قضايا أوسع منه، فالطلاق ليس حالة فردية بقدر ما يظهر كقضية عامة في المجتمع (ازدياد نسب الطلاق، يعني ذلك انهيار العديد من الزيجات وقد يكون ذلك:

1) كارثة على الأطفال، فنصبح هنا في قضية الرعاية.

2) على الزوج الذي قد يفقد عمله فنصبح في قضية بطالة، حتى تتجاوز الظاهرة حدود الخسارة الشخصية وتطال العديد من الأفراد فتغدو حينئذ قضية عامة تعبر عن أزمة اجتماعية واسعة.

وعليه يمكن فهم المخيلة السوسيولوجية على أنها الرؤية الواعية للعلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع الذي ينتمي إليه، حيث مثل هذه الرؤية تسمح لنا أن ندرك كيف يفعل المجتمع ما يفعله، وكيف نحن نتأثر إلى حد بعيد بمجريات الظروف المجتمعية، والتعبير الأدق الذي تعنيه المخيلة الاجتماعية هو أن نرى المجتمع كشيء قائم بعيد عن تصوراتنا الخاصة والتفكير فيما يحدث بطريقة غير اعتيادية وشاملة كما يشير إلى ذلك الباحث الاجتماعي (G.Wright Mills) بقوله أن المخيلة الاجتماعية أشبه بأداة تمكين (تفويض) تسمح إلى حد ما فهم التصرفات الإنسانية من أبعاد أخرى غير المنظورة، والذهاب بعيدًا في تحليلها عما يقرره أو يراه الناس العاديون. فلو تساءلنا مثلًا: لماذا تعتقد بأن بعض الناس فقراء؟ التبريرات الأولية تشير إلى مسؤولية أصحابه عنه، هم فقراء:

✓ لأنهم لا يعملون.

✓ لأنهم لا يقدرون على العمل.

✓ لأنهم يطردون من عملهم.

✓ أو لأنهم ليسوا ذوي مؤهل علمي.

✓ أو لأنهم يتكبرون على ما يؤدونه.

✓ أو لقلة الفرص المتاحة.

إلا أن ظاهرة الفقر بالنسبة لباحث اجتماعي أمريكي يدعى جون مورلاند سببه التمييز العنصري في بعض نواحيه، ففي العام 1996 قام هذا الباحث ببحث ميداني حول ظاهرة الفقر ومعرفة أسبابه الرئيسة، فاستجوب لذلك حوالي 2628 مستجوبًا من مختلف الأعراق فتبين له أن السود واللاتين أقل دخلًا وأدنى مستوى اقتصاديًا والسبب في ذلك ما يلاقونه من نظرة دونية من قبل البيض، وهذا ما انعكس بدوره على تقبّلهم للوظائف والمهن، حتى أصبحوا لا يُستخدمون إلّا في أعمال وضيعة، يتقاضون عليها رواتب متدنية يحول دون تحسّن واقعهم الاجتماعي نحو الأفضل، واستنتج أن هناك سبب قانوني للتمييز (حيث يعتبرهم القانون الأمريكي مواطنون من الدرجة الثانية) وسبب نفسي ـ ثقافي (حيث تمايز الناس فيما بينهم على أساس العرق ترسّخ في أذهان البعض حتى أصبح بمثابة (SETEROTYPE) وأن التمايز الاجتماعي ساهم في تمايز اقتصادي الذي أوصل بدوره إلى حالة الفقر.

* علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى

هل يمكن اعتبار السوسيولوجيا علم؟ إذا كان العلم يعني «المعرفة» القائمة على نظريات منظمة واختبارات متتابعة، فإن علم الاجتماع ووفق هذا المفهوم هو المعرفة العلمية المنظمة للظاهرة الاجتماعية حيث من خلالها يسهل فهم الكثير من القضايا الاجتماعية، فلو أردنا أن ندرس ظاهرة الانحراف أو الجريمة، فالمدخل العلمي يفترض جمع المعطيات والبيانات المتعلقة بها كي يصار إلى تحليلها موضوعيًا قدر الإمكان، ولكن هل يتميز علم الاجتماع عن غيره من العلوم؟ هناك اختلاف جوهري في النظرية والتطبيق بين مختلف العلوم، فعلم الاجتماع يختلف عن الفيزياء، وعلم النفس بدوره لا يشابه في مقتضياته العلمية علم الفلك. .لهذا السبب تصنف العلوم في أقسام حيث هناك:

1) **العلوم الطبيعية**: وهي الدراسة الفيزيائية للظواهر الطبيعية ولكيفية تفاعلها وتغيرها كما هو الحال في مجالات علم الأحياء، الكيمياء، الجيولوجيا . . علم الفلك.

2) **العلوم الاجتماعية**: وهي الدراسة العلمية للإنسان بحد ذاته في واقعه الاجتماعي ولطريقة تفاعله، ويبرز ذلك في أكثر من مجال دراسة أبرزها: الاقتصاد/ السياسة/ التاريخ/ علم النفس/ الأنتروبولوجيا وعلم الاجتماع.

تركز العلوم الاجتماعية في دراساتها على حركة المجتمع من خلال تصرفات أفراده ونمط حياتهم، وإنما كل مجال دراسي من خلال وجهة نظر علمية مختلفة: **فالأنتروبولوجيا** مثلًا تتناول الثقافات الإنسانية القديمة أو ما قبل الصناعة التي لا زالت قائمة أو اندثرت. **علماء الاقتصاد** يتوقفون عند كيف ينتج الإنسان، كيف يستهلك وماذا؟ كيف يهتم الناس بتأمين سلعهم وخدماتهم، كيف تجري المبادلات التجارية وحركة الأموال وكيف يبتدع الناس مصادر للثروة؟ **المؤرخون**: يهتمون بدراسة الأحداث في العصور السالفة ومدى تأثير وقائعها على الأيام الحاضرة، **علماء السياسة** يدرسون العلاقات الدولية، طريقة عمل الحكومات، كيفية ممارسة السلطة والنفوذ. **علماء النفس** يتوقفون عند الشخصية وما يدور في فلكها وتتأثر به، أما **علماء الاجتماع** فيهتمون بتأثير المجتمع على حياة أفراده وبالطريقة التي يتفاعلون بها فيما بينهم، يتناولون موضوعات شتى تحدث في الواقع الاجتماعي منها على سبيل المثال: المخدرات/ مشاكل الأطفال والشباب/ الحراك الاجتماعي/ الفقر/ التواصل الإلكتروني/ الجريمة/ الثقافة / التربية / العائلة/ الهجرة / الجماعات/ العمل وقضايا العمال/ الكثافة السكانية/ الصراع العرقي/ الجنوسة/ الطبقية/ الجنس / الدين/ القيم والمعايير / وغيرها من الموضوعات.

وكي ندرك التمايزات القائمة بين مجالات العلوم الاجتماعية، لنأخذ حدث معين، كارثة طبيعية/ أزمة اجتماعية/ واقع طارئ ونقدم هنا على سبيل المثال أحداث حرب تموز 2006 في لبنان، فقد توقف عندها الباحثون

بمختلف اتجاهاتهم العلمية: المؤرخون تحدثوا عن وقائع الحرب بالمقارنة مع حروب أخرى حدثت سابقًا، الاقتصاديون قدروا الأضرار الناجمة وكلفة الخسائر الحاصلة، السيكولوجيون تناولوا الصدمات الانفعالية التي ولّدتها مآسي الحرب والتأثيرات النفسية التي يمكن أن تظهر عند من شهدوا وقائعها. السياسيون توقفوا عند السبل الآيلة لتحرك الهيئات الحكومية وكيفية التدخل بالعمل الإغاثي أو طلب النجدة الدولية والتحرك الدبلوماسي.. ماذا يمكن أن يفعل علم الاجتماع إزاء هذه الظاهرة؟ سيتولى بدروه دراسة الواقع الاجتماعي المستجد وتداعياته من جراء الحرب، كيف تفرقت العائلات؟ (ظاهرة التهجير) أي حياة يعيشون؟ في ظل الأزمة المستجدة وتدمير مؤسسات عمل كبيرة ما هو مصير الموظفون؟ هل أصبحوا في عداد العاطلين عن العمل (ظاهرة البطالة) كيف يمكن إعادة بناء مؤسسات اجتماعية بديلة مع الواقع الطارئ من مستوصفات / مدارس/ أماكن إيواء...

* علم الاجتماع والحس المشترك:

غالبًا ما تأتي التحليلات الأولية حول أيّة ظاهرة اجتماعية من وراء رأي منمط عنها وتسمى الحالة هذه ب: الحس المشترك. أي أننا ـ ووفق هذه الحالة ـ نحكم على أي فعل اجتماعي أو ظاهرة حدثت بناءً على تجاربنا أو خبراتنا عنها أو بناء على ملاحظاتنا لأمور شبيهة حدثت، في الحس المشترك يتكوّن الحكم المبدئي من جراء ما نسمعه أو شاهدناه أو قرأناه أو قيل لنا..

يُستخدم الحس المشترك common sense لتقييم المواقف غير المألوفة..فلو قال أحدهم: قُتل فلان. .لماذا؟ على الفور سنبادر إلى تقديم أحكام من نوع: ربما هناك خلاف مادي أو هناك خيانة وغدر أو أن السبب تصفية أو ربما عادة ثأر...، مثل هذه الأقوال غير مؤكدة بالطبع لتفسير الفعل الحاصل وإنما هي بمثابة تكهّنات تُطلق بناءً على أحداث شبيهة حصلت وقد اعتبرت غير مؤكدة أو غير واقعية لأنها استندت إلى اعتقادات وليس على معطيات بيانية.

مثال لو تساءلنا: عن ما الذي يجعل الناس تقوم بنذر معير ؟ ماذا يعني

النذر أصلًا؟ من المتعارف عليه هو إحدى طرق التعبير عن الفرح. . إيفاء لوعدٍ أو التزام قطعه أحدهم على نفسه حالما يتحقق ما يتمناه، فعندما يعاني أحد أفراد العائلة من مرض مستعص ويتعافى، أو عندما تجرى لأحدهم عملية صعبة في المستشفى ويخرج سالمًا، يقوم الناذر/ الناذرة بتحقيق نذره ويأتي التنفيذ: إما من خلال عمل شاق ليكفّر عن ذنب ارتكبه (كالمشي حافي القدمين حتى مزار معين أو الصيام لأيام أو . .) وإما أن يرتدي طابع الفرح (كإضاءة معبد أو مقام ولي أو وهب مبلغ من المال لمشروع وقف أو إقامة مولد وذبح كبش) هنا يتدخّل السوسيولوجي ليسأل:

✓ ماذا يعني نذر؟ ما رمزيته؟.

✓ هل يحقق الغاية المرجوة من حيث الراحة النفسية والاجتماعية؟.

✓ كيف بدأت هذه الظاهرة وإلى ما آلت؟ هل هي نفسها في أكثر من مكان؟.

✓ ما حكم الدين بأمره . .هل يعتبره بدعة؟ وأية بدعة: حسنة/ سيئة/ غير ذلك؟.

✓ ما الطقوس والممارسات التي ترافق النذور؟ هل هي من الدين أو من العادة، مبالغ / غير مبالغ فيها؟.

تتخذ تقوى المؤمنين أشكالًا متعددة في التعبير عن التعبّد الشخصي، فيلجأ الكثير منهم إلى إبرام نذر ما، فيبرم المسيحيون نذورًا لله أو للسيدة العذراء أو لأحد القديسين. ويتعهد الناذر الذي يعد بإبرام نذر معين بممارسة عمل تقوى معين، كأن يتلو صلاة على مدة زمنية محددة، أو يلتزم بمبادرات خيرية كخدمة معوقين، أو إنارة الشموع في الأعياد الفصحيّة أو أمام القديسين في الزياحات أو في المعمودية وغيرها من المناسبات الدينية.

أما لدى المسلم فالنذر هو عمل يلتزم به تجاه الله عند حصول أمر ما أو من دون حصوله. (لله نذرٌ عليّ إذا شفيت من المرض. .) وشرط النذر أن

يكون راجحًا شرعًا مثل الصوم والصلاة والدعاء أو الصدقة على فقير[1] أو إقامة مولد.

وعند إقامة الموالد -في الوسط الإسلامي ـ تقرأ آيات القرآن الكريم وتنشد المدائح النبوية وتُعقد حلقات التسبيح، يجتمع الأهل والأصدقاء كافة ويذبح خروفًا وفي العادة لا يأخذ أهل البيت منه شيئًا إنما يوزع على الفقراء والمحتاجين كاحتفاء بسلامة المنذور وعلى نيته. ويتم المولد غالبًا إما في المنزل وإما في الجامع. حيث تكون الضيافة خلاله: أنواعًا من الحلوى مثل البقلاوة والشوكولا وأصناف أخرى فاخرة.

لهذا التقليد علاقة واضحة بالنزعة الإيمانية عند عامة الناس، إنه الحس المشترك الذي يتجسد اجتماعيًا عبر أكثر من فعل طقسي. يفترض تحقيقه مشاركة الجميع بل ينبغي أن يتشاركوا، فإنارة كنيسة ـ مسيحيًا ـ أو قراءة مولد وذبح فدو ـ إسلاميًا ـ قد يكون تعبير عن فرح وبمثابة راحة نفسية من حيث الوظيفة، إلّا أنه كمظهر اجتماعي موجّه للآخرين يتضمن من حيث المغزى التفاعل الاجتماعي، ولعل الدعوة إليه كإعادة إحياء للمناسبات الاجتماعية والدينية هو وسيلة لإعادة اللحمة بين المؤمنين[2].

بإيجاز:

يمكن تعريف علم الاجتماع بأنه الدراسة المنهجية للمجتمعات البشرية وفق منظويات عملية مهمة، فدراساته هي مجموع الأبحاث التي يقوم بها علماء الاجتماع من أجل إلقاء الضوء على نظرية من النظريات أو التحقق من صحة فرض من الفروض أو إضافة جديد إلى ما نعرفه مثل حل مشكلة عملية أو اختبار فرض ما في حقل دراسي، لأنه علم يقوم في الأساس على البحث

(1) المظاهر الثقافية في الديانتين المسيحية والإسلامية، إشراف وإصدار مكتب اليونسكو الإقليمي بيروت، 2008.

(2) من مظاهر النذور لدى المؤمنين الكاثوليك، ينذر البعض بأن يلبس لمدة زمنية محددة ثوبًا يشبه ثوب القدّيس الذي يتشفعون به، ونرى في هذا الإطار خلال شهر أيار العديد من النساء اللواتي يلبسن الثوب الأبيض والأزرق الطويل الذي يشبه بحسب التقاليد ثوب مريم العذراء، وذلك أيضًا لنذر معين.

الاجتماعي أي استخدام الأسلوب العلمي في دراسة الظواهر والوقائع الاجتماعية وتعديل الأفكار الخاطئة الرائجة وتشخيص المشاكل الاجتماعية والوقاية منها بعد رسم الخطط واقتراح الحلول . .فهو العلم من أجل العلم. . إذ يمكنه:

☆ **الإسهام بأكثر من وسيلة في النقد الاجتماعي وفي الإصلاح الاجتماعي العملي.**

☆ **إتاحة الفهم المتطور لمجموعة من الظروف الاجتماعية مما يسهم ذلك في إيجاد فرص أفضل للسيطرة عليها وتوجيهها.**

☆ **يوفر لنا الوسائل الكفيلة لشحذ حساسياتنا الثقافية. وإدراك التنوع في القيم الثقافية.**

☆ **ومن الناحية العملية بوسعنا أن نتقصى عبره النتائج المترتبة لضرورة انتهاج برامج عمل وسياسات إنمائية.**

الفصل الأول
مصطلحات سوسيولوجية

الحياة اليومية

التنشئة والنشأة

الثقافة والتربية

التحيز والتميز

الأعراف والانحراف

المصطلح الأول
الحياة اليومية

كيف يعرف الناس ما يعرفونه في حياتهم اليومية؟.

كيف يدركون الأشياء ويفاضلون بينها؟ وكيف يُبنى سلوكهم اليومي في ضوئها؟.

تشير معظم النظريات الاجتماعية كيف يشرع الأفراد والجماعات في الحصول على ما يريدونه من خلال ما يعرف بنظرية «الفعل الاجتماعي» الذي يتم بدوره بناء على الحاجة والتفاعلية، بمعنى أن البشر يتصرّفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه لهم وأن هذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني يتم تداولها عبر عملية تأويل يستخدمها الفرد في تعامله. لكن نظريات أخرى افترضت أن هناك منظومة من الإدراكات والاستعدادات والتصورات المكتسبة حتى تصبح بمثابة «القواعد المُولّدة للممارسات» (HABITUS)[1]، أي ذلك النزوع الشخصي الذي يؤطر استعداداتنا دون افتراض وعي كامل من قبلنا لإطاعة نماذج معينة من السلوك والتفكير.

إزاء هذه التوجهات النظرية يمكن فهم أوضاع التفاعل الاجتماعي على أنه دراسة الحياة اليومية ووفق هذا النوع من الدراسة (**والذي يسمى في العادة بعلم الاجتماع المصغر/ الميكرو سوسيولوجي**). يجري تحليل الأوضاع

(1) الأبيتوس: مفهوم يعود ببدايته إلى عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو حين أخذ يقارب مفهوم إنتاج الأفكار وشروط إعادة إنتاجها وميزة هذا المفهوم ـ المصطلح أنه بمثابة بنية ذهنية ذات بعد معرفي تدفع بصاحبها إلى إطاعة نماذج معينة من السلوك دونما أن تفترض وعيًا كاملًا بها).

والسياقات والسلوك الاجتماعي على مستوى الأفراد أو الجماعات الصغيرة، لنتأمل مثلًا بعض صيغ التفاعل والمواجهة التي تتم في الأماكن التي يتجمّع فيها الآلاف من الناس (المدن) حيث نراهم يسيرون باتجاهين مختلفين كلٌّ إلى غايته بسرعة وانهماك دون أن يعير أحدهم اهتمامًا للآخر، في هذه الأوضاع يحدث ما يسميه أرفنغ غوفمان «**الإغفال المهذب**»، هذا الموقف لا يعني تجاهل الآخرين كليًا ولكن يعني امتناع الناس عن اقتحام حياة الآخرين وأنماط سلوكهم المعتادة في وضع معين[1].

يعتبر علماء الاجتماع دراسة الأحداث اليومية موضوعات جديرة بالاستقصاء لأسباب منها:

1 ـ **تبين أشكال التفاعل الاجتماعي**، الذي يعكس بدوره الجانب الأكبر من نشاطات الحياة اليومية، لاحظ مثلًا كيف ترتب أمورك يومًا بيوم أو أسبوعًا بأسبوع أو سنة بعد أخرى، كيف تنهض صباحًا لتذهب إلى عملك/ جامعتك/ ثم تعود وتمارس واجباتك ومواعيد طعامك ونومك أي أنك تقوم بأنماط سلوك متماثلة في وتيرة معينة، حتى وإن حدث «**اختراقات**» مثل التخرج أو البدء بعمل جديد أو الارتباط بشريك، **فإنه** سرعان ما نعود إلى الروتين ذاته، **فمن أوجد هذه السيرورة وكيف؟**.

2 . **تبين مظاهر إعادة التشكيل الواقع**، من خلال ما يبتدعه البشر ويبتكرونه من أفعال خلاقة تسهم في إعادة تشكيل واقعهم مما يفرض أنماط سلوك اجتماعي جديدة، كحال الطلاب الجدد الذين ينزلون من قراهم إلى المدن الكبيرة كيف أنهم مع الوقت تتغير بعض سلوكياتهم لجهة عادات طعامهم/ طريقة تخاطبهم/ نمط علاقاتهم بالآخرين/ شكل لباسهم. إنهم يغيّرون ويعيدون تشكيل تصوراتهم كي لا يبقوا غرباء.

3 . **تبين فرص التوقعات المنتظرة والمدركة**، في مناخات التواصل السائدة يفترض أن ندرك أفعالها مسبقًا قبل أن تستفز دفاعات غير مقبولة قد تعيق

(1) أنتوني غدنز، علم الاجتماع، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

عملية التواصل، وأن تراعي الحساسيات الثقافية للشخص الآخر بطريقة دافئة ومحترمة. مثلما ينصح به المسافرون والغرباء باتباع قاعدة: **عندما تكون في روما... افعل كما يفعل أهل روما**، التي تساعد كثيرًا على تفادي أي ظروف حرجة.

في كثير من أنماط السلوك المعتاد التي تتضمنها الحياة اليومية هناك العديد من عمليات التفاعل المستمر التي تتجلى من خلال تعابيرنا بالكلمات والإيحاءات والتصرفات في شكل الاتصالات الشفهية وغير الشفهية (حركات الجسد)، يصطلح على تعريفها ب «قواعد اجتماعية للحياة العادية»، نستعرض أبرز وجوهها:

1) وتيرة التوقعات:

في أي موقف يجمع اثنين أو أكثر من الأفراد يتكوّن لدى كل واحد منهم نوعًا من الإدراك لما يتوقعه غيره منه، هناك توقعات متبادلة للسلوك في مختلف مواقف الحياة اليومية وعندما تسيرعلى وتيرتها المعتادة ندخل السياق المنظم بناءً على تفاهمات قائمة. أما عندما لا يتم التوقع المفترض نصبح في سوء تقدير يقود إلى خلل اجتماعي وعدم تجاوب في العلاقات القائمة، عندما أقول لك لماذا تصرفت مع فلان بالشكل الذي تصرفت عليه؟ تجيب بسرعة: إننا متفاهمون على هذا الشيء!! وكأنك هنا تؤكد وتمارس بناء على قواعد غير معلنة واعتبارات مسبقة، مما يعني أن المحادثات اليومية تفترض مسبقًا وجود تفاهمات مشتركة انسجامًا مع المعارف المتبادلة بين بني البشر، والتي تكوّنت نتيجة التواصل اليومي، كما هو الحال عندما تسأل شخصًا بطريقة عابرة: كيف حالك؟ فمن المتوقع بأن يجيب بعبارة قصيرة مثل: الحمد لله.. وغير هذه الإجابة يستدعي استفسارات، وعليه يظهر سياق حياة الناس كأنه مستقر على معانٍ ودلالات ومشاركة في المحتوى الاجتماعي للحياة اليومية.

وإذا أردنا أن نعرض لموضع القسم أو الحلف في المسار اليومي لحياة الناس، فإنه غالبًا ما يرتبط بالبعد الديني مضمونًا ودلالة، حيث يتم في القسَم اللفظ باسم الجلالة (الله) أو بمراجع إيمانية تتراتب أهميةً ونوعًا بتفاوت

مستوى اعتقاد المعتنق وسبل تعبيره، فالقسَم المشترك عند أغلب المسيحيين في لبنان هو «وحياة السيدة»، بينما يُجمع المسلمون في كل المذاهب على اعتبار أن كل قسم بغير الله حرام، أكان بالنبي ﷺ أو بسائر الرسل والأولياء، والحلف الحقيقي ينبغي أن يكون بلفظ الجلالة (والله) مجرّدًا من أيّة صفة اتباعية لاحقة. .وثمة تفاهم قائم بين اللبنانيين على مصطلح القسم والحلف يوشك أن يكون واحدًا على اختلاف طوائفهم ومناطقهم، فالكل يحلف بالله العظيم أو برب السماء أو باستخدام كلمة «الله وكيل».

وينبئ رصد مناسبات الاستعمال اليومي للتعابير الدينية في الممارسات الشعبية عن انتشار هذه التعابير وتغلغلها بين الناس بناءً على تفاهمات قائمة، وتأخذ بالتنوع والشمول حتى تكاد تغطي أغلب مناسبات الكلام في مواقف الحياة اليومية: الموت/ الفرح/ التحية/ التوسل/ الشكر/ المرض/ الشر/ رد العين/ الضيق/ الظلم/ الاستقبال/ الرزق/ الطعام/ البحث عن غرض ما/ الخطر/ الشماتة/ الذل/ المصيبة/ تقبل الأمر الواقع. . مع هذه المواقف هناك مرادفات كلامية توافَق المجتمع على تنسيقها وإنتاجها ووضعها بتصرف الأفراد ملبّيةً بذلك حاجاتهم التعبيرية المتنوعة، وفي مقاربة لهذا الموضوع نورد ما كتبه أستاذ الألسنية في الجامعة اللبنانية (نادر سراج) ضمن بحث بعنوان: التراث الديني في الخطاب العربي اليومي[1]. الذي يجد أن لهذه التعابير وظائف عديدة بين النفسي والاجتماعي والإيماني والاقتصادي يمكن تصنيفها في الأطر التالية:

1 . **النفسية الاجتماعية:** لتكييف الإنسان مع واقعه اليومي، لاستعادة توازنه النفسي ولتوفير الاعتبار الذاتي كقولهم: الله بيعوّض، الله بيعين. .

2 . **التوكيد الوظيفي،** أي إثبات السلطة الدينية وتضخيم الذات باللجوء إلى قسم وحلفان كدغدغة للعواطف الدينية المتفاهم عليها كقولهم: وحياة حجتي، وحياة اللي زرته، ورب العالمين، ورجعة الإمام. .

(1) من مقالة له في صحيفة السفير اللبنانية (9/ 10/ 1989).

3 ـ **الالتفافية واللامباشرة**، عبر استغلال الدين عن طريق اعتماد مصطلحاته وتزيين الخطاب بواسطته وتضمين الكلام بكثرة الحلف، لإيصال رسائل ذات أغراض أخرى مثل: وحياة ال... إيدي عالكتاب، بجاه النبي...

4 ـ **الدينية الإيمانية**، وغالبًا ما تتم في حالات التخفيف من الهلع، والتلطيف والاحتماء من مفاجآت المستقبل وغدر الزمان وحدّة الكوارث والمخاوف والقلق، ومن التعابير: الله قدّر ولطف/ الله ينجينا من الأعظم/ بسم الصليب / بسم الخمس حدود/ يا عدرا / يا رب سترك..

وهكذا يمكن للمصطلحات الدينية أن تستخدم أشكالًا تعبيرية عدة منها الشفوي ومنها الكتابي ومنها ما يُدرج في استهلال المراسلات وخواتمها، ومنها ما يلصقه الناس على ممتلكاتهم.. ومنها ما يتلفظه الناس عفوًا كقولهم: إن شاء الله/ اسم الله/ كثّر خير الله/ مثل ما الله بيريد.. كأنها تفاهمات يومية قائمة تنبئ عن حالة إيمانية.

2) أسلوب التخاطب:

إن دراسة الكلام اليومي تُظهر مدى الحكم على أداء الناس ومستوياتهم، بل تنبئ أكثر عن مكنونات الذات لتترك مؤثراتها في أبعاد التواصل اليومي، فالاستفزاز ورد الفعل الانفعالي لا تحدث إلّا بناءً على طريقة تخاطب أحدهم لآخر بطريقة غير متفاهمة، وتعكس التالي سياقات اجتماعية عدة، فلو تأملنا مثلًا بمستوى الكلام المتداول بين الناس لوجدنا أساليب متنوعة، كما في الأوجه التالية:

1 ـ من يحدثك على أنه يودّك وعندما تدير ظهرك لا يعرفك، يتحدث عنك لمن يعطيه أذنه، إنهم ذوو الوجهين.

2 ـ من يحيرك أمره ولا تعرف فيه الصح من الخطأ يستغلك ماكرًا للوصول إلى أهدافه إنه الانتهازي.

3 ـ من يحدثك دائمًا بسلبية ويصور لك الأمور أن لا أفق لها، إنهم الضبابيون.

4 ـ من يتحدث غير مبال بأي معيار أخلاقي ويتصرف دون تأنيب ضمير، إنهم الرديئون.

5 ـ من يظهر عليه الهدوء في الحديث وفي لحظة ما يفقد اتزانه ويثور، إنه الهائج.

6 ـ من يتلفظ بكلام بذيء ولا يذكر أحدًا بخير كل حديثه مفردات القدح والذم والشتائم، إنه السّفيه.

7 ـ من يتخلل حديثه دومًا تأفف/ تململ/ تبرم... إنه السئم.

8 ـ من يحدث ويهذر ويبيعك كلام ولا شيء سوى الكلام. .ويدّعي أنه يعرف كل شيء، إنه المدعي.

9 ـ من يحدث معتقدًا وكأنه الأفضل والأذكى والأقدر والأكثر ثراء ويتصرف وفق ذهنية السوبر، إنه المتعال.

إن أسلوب الحديث قد يكون طريقة تعبيرخاصة تنم عن شخصية محددة، إلا أنه في سياقات كثيرة يعكس طريقة التفاعل الاجتماعي مع الناس وفق مستويات الكلام الذي ينطقون به، فالانجذاب أو النفور منبعهما أسلوب التخاطب، لكن البعد الأهم في أشكال الكلام هو الرمز الدال عليه باعتباره لغة. .واللغة بدورها كرموز دالة تتضمن معانٍ، والمعاني بدورها هي ما تشكل عالمنا الاجتماعي، كل ما يدور في العالم الاجتماعي رموز دالة ومعان: قطعة الخشب هي قطعة خشب ـ ككلمة ـ على أنها في المعنى تصبح: إما طاولة أو مكتب أو خزانة، في إشارة إلى الدور الذي تلعبه قطعة الخشب في عملية تفاعلنا. . وبهذا السياق يمكن فهم أشكال الكلام ليس من حيث صورته كحروف، وإنما من حيث طريقة لفظه/ مناسبات قوله/ أوقات استخدامه وأوجه الاحتمال التي يقصد منه، لهذا يقال: ما بين السطور، ما وراء الكلام، حيث المخبأ هو أكثر من مجرد كلمات بل مغازٍ ومعانٍ.

أشكال التواصل غير الكلامي: لماذا قراءة الإشارات ومعرفة الحركات موضوعًا هامًا من أشكال التواصل اليومي؟ يحتل الكلام واللغة المحكية بشكل طبيعي المكانة الأولى بين الناس، لذلك فإن فهم معاني الحركات ينحصر

دنمًا في الإشارات الاصطلاحية وبعض الحركات الموروثة، ومعرفة الكثير عن أشكال اللغة غير المحكية يعود لسبب أسلوبنا في الإصغاء، فنحن لسنا مدربين على أن نلتقط في الوقت نفسه فعلين مختلفين مثل المراقبة البصرية والإصغاء، أو أن نتابع مستويين حسيين (النطق والإحساس) لكن ثمة الآلاف من الإشارات والوضعيات الجسدية التي تترجم حرفيًا مشاعرنا وانفعالاتنا بشكل لاإرادي، وكل حركة تصبح علامة دالة على حالة تكتنف وعينا، فإذا تقبلنا فكرة أن المشاعر والأفكار التي تعمل في داخلنا إنما تحتاج إلى ما يعادلها للتوصل إلى توازن، نصبح هنا أمام أشكال متنوعة من التعبير غير اللفظي، وتظهر أهمية التعبيرات الجسدية والحركات العفوية بوضوح في مجال الإغواء عند النساء، فالمرأة التي تدرك أنها ملفتة للنظر لن تظهر جاذبيتها من خلال الملابس فقط، وإنما من خلال مشيتها وجلستها وحركاتها، كذلك تبين أن:

* **الابتسامة**: هي عند التحية أفضل ترحاب، وعند اللقاءات دليل انفتاح، وسفيرة السحر الذي يمكن أن يتمتع به الشخص، وإنها من أكثر الأسلحة فاعلية للتأثير على الآخر بهدف نيل إعجابه أو اجتذابه.

* **والذراعان**: تصالبهما يشير إلى: الانغلاق/ الرفض/ الابتعاد/ التحفظ، أما إرخائهما وعدم تشباكهما وراء الظهر دليل ثقة واستعداد.

* **والانحناء إلى الأمام عند المحادثة**: دليل اهتمام بمن يحدثك وتشجيع على متابعة الحديث.

* **أما المصافحة**: الدافئة والقوية دليل ود واحترام، فيما الباردة دليل لامبالاة وخجل.

* **وعن العيون**: يبدو النظر إلى الآخر عندما يحدثك دليل ثقة بالذات وصراحة، أما إشاحة النظر عنه فدليل حياء أو خجل أو قلة ثقة بالذات أو فظاظة (خاصة عندما يكلمك أحدهم..).

* **والعبوس والتجهم**، إشارة إلى عدم الموافقة والاستنكار.

* ولمس الأنف والنظر بعيدًا بدروه يشير أحيانًا إلى مراوغة يضمرها محدثك.

تدل الحركات المعبرة والإيماءات العفوية التي تصدر عن الجسم في واقع أمرها ترجمة حقيقية وفورية لما يدور في الذهن ويحركه الانفعال، لأن: **الحديث بين شخصين هو في الحقيقة بين «لاوعيين» يحاول كل منهما** استكشاف الآخر في غفلة من الوعي، وهكذا تختصر رؤية التواصل بين طرفين في إطارين: جوهر الاتصالات الكلامية الذي يقوم على المحادثة والتفكير والتخطيط والتعبير، وجوهر الاتصالات غير الكلامية الذي يقوم بدوره على الملاحظة، التأمل، التنبه،الإدراك، الإصغاء والتقييم.

3) طبيعة اللقاء:

تمثل اللقاءات شكلًا من أشكال التفاعل اليومي، فاللقاء حينما يكون مع الأصدقاء أو الأهل أو زملاء العمل هو **لقاء مركز**، أما حينما يكون مع الآخرين ـ العابرين ـ ممن لا نعرفهم وإنما يستوقفوننا لغاية ما، فاللقاء عندها لقاء غير مركز. .في مجمل اللقاءات هناك لحظة تواصل مفترضة واتجاه مسار لابد منه كي يحدث التفاعل.. تحكمه بالنهاية مؤشرات أخرى مثل الانتباه والاهتمام وقدر من التهذيب وحسن الإصغاء ومعايير الثقافة السائدة، (فالفرنسيين مثلًا ليس لديهم طبيعة لقاءات العمل كما هي لدى اليابانيين التي تكون إلى حد بعيد منضبطة ودقيقة وجدية، حيث يقضي بروتوكول التعامل الاجتماعي في اليابان: العمل أولًا، والعلاقات الشخصية تاليًا (أي لايكون هناك علاقات شخصية على حساب العمل وأي خصوصية في العلاقات أو الصحبة يجب أن تكون بعيدة عن أجواء العمل) أما في البيئة العربية فغالبًا ما يولي الناس أهمية قصوى للقاءات وإنشاء العلاقات حيث يرى كثيرون أنها أثمن معرفة.. إلا أن الذي يحدث في مجتمعاتنا العربية هو أنها مأخوذة كثيرًا بفكرة الاستغابة وهو الوجه الآخر للمسايرة، مما يعني أن مستويات التفاعل الاجتماعي لا تجري إلا على أساس التوافق الظاهري وقاعدة المجاملات وأشكال تعامل تكتنف في عمقها مشاعر حسد وعداء ومخاصمة ونزاع. وعليه نجد الفرد في طبيعة اللقاءات الاجتماعية لا يثق كثيرًا في كلام الآخرين لأنه يعي الستار الاجتماعي الذي يختبئ وراءه الآخر، وهذا ما يؤدي إلى تغليب الشك والتوجس وما يتعلق بنوايا الآخرين ودوافعهم.

لماذا يحدث مثل هذا التعامل، لأن العائلة العربية ـ وبدافع التربية ـ تعتبر كل تعامل مع شخص بعيد عن العائلة تعامل مع غرباء ويُحذّر من مقاربتهم، ونتيجة الفجوة القائمة بين العائلة والمجتمع يأتي الفرد إلى المجتمع من أسرته وهو يحمل وزر عدم الاطمئنان للآخرين لدرجة يشعر بأن في تعامله مع الآخر قد يكون فيه خدع أو مكر أو استغلال أو قد يكون معرضًا للانسحاق إذا لم يتخذ موقف الهجوم والسيطرة، وهذا ما خلص إليه السوسيولوجي هشام شرابي في مؤلفه «مقدمات لدراسة المجتمع العربي» بالقول: «إن العلاقات الاجتماعية ما هي في النهاية الا انعكاس للعلاقات العائلية والعكس بالعكس، وما السلوك الاجتماعي إلا تعبيرًا عن الشخصية الاجتماعية المنبثقة من الارتباط الوثيق بين العائلة والمجتمع»[1].

4) مجال الزمان والمكان:

للتفاعل مع الآخرين هناك أكثر من وسيلة (الهاتف/ الرسالة/ الهدية/ اللقاءات المباشرة في المناسبات) إلّا أنّ التواصل البريدي الفوري أضحى مثالًا عصريًا للترابط الوثيق بين أشكال الحياة الاجتماعية من جهة، والقدرة على التحكم بالزمان والمكان من ناحية أخرى، فالبريد الإلكتروني عبر الإنترنت على سبيل المثال أتاح التفاعل مع أناس من شتى بقاع العالم دون معرفة مسبقة **(تفاعل المكان)**، كم أنه عدّل من حركة الزمان فأصبح بالإمكان الاتصال بصورة فورية ومباشرة وفق ما يعرف بلحظنة التواصل **(تفاعل الزمان)**. لقد أعاد هذا الدخول التقني ترتيب حياة الناس اليومية في أشكال من التفاعل لا مجال لمقارنتها مع الزمن الغابر حتى أصبح ضروريًا وحيويًا بشكل لا يمكن تصور الحياة بمعزل عنه.. فالتخاطب عبر ما يعرف «e - mails» ورسائل الهاتف الخلوي غديا من البديهيات القائمة في حياة الكثيرين بالمجتمعات المعاصرة.

عن **تفاعل المكان**، فقد أدى التزايد السكاني إلى انحسار تدريجي للمساحة الخاصة بكل شخص، حينما تكتظ الأماكن العامة بالناس وتمتد

(1) د. هشام شرابي، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، الأهلية للتوزيع والنشر، بيروت، 1977.

الطوابير أمام بعض المراكز لتصبح السيطرة على المجال المكاني أمرًا في غاية الصعوبة يحتاج إلى «تحرك محدود»، فإذا كنت من سكان المدن الكبرى ستلاحظ بالتأكيد ـ وأنت في الأوتوبيس أو الأزقة أو عند التزاحم في المتاجر الكبرى ـ انحسار المسافات التي تفصل أحدهم عن الآخرين وملامح الناس تبدو جدية، عابسة، متجهمة.

مثل هذه الظاهرة أصبحت محور علم خاص يعرف ب «علم استخدام المساحات المشتركة» ينطلق هذا العلم من نظريتي المجال الخاص ومساحات التهرب من الأفراد، اللتين وضعهما عالم النفس الأمريكي (J.B.SKINNER) أواخر الستينات من القرن العشرين، وقد استوحى نظريته بناء على ما توصل إليه عالم فرنسي شهير حول موضوع «العدوانية» في العلاقة بين الأفراد، حيث يتساءل هذا الباحث الفرنسي «**ألا يمكن القول بأن العدوانية ثمرة المخيلة، يغذيها الخوف من اقتحام المجال الخاص**» فالمجال الخاص عبارة عن مساحة غير مرئية، هو هالة افتراضية تحيط بالمساحة التي يحتلها الجسم، تضيق وتتسع وفقًا لكل شخص وبحسب المكان الموجود فيه، ففي المصعد مثلًا تقل مساحتك عن تلك في الطريق، وفي الطريق الضيق أو على رصيف مزدحم يضطر أحدنا إلى أن يعدّل تلقائيًا من سرعة مشيه أو إلى الانحراف قليلًا حين نصادف شخصًا قادم من الجهة المعاكس، فنفسح له ممرًا كي لا يحدث تماس جسدي، كأن هناك رادار غريزي ينبهنا كي لا نصطدم بالآخرين أثناء مرورنا، لأن أي سهو في الاصطدام من شأنه أن يطلق عدوانية كامنة في أعماق الآخرين. لهذا ينصح خبراء لغة الجسد بأن التيقّظ واجب في هذه الحالات لأن البشر كالتفاح بقدر ما يتكدّسون بقدر ما يفسدون[1].

يكشف التفاعل الاجتماعي في حياتنا اليومية الكثير من الجوانب التي في سلوكنا، فهو العملية التي يرتكز عليها تواصلنا الاجتماعي من خلال الفعل وردات الفعل تجاه من حولنا. لم يعد فضاؤنا الاجتماعي محيطه المنزل أو الحي أو القرية. حيث التفاعل الوجاهي قائم ومعروف، وإنما امتد نحو

(1) خلال الحرب اللبنانية شهد اللبنانيون حالات تهجير قصري إلى غرف صغيرة في الريف، أو=

أشخاص لم نلتق بهم قط، فرضته طبيعة الحياة الجديدة بدءًا من شخص قد تتعرف عليه للوهلة وأنت تفتح حسابًا في أحد البنوك، وانتهاءً بأناس يبعدون عنك آلاف الأميال عبر عالم الاتصال التقني. لقد تسارع نبض الحياة الحديثة وأصبح التفاعل مع أجهزة التلفزيون والكومبيرتر أكثر مما نتواصل فيه مع جيراننا وأصدقائنا، ولكن ما هو مآل هذه «الفورة» التقنية على مساق حياتنا اليومية؟ هل غيرّت وجه الحياة البسيطة القائمة على حميمية أم عززتها؟ ما هي نتائج هذا الاتصال التقني المكثف على نمط تصرفاتنا وسلوكنا الاجتماعي وتفاعلنا اليومي هل جعله باردًا؟ ما هي طبيعة التفاعلات المستجدة والتعقيدات الناجمة عنها؟.

*** التواصل التقني: دافئ أم بارد؟**

بطريقة أو بأخرى تنتظم الناس في جماعات، وحينها تقيم سلسلة من التواصل تعرف بالشبكة الاجتماعية social network التي تعني الارتباطات القائمة والعلاقات المباشرة فيما بينها. محور هذه الشبكة هو مختلف النشاطات التي يقوم بها الإنسان مع غيره سواء بشكل حسي يومي أو سواء عبر وسائل أخرى، على سبيل المثال في العام 1998 ظهرعلى شبكة الإنترنت أول موقع يقدم خدمات تعارف للشباب والبنات يدعى eHarmony تلاه my space العام 2003 ثم موقع الفايس بوك، مثل هذه المواقع وغيرها لم تكن فقط مجرد صفحات إلكترونية تنشر المعلومات والأخبار والأحداث الغريبة، وإنما ما تتركه من تأثير على نمط التفاعل وصوره. لفترة من الزمن كان التواصل محددًا برسالة خطية أو بطاقات معايدة بالمناسبات الكبيرة ومحكومًا بالزمن والمسافة والجهد، بينما اليوم أصبح التفاعل مختصرًا في حضوره الآني والمباشر وربما بأسلوب التعاطي مع الآخرين.. فلو أخذنا ما يعرف اليوم facebook نجد أن 87% من الشباب والأولاد هو وسيلتهم المفضلة في

= إلى انزواء في ملاجئ الأبنية بالمدن، مع هذا النزوح والانزواء كان يتولّد نوعًا من الاكتظاظ البشري القسري، حيث يكثر الأشخاص المتواجدون تحت سقف واحد فيؤدي ذلك إلى حالات ضيق وتوتر نفسي شديد، مما يجعل الحياة في ظل هذا الاكتظاظ صعبة وثقيلة، فالرجال تعطلوا عن العمل وزادت عصبيتهم وباتوا يتحدثون بصوت مرتفع، وكأنهم يصرخون طوال الوقت، وهذا يعود إلى فقدان الفسحة الحيوية وغياب الاستقلالية وانحسار المجال الخاص.

التواصل عبر الصور والمحادثة والفيديو حتى أصبح دون منازع الشبكة الاجتماعية الإلكترونية، ولكن ما الآثار الاجتماعية التي يمكن أن تتأتى عن مثل هذا التواصل؟.

أشار استطلاع للرأي أجراه مركز إحصاء عالمي (IPSOS REID) إلى أنه في غمرة حياتنا اليومية نجد أنفسنا نتواصل اجتماعيًا بما معدله 17 مرة عبر وسائل تقنية مقابل مرتين من خلال اللقاء الشخصي المباشر. هذا يعني أن فضاء الشبكات الإلكترونية أدخلنا عالمًا لاشخصيًا وجعل تواصلنا باردًا وعلاقاتنا أصبحت «digitally» تتم عن بعد وفق ما يعرف بال: email, my space ,facebook,msn, فأنت عندما تتواصل عبر هذه «المجالات» يبقى في ذهنك بأنك تخاطب شخصًا عن بُعد ومحتوى المحادثة يبقى محدودًا بكلمات ويُختصر برموز. مما لا يجعلك تعبر عن مشاعرك وأحاسيسك كما هو الحال أمام شخص مقرب تلتقيه وجهًا لوجه، من هنا أظهر ما نسبته 61% من المستجوبين حنينهم إلى اللقاءات المباشرة التي كانت تتم بكثافة قبل مجيء وسائل التواصل المتعددة، فاللحظات التي تقضيها مع أحدهم، سواء بالزيارات المتبادلة أو بالخروج سويّة، ومخاطبة الآخر وهو ينظر إليك وتنظر إليه مهم بحد ذاته في إرساء علاقة حميمية، ويجعل من لحظات لقائكما أنيسة وممتعة في آن، لهذا تنصح خبيرة العلاقات الإنسانية (آلين ماكفيل) وتعليقًا على نتائج الاستطلاع: «أن مسألة التواصل بينك وبين آخر ليس مجرد كم تحادثه باليوم عبر الهاتف أو كم تراسله إلكترونيًا.. وإنما أهمية الاتصال والعلاقة ترتكز بشكل رئيس على جلسة هادئة وجهًا لوجه، لأننا بالنهاية نحن مخلوقات اجتماعية وُجدنا لنقيم علاقات، فلنجعل التواصل البشري فاعلًا أكثر من التواصل عبر الكومبيوتر أو غيره». خاصة وأن النسبة الأكبر من المستجوبين (88%) أقروا بأن اللقاء الشخصي يجعلهم أكثر تقربًا وأقل اضطرابًا من اللقاء التقني عبر الهاتف أو البريد الإلكتروني[1].

وبالسياق ذاته بينت دراسة أجريت العام 1997، أن ما يقرب من نصف

(1) metro، صحيفة كندية محلية، 9/ 12/ 2008.

الموظفين العاملين في المكاتب ببريطانيا أفادوا بأن الإنترنت قد حل محل التواصل مع الآخرين وجهًا لوجه، ويرى ثلث المستجوبين أنهم يتعمّدون استخدام الإيميل ليتجنبوا اللقاء المباشر(الوجاهي) مع زملائهم، كما يرى آخرون أن كثافة المراسلات البذيئة على البريد الإلكتروني الخاص قد أدت إلى انهيار علاقات صحبة بين الزملاء والزميلات . .

ورغم أن أنصار الثورة التقنية الحديثة يدافعون عن أهمية دورها باعتبار التفاعل الإلكتروني أصبح وسيلة للتحرك والتمكين بحيث يجعل الناس يتحدثون ويعبّروا بحرية أكثر قياسًا على ما يستطيعون فعله في مواضع أخرى. وصحيح أن أشكال الاتصال الجديدة أحدثت ثورة هامة في الطريقة التي يتواصل فيها الناس، غير أن هناك مطالبة ونزعة إلى اللقاءات المباشرة تُعرف بالنزعة إلى التقارب، أي حاجة الأفراد إلى التلاقي والتشديد على أهمية الحضور الإنساني المباشر في التواصل، كي يتمتّن جسر الثقة والمودة بين الناس وتتعزز الوشائج الحميمة بعدما افتقدت الدفء وحرارة المشاعر ونبض العواطف الحارة بفعل التواصل الافتراضي.

المصطلح الثاني
التنشئة والنشأة

عندما يقال بأن الإنسان ابن بيئته وصدى مجتمعه ووليد الظروف، ماذا يعني مثل هذا الكلام؟. أي دور لظروف البيئة والمناخ والطبيعة وحياة المجتمع في إيجاد تنشئة أونشأة؟. هل يمكن لأحداها أو مجتمعةً أن تُشكّل الإنسان ككائن اجتماعي؟.

* قرر بعض الباحثين وأخصّهم الطبيعيين (NATURALIST) بأن الطبيعة هي ما تجعل الإنسان إنسان (دارون)، وأظهروا كيف يمكن للبيولوجيا أن تؤثر في تصرفات الإنسان اجتماعيًا، فدور المرأة ودور الرجل في الحياة هي ليست متعلّمة وإنما متجذرة في الجينات البيولوجية، معتبرين أن ما يدفعهما لممارسة الأدوار إنما هو التكوين البيولوجي وليس السياق الاجتماعي وذلك ضمن ما يعرف بغريزة الحفاظ على البقاء، وبيّنوا - في إطار دراسات سُمّيت فيما بعد socio-biology - أن الطبيعة الإنسانية تتأثر بتركيبات بيولوجية تدفع الإنسان إلى المشاركة والتجمّع في مجموعات ذات خصائص تنسجم ومزاجه ورغباته أو طبيعة حياته (وهذا ما يفسر لنا تكوّن الشلل) من هنا يُقال بأن الإنسان حيوان من حيث التكوين البيولوجي ثم يُضاف كلمة اجتماعي من حيث أن البيولوجيا تدفعه للاجتماع.

* باحثون آخرون وهم من يُعرفون بذوي المنهج التفكير الحتمي (determinism) قرروا بأن الإنسان ابن بيئته يخضع للظروف المناخية التي أعطوها أهمية مطلقة في تأثيرها على سلوك الإنسان ونمط معيشته وأنواع تنظيماته الاجتماعية، وأن الإنسان برأي الحتميّين هو سلبي يعيش في بيئة ذات تضاريس ومظاهر طبيعية خاصة ومناخ معين وغطاء نباتي وعالم حيواني مميز

عن غيره، كلّ هذه العوامل برأيهم تؤثر في الإنسان تأثيرًا كبيرًا وعليه أن يتكيّف مع هذه البيئة ويعيش على ما تقدمه وأن تكون حياته الاجتماعية انعكاسًا لهذا التكيّف. ومن الأمثلة التي يوردها رواد هذا المنهج:

☆ **إن سكان الأقاليم الحارة يتميزون بالخفة والطيش بسبب المناخ الرطب الذي يبعث على الكسل، أما سكان الأقاليم المعتدلة فهم أحسن حالًا في أجسادهم وأخلاقهم، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأخلاقهم أبعد عن الانحراف (ابن خلدون / المقدمة).**

☆ **إن سكان المناطق الجنوبية الحارة لهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل ولكن من طبائعهم الأخذ بالثأر والمكر، بينما يمتاز أهل المناطق الشمالية الباردة بالقسوة والمخاطرة ويتصفون دون غيرهم بالقدرة على القيادة، أما أهل المناطق المعتدلة فهم أكثر فطنة من أهل الشمال وأكثر نشاطًا من أهل الجنوب (بودان / الكتب الست لدولة خيرة).**

☆ **إن الإنسان هو نتاج سطح الأرض وهذا لا يعني أنه من الأرض بل إن الأرض هي التي ربّته، أطعمته ووجّهت أفكاره وصقلت قدراته، ففي الجبال أعطته ساقًا ذات عضلات قوية ليتسلق المنحدرات وطباعًا قاسية كالطبيعة، وعلى السواحل منحته صدرًا واسعًا وذراعًا قوية يضرب بها المجذاف (ألين سمبل/تأثير البيئة الجغرافية).**

وبعضهم اعتبر بأن الإنسان كائن اجتماعي يصنعه المجتمع؟ إذ لو سلمنا فرضًا بأنه يتكوّن من تلقائية ذاته وفق نمو طبيعي قوامه الغذاء والماء والهواء في عالم بعيد عن أية حياة بشرية ـ مدنيّة كيف له أن يكون؟ الإجابة على هذا التصور اختصره في باريس الدكتور (أيتر) الذي أشرف على تربية الولد المتوحش «laveyron» الذي وُجد في الغابة، وبعد أربع سنوات يئس من إيصاله إلى مرتبة الإنسان المتمدّن نتيجة تقدمه البطيء في جعله اجتماعيًا إلى أن قال: «إن الإنسان إذا ما حُرم من بيئة اجتماعية فهو دون الحيوان».

هذا الاستنتاج يدل على ما للواقع الاجتماعي من دور في النمو يضاهي

النمو الطبيعي وهذا ما نعنيه بتعبير التنشئة الاجتماعية حيث يطلق هذا المصطلح على العملية الذي يتعلم بها الأطفال أو الأعضاء المستجدّون في المجتمع أساليب الحياة، هي الوسيط الأول الذي يجري فيها نقل الثقافة ومعايير المجتمع إلى الأجيال، كما أنها سلسلة المعارف التي تتواصل عبر الأجيال من الأجداد إلى الآباء فالأحفاد في عملية تتشكل منذ بدايات العمر وحتى آخره.. إنها وباختصار الأدوار التي تقوم بها الأسرة والصحبة والمدرسة ومكان العمل ومؤسسات أخرى عبر ما يُعرف بحلقات التنشئة التي منها:

1) الأسرة:

هي الوحدة الاجتماعية الأولى التي اهتدى إليها الإنسان الأول كي تستمر حياته على نحو جماعي، فحياة الجماعة تستمر عندما يلتقي زوج وزوجة لتأسيس حياة أسرية خاصة يتولى خلالها الأبوين إنجاب الأطفال وتدريبهم وتعليمهم عن طريق التقليد والتلقين، وهكذا تبدأ مسيرة الحياة بالنسبة للفرد بعد الولادة بوقت قصير عندما يأخذ الأطفال يتحسّسون المحيط الذي يعيشون، ومعها يبدأ الأهل في تأمين حوائجهم كي يبقى أطفالهم في مأمن وسلامة ويحرصون على تغذيتهم ونومهم ولعبهم كي يكونوا في أتم صحة وعافية ولكن هل هذا يكفي لتنشئة الأطفال تنشئة سليمة؟.

من المتابعات الميدانية لوحظ أن هناك اختلافًا جوهريًا في طبيعة التنشئة بين الثقافات فيما يتعلق بمسألة التربية وأساليبها، ففي المجتمعات الغربية هناك تنشئة لمبادئ التربية على الاستقلالية تبدو واضحة عند الغربيين مما هي عند الآسيويين الذين يتسمون بالاتكالية والعجز والتهرب، يلقى أطفال الغرب تشجيعًا دائمًا وأساليب صريحة على الأداء المستقل، ويطلب الآباء والأمهات دائمًا من أطفالهم أن يحددوا اختياراتهم بأنفسهم كما في قولهم لهم مثلًا: «هل تحب أن تنام الآن أم تفضّل تناول شيء من الطعام قبل النوم أولًا؟» بينما الأب الآسيوي يتخذ القرار بالنيابة عن ابنه مفترضًا أنه يعرف أكثر منه ما هو خير له[1].

(1) في اليابان يبدأ الأهل ـ على سبيل المثال ـ تعليم الأولاد منذ سن السادسة أساليب الحياة=

تشدد التنشئة الأولية في الأسرة على طرق التربية لأنها تمثل دورًا حاسمًا في تعيين نوعية الشخصية وإلى فهم السلوك الاجتماعي ودوافعه في المجتمع، ويرى علماء النفس الاجتماعي بأن طرق التعامل في الأسرة لها أثر بيّن على شخصية أفرادها داخل المنزل وخارجه وربما طوال حياتهم وفي مختلف شؤون أعمالهم، فعلى سبيل المثال إذا نظرنا إلى علاقة الأب بابنته فإنها تُوصف وفق السياق الذي تتخذه:

☆ إذا منح الأب ابنته الاهتمام وفتح معها جسرًا من الحوار الصريح، من شأن ذلك أن يجعلها ذات ثقة بذاتها وصاحبة اتخاذ قرار، وعلى العكس من ذلك إذا كانت علاقة الأب بابنته متوترة فإن علاقتها بزوجها قد تتوتر في المستقبل.

☆ وعندما يدلّل أب ابنته بشكل مبالغ فيه، فإنها تعتقد أن هذا هو النمط المناسب في التعامل معها والذي يجب أن يكون عليه الآخرون عند التعامل معها.

☆ وهناك أب ينأى بنفسه عن ابنته معتقدًا أنه يتبع أسلوب تربوي سليم، إلا أن مثل هذا الابتعاد من الأب يُشعر الابنة بأنها غير ذي قيمة لديه فتتعزز لديها فكرة أنها غير مرغوبة من الآخر، خاصة الشباب الذين قد يتقدمون إليها للزواج.

☆ أما الأب الذي تتعدد علاقاته النسائية وتعلم عنها ابنته فهو يمثل بالنسبة لها كارثة نفسية لأن ذلك يجعلها تشكك في كل من حولها ولا تقوى على إقامة علاقة متوازنة مع أي شخص يتقدم للزواج منها.

= مع خروجهم إلى مجتمع المدرسة لناحية كيف يمكن أن يقطعوا الطريق/ يوقفون الباص/ يفاوضون في شراء الأشياء/ يحفظون قواعد السلامة العامة/ يحرصون على عدم التكلم مع الغرباء/ ينصحون باستعمال الدرج بدلًا من المصعد/ إلخ. . . . وبعد سن السادسة ينبغي للأطفال أن يصبحوا مستقلين تمامًا عن ذويهم. . (لدرجة إن أنت أوصلت طفلك إلى المدرسة بعد الشهر الأول من بداية العام الدراسي يبدو ذلك غريبًا بل مضحكًا في عيون الآخرين. .).

☆ **وفي حالة البنت التي تتربى بعيدًا عن الأسرة وتحديدًا الأب فإنها تحاول أن تقوي نفسها بنفسها وتبني شخصيتها بطرق مختلفة لتعوّض ذاتها عن الأمان ـ الدعم ـ الذي حُرمت منه.**

لأجل ذلك تتلخص مهمات الأسرة في التنشئة بمهام عدة أبرزها:

1 . تأمين الاستقرار النفسي، أي تهيأهم كي يأخذوا دورهم في الحياة ولا تقتصر مهمة الأسرة على تنشئة الأولاد وهم صغار، وإنما تحرص على متابعتهم في مراحل العمر اللاحقة، في بعض المجتمعات الغربية يستقل الأولاد عن ذويهم في عمر معين، ليُكملوا حياتهم بدونهم إلا أنه في المجتمعات التي تشدد على الروابط الأسرية يبقى الأولاد على التصاق بأسرهم، ولو اغتربوا عنها فثمة مكانة لها في وجدانهم وذاكرتهم، حيث في المجتمعات العربية والإسلامية مثلًا تبقى ملاذهم الآمن، ومرجعية قرارتهم والمرتع الأساس في المناسبات.

2 . إيجاد التكيف المناسب، ذلك أن عدم التكيف داخل الأسرة قد يكون سببًا لعدم التكيف خارجها، فقد تبين أن 70% إلى 90 % من الأحداث المنحرفين قد جاؤوا من بيوت مضطربة، وفي الآونة الأخيرة لوحظ في بعض الدول العربية ظاهرة هروب الفتيات من منازلهن، وعن سر تكرار مثل هذه الحالات ودوافع ترك الفتيات لأسرهن يعود برأي الباحثين إلى غياب الحوار وكثرة الرفض من الأهل لمتطلبات الفتاة وكثرة الجدال يؤدي إلى الإحساس بعدم إشباع حاجتها النفسية من الحب والتقدير فتزداد الفجوة بينها وبين عائلتها، وقد تصاب الفتاة بالاكتئاب وتصل في نهاية المطاف إلى فكرة الهروب. هذا فضلًا عن غياب دور الأمومة الحقة والخلل الكامن في أسلوب التربية والانفتاح غير المحسوب على العالم بمغرياته ومؤثراته وضعف الرقابة الأسرية وإهمال البنت من قبل الأب والأم، خاصة، إذا كانت يتيمة وتعيش مع زوجة الأب أو زوج الأم وهو ما يفقدها الإحساس بالرعاية والحب والدفء، بينما تبين أن البيئة المنزلية السليمة والمنسجمة تساهم برفع مستوى ذكاء أبنائها حتى نسبة 20%.

3 . **تلبية الحاجات الاجتماعية**، إلى جانب تلبية الحاجات البيولوجية تتولى الأسرة مهام التوجيه والتربية، كما تؤكد على أهمية تعزيز الاستقلالية، توكيد الذات، مهارات التعامل مع الآخر، تكريس قيم النجاح والطموح. . وأن يفعل الأطفال ليس فقط الأشياء الجيدة وإنما يتجنبوا الأشياء السيئة. وهذا ربما الدور المهم الذي يجب أن تقوم به الأسرة. لأن دور الآباء في التربية لا يقف عند حد الإنجاب وتأمين الغذاء والصحة لأولادهم، بقدر ما يجب أن يرافق ذلك إعداد نفسي وعاطفي وفكري يساعدهم على مواجهة مشقات الحياة، وكي تتجلى مسؤولياتهم عبر مراحل عمرهم المتعاقبة. و من بديهيات العمل التربوي من قبل الأهل تجاه الأطفال مراقبتهم دائمًا وأن تتاح لهم فرصة التعرف على ذواتهم، أن يدركوا ما يدور في داخلهم ويجيبوا على تساؤلاتهم المقلقة، وأن يوفروا لهم المناخ العائلي الملائم كي ينمو نموًا تربويًا صحيحًا، لا ريب في أن الأولاد يحتاجون إلى الشعور بتقدير البالغين لهم في أعمالهم الحياتية، لأن حسن تقدير الذات ليس فقط دليل شخصية معافية، وإنما حاجة اجتماعية مطلوبة، وقد بينت عدة دراسات ـ في هذا السياق ـ ما يتوجب على الأهل تجاه أولادهم تقديمه خلال مرحلتي الطفولة والمراهقة:

*** في مرحلة الطفولة:**

يجب الحرص على تنمية النواحي التالية:

1 . دفعهم نحو الانضمام إلى جماعة الصحبة وتشجيع العمل التعاوني.

2 . توجيه نحو تحمل المسؤولية.

3 . تشجيع على الاستقلالية.

4 . الإلمام بالتنشئة الدينية الواعية.

5 . تقديم النماذج السلوكية القويمة الملائمة لفترات الأعمار.

*** في مرحلة المراهقة: على القائمين بعمليات التربية والإرشاد تنمية الجوانب الاجتماعية وفق ما يلي:**

1 . حرية المراهق في اختيار أصدقائه مع توجيهه إلى الاختيار الأنسب.

2 . احترام ميل المراهق ورغبته في التحرر والاستقلال.

3 . تنمية القيم الدينية والأخلاقية والجمالية.

4 .تشجيع المبل نحو القيادة وتدريبه على تحمل المسؤولية.

5 . تنمية الفردية واحترام الخصوصية بما يسمح للمراهق بتأكيد ذاته.

6 . تعزيز التقدير والاعتراف الاجتماعي.

يمكن النظر إلى الأسرة لناحية تأثيرها في التنشئة بوصفها نظامًا متكاملًا له دوره في جوانب متعددة: الجانب الانفعالي (ويتمثل في جملة خصائص نفسية كالجرأة والثقة بالنفس والنزعة إلى الاستقلالية، أو الخضوع والاستسلام أو المبادرة والانطلاق) والجانب المعرفي (ويتمثل في رفع مستوى معارف أبنائها بالتحصيل الدراسي وتأمين الأجواء المعرفية من مكتبات ووسائل) والجانب الاجتماعي (الذي يبدو في تمثل المعايير السلوكية الخاصة بحياة الجماعة وعلى الإعداد والتهيئة للتكيف مع منظومة العلاقات الاجتماعية القائمة).

2) المدرسة:

مع بداية القرن الماضي كانت تعرف المدرسة على أنها «مهمة مطلوبة» كي تكمل دور الأسرة في بعض المهام والأوقات عبر شخص مكلف، إلا أنه لاحقًا اختلفت مثل هذه النظرة لتصبح المدرسة مؤسسة رسمية قررتها الحكومات مع زيادة أعداد الطلاب وأصبح من الضروري إعداد منهاج معرفي وتنويع الأنشطة التربوية كي يأتي متكاملًا في التأهيل، وتصبح بحق كحلقة تنشئة في المجتمع، بعد ذلك بزمن أي في العصر الحالي غدت المدرسة بمثابة «مؤسسة قائمة بذاتها» شبيهةً بالمصانع والمستشفيات وسائر المؤسسات الخدماتية في المجتمع، معظم الناس يعتقدون أن المدرسة الجيدة تكمن في المبنى الجميل من الحجر الأبيض أو الأحمر(الآجر) والساحات الفسيحة، والأساتذة ينبغي أن يكونوا عباقرة والإدارة يجب أن تكون صارمة، لكن الواقع

هو أنه مع تزايد عدد الطلاب وتغيّر الواقع الدراسي دخل مفهوم التعليم سوق المنافسة على الخدمة التربوية الأمثل وفق متطلبات العصر فلم تعد المدرسة مجرد «مبنى» بل توسعت في هيكليتها لتصبح إدارة ومنهاج وسياسة وتوجه واستثمار مالي، تتنافس في استقطاب النخبة من التلامذة، وفي أن يكون بعضها مكانٌ لأبناء الطبقات الراقية وذوي الدخل المرتفع وهذا ما يُعرف بظاهرة المدارس النخبوية المختلفة تعليمًا وتدريبًا عن المدارس الرسمية (الحكومية).

وقد لاحظ أكثر من باحث بأن المدرسة الحديثة تتميز بسمات أبرزها:

1 . **تقاسم في العمل**، أي هناك طلاب موزعون حسب المستويات المعرفية ولكل مستوى منهاجه العلمي المقرر ولكل منهاج أساتذة مختصون بحسب ساعات عمل.

2 . **هيكلية إدارية**، كل شخص في المدرسة منضو في تراتبية إدارية قائمة على قاعدة هرمية، أي هناك عمل مسؤول من كل معلم أو موظف تجاه الأعلى منه رتبة، الأساتذة تجاه منسق القسم، ومنسق القسم تجاه مدير المرحلة، ومدراء المراحل ورؤساء الأقسام والمدراء الإداريين تجاه المدير العام وهكذا.

3 . **احترام الأنظمة**، جميع العاملين في المدرسة بما فيهم المدراء، محكومون بقواعد وأنظمة وقوانين مرعية الإجراء، هناك بيوقراطية متبعة ضمن نظام عمل المدارس.

4 . **انحسار الشخصنة**، لم تعد العلاقة بين المعلم وتلميذه علاقة شخصية كما في المدرسة الأولى، لأن مع تكاثر الطلاب وتوسع انتشارها خارج الحي أو القرية إلى مناطق أخرى أصبح من الصعب على المعلم الاهتمام بتلاميذ محدّدين بل يتوجه إلى الجميع على أنهم سواء، وإذا ما أعطى معلم مجموعة من تلامذته شيئًا من الاهتمام فذلك ليس لأنه هو يريد ذلك بل لأن هناك مجموعة من التلاميذ والطلاب هي من فرضت تميزها فاستدعت

تنبيه المعلم لها.

5 . كادر وظيفي، إلى جانب الكادر التعليمي المتخصص كذلك هناك كادر وظيفي متخصص أيضًا من الإداري في مجال التربية أو الإدارة، إلى المحاسب المالي، إلى سائق الباص، إلى المنشط الرياضي ومدربة المسرح والفنون إلى غيرهم من المتخصصين الذين يتم التعاقد معهم على أساس مهني وبناءً على خبرات ونتائج عمل متوقعةً منهم.

أما عن دور المدرسة في التنشئة فإنه يختصر بالدور الذي تلعبه في حياة الطلاب، ذلك أن المدرسة مؤسسة أوجدها المجتمع لإنجاز عمل خاص وهو الحفاظ على الحياة وتحسينها، ويمكن توضيح هذا «العمل الخاص» بالوظائف التالية:

☆ اعتبارها وكالة اجتماعية ثانية (بعد الأسرة) المكلفة بإعداد الأجيال معرفيًا وسلوكيًا وبدنيًا وأخلاقيًا ومهنيًا من خلال برامج التربية، لقول إميل دوركايم عن الوظيفة الثقافية للتربية المدرسية: «الإنسان الذي يجب على التربية أن تحققه فينا ليس الإنسان على غرار ما خلّفته الطبيعة بل الإنسان على نحو ما يُريده المجتمع».

☆ اعتبارها معهدًا علميًا رائدًا للإعداد المعرفي، واليد الماهرة والعقل المبدع، فقد تبين من بعض الدراسات أن إنتاجية العامل الأميّ ترتفع بنسبة 30% بعد عام واحد من الدراسة الابتدائية، ونحو 320% بعد دراسة 13 سنة تعليم متتابع، لتصل إلى 600% بعد الدراسة الجامعية.

☆ اعتبارها مكانًا هامًا لزرع المبادئ والمفاهيم والقيم، لأن المدرسة اليوم لم تعد مقتصرة على تأمين العلم والمعرفة بقدر ما أصبح لها أكثر من غاية فكرية قائمة، تنمية الذات والدور الاجتماعي المنوط لأبنائها مستقبلًا، وهذا ما يبينه المربي الفرنسي A.LAIN (1868/1951) الذي يقول: إذا كان فن التعليم لا يستهدف إلا تنوير العباقرة هذا مدعاة للسخرية، فهولاء الذين يتعثرون هم بحاجة للمساعدة، لهذا ندعو إلى الاهتمام

بالبليد قبل الذكي وعدم إهمال الضعيف واحتقاره، وعبارة «هذا الطفل ليس ذكيًا» يجب أن تسقط من حساب وأقوال المدرسين وعلينا ـ كمربين ـ أن نستهلك ما لدينا من مهارة وعطاء لإحياء تبلده الذهني».

إن مهمة المدرسة تقوم على إمداد مرتاديها بالمهارات المعرفية لمراحل العمر اللاحقة وللحياة الأكاديمية التالية (الجامعة) وللحياة الاجتماعية المرتقبة. وعلى الرغم من أهمية الدور الذي تضطلع به وبأنها واحدة في التوجه والحياة وعلى أنها متجانسة لجهة التلامذة التي يرتادونها، إلا أن الدراسات بينت عكس هذه الصورة، فحياة الطلاب ليست واحدة داخل المدرسة فهم متنوعون عرقيًا، ومختلفون طبقيًا ودينيًا ومتمايزون بدنيًا وفكريًا، وفق ما أظهرته دراسة الباحث الأمريكي AUGUST HOLLINGSHED الذي وجد في إحدى الثانويات الأمريكية ما يقارب 259 عصبة تلامذة، كل عصبة تتكون في معدلها الوسطي من خمسة تلامذة يجمعهم إما مهارة رياضية أو لأنهم من انتماء ديني واحد أو لأنهم يمتازون بنشاط اجتماعي/ثقافي/فني يرغبون القيام به وبالسياق ذاته وجدت الباحثة الأمريكية (HELLEN LEFKOWITZ) أنه في عالم الجامعة مجموعات فرعية student subculture وهي:

1 . **الجامعيون** (the collegiate) قلما يكون هؤلاء أكثر التزامًا بواجباتهم الأكاديمية، وإنما يتجهون نحو ما تحققه لهم الجامعة من أجواء ممتعة، يركزون اهتمامهم أكثر على المرح واللقاءات الاجتماعية.

2 . **الأكاديميون** (the academic) وهم الذين يظهرون اهتمامًا أكثر بمقرراتهم ويتابعون متطلبات الدراسة من أبحاث واختبارات ونشاطات وحضور ندوات ومؤتمرات وأعمال بحث ميدانية، كل ذلك بهدف إغناء البعد المعرفي المتعلق باختصاصهم.

3 . **المهنيون** (the vocational) والذين همهم الأول الحصول على إجازة كيفما اتفق، لا يعنيهم الاجتهاد بهدف الحصول على علامات عالية لنيل تقدير بل ما يكفيهم وما يعنيهم في نهاية الأمر الحصول على الشهادة كوسيلة

العمل والوظيفة.

4 . اللامبالين (the nonconformist) يأتي هؤلاء إلى الجامعة ليس لأنها قاعة تعليم، بل لأنها مكان التقاء الأصحاب أو لأنها ملتقى شبابي يمكن من خلاله تنظيم نشاطات مختلفة وبعيدة كل البعد عن المناخ الأكاديمي، مثل نشاطات حزبية، احتفالات لمناسبة دينية، حفلات غناء، وغالبًا ما تنجح هذه المجموعة بإظهار قادة الفكر وجماعة التغيير وإشاعة أفكار التحرر والتمرد والاحتجاجات ضد سياسات أو قوانين جائرة[1].

يمكن النظر إلى المدرسة/ الجامعة على أنها مجتمع مصغر له ثقافته ومناخه الخاص، يتحدد مركبه من ثقافات فرعية ملموسة تؤثر في سلوك عمل أفرادها، ويقوم هذا المجتمع ـ بحسب تحليلات سوسيولوجية ـ على أربعة مبادئ أساسية هي:

1 . الأدوار التي تتمثل في النشاطات التي يقوم بها القيمون عليها والفاعلون بها.

2 . منظومة المعايير التي تسود المدرسة كمؤسسة (النظام / السياسة/ التوجهات . .).

3 . الجماعات أي جماعة الصف/ مجلس الأولياء/ أندية الطلبة، المدربون المتعاقدون . .

4 . منظومة العلاقة مع المحيط الخارجي، البيئة المحلية، المجتمع.

ولكن أين المدرسة من دورها الناشط في التنشئة الاجتماعية؟ هل لا زالت تلعبه بالشكل المفترض من تربية وطنية وقيم أخلاقية وبناء شخصية ناجحة؟ بنظر بعض الباحثين أصبحت المدرسة صورة المجتمع الذي تنمو في كنفه، حيث أصبح هناك مدارس نخبة/ مدارس للعامة/ ومدارس ذات توجه

(1) Sociology 11th edition, richard schaefer, Macgraw - hill international edition new york, 2008.

ديني خاص/ ومدارس تتولى تعليم وتدريس اتجاهات القائمين عليها ومدارس لا تعدو كونها صفوفًا لتلقين التلاميذ ما في بطون الكتب دونما تفاعل مع المواد التعليمية.. حتى أفرز مثل هذا الواقع **لامساواة تعليمية وتمييز تربوي** يكاد يؤثر على ظروف الطلاب بعد تحصيلهم الجامعي ودخولهم ميدان العمل وما يمكن أن يكونوا عليه مستقبلًا؟ لاحظ مثلًا ما يحدث في لبنان عندما يتقدم الشباب نحو وظيفة معينة، فيجد في طلبات التوظيف أسئلة تتعلق بضرورة تسمية المدارس الأولى التي ارتادها، الثانوية التي التحق بها، والجامعة التي تخرّج منها، إنهم يقيّمونه بناءً على مراحل تعليمه الأولى، أين تمّ تحصيلها أفي مدارس رائدة أم مدارس مغمورة؟ لا لشيء إلا لأن اللبنانيون مأخوذون بظاهرة البرستيج التعليمي، فمن يتخرّج من أرقى الجامعات حتمًا سيجد العمل الأفضل برأيهم! وهذا ما جعل المدرسة المعاصرة تعاني أزمة تربوية واجتماعية بالغة الحدة، وهي أزمة تنعكس في إشكالية الوظائف والأدوار التي تقوم بها في إطار الحياة الاجتماعية وفي إشكالية علاقة المدرسة بالمجتمع والمؤسسات الاجتماعية الأخرى لجهة: ديموقراطية التعليم/ صيرورة التغييرات الاجتماعية الحاصلة وطبيعة المنهج الدراسي المواكب لمتطلبات العصر. .من هنا شدد علماء الاجتماع على أهمية دور المدرسة في إيلاء التنشئة حقها لجهة القيام بالوظائف المطلوبة فهي وكما يراها جون ديوي: «مؤسسة اجتماعية تعمل على تبسيط الحياة الاجتماعية واختزالها في صورة أولية بسيطة».

3. الصحبة:

كما الأطفال ينمون في كنف أسرة فإنهم في مرحلة عمرية لاحقة يجدون أنفسهم منسجمين في جماعات أخرى خارج الأسرة، تبدو بالنسبة لهم ذات أهمية ونعني بذلك الصحبة، فالصحبة وبحسب التعريفات المتداولة هي أكثر من شخصين يتميزون في مجموعة من الأذواق والأهواء والتوجهات، كما توجد بينهم علاقات محددة ومعروفة بالنسبة لبعضهم البعض حيث هناك: **ميول واهتمامات مشتركة، تأثير متبادل و غايات نفسية واجتماعية متقاربة**، وهذا ما

حدده كل من (جان بياجيه ومارغريت ميد) في أن العلاقة لدى هذه الجماعة تكون أكثر ديموقراطية مما هي بين الأهل والأبناء، لأن كلمة (peer group) وهي التعبير المرادف للصحبة تعني بالإنكليزية EQUAL، وهكذا تغدو لصحبة المجموعات المتقاربة عمرًا والمتساوية في الميول. وليست الصحبة في أن يتخذ الأولاد رفاقًا من عمرهم فحسب، بل هي بالنسبة لهم مرحلة قضاء الأوقات المرحة معًا وتقاسم الأدوار فيما يتشاركون فيه وتبادل للآراء والأفكار حول مواضيع يرغبون القيام بها، وتشير بحوث كثيرة إلى أن من لهم عدد أكبر من القرناء أو ممن يقضون وقتًا أطول مع أصدقائهم يميلون إلى أن يكونوا أكثر سعادة، فالصداقة تصل أقصى درجات أهميتها عند الشباب بدءًا من المراهقة وحتى الزواج، ولعل أهم ما يوفره الأصحاب لبعضهم البعض هو التحسن الفوري للحالة للمعنوية ويكون ذلك إما بتوفير جو من المرح كما في مرحلة الناشئة أو بنوع من الإشباع الاجتماعي الهادئ بالنسبة للكبار، لهذا عندما نتساءل عن السبب الذي يجعل الناس يحتاجون إلى أصدقاء وما هو الدور الذي تقوم به الصحبة نجد أن هناك أكثر من سبب:

✓ للمساعدة العملية ولمعلومات أكثر مما يوفره أفراد الأسرة.

✓ دعم اجتماعي في صورة نصائح أو تعاطف كون الأصدقاء محلًا للثقة.

✓ تماثل الاهتمامات والمشاركة في الأنشطة وممارسة الألعاب معًا.

يحث علماء الاجتماع والنفس والتربية على أهمية الروح الاجتماعية وعلى توفر الصحبة وإنشاء الصداقات، لأن الذاتية لا تتحقق إلا في جو اجتماعي ولا تنمو إلا إذا تمكنت من معرفة كيف تلائم نفسها مع الآخرين، فالإنسان يتحرك ضمن مراحل صداقاته ليس كفرد وإنما كعضو في جماعة، لهذا يرى السوسيولوجيون تأثيرالصحبة على مختلف مراحل حياة الإنسان، خاصة في الأوساط التي تقل فيها ظواهر الحراك الاجتماعي، حين يشكل وأقرانه «عصبة» قد تستمر ليس فقط خلال الدراسة وإنما حتى آخر العمر.

*** نموذج للصحبة:**

ثمة شباب يعملون في مهنة توصيل الخدمات للزبائن، يصطلح على تسميتهم بـ delivery boys، الذين يشكلون معًا جماعة «تحت الطلب» خارج مطعم الوجبات السريعة بانتظار مهمة، مفهوم هذه الجماعة وطبيعة المهام التي يقومون بها وما يترتب عليها من متاعب كانت محور دراسة ميدانية قام بها سوسيولوجيان أمريكيان هما (باتريك كنكايدي وميشال كاتوتش)، لحوالي 18 شهرًا في إحدى المقاطعات الأمريكية، ليجدا أن هؤلاء العاملين أصبحوا مع الوقت بمثابة «صحبة» لا يتلاقون في نفس العمل وحسب وإنما في المقاهي والحانات خارج أوقات العمل، ومن خلال المتابعات الميدانية وجد هذان الباحثان أن ثمة هموم مشتركة يتحادث بها هؤلاء عند التقائهم، ويروون الطرائف والمخاطر التي ترافق مهماتهم من: سرقة/ اعتداء/ رفض الطلبية/ مهاجمة الكلاب لهم وحوادث الاصطدام.. مقابل الريع الزهيد الذي يتلقونه، وقد صنّف الباحثان عاملو التوصيل بخمس فئات:

1 . **الظرفاء** (the comedian) هؤلاء يستخدمون حسهم الظريف ليقللوا من صعوبات المهمات التي يقومون بها.

2 . **المغامرون** (the adventure) وهؤلاء يستمتعون بحب المغامرة خلال مهامهم عبر مواجهة المواقف الخطرة ولا يسألون عن المشاكل التي تنتظرهم.

3 . **الناكرون** (the denier) وهم أولئك الذين يحاولون أن ينفوا عن المهنة مخاطرها، فهي بالنسبة لهم أشبه بأي مهنة أخرى لها ما لها وعليها ما عليها من تبعات صعبة أو سهلة.

4 . **المشؤومون** (the fatalist) وهؤلاء الذين يروا في هذه المهنة مخاطر جمة وغير مرتقبة ولكنهم تكيّفوا معها دون أن يبذلوا أي جهد ليخففوا من حدة تلك المخاطر.

5 . **المحترفون** (the professional) وهم الذين لديهم خبرة وتاريخ في مجال التوصيل حتى أصبحوا روادًا في مجالهم وذي حرفة في عملهم والعارفين

بأسرار المهنة، لهذا يرتقوا إلى رتبة مشرف على التوزيع أو مساعد مدير.

4 . عالم الإعلام؟

يكاد يجمع خبراء اليوم بمختلف اهتماماتهم الاجتماعية على اعتبار الوسائل الإعلامية كافة في مدى فعاليتها بالتأثير وصياغة الرأي العام وهندسة السلوك الإنساني، وذهب بعضهم إلى ما تُحدثه هذه الوسائل من ثورة في أمزجة البشر وعاداتهم وثقافاتهم، فالتلفزيون مثلًا أطلق عليه الباحثون الأمريكيون لقب «الأب الروحي للأطفال» ويعنون بذلك أن الأطفال يتلقون تربيتهم على أيدي ثالوث تربوي يتمثل في الأب والأم والتلفزيون. .

هذا يعني أن التلفزيون وغيره من الوسائل الإلكترونية ليست أجهزة مركونة في زوايا المنزل بقدر ما هي نظام فكري وثقافي يمارس وظائف محددة ودور تنشئة بالغ الأهمية في تشكيل المفاهيم والتصورات، ويمكن إيجاز ذلك بالمهمات التالية:

1 . **التوجيه والدعاية**، أي تساهم في تكوين المواقف والاتجاهات **(تدعم / تعدل / تلغي)** إما عن طريق التأكيد (تكرارات صريحة ومضمرة لإيصال رسالة معينة) وإما عن طريق الإرشاد والتوجيه (تقديم أمثلة/ عرض نماذج. .).

2 . **التثقيف**، أي زيادة المعرفة عن غير الأسلوب الأكاديمي المتبع سواء عبر التثقيف العارض (كأن يكتسب الشخص معلومة بطريق الصدفة من وسيلة إعلامية) أو عبر التثقيف المقصود **(حصيلة تفاعل الفرد مع وسيلة إعلامية يتابعها باهتمام بناء على توجه أو غاية معينة).**

3 . **التعارف الاجتماعي**، أي تزيد من فرص احتكاك الناس لبعضهم بعضًا، تصبح نوعًا من التواصل الاجتماعي بعدما خف تواصل الناس الشخصي والمباشر **(وهذا سر انتشار صفحة الاجتماعيات في المجلات وصفحة الوفيات في الصحف).**

4 .الإعلان، أي بزيادة وعي الناس للسلع الجديدة ونوعيتها وأهميتها واستخداماتها والعروض المقدمة بشأنها.

5. الترفيه والتسلية، وهو الدور الذي يرغبه أكثر الناس في الوسائل الإعلامية لجهة البرامج ومتابعة الألعاب والاستمتاع بخدماتها المتنوعة.

مثل هذه الوظائف تبين مدى أهمية وسائل الإعلام في تشكيل الوعي، وتؤكد بعض الحقائق المتعلقة بدورها إلى جانب العائلة والمدرسة في عمليات التنشئة، ويشير عالم النفس (هيمان) إلى أن هذه الوسائل تتدخل بشكل مباشر في عمليات التنشئة حتى أصبحت بمثابة «تنشئة اجتماعية ثانوية» حيث أن مسؤولية التنشئة الاجتماعية تقع أغلب الأحيان على عاتق أشخاص يتميزون بالخصوصية كالآباء والمعلمين والمربين، أو على عاتق مؤسسات اجتماعية منظمة كالمدرسة والنوادي والمؤسسات الدينية، وعلى خلاف ذلك فإن هناك عمليات تنشئة قد تتم بمحض الصدفة الخالصة وذلك حينما يكون أحدهم في حالة اتصال دائم مع أنماط سلوكية أو معايير أو أشخاص أو أجهزة إعلامية.

إن تكنولوجيا الإعلام دخلت عالم الناس بكثافة وأدخلتهم عالمًا معرفيًا واجتماعيًا جديدًا قوامه ثقافة الضغط على الأزرار، انعكست مؤثراتها على حياة الناس اليومية وأساليب الحياة لديهم، حيث لم يعد باستطاعتهم العيش بدونها، أوجدت لديهم ما يسمى بالإعلام المتفاعل (MULTITASTING) الذي يعني بأن حياتنا أصبحت منتظمة وفق آليات يمكن معها أن نستخدم أكثر من آلة في نفس الوقت بهدف المعرفة أو التسلية أو بهدف ترتيب شؤونك وأعمالك. (ظاهرة البلاك بري (Black Berry).

وبالحديث عن التنشئة ودور الإعلام يبين السوسيولوجي (دن تابسكوت) في كتابه «النمو مع الديجتيل...جيل الإنترنت»[1] التغيير الذي حدث نتيجة انتشار وسائل جديدة في عالم الإعلام ، فقد لاحظ هذا الباحث أن هناك

(1) Growing up digital, The Rise of the net generation, Don tapscoit, U. S. A. 1998.

انقسام واضح بين من يسميهم N-Gen وهم الأطفال والناشئة وشباب القرن الواحد والعشرين، وبين الجيل الذي سبقه (جيل التلفزيون). الجيل الأول هو جيل الإنترنت بلا منازع، هؤلاء غيّروا نمط الحياة الذي يعيشون لما يواكبونه من تطور ولم يكن ليدرك آباؤهم عنه شيئًا. ويبدو أن كلتا الوسيلتين ـ التلفزيون والإنترنت ـ إلى جانب غيرها من الوسائل الإعلامية ليست مجرد أجهزة تقنية حديثة خالية من أي بعد أو تأثير، وإنما هي «مضامين» إعلامية ومعرفية جديدة تتوزع على مختلف شرائح المجتمع دونما حدود. لقد تملكت الشاشة وقت الناس وتسلياتهم ومعارفهم وحتى أوقات عملهم، أصبحت لحظات الإنسان المعاصر في أكثر ساعات يومه هي أمام شاشة: (تلفزيون/ إنترنت/ هاتف خليوي..) حتى تركت لديه حركة معرفية عما يدور من حوله. عن الحضارات الأخرى وتوقعات السوق وأسلوب حياة الآخرين لم تكن تشهدها على هذا الشكل المبسط قبل ذاك، لكن السؤال الأبرز الذي يطرحه علماء الاجتماع كيف يمكن لوسائل الإعلام أن تؤثر في تصرفاتنا وأسلوب حياتنا؟ بالإجابة سوف نذكر أكثرها انتشارا واستخدامًا اليوم بين الأجيال: التلفزيون والإنترنت.

من آثار الإعلام المتلفز:

في مقابل الخدمات الجُلى التي يقدمها الإعلام ثمة من ينظر إلى مساوئ هذه الخدمات على أكثر من صعيد، معتبرًا أن الإعلام في غالب وجوهه وأخصه المرئي أسُّ الاستلاب الذي يظهر في أنواع أبرزها:

1 ـ **الاستلاب الخيالي**: يحدث عندما تُعرض مضامين إعلامية يصل فيها تشويه الوعي إلى أعلى درجاته من تضخيم لحيز الخيال عند المشاهدين خاصة أولئك الذين يتصفون ببساطة تفكير، حال الأطفال إزاء الرسوم المتحركة المتنوعة في سلسلة برامجية هائلة أخطرها تلك التي تكون خارج إطار الواقع، يكون أبطالها آليّون يقودون مركبات فضائية حديدية لقهر الأعداء وتدمير الأرض، فأن يتحول الإنسان إلى آلة ساحقة بمعنى الكلمة يعني في بعض جوانبه تعزيز لمفهوم المادة ومبدأ القوة على حساب القيم

الإنسانية، هذا فضلًا عما تتضمّنه هذه الأفلام من صور للعنف والعدوانية وتغييب المبادئ السامية حتى يعتقد الطفل أن ما يحدث انعكاس لما هو في الواقع فينسلخ منذ طفولته عن واقع الحياة وإنسانيتها وينشأ على حب التسلط واحتقار الآخر لتصوره أن العالم قائم على صراعات تمامًا كالتي شاهدها في أفلامه المحببة.

2 ـ **الاستلاب الأخلاقي**: يواجه علماء النفس والاجتماع مشكلات يصطلح على تسميتها «بالسلوك غير الطبيعي» أو ما يسميه الناس في لغتهم اليومية بظاهرة الإجرام والعنف وحوادث الاغتصاب وتفشي المخدرات وطقوس تعبدية غير مألوفة، وبرأي هؤلاء العلماء أن مثل هذه السلوك يتأتى نتيجة افتقاد التوجه في حلقات التنشئة من الأسرة وصولًا إلى الإعلام ووسائله، التي أخذت ـ هذه الأخيرة ـ تختزل الإنسان في بُعده الاستهلاكي بتضخيم الجانب اللّذوي وتعزيز قيم السوق والانتهازية على قيم التعامل الإنساني الخلوق، عندما أخذت تثير فيه متع عديدة: متعة الأكل، متعة الجنس، متعة حب الظهور، متعة الأنوثية، متعة الرجولة، متعة العنف، متعة اللامبالاة، متعة التماهي بجميلات الشاشة وأبطالها ولو اقتضى الأمر آلاف الدولارات وشيئًا من الصحة.

3 ـ **الاستلاب الثقافي**: ويحدث نتيجة للتغير الثقافي الذي يشهده مجتمع ما جراء الاختراق الثقافي المناهض، حيث تمرر أنساق معرفية ورموز ثقافية شتى تؤثر في ثقافة المجتمع المحلي. ويبرز هذا الاستلاب أكثر حدةً وأشدّ تأثيرًا مع انهيار الحدود تحت مظلة العولمة والقرية الكونية والمجتمع الشامل، لدرجة باتت الخصوصية الثقافية هاجس إستراتيجي يحرص بعض قادة الدول على تكريسه كما يتضح من قول مسؤول فرنسي: «أننا لا نبغي سوى المحافظة على منتجاتنا الثقافية الخاصة بنا، لا نريد أن تكون هوية أولادنا مصنوعة في هوليوود».

إزاء هذا الخوف من التشكل والتكيف الجديد للواقع يبرز الحذر والرفض للجانب المظلم من الإعلام. وهكذا بمجرد أن نعرض هذه الوقائع

تبدى الأسئلة: كيف للوسيلة الإعلامية أن تتفاعل مع المعطيات الاجتماعية؟ ي تحول للسلطة تمارسه؟ وأي تربية اجتماعية تنشأ؟ أي تهديد للثقافة يحدث؟ ي معركة قيم نخوض؟ في ظل هذه الطروحات ليس من السهل الانتقال من سيئ الإعلام إلى جيده، ذلك أن كثير من مهندسي الإعلام يعملون بدعوة لجنرال ديغول لوزير إعلامه (ألان بيرفت) عندما قال له: ضع في اعتبارك أن الإعلام يهتم ب:

* **الإثارة** (حيث تفضل النكتة على عرض الحقيقة).
* **التشاؤم** (حيث الكارثة والمجزرة والجريمة تفضل على السلوك المستقيم).
* **الفردانية** (حيث المصالح الخاصة تتفاضل على العدد الأكبر من الناس).
* **المعارضة** (حيث كل ما هو ضد عمل السلطات يفضل على من سواه من الأنشطة).

* من مآثر الإنترنت.

في دراسة ميدانية[1] حول تأثير مقاهي الإنترنت على الناشئة (بعلبك/ لبنان 2006) حاول خلالها الباحثات القيام بدراسة حقلية للاطلاع عن كثب على المآثر التي يُحدثها الإنترنت في أوساط الشباب، وبعد أن تناولت الدراسة للإيجابيات لجهة ما يقوم به الإنترنت باعتباره:

✓ نافذة ومتنفس للذين يعيشون مجتمعات بطريركية مقيدة ومشددة.

✓ ينمي الهوية المشتركة للشباب بغض النظر عن العرق والبلد والطائفة والجنسية.

✓ أصبح بمثابة مرجع سريع ومنوع للمعارف والجامعات والمعاهد.

✓ فتح مجالًا للتسويق والتجارة عن بعد، ويتيح مجالات استهلاك خارج المجتمع المحلي.

(1) «تأثير مقاهي الإنترنت على الناشئة في منطقة بعلبك»، دراسة ميدانية أعدتها كل من الطالبات حوراء حمية، مي ناصر الدين، ناهية يزبك، لنيل شهادة الإجازة في الإشراف الصحي - الاجتماعي، كلية الصحة العامة، زحلة 2006.

✓ سهل فرص الحصول والبحث عن وظائف عمل في أي مكان من العالم.

✓ ساهم في عرض القضايا الإنسانية والمشكلات الاجتماعية وسبل الحلول المرتقبة لها.

✓ يقدم «استشارات» دينية عن الوعاظ والدعاة من خلال المواقع المتخصصة.

وبعد أن تبينت أوجه الإنترنت الإيجابية لجهة اعتباره وسيلة قيمة لناحية توفير بيانات، معلومات، معارف، سياحة، حقائق وحريات.. قررت الباحثات رصد السلبيات التي يحدثها الإنترنت في مجتمع محافظ فتبين لهن مدى التأثير لجهة:

1 . الإدمان على الإنترنت والانسلاخ عن الواقع

ويتجلى ذلك من خلال حالة الجلوس الدائم وتكثيف التواصل مع شاشة افتراضية، التي تعرض بدورها عوالم غير معروفة الأبعاد لهذا سُمّيت بالعلاقات الافتراضية، واعتبار الفضاء الذي تهيأه شبكة الإنترنت بالعالم الافتراضي، مثل هذا العالم الافتراضي أو الوهمي أدى إلى حالة انسلاخ للشباب عن الواقع الذي يعيشون، حتى أصبح أنيسهم في ظل الفراغ الوجودي على الصعيد النفسي والاجتماعي وكأنه نافذة هروب إلى عوالم جديدة لا يعهدها و يطمح إليها، وهذا ربما ما يبرر لنا حالة التعارف الكثيفة بين الفتيات والشباب في إقامة علاقات صحبة، فقد أشارت الدراسة إلى أن 23% يستخدمون الإنترنت بهدف محادثة الأصدقاء وللتعرف على آخرين، وأكد 61 % من أفراد العيّنة أن الحوار اليومي أدى إلى تعارف مباشر تجلى في المجالات التالية: صداقة 42 %، علاقة حب 31 % علاقة جنسية 9 %، تبادل ثقافي 6 %. هذا يعني أن الإنترنت أصبح بمثابة الغرفة الحميمية الخاصة التي تعزل الشاب عن المحيط، عن الآخرين، عن المشاركة الاجتماعية وللهروب نحو عالم جديد قوامه التسلية ليس إلا.

2 . الجنس على الإنترنت

من جملة ما يتضمّنه الإنترنت مواقع جنسية، وحيث حب الفضول لدى الشباب دائمًا هو استكشاف الممنوع والمحظور، باتت الفرصة هنا سهلة التناول

مع الإنترنت، حيث لا رقابة ومواقع متاحة بالمجان أو بالدفع لمن يرغب، وحيث كثافة مشاهد بشكل ثابت ومتحرك.. وأدت خطورة الموضوع بأن أصبح هناك ما يسمى بجنس الإنترنت (على شاكلة الجنس عبر الهاتف). حيث تتراوح المواضيع الجنسية عبره بين الصور العارية إلى أفلام جنس متنوعة يصل بعضها إلى حد الشذوذ، وكل ما من شأنه أن يضع الشباب في هوة الانحطاط الأخلاقي والقيمي أمام إغراء الشاشة للعروض الجاهزة تنفيسًا عن رغباتهم الجنسية المكبوتة بطرق غير سليمة. وقد بينت الدراسة بعدما سُئل أفراد العيّنة عن أكثر المواقع التي يزورونها بشكل دائم تبين أن هناك من نسبتهم 6 % يترددون بشكل دائم على المواقع الإباحية (سواء كانوا شبابًا أو إناثًا).

3. تحول العلاقة بين الأهل والأبناء

تبين الوقائع المسجلة عبر أكثر من دراسة متخصصة أو تقرير إعلامي أو منتدى حواري، مستوى التحول الذي أحدثه دخول الإنترنت على صعيد العلاقة بين أفراد الأسرة ليس لجهة الوقت الذي يستنزفه من جلوس الشباب إليه وانقطاعهم عن عالم أسرتهم لفترات طويلة، وإنما لجهة لعبه دورًا محوريًا كمرجعية لكثير من المشاكل النفسية والاجتماعية، فلقد أصبح رمز «WWW» الباب المعرفي والمرجع الأساس دون الأب والأم. . ولدى سؤال أفراد عينة الدراسة المذكورة: هل سبق وحصل بينك وبين أهلك شجارٌ بسبب استخدامك للإنترنت؟ ليجيب من نسبتهم 44% بنعم حدث، (توزعت النسبة بين 11% عند الفتيات و 33% عند الذكور في مقابل 56% قالوا لم يحدث، ولم تشر الدراسة إلى سبب الشجار).

ما هي أبرز انعكاسات استعمال الإنترنت إذن؟ رغم الجدل القائم حول الإنترنت وفيما يقوم به، لا زال السجال قائمًا حول الدور الذي يلعبه، ففي الوقت الذي تُظهر دراسات عديدة دوره الإيجابي باعتبار مستخدمو الإنترنت أكثر اجتماعية عن غيرهم من الذين لا يستخدمونه، وبأنهم أكثر مشاركةً في النقاشات حول مختلف المواضيع السياسية والاقتصادية وغيرها من الموضوعات، وكيف أن متابع الإنترنت يتميز بقدرة عالية على متابعة الأحداث

المحلية والأخبار الدولية ويبقى على اطلاع لما يجري حوله، وبأن هواة الإنترنت يتمتعون بالمرح والود والقبول الاجتماعي والديناميكية في العمل عبر زيارة المواقع واستخدام البريد الإلكتروني ولا يعيشون في صومعة على عكس ما يعتقد البعض فيهم، يبقى الإنترنت في نظر الفريق الآخر الآلة التي تساهم في إغراق مستعمله بعالم وهمي ومنعزل بحيث تسلخه عن الواقع والحياة الاجتماعية، وبحكم خروجه (الإنترنت) عن الرقابة قد يصل الأمر حد المس بسلم القيم الذي نشأ عليها مستخدمه (معتقدات غريبة عن معتقداته/ دخوله عالم الجرائم المنظمة / القرصنة الفكرية والمالية..) كما أنه يصبح من السهل على مستخدم الإنترنت الوصول إلى المواقع الإباحية والمنحرفة ويمكن أن يُلغي التفاعل والتواصل الوجاهي مما أنشأ جيلًا لا يدرك إلا ما تقوله له المواقع دونما تدقيق أصحيحة أم غير صحيحة، وعزز بدوره ظاهرة الإدمان عليه بفعل مواقع التسلية واللهو التي تأخذ كثيرًا من أوقات الشباب يمكن الاستفادة منها في مواضيع أخرى أكثر أهمية.

5. مكان العمل:

تبرز أهمية العمل ليس فقط من خلال ما يقدمه من فائدة مادية تعين على متطلبات الحياة وإنما مؤشر هام لبلورة الشخصية ورسم الطموحات وتعزيز التنافس، وهو مهم بدوره في مكان ما برسم حياتنا الاجتماعية وتنشئتها وفق الأطر المفترضة، ويمكن أن ندلل على ذلك من خلال مثال الأولاد الذين يعملون بدوام جزئي أو بداوم كامل خلال إجازاتهم الصيفية، فهم وفضلًا عن رغبتهم في الاستقلال المادي عن ذويهم، فإن العمل يجعلهم أكثر نضجًا ووعيًا عندما يتعلموا المسؤولية ومهارات التفاعل وقيمة الوقت وحسن تنظيمه، كما أنهم يحصّلون خبرة في المجال الذين يعملون فيه. وقد لاحظ بعض السوسيولوجيين ظاهرة ازدياد الأولاد الذين يخرجون إلى العمل في عطلاتهم المدرسية أو خلال إجازتهم السنوية ليس بهدف تحصيل المصروف الشخصي فحسب وإنما للقيام بعلاقات صحبة وللاستحصال على خبرة، وبالمقارنة تبين وجود فوارق نفسية واجتماعية في التنشئة بين الأولاد الذين يعملون والذين لا يعملون، فالذين يمرّون بخبرات عمل هم أكثر ديناميكية في تعاطيهم مع

الآخرين، أكثر تحديدًا لخياراتهم المستقبلية لجهة التخصص ومجالات الأعمال. خاصة وأن بعضهم يتنقّل خلال مراحل حياته في أكثر من تجربة عمل، فقد تبين أن الشباب ما بين 18 و40 سنة يتنقّل في 11 مجال عمل، ولا شك أنه في كل مجال عمل يكتسب تنشئة ويصبح مدركًا لخيارات حياته.

6. مؤسسات المجتمع المدني والديني:

ثمة إجماع على أن الدين جزء لا يتجزأ من التنشئة الأخلاقية، بل إن الدين هو روح التربية الخلقية وقوتها المحركة، إذ يستمد المجتمع قيمه الأخلاقية وقواعد تنظيم السلوك من التعاليم الدينية التي تلعب دورًا فعالًا في الالتزام الشخصي أكثر من القواعد والقوانين الوضعية، ويعتبر تكوين الوعي الأخلاقي من أهم الأهداف التربوية الأساسية، وهو الخطوة الأولى من خطوات التنشئة الاجتماعية وضرورة من ضروراتها التي يجب توافرها، وهو لا يقتصر على المعرفة الخيرة واكتساب المفاهيم الأخلاقية وإنما يتجاوز المعرفة إلى تكوين النزعة الصادقة نحو الحقيقة والقيم...

من هنا أولى علماء الاجتماع أهمية قصوى للدور الذي تلعبه المؤسسات الدينية في التنشئة الاجتماعية فيما تتركه من مؤثرات على حياة الناس، في السابق كانت العائلة تتولى أمور أفرادها لما يتعلق باحتياجاتهم الروحية والاجتماعية، إلا أن اليوم بات هناك مؤسسات متخصصة لمن يرغب بتنشئة أبنائه على تعاليم دينه أو في نشاطات رياضية عبر أندية خاصة بالألعاب المتعددة، أو في دورات ثقافية مع معاهد التدريب المتخصصة أو في جميعها معًا عبر المخيمات الكشفية.. فضلًا عن ذلك توسّعت مؤسسات الخدمة الاجتماعية في عالمنا المدني فمع انهماك الأولاد أو الأهل في العمل وُجدت مؤسسات رعاية بديلة (دور حضانة للأطفال / ودور رعاية للمسنين..) ولا غرو ما لهذه المؤسسات من مهام تنشئة وعناية وتنظيم شؤون حياة الكثير من الناس. **ولكن كيف يمكن لمؤسسات المجتمع المدني أن تساهم بتنشئة؟ وأي تنشئة تلك؟.**

إذا سألنا مجموعة من الشباب المنخرطين في مؤسسات مدنية ماذا يعني انضمامها إليها؟ لوجدنا ثمة أسبابًا كثيرة تدفع هؤلاء للانضمام وهي تنسجم مع الفوائد التي يمكن أن نجنيها عبر التطوع مثل:

1 ـ تتعلم مهارات جديدة، أو تحسن من مهاراتك في التواصل.
2 ـ تمارس نشاطًا تحبه مع أصدقاء مماثلين في التوجه والهواية.
3 ـ تتعرف على أشخاص مختلفين عنك في السن والقدرات والديانة.
4 ـ تأخذ إجازة من روتين الحياة في العمل أو الدراسة.
5 ـ تكتسب أصدقاء جدد.
6 ـ تنمّي احترامك لذاتك من خلال المسؤولية الموكلة إليك.
7 ـ تشعر بمدى قدرتك على إحداث تغيير.
8 ـ تتعلم خبرات مهنية ومهارات قيادية.
9 ـ تعبر عن التزامك بقضية ما.
10 ـ تساهم في بناء المجتمع الذي تعيش فيه.

ولعل من أبرز الدوافع للعمل والتطوع في المؤسسات المدنية والأهلية يُختصر في المشاركة التطوعية النبيلة وهو المعنى العميق لكلمة «خدمة»، أي مجانية العطاء لصالح آخرين هم بحاجة، ووسيلة فاعلة لتعزيز مفاهيم التكافل والتشارك والتكامل والتفاعل والتساند. ويشير علماء الاجتماع بأن الأشخاص الذين يندمجون بالمجتمع ومؤسساته الخيرية ويُقبلون على التطوع للصالح العام عبر هيئات معنيّة بذلك يتمتعون أكثر من غيرهم بصحبة أوفر وبحياة إيجابية وسعادة أفضل، كما أن تدريب الشباب على التفكير بالآخرين وتقديم الخدمات الممكنة لهم خاصةً لذوي الاحتياجات الخاصة كالمعوقين والعجزة والمشردين من شأنه أن يقيهم تبعات خطر الانحراف والفراغ.

النشأة

يقول بعض رواد علم النفس الاجتماعي أمثال كلاكهون وموري: أن كل إنسان في نواح معينة:

* يشبه كل الأشخاص الآخرين.
* يشبه بعض الأشخاص الآخرين.
* لا يشبه أي شخص آخر . . .

باعتقاد هذان الباحثان أن كل إنسان يشبه كل الأشخاص لناحية العوامل البيولوجية والحاجات التي تكون عامة بالنسبة لكل الناس، أي لهم نفس الحاجات: الأكل/ المأمن/ الجنس/ الاجتماع/ ولكن طرق إشباع هذه الحاجات قد تختلف من ثقافة لأخرى وبين مجتمع وآخر، فهي محددة جزئيًا بالمجتمع الذي ينتمي إليه هذا الإنسان أو ذاك، وتلبية الحاجات بطرق مختلفة هو ما يجعل الإنسان يتشابه مع بعض الناس ويختلف مع بعضهم الآخر.. أما هو لا يُشبه أي إنسان آخر فلاعتباره كائنًا قائمًا بذاته له مشاعره وتصرفاته الخاصة التي يحرص على أن يستقل بها، يتميز بها بملئ إرادته وبرغباته حتى يصبح فردًا له شخصيته الخاصة. وهذا ما نعنيه بالنشأة: **كيف ينشئ الإنسان ذاته بعدما تم تنشئته من قبل آخرين؟** يختصر الباحث الأمريكي (أريفنغ كوفمان) حياتنا ومكانتنا الاجتماعية والثقافية في تنشئتين:

أ. **التنشئة المتوقعة**: وهي ما نهيأ له منذ الصغر نحو المستقبل: الدراسة المناسبة/ العمل الممكن/ العلاقات الاجتماعية المطلوبة. وتتم عملية التهيؤ هذه عبر مقتضيات الإعداد التربوي وعبر كل ما من شأنه أن يجعل لدينا الإمكانية لأن تُصبح لنا مكانتنا الخاصة (التنشئة).

ب. **إعادة التنشئة**: وهي عملية يُعاود المرء فيها بناء ذاته بنفسه بعدما أخفق نتيجة ظروف حياة صعبة، لابد والحال هنا من إعادة تكيّف وتأقلم بين جماعته وذاته كي يحوز المكانة التي يستحق و يكون على مستوى الطموحات بعد إعادة هيكلتها (الدور).

وعليه تصبح إعادة التنشئة المعنى المشار إليه في النشأة، حيث تتبلور شخصية الإنسان في المراحل اللاحقة على التربية الأولى، حتى يصبح هناك ما يعرف بالشخصية الاجتماعية:

* الشخصية الاجتماعية:

إذا كانت الثقافة تمثل مجموع السلوك المكتسب بالتعلم من المجتمع الذي يعيش فيه الأفراد، فإنهم يمرون بعمليات دمج، وتعلم لطرق التفكير والعمل وبتعبير أدق هناك «تطبيع» وهي العملية التي تسهم في تلاؤم الفرد مع

الأعضاء الآخرين في جماعته التي تُعيّن له مقابل ذلك مكانة وتمنحه دورًا يقوم به في حياة هذه الجماعة، والمعنى المقصود من الدور هو مجموعة القواعد ومعايير السلوك المتعلقة بأوضاع متباينة يشغلها الفرد في المجتمع أو في علاقته مع الآخرين، وقد أمكن تحديد هذه الأدوار على ضوء النوع (ذكر/ أنثى) العمر (طفل/ مراهق/ بالغ/ مسن) وفي ضوء المهنة (محام/ طبيب/) وحتى في ضوء الصفة الاجتماعية (أعزب/ متزوج/ . .) ففي كلّ دور هناك تفاعل على أساس العلاقات، كما أن هناك انتماء لعضوية جماعات أخرى على ضوء التباين في العمر والنوع والمهنة، وبنتيجة ذلك يصبح الإنسان وحده القادر على تطوير سلوكه المكتسب بالتعلم وفقًا للدور المنوط به.

وكثير ما يلعب السياق الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد دورًا في عملية التميز للشخصية وفي نظرة المرء لنفسه، فعبارة «حدثني عن نفسك» تبدو عبارة مباشرة وكافية لكي تعرّف عن شخص ما، ولكن نوع الإجابة يعتمد إلى حد كبير على نوع المجتمع الذي نسأل فيه مثل هذا السؤال، فالأمريكيون ـ على سبيل المثال ـ سيحدثونك عن سماتهم الشخصية (ودود/ دؤوب بالعمل/ أمارس الرياضة . .) أو عن صفات خاصة بالدور (إنني معلم / طبيب/ مهندس/ أعمل في شركة. .) وهنا نلاحظ بأن هناك ربط بين وصف الذات (الصفة) والسياق المهني إلى حد كبير (عرّف عن نفسه من يكون في المجتمع.) ولكن مع ذات الشرق الأقصى (اليابان / الصين . .) الأمر مختلف تمامًا هناك تركيز على البعد الاجتماعي أكثر (أنا جاد في عملي / أنا أحب المزاح مع أصدقائي. .) مما يعني أن أبناء شرق آسيا يصفون أنفسهم من خلال الإشارة إلى الأدوار الاجتماعية (أنا صديق جون . .) أما الذات العربية فهي تتراوح بين الأنا الخاصة والأنا المجتمعية، تبعًا لواقع التربية القائم فقد تكون الذات اتكالية وقد تكون تارة أخرى استقلالية ولكن الميل الواضح في الذات العربية هو وصف أنفسهم دومًا بالإشارة إلى آخرين (أطهو العشاء مع أختي / أذهب برفقة أبي/ . .إلخ).

إن حياة الناس هي خليط من الأدوار المتفاعلة، في أي موقع اجتماعي هناك صاحب دور يختلف بطبيعته عن شخص آخر، ورغم التنوع في الأدوار إلا أن الجميع متعاونون في شبكة من الأدوار المتساندة (التساند الوظيفي)

وبهذا المعنى يرتبط مفهوم الدور بمفهوم المركز الذي يحتله الفرد ضمن النظام الاجتماعي الذي يدخله، فالرجل مثلًا هو أب في نظام الأسرة، عليه أن يقوم بدور الأبوة، وفي عمله هو مدير عليه أن يقوم بدوره كإدراي في سياق مغاير وهكذا، حيث هناك مجموعة من الأنماط الثقافية المرتبطة بموقف معين على أنه السلوك المفترض الذي يجب أن يقوم به شخص يريد أن يكون اجتماعيًا. وبقدر ما يحسن المرء التوفيق بين أدواره المتعددة بقدر ما يكون ذو شخصية اجتماعية رائدة، ولكن ماذا يحدث إن لم يتوافق بأدواره؟ ماذا يحدث لو اختلفت الأدوار الموكلة إليه؟ هل يمكن أن يقوم الفرد بعدة أدوار في نفس الوقت دونما أن يحدث تنافر أو تضارب؟ في هذا السياق قامت السوسيولوجية (HELEN ROSE EBAUGH) باستجواب عينة من 1850 شخصًا مرّوا بتجربة حياة صعبة ثم انتقلوا ليلعبوا دورًا آخر مغايرًا لما كانوا عليه وأخصّهم المطلّقون، المنتهون من حكم سجن، المتعافون من الإدمان، المتقاعدون، الخارجون من الرهبنة.. كان الهدف من الدراسة معرفة ماهية الأدوار التي يلعبون وطبيعة التحول النوعي الذي حدث لهم نتيجة انتقالهم إلى موقع آخر في المجتمع، فوجدت أن هناك نمط حياة جديد حدث على أربعة مراحل:

أ ـ المرحلة الأولى، (doubt) تبدأ من مرحلة عدم الارتياح لما يقومون به ويسعون للتخلص من الموقع الذي هم فيه لأنهم غير متكيّفين معه.

ب ـ المرحلة الثانية (search for alternative)، تبدأ مع البحث عن خيار آخر يكون أخف وطأة في مؤثراته على ما هم فيه (حال الرجل غيرالسعيد في زواجه يبدأ جديًا في التفكير بالانفصال كخيار أكثر راحة).

ج ـ المرحلة الثالثة (departure) وهي مرحلة المغادرة للموقف المزعج أو الموقع غير المريح الذي هم فيه يرافقه نيّة بعدم العودة وترك الأدوار السابقة المرافقة له.

د ـ المرحلة الرابعة وتعرف ب (creation of a new identity) وهي الخطوة الهامة التي يصبو إليها «التاركون» أو المتحولون عن الأدوار السابقة غير المريحة نحو أخرى تُسهم في إعادة بناء شخصيتهم وهويتهم الجديدة.

على ما تقدم تفهم النشأة على أنها «استدماج» لمجموعة من القواعد والمعايير وأنماط سلوك تحدد الوظائف التي يقوم بها الأفراد في المجتمع (فهو اجتماعي لأنه يتصرّف في معظم المواقف بصورة متوقعة كما يريد المجتمع، أي استدمج نسق التوقعات المتبادلة المميزة في مجتمعه، فالطفل الذي ينشأ في ظل أبوين متسلّطين يستدمج صورتهما أو أسلوبهما)، ومن الضروري أن يتم التمييز بين الاستدماج INTERNALIZATION كامتثال للقواعد التي تستند إلى سلطة خارجية (مظاهر التنشئة/ المعايير الاجتماعية) وبين الطاعة والامتثال للقواعد التي تستند إلى سلطة داخلية ذاتية (صور التعبير الذاتي/ الإنجازات/ . . . .)

المصطلح الثالث

الثقافة والمثاقفة

عندما نتطرق في حديثنا اليومي إلى كلمة «ثقافة»، فسرعان ما يتجه تفكيرنا إلى المستويات الإبداعية في الفكر الإنساني مثل الفنون والأدب والموسيقى والرسم، غير أن علماء الاجتماع يستخدمون هذا المصطلح ليعني جوانب أخرى من أسلوب الحياة الذي ينتهجه أعضاء مجتمع معين مثل تقاليد الزواج وأنماط الحياة العائلية وأشكال العمل والاحتفالات الدينية وأسلوب الأزياء المعتمد، بالإضافة إلى وسائل الترفيه والترويح وغير ذلك من الظاهرات التي تمارس يوميًا داخل الجماعات الأولية أو غيرها. . وبهذا المعنى تصبح الثقافة انعكاس المجتمع الذي تنمو في كنفه وكلاهما متلازمان، إذ لا يمكن أن يوجد مجتمع دون ثقافة ولا يمكن لثقافة أن تنمو دون جماعات داخل مجتمع فهي الأساس الذي يرتقي به البشر من الكيان البيولوجي إلى المستوى الإنساني فالاجتماعي.

بين العلم والحضارة.... والثقافة:

يمكن فهم العلم على أنه مجموعة الحقائق التي توصل إليها العقل الإنساني في مراحل تفكيره وتجاربه المتراكمة عبر الزمن، فهو لا يختلف باختلاف الأذواق كما الثقافة ولا يتغير بتغير المصالح، أما الثقافة كلفظ مفرد يُراد بها في الاستعمال الأخذ من كل علم بطرف ولا يُراد بها التعمق في دراسة علم من العلوم لذلك يقولون **«تعلّم شيئًا عن كل شيء لتكون مثقفًا وتعلم كل شيء عن شيء لتكون عالمًا»**، أما عن كلمة حضارة، فغالبًا ما يستخدم الباحثون التعبيرين ـ ثقافة وحضارة ـ كمرادف للإشارة إلى مدلول

واحد، حيث يقال: فلان متحضر/ فلان غير متحضر/ بلد متحضر، وكما يوصف الأفراد والجماعات بالتحضر كذلك توصف الأعمال الإنسانية فالمعاملة المهذبة حضارة، احترام الوقت حضارة، تكريس حقوق الإنسان بكل وجوهها حضارة.

وبهذا المعنى يصبح المجتمع المتحضر هو ذلك المجتمع الذي له قيمه الروحية الرفيعة وأساليبه المادية المتطورة في مواجهة الحياة الطبيعية، والثقافة هي أسلوب الحياة السائد في مجتمع ما وثمرة الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية والمبادئ الروحية والأصول العقائدية، وبناء على هذا التعريف تغدو الثقافة والحضارة مترادفتان في الدلالة حيث يمكن اعتبارهما: ما توصّل إليه مجتمع من رُقي وتقدّم في الصناعات والمخترعات.

*** عناصر الثقافة:**

الثقافة سوسيولوجيًا هي: جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم لا بالوراثة، يتشارك فيها أعضاء مجتمع معين في مجالات التواصل والتعاون سواء عبر الجوانب المنظورة مثل طرق العيش وتقنيات البناء ووسائل الإنتاج أو سواءً عبر الجوانب غير المنظورة مثل المعتقدات والآراء والقيم التي تعتبر بمجملها مقومات الثقافة وعناصرها التي منها:

1 ـ **القيم والمعايير**: في جميع الثقافات هناك منظومة أفكار تحدد ما هو محبّذ ومرغوب وما هو غير ذلك وهذه الأفكار المجردة تكون بمثابة مفاهيم لتوجيه تفاعل الناس مع العالم الاجتماعي حيث تقرر لهم ما هو الجيد؟ ما هو المقبول؟ ما هو اللائق اجتماعيًا وغير اللائق؟ ما هو المرغوب فعله والغير مرغوب؟ مثل هذه الأفكار والمفاهيم هي ما يمكن تسميتها بالقيم، لأنها صفات ذات قيمة لما تقوم به من دور في تمييز الخطأ عن الصواب. أما عن المعايير فهي قواعد السلوك التي تجسّد القيم في ثقافة معينة. مثلًا: في الثقافات التي تُعلي من شأن قيم الكرم وحسن الضيافة فإن المعايير الثقافية تؤكد على أهمية تقديم الهدايا كما تشدد على أنماط السلوك الاجتماعي تجاه الضيوف أو المضيفين على حد سواء. وبالسياق ذاته يسود اعتقاد بأن

الآسيويين أقل اهتمامًا من الغربيين في القيم المتعلقة بالتطلّع وقيم تعظيم الذات والنجاح الشخصي والطموح الفردي، لكن الاهتمام الأبرز بالنسبة لهم ينصب بصورة أولى على أهداف الجماعة وقيم العمل المتآزر، فالحفاظ على العلاقات في تناغم اجتماعي له الأسبقية على إنجاز نجاح شخصي، والتميز الفردي ليس مستصوبًا في ذاته لأن النجاح ـ كقيمة ـ هو بحد ذاته هدف جماعي وليس استحقاق شخصي.

هذا يعني أن القيم الجماعية متقدّمة على القيم الفردية في مجتمعات الشرق (الأوسط والأدنى) حتى الشعور بالرضا عن النفس (كقيمة معنوية) مقترن بشعور رضا الآخرين فيما لو كان الشخص متناغمًا مع رغبات وأماني جماعته ووفائه إليها، لهذا يرددون أقوال مثل: النعجة التي تتبعد عن القطيع تشبع ضربًا/ يد الله مع الجماعة/ . . وحول تقدم القيم الجماعية على الفردية قرر ـ خلال السنوات العشرين الأخيرة ـ أحد علماء الاجتماع الأميركيين في أن يسجّل أبرز القيم المنتشرة في أكثر من ستين دولة، ليجد أن قيم الإنجاز/ الكفاءة/ الوطنية/ المساواة/ الإيمان/ الحرية. . موجودة في أغلب مجتمعات العيّنة بشكل بارز، وبأن هناك مجتمعات أخرى تتقدّم فيها قيم على حساب أخرى مغايرة. . لكن الشيء المشترك الذي وجده هذا الباحث في كل المجتمعات تقريبًا هو قيمة «الإحسان» في مختلف وجوهها أو تسمياتها (فعل الخير/ الصدقة/ التبرع/ المساهمة/ المساعدة) و قيمة BENOVOLENCE التي تتجلى في مظاهر عديدة مثل: التسامح/ الإخلاص/ الوفاء. . وهذا يبين أهمية القيم الجماعية وكيف أن الجماعة تعزز في أبنائها قيم تحرص على التناغم الاجتماعي.

وبالسياق ذاته قررتُ وفريق عمل مدرب خلال العام 2005 القيام باستطلاع رأي حول القيم الاجتماعية في عالم اليوم أيّة مفاهيم؟ ولغاية ذلك استجوب فريق البحث عينة من اللبنانيين في مختلف المناطق والمستويات والأثنيات عبر استمارة مقننة، ومن جملة ما سئل به المستجوبون:

*** ما هي القيم التي يجب الحفاظ عليها أكثر من غيرها؟ فأكّد 29 %**

على أهمية قيم الصدق والأمانة والوفاء، ويليها قيم الاحترام واعتبار الآخر وتقديره وقبوله بما نسبته 18%، فحسن التعامل والمحبة ومساعدة الغير بنسبة 15%، انتهاءً بالتسامح 4%.

* **ما هي القيم التي تحب أن تربي عليها أولادك؟** 23% قالوا احترام الآخر، 21% الصراحة، 9% الوطنية، 8% الأمانة، 7% محبة الناس، 6% المسؤولية، 4% الالتزام بالدين.

يمكن ترجمة ما تقدم في أن آراء الناس تتوزع في بنود قيّمة عدة منها: **قيم خاصة تتعلق ببناء الذات**، (النجاح/ الطموح / الكفاءة/ المسؤولية/ التهذيب) وقيم تدور حول قواعد التعامل مع الآخر من خلال: محبة الناس / احترام الآخر/ الأمانة / الصدق / قول الحق والصراحة / التسامح/ العطاء/ وما إلى ذلك. . . . .هذا يعني اتفاق الناس على شبكة معينة من القيم يجب أن تسود، فالإنسان لا يعيش في فراغ اجتماعي والآخرين لا يمكن أن يستمرّوا في نظام اجتماعي دون قواعد وسلوك متفق عليها، لا بد من «معايير» تحدد علاقتهم ببعضهم بعضًا وليس هناك أفضل من وجود سلم قيم راسخ وممارس.

ولكن هل يمكن أن تتغير القيم؟.

في الوقت الذي يعتبر بعض الباحثين أن القيم لا تتغير وإنما ما يتغير المعايير. باعتبار الأولى اعتقاد (إيمان) والثانية ممارسة (سلوك)، نجد باحثين آخرين يعتبرون أنّ كليهما يتغيران بمرور الزمن حيث كثير من المعايير التي كانت مألوفة في زمن ما **(كالمروءة مثلًا في عونة الجار وإغاثة القريب ومساعدة الغريب وكل الأفعال الاجتماعية النظرية القائمة على أواصر التعاون والصحبة والعشرة والقناعة)** لم تعد ذاتها اليوم مع طغيان القيم القائمة على المنفعة الذاتية والمصلحة والربح السريع واغتنام الفرص بالدهاء وانتشار الانتهازية والوصولية، مع تبرير الأخطاء واللعب على الألفاظ لقلب الأمور رأسًا على عقب كقول بعضهم: التهريب تجارة/ الرشوة إكرامية/ العلاقة الجنسية دون الزواج اختبار/ اقتناص الناس شطارة. . أفعال تتناقض مع شملة القيم التي كان يحملها الناس قبل عدة عقود. وفق هذا الوقائع أصبح البعض

يتذّر أن القيم أخذت تخبو لأن المعايير تغيّرت، ولأن المعايير تتغير أصبح يُطرح بشكل موازٍ لها قيم أخرى تؤكدها.. إلا أن التسليم بمثل هذا الافتراض لا يمكن الأخذ به لأن القيم لا يمكن أن تنتهي وهي تبقى على الدوام إنما لذي يتغير هو عدم أخذ الناس بها لظروف حياتية مستجدة.. من هنا يمكن لحديث عن تعديل في فهم القيم وأنماط السلوك وليس عن اندثارها، ومهما تصرّف الناس على هواهم باسم القيم الأخلاقية فإن الذي يتغير ليست مفاهيمها السامية وإنما الناس الذين لا يُحسنون ممارستها الحقة، هي ثابتة في معناها، في حقيقة وجودها من فجر التاريخ ولغاية اليوم. لأنه ما أن يقال انتهت القيم يعني ذلك انتهاء الثقافة فنهاية المجتمع، لهذا يحرص الجميع عليها وعلى بقائها ليبقى المجتمع وتبقى الجماعات.

2 ـ **العادات والتقاليد**: لكل ثقافة أنماط متميزة من السلوك قد تبدو غريبة لمن ينتمي إلى ثقافات أخرى، ويستطيع المرء أن يلاحظ ذلك عندما يسافر إلى مجتمعات أخرى ويلمح الاختلاف في كثير من جوانب الحياة، فقد يصاب أحدهم بالصدمة مثلًا عندما يشاهد عادات وتقاليد حفل زواج مجتمع أفريقي، أو قد يتفاجئ الزائر الغربي إلى بلاد المسلمين في عدم مصافحة المرأة (الملتزمة بتعاليم دينها) للرجل.. وبالسياق نفسه قد يثير زي قبائل الغابات المتعري في أستراليا مثلما يثير ارتداء النساء للنقاب في الباكستان وأفغانستان. .مثل هذا الاستغراب تجاه الظواهرالاجتماعية يطلق عليه تعبير **الصدمة الثقافية**، حيث يصاب الناس بالتشوش والحيرة عندما يجدون أنفسهم في بيئة ثقافية جديدة عليهم، لأنهم يشعرون بغياب النقاط المرجعية التي درجوا على الاستهداء بها، لهذا لا يمكن فهم الممارسات والمعتقدات بمعزل عن النطاق الثقافي المتداول ومكوناته وعناصره، بل يجب دراسة الثقافات في إطارها التاريخي ودلالاتها الخاصة، وفق ما يعرف بتعبير **النسبية الثقافية**، التي تعني ذلك الفهم المتداول بين الناس عن ثقافاتهم وحضاراتهم ليس من خلال النظرة الفوقية (كما في الأنوية الثقافية) وإنما «رؤية الأمور من خلال وجهة نظر الآخرين» وتقدير ثقافة الآخر انطلاقًا من وجهة نظره هو عبر احترامها باعتبارها شيئًا خاصًا للآخر.

في مؤلفهما «التواصل العالمي: دليل الإنسان إلى الفعل»، درس إدوارد هال ووليم هوايت دلالات نبرة الصوت والمسافة والزمن، خاصة بعدما لاحظا كيف يفسر أشخاص منتمون إلى ثقافات مختلفة ما يفعله غيرهم تفسيرًا خاطئًا، فساكن العربية السعودية مثلًا حينما يتحدث يخفّف من نبرة صوته حتى لكأنه يكلّم شفتيه تعبيرًا منه عن احترام من هو أعلى منه مرتبة (شيخ الجماعة)، إن حصل مثل هذا الأمر مع أحد الأثرياء الأمريكيين مثلًا فإن من شأن هذه الطريقة أن تجعل التخاطب مستعصيًا تمامًا، لأن من منظور الثقافة الأمريكية عندما يرفع المتكلم صوته يترتب بطريقة لاشعورية من مخاطبه أن يرفع بدوره من صوته، لذلك فإن الأمريكي يتكلّم بصوت مرتفع دائمًا. أما العربي عندما يخفف صوته أثناء تواصله مع أمريكي فمن شأن هذا الأسلوب أن يثير لدى الأمريكي سؤالًا مستنكرًا مفاده: أليس في كلامي ما يكفي من الاحترام!! . .نرى في هذا المثال أن الأمريكي يمثل عالمًا مغايرًا لعالم العربي ويرمز إلى الخاصية الملازمة لفشل التخاطب بينهما ويكمن مصدر اللبس في المعرفة الشحيحة بالسياق الثقافي عن الآخر. .

كذلك في مسألة المصافحة فاليابانيون لا يحبون المصافحة بقوة عندما يجتمعون بغرباء، بينما يختلف الأمر عند شعوب أخرى حيث يفترض بك أن تظهر اهتمامًا ودودًا بالشخص الذي تصافحه عبر الشد على يده كدليل تقدير، وفي السياق ذاته لا يفضل البريطانيون التقرب منهم كثيرًا أثناء التحدث معهم على عكس ما يحدث بين أبناء البلاد العربية.

3 ـ **اللغة واللهجات**: هي نظام من الكلمات ذات معان ودلالة يختص بحياة أفراد مجتمع معين، بما فيها الألفاظ المنطوقة والكتابات والأرقام والرموز والإشارات والتعابير غير اللفظية، فعبر هذه الوسائط ترتكز الثقافة وتتناقل، إذ عندما يريد أحدهم أن يتواصل مع غيره فهو بحاجة إلى لغة، وعندما يريد أن يعبر بما يشعر به يستخدم لغة (رسم/ شعر/ غناء) وهلم جرًا. .لأن اللغة مفتاح التواصل والتعارف. تشير الدراسات إلى أن هناك ما يقارب سبعة آلاف لغة معروفة في العالم اليوم، قد تتعدد ضمن بلد واحد (الهند) وقد تكون واحدة في أكثر من بلد (العربية)، وتعتبر اللغة لغة معتمدة

عندما يتكلم بها من 200 حتى 200 مليون إنسان، حيث تصبح معلم ثقافي خاص بالذين يتكلمونها. وتبرز علاقة اللغة بالثقافة عبر غنى التعابير المتداولة ضمن محيط اجتماعي معين، فالسيف مثلًا له أكثر من سبعين اسمًا في اللغة العربية، ولدى الكنديون هناك 14 تعبيرًا للجليد، ثمانية منها لوصف حالته (SCAMED ice, CRACKED ice, FLOATING ice وبالمثل يقال عن الخيل في اللغة الهندية حيث لها عشرات الأسماء، هذا إن دلّ على شيء إنما يدل على أن اللغة جزءًا من المجتمع الذي تنتمي إليه وبدونها لا يمكن أن تتجسد الثقافة.. فهي الوعاء الذي تنتقل به الثقافة من جيل إلى جيل ومن مجتمع إلى مجتمع ومن تاريخ إلى تاريخ.

أما اللهجة (dialect) فيمكن تعريفها بأنها الكلمات المتداولة لدى فئة معينة من السكان في بيئة جغرافية نتيجة خصوصية مجتمعية أو معرفية، وهي تختلف عن اللغة باعتبارها أكثر محليّة وأسهل لفظًا وأفضل استيعابًا.. وكثير ما تختلف اللهجات للمسمى نفسه بين بلد وآخر بل وضمن هذا البلد أو ذاك، وباستعراض لبعض التعابير المتداولة في الدول العربية يتبين اختلافًا بيّنًا في اللهجات لأشياء محددة بين دولة وأخرى، كما هو الحال مثلًا لكلمة: رجل، ففي بلاد الشام: هو زلمي، وفي الخليج: ريال، وفي المغرب العربي سيدي. حتى على صعيد البلد الواحد فقد نجد أن أبناء الشمال يختلفون في ألفاظهم ولهجاتهم عن أبناء الجنوب، وأبناء الساحل عن أبناء الجبل في تسمياتهم لكثير من الحوائج.

ويرجع انتشار اللجهة (العامية) على اللغة الأساس (الفصحوية)، برأي بعض الباحثين إلى أن اللغة الفصحى لا تستطيع مواكبة الحياة المعاصرة أو لأنها صعبة الفهم والتداول وباعتبارها نخبوية وعالمة، بينما اللهجة يسهل تداولها كلغة محلية محكية يتشارك فيها جمع من الناس بالاتفاق على دلالات ومسميات جرت عفويًا بينهم لمرونتها وسهولة لفظها، ولو اضطرهم الأمر لأن يقلبوا حرفًا أصيلًا بآخر أسهل لفظًا كما هو الحال مع اسم إسماعيل يصبح إسماعين، البنطلون = بنطرون، غسالة = خسالة، أو القاف تقلب همزة: رقيق= رئيئ، قرد = أرد، أو يضيفون حروف عن أخرى: ما بدّي (لا أريد)

تصبح أبدّيش، مع عليه (للتلطيف) تغدو معليش، ما في (لا يوجد) تصبح أفيش، لم يأت تصبح ما أجاش، وأحيانًا تستمر الشين في أواخر الأفعال: ما ألش شي، وتعني لم يقل شيئًا، أو ينقصون منها أحرف مثل: رائحة = ريحة، جبرائيل = جبريل، ميخائيل = مخايل.

ويُرجع الباحث اللبناني (أنيس فريحة) السبب في انتشار اللجهة العامية: إلى التأثر باللغة الآرامية ـ السريانية، ويعزو ذلك إلى أن في لبنان ـ وقبل الفتح العربي ـ كان هناك لهجات آرامية، وقد بقيت دوائر هذه اللغة سائدة في أسماء القرى والمدن، حيث يظهر أثرها في الضمير على مختلف أشكاله وفي الفعل وفي كثرة المفرادت الباقية في اللغة المحكية، «حتى أنك عندما تقرأ نصًا سريانيًا أو عبرانيًا وتترجمه ترجمة حرفية يتبادر إلى ذهنك التركيب العربي العامي»[1].

4 ـ السمات والمركب، هناك اتجاهات عدة تُفسّرالثقافة كظاهرة مجتمعية عامة، الاتجاه الأول يركز على أشكال السلوك المكتسب وهو ما يعرف بالاتجاه الواقعي، والاتجاه الثاني يرى الثقافة باعتبارها مجموعة أفكار يجردها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس عن جماعة معينة وهو ما يعرف بالاتجاه التجريدي، لكن هناك من يوافقون بين هذين الاتجاهين من خلال تحليل الثقافة إلى عناصرها الأولية ويسمى الواحد منها السمة الثقافية، وهو العنصر الثقافي البسيط الذي لا يوجد حاجة علمية لتحليله إلى ما هو أبسط منه ويمكن ملاحظته حسيًا (الحجاب، خاتم الخطبة، الدبكة والرقص.. سمات ثقافية)، وقد تجتمع العناصر لتؤلف ما يعرف باسم المركب الثقافي وهو كل ما يتكوّن من عناصر ثقافية ترتبط ببعضها ارتباطًا وظيفيًا، فإذا قلنا تعدد الزوجات عند المسلمين نجد أن هذا المركب الثقافي يتكون من عناصر متداخلة: شروط العقد + العدد الأقصى للزوجات + المساواة بينهن + توفير السكن + المهر. وقد قسّم الباحث الاجتماعي (وليم هوايت) الأنساق الثقافية في ثلاثة قطاعات كبرى تتكون منها الثقافة وهي:

---

(1) من دراسة: اللهجات الشعبية بين الأدلجة والمنهج الوصفي، د. رياض قاسم، المؤتمر الأول للثقافة الشعبية في لبنان، حلقة الحوار الثقافي، (بيروت، 1993).

ـ . الأفكار والعقائد والاتجاهات الموجودة في عقول الأفراد.

ـ . الأشياء المادية والمحسوسة التي يعطيها الإنسان معنى محددًا.

ـ . العلاقات وخطوط التفاعل والاتصال عند البشر سواء بين بعضهم البعض أو بين البشر والأشياء.

ويرى بأن المركبات أو النظم الثقافية هي ما تتداخل فيها الأشياء والأفكار والعلاقات كقولنا نظام الزواج: المسكن، الأولاد، الغذاء، التربية، الرعاية، القيم والمعتقدات . .

المثاقفة

هو مصطلح ابتدعته أقلام الأنتربولوجيين الأمركيين في حدود العام 1880، وكان الإنجليز يستعملون بدلًا عنه مصطلح التبادل الثقافي (Cultural exchange، في حين آثر الإسبان مصطلح التحول الثقافي (Transculturation) وفضل الفرنسيون مفهوم تداخل الحضارات (Interpénétration des civilisations)، إلا أن مصطلح المثاقفة أصبح هو الأكثر تداولًا وانتشارًا. يحاول هذا المفهوم أن يختزل واقع تعايش وتلاقح ثقافات مختلفة، وبهذا السياق تصبح: المثاقفة، التثاقف، التثقيف، التمثل الثقافي، التكيف الثقافي، acculturation هي اسمٌ واحد لعملية معرفية يتم من خلالها اكتساب صفات حضارية، بالنسبة للفرد أنها أشبه بالتنشئة الاجتماعية التي تلعب فيها اللغة دورًا جوهريًا في تعزيز التكيف، أما بالنسبة للمجتمع فهو عملية انتشار القيم والأفكار والأحكام الاجتماعية التي يستطيع خلالها جماعة معينة اكتساب الصفات الحضارية لجماعة أخرى من خلال التواصل والتفاعل، وتفترض المثاقفة ـ أولًا ـ احتكاكًا مطولًا بين ثقافتين مختلفتين ثم تأثير أحداهما بالأخرى بحيث تتحول أو تتعدل معالم الثقافة المحلية بما هو متشابه مع نماذج الثقافة الوافدة، إلا أن دخول مثل هذه السمات غالبًا ما يسبب صراعًا بين قيم دخيلة وقيم أصيلة، لهذا تبقى السمات الثقافية في عملية التثاقف مرهون انتشارها بمدى التقبل والاستعداد الذهني والمادي والاجتماعي عند

الناس. ذلك لأن المجتمعات ليست كلها متكافئة في قدرتها على الإبداع والابتكارات، فيصبح هناك مجتمعات تنتج وأخرى تستهلك وكثيرًا ما يلعب في مسألتي الإنتاج والاستهلاك عوامل سياسية واقتصادية. تجعل من يستقبل (يستهلك) على حذر إذا كان ذا ثقافة مختلفة في سماتها عن ثقافة المجتمع الذي يرسل (المنتج) كما هو الحال في الصراع القيمي بين الشعوب الشرقية (العربية/ الصينية/ اليابانية) إزاء ثقافة الحضارات الغربية، حيث يعتبرونها بمثابة غزو ثقافي نظرًا للتبادل غير المتكافئ.

وقد يتخذ التبادل صورة التثقيف بالإكراه أو بالعنف، كما كان يحدث خلال فترات الاستعمار والغزوات التي تدفع بالمستعمر إلى إغراق المناطق التي يحتلها بكثير من منتوجاته الصناعية بغية تنشيط عجلة الاستهلاك لمنتوجاته وتأمين الربح الاقتصادي، ومع الوقت يأخذ الناس بالتأثر ليس بالصناعة والاقتصاد وحسب وإنما بالثقافة التي ترافقها، على أنه يجب ألا تفهم الثقافة كأشياء مجردة بل كعناصر تجسدها وتحملها الجماعات البشرية تتمثل في جميع مظاهر التعبير الإنساني، سواء تعلق الأمر بالأدب أو الفنون أو المعتقدات والأخلاق أو اللباس والسكن والأكل وهذا هو التعريف السائد في علم الاجتماع الأمريكي.

*** أنواع المثاقفة:**

يميز المؤرخون بين نوعين من المثاقفة:

1 ـ **المثاقفة التلقائية**: وتندرج في إطار التلاقح الناتج عن الدخول الإنمائي وعن الرغبة في تعزيز فرص السياحة والسفر وتدريب اليد العاملة واستقطابها أو عبر الاتصالات السلمية بواسطة التجارة كما هو الشأن بين كندا والشمال الحالي للولايات المتحدة الأمريكية.

2 ـ **المثاقفة المفروضة**: وتتم عبر السيطرة الاستعمارية والنفوذ السياسي أو العسكري بصفة مباشرة وهذا ما حدث بالفعل بكل من المكسيك والبيرو غداة الاكتشافات الجغرافية الكبرى. وقد أدى انتشار حركات الاستقلال

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين إلى ظهور ما اصطلح عليه بالمفردات (reserves)، وتمثل أراضي محجوزة يقطنها السكان الأصليون.

وعادة ما تمر المجتمعات النامية من مثاقفة تلقائية إلى مثاقفة مفروضة، ما دام أن القوة الاستعمارية تسعى إلى إحكام السيطرة بشكل مباشر على القاطنين بالقرب من مناطق نفوذها. ولكننا قد نجد حالات معاكسة يتم المرور فيها من مثاقفة مفروضة إلى مثاقفة تلقائية. ونذكر في هذا الإطار بما وقع لبعض المستعمرات الإسبانية بعد ثورة 1680 بمنطقة ريوغراندي (Rio Grande فبالرغم من إفشال الثورة لم يتمكن الإسبان من إعادة السيطرة بشكل مباشر على الهنود، مما دفع بهم إلى إنشاء نظام المفردات.

أما من حيث مسارها ونتائجها فتنقسم المثاقفة إلى مستويين:

1 ـ نمط الدمج: ويتميز باقتباس النمط المحلي لعناصر أجنبية دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير كبير في قيم الثقافة المحلية. فقبائل النباهوس (Navahos)، والتي كان سكانها نصف رُحّل، كانت تعتمد في عيشها على الصيد والالتقاط، وقد دفعها احتكاكها واتصالها بمراكز الاستيطان الإسباني إلى الاستقرار واعتماد الفلاحة. أما قبائل الكواكيوتيل (Kwakiutl) المتواجدة بشمال غرب المكسيك، فكانت تربطها وباستمرار علاقات سلمية وتجارية بالأوروبيين، وكانت تحصل على السلع الأوروبية مقابل تقديمها فرو ثعالب الماء. وقد أدى الأمر إلى انتشار ظاهرتي المنافسة والمزايدة على حساب التبادل، وفي الغالب لا تؤدي هذه التغييرات إلى انهيار الثقافة المحلية.

2 ـ نمط التمثل: ويعني تشرّب ثقافة مجتمع معين لعناصر الثقافة الغربية يوازيه القضاء على التقاليد المحلية والانقياد لقيم المجتمع المسيطر. (التبدل الحاصل في المجتمع اللبناني الذي تغير بفعل أبنائه المغتربين واستقدامهم عادات أخذ يمارسونها كما في المجتمع المهاجر إليه).

وقد تتوالى كل الأنماط عبر الزمان بالنسبة للمجتمع الواحد فنمط الدمج

يوازي حالة المثاقفة التلقائية في حين يتماشى نمط التمثل ووضعية الاستعمار والسيطرة المفروضة. ولكننا لا نستطيع أن نجزم بمرور ضروري للمثاقفة في مسارها من مرحلة الدمج إلى مرحلة التمثل، إذ قد نجد في بعض الحالات المعاشة يوميًا نوعًا من الاصطدام بين ثقافتين مختلفتين كحالة من الازدواجية، يسايرون ثقافة المجتمع المسيطرة وهم يعيشون وسطه، ثم لا يفتأون يتخلون عن هذه القيم عند عودتهم إلى مجتمعهم الأصلي.

* هل التغريب وجه من وجوه التثاقف؟

التفرنج، التأمرك، التأورب وبتعبير أشمل التغريب، مصطلح جديد ـ قديم يتم تداوله في الأدبيات السوسيولوجية، فجميعها تشير إلى معنى دلالي واحد وهو تأثر أبناء الشرق التقليدي أو المجتمع العربي المحافظ لسمات المجتمع الغربي في كثير من عوائده، لدرجة بات يطلق على كل من يتمثل بالغربيين في أسلوب حياتهم تعبير «ستايلو غربي» (أي نمط تفكيره وحياته غربي الطابع)، قد يتعدى دور التغريب طابع التثاقف عبر عمليات تبني بشكل مدرك نوعًا ما للفئات النموذجية الغربية، فقد لاحظ الباحث الفرنسي (أوليفيه روا) وجه آخر للتغريب يتمثل في سوسيولوجيا العائلة لدى الجماعات المسلمة في أوروبا، حيث ينزع هؤلاء ـ سواءً كانوا في المهجر أو عند العودة إلى بلد الأم ـ نحو الأخذ بما هو سائد في المجتمع الغربي ومنها انخفاض معدلات الخصوبة والانتقال نحو تكوين عائلات نواتية وارتفاع المستوى التعليمي عند الإناث وترك الحرية لهن لاختيار الاختصاص ودخول معترك العمل، والأهم من ذلك إعادة تركيب العلاقات القائمة بين الرجال والنساء على شيء من المساواة والشراكة، حيث في المجتمع الغربي غالبًا ما تعمل المرأة المسلمة خارج بيتها، كذلك أرخت الذهنية الغربية بظلالها على أشكال جديدة في العلاقات الاجتماعية كالزواج خارج الروابط التقليدية (كأن تتزوج مسلمة عربية من مسلم بوسني أو من أمريكي أسلم حديثًا).

هذا يعني ارتياد أفكار جديدة وأوساط حديثة انضم إليها أفراد قادمون عبر التزام إرادي. إلا أنه وفي المقابل بات التغريب يُحدث صدمة ثقافية حين

ُخذ يسرّب عادات مغايرة للثقافة المحلية وتقاليد المجتمع المحافظ على تراث ديني أو اجتماعي. حتى تكوّن رأي بأن ما يخلخل المجتمع التقليدي مرده دائمًا إلى التغريب والمثال على ما رصدتهُ (الكاتب) مع أحد طلابي لظاهرة نتشرت مؤخرًا (2009) في لبنان تُعرف بشباب ال: EMO وهو مصطلح مشتق من كلمة emotion الإنكليزية، بدأت هذه الظاهرة خلال الثمانينات وقد عرفت حينها بحركة ال: PUNK ROCK (as in the total disregard careless and for everthing in life) عندما ظهرت في أمريكا وأوروبا وامتدت إلى العديد من الدول منها لبنان حتى أخذ بعض شبابه يتمثل هذه الظاهرة إما شكليًا (عبر تقليد الشكل والمظهر من حيث اللبس وتسريحة الشعر والتدخين ووضع الأقراط في مناطق حساسة من الجسم) وإما فعليًا عبر وضع المكياج الفاقع (غالبًا يكون باللون الأسود أو الزهري) وطلاء الأظافر باللون الأسود ولبس أكسسوارات معدنية ووضع وشم خاص وتعاطي المخدرات والكحول، كل ذلك اعتقادًا منهم أنها تبعد عنهم مشاعر الإحباط واليأس الذي يعانونه، وزيادةً في ذلك يعمدون إلى إيذاء أنفسهم (self-infected wounds) عبر جرح أطراف أجسادهم بأدوات حادة لتخفيف الألم النفسي وقد يصل بهم الأمر إلى الانتحار من حيث لا يدورن. من سمات هذه الظاهرة الشبابية أنهم:

- ✓ **يمارسون طقوس وعادات خاصة فيما بينهم (اعتماد اللون الأسود/ تسريحة الشعر وإطالته حتى يغطي العين اليمنى / طلاء الأظافر عند كلا الجنسين / وضع الأقراط بشكل غريب).**
- ✓ **يجتمعون في أماكن معينة كالمقابر أو يقصدون أندية ليلية محددة.**
- ✓ **ليس لديهم مشاعر حب أو أية مشاعر إنسانية أخرى، مغتربون عن عالمهم ولا يتأثرون بشيء.**
- ✓ **يعقدون حلقات سهر وترفيه يشوبها الجنس والإدمان والعبثية.**

يحدث التثاقف من خلال طرق عدة فقد يأتي عن طريق الحرب والإخضاع والاحتلال العسكري والاستعمار أو عن طريق التبادل التجاري والعمالة والهجرة، وأما عبر وسائل الإعلام ومعاهد التدريس والصرعات

الثقافية، وفي مجمل الطرق نادرًا ما يتم التبادل بنفس الدرجة حيث أن المجتمع ذو التكنولوجيا البدائية والتابع سياسيًا غالبًا ما يتبنى ثقافة المجتمع المتسلط، لهذا يرتدي التثاقف دائمًا وجهين: إيجابي: إذا كان التبادل الثقافي متوازنًا (حوار ثقافات / ملتقى حضارات) وسلبي: إذا كان التبادل غير متكافئ (استعمار / أسواق مفتوحة / مصالح..).

خلاصة:

يستخدم مصطلح الثقافة في أكثر من سياق، بالنسبة لعلم الاجتماع لا تتحدد الثقافة فقط بالفنون الجميلة أو الأفعال الذكية، وإنما تشمل كل الأفكار المتداولة ضمن المجتمع، بدءًا من طريقة تحية الناس لبعضهم البعض: كيف يحيون وبماذا؟ انتهاءً بأضخم الصناعات. وعلى ذلك يصبح:

- إعداد الطعام . .**ثقافة.**
- طرق الزراعة وتحضير المواسم والمونة.. **ثقافة.**
- تحضير المناسبات وإتمام الحفلات... **ثقافة.**
- توجيه الأولاد وترفيههم.. **ثقافة.**
- كتابة الشعارات والعبارات على الجدران.. **ثقافة.**
- بناء البيوت وكيفية تجهيزها.... **ثقافة.**
- خطوط الأزياء وعالم الموضة.. **ثقافة.**
- الأمثال السائرة والقصص الشعبية.. **ثقافة.**

في كل مظهر من مظاهر حياة الناس اليومية ثمة ثقافة وراءه، لأن الثقافة لا تنشأ من فراغ، إذ عندما يتشارك أفراد محددون أو جماعات في نمط حياة خاص وممارس في أكثر من مجال يصبحون مجتمع له ثقافة.. من هنا يعتبر المفهومان ـ الثقافة والمجتمع ـ مترابطان كأن نقول مثلًا ثقافة المجتمع الأمريكي، ثقافة المجتمع اللبناني، ثقافة المجتمع العربي حيث لكلٍّ ثقافته الخاصة. وحينما يتشارك أناس نفس الاهتمامات والموروث الثقافي عينه،

العادات والتقاليد المماثلة والأذواق ذاتها، فإنهم يعتبرون جماعات ثقافية. وعلى هذا الأساس تفهم الثقافة على أنها الكلّ المعرفي الذي يحمله أيٌّ منا لجهة الأفكار والقيم والقواعد الاجتماعية، هي الشكل المتمثل في ملامح المجتمع لجهة التقاليد والعلوم وأسلوب الحياة كما يمكن أن تكون السمات الخاصة بفئة معينة من الناس.

المصطلح الرابع
التمييز والتحيز

كيف يمكن لأفراد من جماعات مختلفة أن يتواصلوا؟ هل يتفاعلون كالجماعة المتماثلة على شيء من التشابه والانسجام أم أن الاختلاف يحول دُون ذلك؟ ماذا يمكن أن يحدث في ظل الاختلاف؟

حول هذه التساؤلات يقرر الباحثون الاجتماعيون دراسة تصرفات الناس فعليًا على الأرض في مختلف المواقف فتُجرى للغاية مقابلات مباشرة مع غرباء إلى البلد المضيف، ثم تُراقب تصرفات المواطنين تجاه أبناء الأقليات الأخرى الذين ينتمون إلى ثقافات وأديان وأعراق متباينة، ولعل أبرز الملاحظات التي ترد في هذا الإطار أن التعامل بين الناس المختلفي الانتماء غالبًا ما ينطلق من التمييز العنصري، مثال أن:

- ✓ **ذوي العرق الأسود يتجنبون الاختلاط بجارهم من العرق الأبيض في السكن، لا لشيء بل لأنه يعرف بأن الأبيض يمقته.**

- ✓ **تعاطي المخدرات وارتفاع نسبة الجريمة ووقائع الاعتداء والأخبار السيئة غالبًا ما تُعزى إلى أبناء الأقليات الوافدة.**

- ✓ **عمليات التفاوض في البيع والتبادل التجاري وشؤون حياتية أخرى (علاقات حب/ زواج/ صداقة الأطفال في المدرسة) كلها محكومة بأفكار سلبية منمطة عن الآخرين يشوبها الكثير من الحذر والتوجس.**

لماذا تُبنى التصورات المعرفية تجاه الآخرين بناءً على اختلافاتهم العرقية

أو الجنوسيّة أو الطبقية أو الدينية؟ لماذا ـ وبشكل فرضي ـ يُحكم على الناس من خلال الاعتقادات المسبقة عنهم؟ أهو التمييز أم التحيّز.

*** التمييز:**

في معجم العلوم الاجتماعية ورد هذا المصطلح بتعبير «تمايز Distinction» ويستخدمه علماء الاجتماع للإشارة إلى الفروقات الطبقية وتمفصلها في حياة الناس اليومية وتكيّفهم مع آلياتها، وثمة باحثون قصدوا بهذا المفهوم الاتجاهات القائمة بين الجماعات (**وذلك على أساس المعلومات المفترضة عن هؤلاء الأشخاص**) سواء كانت اتجاهات سلبية تتسم بالنفور والتجنب والعداوة والكراهية، أو سواء باتجاهات تعصبية قاسية تتمثّل بعدم التقبل التام للآخر وهو ما يعرف بالاتجاهات التعصبية العنصرية. وقد تتجلى هذه الاتجاهات في أشكال متنوعة، أبرزها:

1. اتجاهات تعصبية ضد المرأة (تمييز جنوسي).
2. اتجاهات تعصبية على مبدأ اللامساواة (تمييز طبقي).
3. اتجاهات تعصبية دينية (تمييز طائفي).
4. اتجاهات تعصبية قائمة على انتماء قومي أو عرقي (تمييز عرقي).

1) التمييز الجنوسي

تعد الاتجاهات التعصبية ضد المرأة أو التعصّب لجنس دون الآخر من أشكال التعصّب الظاهري في بعض المجتمعات، وغالبًا ما يلاحظ مثل هذا التميز في المعاملات اليومية لجهة العمل والدراسة والدور الاجتماعي والشأن السياسي، حيث لازال هناك ما يشبه الإجماع على الخصال المميزة بصورة نمطية لكل من الرجل والمرأة، فالرجال متمسكون بالكفاءة والاستقلال وما يرتبط بهما من خصال نوعية في البطولة والريادة، بينما تتسم النساء بالتعاطف والتعبيرية وما يرتبط بهما من خصائص نوعية. وقد شمل التمييز الجنوسي جوانب اجتماعية عديدة أهمها التعليم والنواحي الأكاديمية إذ لا زال بنظر

بعض المنظِّرين تخصصات مقصورة على الرجال دون الإناث، ويكون الوضع أكثر حدّة في المجتمعات الشرقية/ العربية حيث العديد من أقطارها تنظر إلى المرأة نظرة دونية، ويضعونها دائمًا في مكانة أو مرتبة وضيعة رغم تقلّدها المناصب المهمة (لدرجة لا يتقبل بعضهم ـ مثلًا ـ فكرة أن يكون قاضي المحكمة أو كابتن الطيران المدني أو طبيبة الجراحة . . . .من النساء).

ولكن ماذا يعني أن يكون الإنسان رجلًا؟ وماذا يعني أن يكون امرأة؟ تتوزع تفسيرات علماء الاجتماع للاختلافات القائمة وأوجه عدم المساواة بين الجنسين في ثلاث اتجاهات متعارضة:

1 . **الاتجاه الأول، يتمثل في الميل إلى اعتبار الخصائص البيولوجية أساسًا** لاختلاف السلوك بين الرجال والنساء، فالذكور عدوانيون ومتسلطون، أما الإناث فهن سلبيّات وخاضعات، الذكور يظهرون أكثر خشونة في أساليب حياتهم وفي لغتهم (وعواطفهم) تجاه النساء، وتبين دراسات علم النفس الاجتماعي أن النساء غالبًا ما يكن أكثر عاطفةً وانفعالًا وأكثر مسايرة من الرجال ويملن في الغالب إلى علاقات منسجمة مع الآخرين بطريقة عملية أكثر من الرجال.

2 . **الاتجاه الثاني** يعود إلى الأهمية التي تنمّيها عملية التنشئة الاجتماعية وتعلّم الأدوار وطرق التربية، فالنساء مثلًا في جميع الثقافات يتحملن المسؤولية الأولى عن تربية الأطفال ورعايتهم ويعتنين بمعظم الأعمال المنزلية، بينما يتكفل الرجال بتدبير المعيشة للعائلة، وقد أدى تقسيم العمل السائد بين الجنسين إلى ترتيب الرجال والنساء في مواقع غير متساوية من حيث القوة والوجاهة والثروة.

3 . **والاتجاه الثالث** يعتقد بأن لا الجنوسة ولا الجنس يقومان على أسس بيولوجية بل هما نتيجة تصورات اجتماعية، أمر نسهم في صنعه وتنميته خلال حياتنا اليومية عبر تفاعلنا الاجتماعي بالآخرين، حيث من الوجهة الاجتماعية ننتج ونعيد إنتاج الجنوسة عبر آلاف الأفعال والممارسات التي نزاولها كل يوم.

وتمثل الفوارق الجنوسّية وعدم المساواة شكلًا مهمًا من أشكال التراتب والتدرج الاجتماعي التي لا زالت قائمة في معظم المجتمعات، سيما في ثقافة وحياة الجماعات التقليدية حيث الجنوسة تشكل عاملًا أساسيًا في بناء أنواع الفرص وخيارات الحياة التي يواجهها الأفراد، كما تلعب دورًا في تشكل الأدوار داخل المؤسسات الاجتماعية، ورغم أن دساتير دول كثيرة تنص صراحة على المساواة بين جميع المواطنين في الحقوق المدنية والسياسية وفي تحمل المسؤوليات والواجبات وتولي الوظائف العامة، إلّا أن الواقع يناقض روح التشريعات، خاصة إذا كانت التشريعات لا تواكب مستجدات العصر، فتنطلق على ضوئه احتجاجات المطالبة بالإلغاء أو التعديل أو العمل على تشريع جديد، ومن الأمثلة على ذلك حملة الاحتجاج الذي أطلقتها نساء لبنانيات (خلال العام 2009)، حيث هناك ما يقارب عشرات الآلاف من النساء اللبنانيات متزوجات من غير لبنانيين ولا يقرّ لهن القانون اللبناني حق الحصول على الجنسية اللبنانية أسوةً بالدول الأخرى.

ذلك أن الوضع القانوني للمرأة في لبنان لجهة الجنسية ينص على:

- ☆ **تصبح المرأة الأجنبية التي تقترن بلبناني لبنانية بعد مرور سنة على تسجيل زواجها بناء على طلبها، وتبقى المرأة اللبنانية التي تقترن بأجنبي لبنانية، إلى أن تطلب هي شطب قيدها من سجلات الإحصاءات لاكتسابها جنسية زوجها، ويجوز للمرأة التي فقدت جنسيتها اللبنانية إثر اقترانها بأجنبي أن تستعيد هذه الجنسية بعد انحلال الزواج بناء على طلبها.**
- ☆ **والأجنبي الذي يقترن بلبنانية ويثبت أنه أقام إقامة منتظمة في لبنان مدة سنة منذ اقترانه الحق في أخذ إجراءات التجنس اللبنانية بموجب مرسوم من رئيس الدولة، لكن القوانين المتعاقبة أدخلت بعض التعديلات والتناقضات على هذا الصعيد.**
- ☆ **أما بالنسبة إلى جنسية الأولاد فإن القانون اللبناني ينص على أن الجنسية تنتقل بالأبوة ولا تنتقل بالأمومة إلا في بعض الحالات الاستثنائية (مما يعني أن أولاد المرأة اللبنانية من أب أجنبي ليسوا لبنانيين).**

وهذا دفع بالهيئات والجمعيات الأهلية اللبنانية المعنية بقضايا وشؤون النساء في لبنان، إلى تنظيم حملة تحت عنوان «جنسيتي حق لي ولأسرتي» ورفعها مذكرة مطلبية إلى الحكومة والبرلمان اللبناني، و إلى لجنة الأمم المتحدة المعنية بالقضاء على التمييز ضد المرأة في جنيف، تطالب فيها «بإصدار قانون جديد للجنسية وفقًا لاتفاق الطائف الذي ينص على أنه «**يعد لبنانيًا من وُلد لأب لبناني أو أم لبنانية**». كما طالبت المذكرة برفع التحفظ عن بنود «**الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة**» (سيداو)، لاسيما البند الثاني من المادة (9) بما يخص الحملة والتي تطالب الدول الأعضاء بها وهي «**إعطاء النساء نفس حقوق الرجال فيما يتعلق بجنسية أولادهما**».

يبدو الإجحاف في حقوق النساء ليس في لبنان وحسب، وإنما في مختلف الدول، حيث نجد النظرة إلى المرأة لا زال يشوبها نوع من التمييز الجنوسي، ففي أمريكا مثلًا كأكثر الدول تحضّرًا لازالت نساء كثيرات تتحدث عن ظاهرة التمييز الجنوسي (sexism) وعن تحامل الرجل على المرأة ومنافسته لها في ميدان الأعمال، فهن مستاءات لأن كل مراكز القيادة في العمل الحكومي والجيش والشركات الكبرى ومؤسسات الإعلام والجامعات يتولى إدارتها «رجال»، وهذا برأيهن دليل عن مدى تحيز الرجال تجاههن ورغبتهم في أخذ أداور القيادة والمكانة من أمام النساء، وذهبت بعضهن للحديث عن اضطهاد غالب على أمرهن، فمثلًا إذا قررت إحداهنّ أخذ قرض من المصرف المركزي فإن حظوظها بالحصول عليه معدومة إذا كانت عزباء، قد لا يكون مدير المصرف لديه شيء من التحيز على النساء وإنما «يتبع التعليمات» التي تفضي وجود تمييز على صعيد التعامل في المعاملات المصرفية بين الرجل والمرأة.

كذلك هناك شكوك من أن تكون المرأة طبيبة ماهرة، في عام 2004 أقيمت دعاوى قضائية جماعية ضد اثنين من كبار أرباب الأعمال الأمريكيين، فقد ادعت موظفات أميركيات بأن هؤلاء مارسوا التمييز ضدهن في الترقيات إلى مواقع الإدارة، وفي الوقت الذي يقول فيه المسؤولون الذكور بأنه ليس هناك تمييز وأن كل ما في الأمر ليس هناك نسوة مؤهلات بما فيه الكفاية، لا

زال الجدل محتدمًا في أوساط تجارية محلية وعالمية وبلدان كثيرة ما إذا كانت المرأة ممثّلة بشكل كافٍ أو لا في صفوف الإدارة العليا، سيما وأن أعمالهنّ تتناسب فقط مع مهن معينة حسبما بينت دراسة إحصائية عن أبرز المجالات التي تعمل بها النساء، فكانت النتائج على الشكل التالي:

٩٧٪ يعملن سكرتيرات	44% مدرسات في الكلية.
٨٩٪ ممرضات	30% محاميات.
٨٢٪ معلمات ابتدائي	23% طبيبات أسنان.
٨٠٪ عاملات اجتماعيات	13% مهندسات.
٦٪ عاملات في البيع	3% أطفائيات.

يتضح ممّا تقدم أن المرأة تحتل موقعًا ممايزًا وربما دونيًا عن الرجل في معظم المجتمعات التقليدية منها والمعاصرة، ويعود تفسير هذه النظرة إلى جملة اعتبارات اجتماعية واقتصادية وثقافية وحتى دينية، ويذهب البعض إلى تفسير التمايز في أطر ذهنية تتعلق بالشرف والعرض، وبأنها كائن سلبي قد يُعتدى عليها جنسيًا، وليس لها قوة الدفاع عن نفسها لهذا تشعر بمدى حاجتها لرجل مساعد. . وهذا ما عزز من اعتبارات الرجل كرجل متفوق أمام إنسان ضعيف. إلا أن مثل هذه النظرة نحو الأدوار الجنسانية التقليدية أخذ يقابلها اليوم حالات متطرفة من الأدوار غير التقليدية وفق البيان المقارن التالي:

الحالات التقليدية.	الحالات غير التقليدية.
يعرف الرجال بقوتهم العضلية، وقدرتهم على استخدام القوة المادية من أجل الأفضلية الاقتصادية، أما النساء فلا يظهرن القوة الصرفة إذا كن يردن أن يحبهن الناس ويتقبلهن.	إن الرجل المنهك في العمل الذهني يمكن أن يصبح رجلًا نموذجيًا في مجتمع تحظى فيه القوة الذهنية بمكانة أعلى من قوة العضلات في مجال النجاح الاقتصادي، بينما المطلوب نساء قويات، ذات عضلات وهذا ما يدفعهن نحو أندية رياضية بهدف اللياقة الجسدية. .
الرجال يكسبون الرزق، والنساء في البيت يعتنين بالعائلة.	أصبحت النساء الآن العائل المشارك وربما الوحيد في أسرهن، فأرباب البيوت من الرجال في تزايد مطرد بسبب سوء حركة العمل الخاص به.
الرجال وقحون وعدوانيون ويميلون إلى التنافس وواثقون بأنفسهم، أما النساء فخجولات ومتحفظات.	أصبح لدى بعض النساء نوعًا من الصفاقة مثل الرجال، والجرائم العنيفة التي ترتكبها النساء آخذة في التصاعد، لدرجة بات يتحدثون عن العنف ضد الرجل من المرأة.
الرجال مروضو جياد، والأفضل منهم من يمتلك القدرة على قيادة ماكينة عصره: الفرس/ السيارة/ الحاسوب.	أصبحت النساء على شيء من المهارة بمضاهاة الرجل في استخدام السيارة والحاسوب بل تفوقهم بالاختراع وحسن الأداء.
الرجال هم من يحددون الإنجاب، ويتحدد قدرهم بمدى فحولتهم.	كشفت البحوث الهرمونية أن الرجال مثل النساء لديهم الأستروجين، وسن يأس، وانخفاض في نسبة التستوستيرون، والتقنيات الجديدة التفت على الجماع الطبيعي وعالجت انخفاض عدد الحيوانات المنوية والبويضات عن طريق الاستنساخ. . مما قد يستغني عن الرجال كلية (بنوك الحيوانات المنوية على شاكلة بنك الدم / وبنك العيون).
تسعى النساء للتزين لأن المظهر الحسن مفتاح القبول الاجتماعي والنجاح في العمل.	يسعى الرجال إلى المظهر والحفاظ على الشباب بالقدر نفسه كما عند الفتيات، لهذا نشطت لديهم وسائل الماكياج والعطور والأقراط وجراحة التجميل.
كان الرجال من يقوم بأعمال الإصلاح والصيانة المنزلية والاهتمام بالجنائن.	توسع اهتمام المرأة في أعمال المنزل نحو الطلاء/ السباكة/ الإصلاحات الكهربائية/ وجز الأعشاب/ والاهتمام بالتغييرات المنزلية.
كان في السابق الحديث عن العلاقات الجنسية وعدم القدرة على الإنجاب نوعًا من المحرمات.	الاعتراف بدور الفياجرا وغيره من الأدوية يمثل نوعًا من التساهل مع المحرمات فيما يتعلق بالفعالية الجنسية.

رغم التقدم الذي حققته المرأة في ميادين كثيرة وبدرجات متفاوتة في

أكثر بلدان العالم، فإن الاختلافات الجنوسية ما زالت الأساس الذي يقوم عليه التفاوت الاجتماعي، وأصبح هذا التفاوت من الموضوعات المثيرة للجدل في الدراسات الاجتماعية وطرحت حوله تحليلات عديدة لتفسير هيمنة الرجال المستمرة على النساء في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والقضائية وحتى الأمور العائلية.

2) التمييز الطبقي:

عندما يتميز مجموعة من الناس عن غيرهم وفق عوامل مثل الدخل/ الحسب والنسب/ الوراثة السياسية، فغالبًا ما يتم توصيف ذلك ب «اختلاف المستوى»، وبعدما كان معيار الثروة أو طبيعة المهنة ونوعيتها من أبرز محددات المستوى المختلف، أصبح هذا المفهوم أكثر بروزًا وتنوعًا مع مستويات أخرى هي:

1 . **مستوى الاستهلاك**: الذي يعكس مدى الوفرة المادية، فالفقير لا يعرف الادخار ولا يستطيع أن يشتري كل ما يحتاجه نظرًا لدخله المتدني أو انعدامه، بينما تساهم الأجور العالية لدى فئات الدخل الأعلى بحبوحة مالية تتجلى معها ظواهر استهلاك تفاخري ونمط حياة مرفّه في المقنيات وطرق التصرف.

2 . **مستوى العمل**: في مجتمع الأعمال كثيرًا ما تقاس مكانة الأفراد باستقلالية المنصب الذي يشغله أحدهم: هل يعمل لحسابه أم لحساب أحدهم؟ هل هو سيد عمله أم شريك مع آخر؟ هل هو صاحب حرفة أم عامل؟ إذ حين يعمل الفرد لغيره أو تحت إشراف آخرين تتضح مكانته، ومن يعتمد على «مهنة» يعني ذلك علو مكانة (مثال الطبيب الجميع بحاجة إليه لذا يعتبر ذو مكانة.).

3 . **البيئة العائلية**: لا زالت بعض المجتمعات تؤكد على أهمية دور العائلة في تحديد مكانة الأفراد في وسطهم الاجتماعي، فخلفية التنشئة والإرث العائلي، كثيرًا ما يلعب دوره في تحديد فئات مجتمع عن آخرين. فمنها انتقلت فكرة النسب من جيل إلى جيل عبر مفهوم «الوجاهة».

4 . المستوى التعليمي: رغم أن التشريعات الحديثة كرست أحقية التعليم وجعله متاحًا أمام كل إنسان للوصول إلى تعليم عالٍ، إلا أن مثل هذا الوصول تحكمه قدرات مالية ومعرفية، فأبناء الطبقات الدنيا ليس بمقدروهم نيل الدراسات العليا لمتطلباتها المرهقة، مما يدفعهم إلى الاكتفاء بالمستوى الذي لديهم والعمل بمجالات أخرى قد تكون بعيدة عن اختصاصهم وهذا ما يساهم في بروز طبقية في مجالات الوظائف والحياة. وتبعًا لمؤشر التعليم حدث تشطير اجتماعي في السلم الوظيفي والعلمي حيث هناك فئات تمكنت من ارتقاء السلم الإداري والمهني بفعل مؤهلات علمية، لتموضع نفسها في مكانة مرموقة ومستويات اجتماعية أفضل ممن ليس لديها مؤهلات، كما هو الحال مع الأطباء المختصين والمحامين البارعين والمهندسين المبدعين ورجال الأعمال الكبار.

وأهم ما توصف به العلاقات بين الطبقات بأنها علاقات تناقض بسبب التفاوت في مواقع الطبقات داخل البنية الاقتصادية وعدم المساواة في الملكية، ومن شأن هذا التفاوت في المواقع الطبقية أن يُمنح البعض على حساب البعض الآخر قوة اقتصادية تتحول بدورها إلى قوة اجتماعية ونفسية وسياسية. وفي سبيل مزيد من التحديد تتصف التناقضات الرئيسة القائمة بين الطبقات بأنها:

* **علاقة استغلال**، وهو استغلال يتمثل في احتكار الثروة والجاه والنفوذ من قبل الموسرون المترفون لموارد المجتمع وثراوته، إزاء جماعة كادحة تعاني من الحرمان، تعاني ليس من المسكن والصحة بل في الكرامة.

* **علاقة سلطة**، تقوم على القهر والإذلال والقمع والكبت في شتى نواحي الحياة، إنه تسلط شامل يتمثل في علاقة الحاكم بالمحكوم، المدير بالموظفين، السيد بخادمه .

* **علاقة اغتراب**، حيث يشعر العاملون بحالة اغتراب عن ذاتهم، لأنهم عاجزون عن اتخاذ قرار، كما أنهم لا يشعرون بالرضى والاكتفاء الذاتي بل هم مجرد سلعة تبيع قوة ساعدها ويتم تبادلها في السوق.

* **علاقة عداء**، تقوم على الحسد والكره والنفاق والتعالي والتحقير من قبل حديثي النعمة الجاهلة لأصول اللياقات ودون نسب رفيع إزاء كادحين، لآخرين لا يتسنى لهم فرص العمل. ويتمثل مثل هذا العداء في ندرة الزواج بين الطبقات وعدم الاختلاط.

تُفهم الطبقة على أنها رتبة أو منزلة خاصة تختص بها فئة معينة من الناس لامتيازهم بمقومات مادية أو غير مادية، وتتضح معالم هذه الفئة عندما تقارن مع أفراد المجتمع الذين لا يملكون إلا النزر اليسير بالنسبة لهم، وبناءً على معيار امتلاك الثروة وعامل النفوذ المالي والإمكانات السياسية يتم تصنيف الناس في تراتب اجتماعي ومستويات طبقية، مقدارالدخل ـ كمؤشر تصنيف ـ يظهر بوضوح الفروقات الحاصلة بين الفئات الاجتماعية، فالطبقة الثرية أو المرتفعة الدخل جدًا تبدو في أسلوب حياتها راقية ونخبوية، تظهر عليها ملامح الثراء الفاحش بما تمتلك وبما تتصرف، في حين تبدو في الجهة المقابلة شريحة من الناس معدومة الإمكانيات والدخل لا تستطيع تأمين أبسط احتياجاتها حيث هي في أسفل الهرم الاجتماعي كطبقة وضيعة من المعوزين والمشردين والمتعطلين عن العمل. بين هاتين الطبقتين هناك الفئة المتوسطة التي تضم أساتذة المدارس/ الممرضات/ الحرفيين/ مديرو المشاريع الصغيرة/ الموظفون الرسميون. ميزة هؤلاء أن لديهم تحصيل جامعي يؤهلهم لعب دور إنتاجي معقول يجعلهم يعيشون حياتهم في كفاف. ثم هناك الطبقة العاملة التي تبيع قوة ساعدها ومهاراتها مقابل خدمات ورواتب ليست بالمغرية.

3) التمييز الطائفي

الطائفة تعريفًا، جماعة منظمة من الناس يمارسون معتقدًا دينيًا بطرق وطقوس مختلفة عن غيرها من الجماعات، إنها تشير إلى تنظيم اجتماعي له مؤسساته وأوقافه وشعاراته وعاداته، وتختلف في مفهومها عن الدّين الذي يشير في الأساس إلى العقيدة والمبادئ والتعاليم السماوية، بينما الطائفة كيان اجتماعي مغاير في الممارسة للعقائد والشعائر والتنظيم الداخلي، وبحسب

التنظيم الطائفي يتوزّع المسلمون بين سُنّة وشيعة وإسماعيلية ودرزية وعلوية وزيدية وأباضية، مع أن كلهم كدين مسلمون، وكذلك يمكن القول عن الطائفة المسيحية هناك: كاثوليك، شرقيون، لاتين، سريان، كلدان، أرمن، آشوريين، واليهود كذلك فرق ومنهم: الفريسّيون، الصدوقيون، القراؤون، الآسينوين، وغيرهم.. على هذا تتميز دول العالم اليوم بتركيبة اجتماعية متعددة الأثنيات، وقد تكون هناك أسباب تاريخية لهذا التعدد والتنوع أبرزها الهجرة: (كما هو الحال في الدول الأمريكية والأوروبية) أو قد يكون بسبب السياسات الاستعمارية التي مارستها الدول الأوروبية على أراضٍ وشعوب أخرى في آسيا وأفريقيا خلال العقود الماضية.

ترتكز النظريات التمييزية على تصوير الناس والمجتمع وفق عالم من الأضداد المتعارضة والثنائيات المتصارعة: أبيض/ أسود، ذكر/ أنثى. .مسيحي/مسلم وفي الأخيرة التمييز الطائفي، وكأنه اختلاف بفعل الطبيعة والبيولوجيا بينما هو اختلاف محض بشري، صنعه التفوق الحضاري والمصالح الاقتصادية، وكي يتكرس هذا الاختلاف الإثني أخذت التربية التمييزية برسم أشكال ومواصفات تسم الأنا الفاضلة عن الآخر الطائفي الدوني في عملية تمايز تعرف «بالتربية العنصرية»، تنطلق الطائفية كالعنصرية من عنصر الاختلاف في الانتماء لتضيف إليها تصنيفًا يوقع الناس في فخ المقارنة للتفضيل بين فئة أرقى = فوق، وفئة أدنى= تحت، مشيرة إلى وجود نوع بشري راقٍ وآخر أقل قيمة وشأنًا وبهذا التصنيف يتأسس التمييز وعدم المساواة في المجتمع ويأخذ الصراع المبني على الطائفة وجه النفور والتوجس والخوف من الآخر المختلف[1].

وفي هذا السياق ترى الباحثة (أوغاريت يونان) في كتاب لها بعنوان «كيف نتربى على الطائفية»، أن مسألة التقارب أو النفور ترتبط بمصدرين

(1) يذكر أن هناك عشرات الدول التي يتواجد فيها الطوائف المتعددة سواء بنسبة 1% إلى 99%، إلا أنه ثمة دولًا تتواجد فيها الطوائف بشكل مناصف50% ـ أي نصف إسلامية ونصف مسيحية ـ كلبنان وأثيوبيا وتشاد ونيجيريا، (وتسمى بدول الثنائية الدينية أو ميزان الرعب الطائفي).

أساسيين وهما التربية النفسية ـ السلوكية والمصالح الاقتصادية المرتبطة بجماعة ما لتؤسس إما تناغمًا وتكاملًا (على مستوى السلوك) وإما تنافرًا وعدائية وتمييز وهيمنة (على مستوى الحقوق)، إن الأثر الأكبر للتمايز الطائفي يأتي من سعيه الدائم إلى برمجة حياة الناس بشكل مغاير عن أي انتماء لآخر، فيُصبح التعلّق بالرمز والرموز (سواء كان إنسانًا أو صورة أو عيدًا أو ثوبًا . .) له قدسيته وعبوديته والدليل على الهوية، ويتكرس الأمر فعليًا في مؤسسات علم ورياضة و تربية وفنون وكشافة وجمعيات ومساعدات خيرية وتوظيف ووسائل إعلام. . حيث تقفل الدائرة على لون واحد وفئة معينة.

4) التمييز العرقي

يقصد بالعرق جماعات بشرية تتميز عن غيرها بسمات شكلية ظاهرة من شأنها أن تجعلهم مغايرون اجتماعيًا عن غيرهم من بني البشر، حيث هناك البيض/ الأفارقة/ الآسيويون/ الصينيون. . جميعهم يعتبرون أنفسهم من عرق مختلف عن الآخر، في معظم المجتمعات هناك من ينتمي إلى الجنس الأبيض وذاك إلى الأسود وآخر إلى الأصفر، وذلك بناءً على تمايزات شكلية في طبيعة أجسامهم أو لون بشرتهم أو انحراف عيونهم، ويصنّف الغربيون مثلًا: الأفارقة من العرق الأسود/ اليابانيون من العرق الأصفر/ الآسيويون من العرق الأسمر/ والأوروبيون من العرق الأبيض. .) ورغم أن كثير من الناس تأخذ بهذا التصنيف إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه ـ ومع اختلاط الأجيال من كافة الأعراق ـ لا يوجد هناك عرق صاف مائة بالمئة، وإن ذكرت الألوان كمحدد بين شعب وآخر فهي على سبيل الوصف، لأنه تبين علميًا من الدراسات البيولوجية أن جميع الناس متشابهين في تكوينهم البيولوجي، وأن الدم الذي يجري في عروقهم لونه واحد. حتى فرضية أن هناك أعراقًا أكثر ذكاءً وتحضرًا من الأخرى بحاجة إلى أدلة علمية، والقول بأن العرق الأبيض أكثر نشاطًا وتهذيبًا وحيوية، لايمكن الأخذ به من وجهة النظر الإنسانية والعملية، وإذا كان بعض الفلاسفة الغربيين يحاولون اللعب على مسألة الاستعدادات والإمكانيات القادرة فإنه لا يمكن الركون إليها بشكل قاطع، فكل الأعراق لديها معطيات حضارية وهذا لا يعني بالضرورة أنها متخلّفة عن الركب

الحضاري أو أقل مهارة في التهيؤ الاجتماعي. وما طرحها والتداول بها سوى لأسباب محض سياسية، تريد أن تبرر فرضية تفوق العرق الأبيض في الإدارة والحكم.

في كثير الأحيان يظهر التمييز العرقي من خلال استضعاف الأقليات عبر مواقف اللامساواة ضدها على المستويات الفردية والاجتماعية لتصل في بعض الأحيان إلى المستوى المؤسسي المتمثل بتطبيق القوانين أو مزاولة الأنشطة السياسية والمهنية، وتشير الباحثة الأمريكية (أليجا أندرسون) بأن التمايز العرقي يبرز أوجّه بين البيض والسود ومما تذكره في مجال «لقاء العيون» بينهما:

- ✓ **إن البيض يقلقون من وجود ذوي الأعراق الأخرى بينهم (وخاصة السود لهذا لا يطيلون النظر إليهم).**
- ✓ **إن السود يشعرون بقلة الاكتراث والتقدير من البيض ويتجلى ذلك بشكل ملحوظ من نظراتهم العابرة (كأن يحدجه من طرف عينه بمغزى يقول: أخذت علمًا بوجودك وهذا يكفي).**
- ✓ **بعض السود يستغربون عندما يطيل شخص أبيض النظر إليهم، هذا الاستغراب مرده إلى ما هو شائع عن البيض من لامبالاة بهم وعدم اكتراث لهم. (يطيل النظر يعني في الأمر شيء؟).**
- ✓ **لا ينسرُّ الأبيض كثيرًا من وجود رجل أسود في محيطه القريب فيبادر إلى العبوس أو تقطيب الجبين كدلالة عدم رضى[1].**

لعل ما ورد أعلاه يعتبر واحدًا من أكثر المفاهيم المتداولة في علم

(1) والحال ليس بأفضل في بلد كلبنان، فقد ذكرت صحيفة حبر اللبنانية في عددها الصادر بتاريخ آب 2010 تحقيقًا بعنوان: «مسابح التمييز العنصري»، كيف أنه ممنوع في معظم المسابح اللبنانية أن تترك المساعدة المنزلية ذات البشرة الداكنة (السريلنكية/ الأثيوبية..) النزول إلى المسابح. بل يقفن على الحافة جاهدات في مساعدة الأولاد... ولدى الاستفسار عن ذلك أفاد أحد مسؤولي المسابح: «وضعت هذه القوانين بسبب انزعاج اللبنانيين من نزول الخادمات إلى البيسين».

اجتماع الحياة اليومية حول العرق، فالدراسات ومنذ عقدين من الزمن تدأب على تصنيف الشعوب في أعراق وأقليات، وقد وصل الأمر بعدد الباحثين إلى تصنيف الشعوب في ثلاث مستويات أو أعراق: الأبيض (القوقازي) والأسود (الزنجي) الأصفر (المنغولي). وذهبت بعض الكتابات إلى اعتبار العرق الأبيض يتصف بصفات متفوقة من حيث الذكاء والسمو الأخلاقي والإرادة وهذه الصفات الإرثية هي التي أدت إلى بسط المجتمعات الغربية سيطرتها على العالم، وهي التي عززت حركة (أدولف هتلر) النازية العنصرية والعرقية باعتباره العرق الجرماني أسمى الأعراق وما دون هذا العرق يقتربون من المرتبة الحيوانية في افتقارهم للقيم الأخلاقية والأسلوب الحضاري. على النقيض من ذلك فإن باحثون معاصرون بات لهم توجه آخر عند الحديث عن التمييز العرقي حيث لم يتوقفوا عند اعتبار الشكل الفيزيولوجي مؤشرًا أساسيًا للتمييز، إنما ذهبوا بعيدًا في الإشارة إلى اختلاف في الثقافات والعادات والتقاليد وتدبير شؤون الحياة، كيف يختلف كل عرق عمّن سواه؟ هذا يفضي إلى أن التمييز العرقي لا يعني بالضرورة اختلاف لون البشرة، شكل العيون، حجم الأنف، قصر القامة أو امتشاقها[1].

وإنما الاختلاف هو في القيمة الاجتماعية المعطاة لهم: كيف هم كأفراد جماعة بالمعنى الاجتماعي؟ بعض خبراء التفاعل الاجتماعي يتحدثون اليوم عما يعرف ب: «تعريف الموقف»، أي أصبح هناك نظرة عامة تدفع الناس لأن يتفاعلون ليس بناءً على الملامح الشكلية للفرد وإنما بناءً على الموقف الاجتماعي فيما بينهم. وهذا ما يجعل كثير من الأفكار المنمطة تتهاوى أمام التفاعل البشري المباشر والحكم على الناس المنتمين إلى أعراق مختلفة :ماذا يعملون؟ كم هم إنسانيون وليس لأنهم ملونون. . ؟.

(1) خاصة وأن في سلالة كل عرق بات هناك تداخل، إذ في بلد كالبرازيل مثلًا هناك أكثر من 40 لون متواتر من أعراق متنوعة، وفي دول أخرى باتوا يتحدثون عن صنف عرقي جديد تحت عنوان متعددو الهوية (MULTIPLE IDENTITIES) مثل: / mistzo hondurans mulatto .colombiano/ African panamaians

* التحيز

بماذا يختلف مفهوم التحيز عن التمييز؟

في اللغة يعني التحيز :bias الانحياز إلى جانب نظرية أو فرضية أو تفسير معين أو الوقوف ضدها مما يؤثر بصورة غير واعية في الحكم الذي يصدر عن الفرد، أنه اتخاذ موقف يصدر عن هوى في النفس ويستبق التحقق من صحة الشيء والتدقيق في ملابساته. أما المعنى السيكولوجي لهذا المفهوم فهو «شيء من التحامل وموقف عدائي يتسم غالبًا بصبغة انفعالية عاطفية أو موقف تحبيذي من أفعال وأشياء تنتمي إلى نوع معين أو من بعض الأشخاص والعقائد والمذاهب».

في معجم علم الاجتماع يشير هذا التعبير على التجنب avoidance، الذي يعني نوع من أنواع السلوك يتسم غالبًا بطابع السلبية وعدم التعاون، وفي مواضع أخرى يؤشر بمفهومه إلى: التباعد «النفسي» الذي يمارسه أفراد وجماعات تجاه بعضهم البعض سيما إذا كانوا في مكان واحد أو مناطق سكنية متقاربة أو في مؤسسات عمل مشتركة، وهذا ما بحثه رواد علم النفس الاجتماعي ضمن دراسات المسافة الاجتماعية، ومدى أهمية الفرد للآخرين كي يشاركهم الدراسة أو العمل أو الزيارات وغير ذلك من مختلف الأنشطة، كما تَعنى ببحث الاختيارات المتبادلة في جماعات الأقران بناء على قياس مشاعر الحب والكراهية بين الأشخاص ونوع الصداقات القائمة ودرجة الشعبية ومدى التقبل الاجتماعي وعوامل الجذب والنفور والانجذاب والتحيز مقابل الابتعاد والنبذ ومن الأمثلة تذكر هنا المحاولة التي قام بها (بوجادرس) التي أراد من خلالها التعرف على مدى تقبل الأمريكي أو نفوره من أبناء القوميات الأخرى، (أي مدى درجة انحياز الأمريكيين نحو بعضهم البعض ومدى

ابتعادهم عن أبناء الشعوب الأخرى)، فوجد بعد تطبيقات عديدة لتقنية بحث استطلاعية على عينة من 1725 أميركيًا، أن الأميريكين يُظهرون نوعًا من التباعد تجاه الأتراك في حين يبدون نوعًا من التقارب (الانحياز) تجاه السويديين.

الأنوية الثقافية:

في مواقف الحياة اليومية يتواجه الناس باختلافات ثقافية أو دينية أو مناطقية ويسارع بعضهم إلى وصف من يختلفون عنهم بأنهم غير حضاريين/ بدائيون/ جاهلون للحياة المدنية/ غير مدركين للتطور، ويصبح ما يعتقده هؤلاء ـ النحن ـ بأنهم «الأفضل والأصح» وما يعتقده الآخرون ـ الهُم ـ خزعبلات وترهات، مثل هذه النظرة هو ما يصطلح على تسميتها بالأنوية الثقافية والتي تعني:

☆ أن كل شعب يعتقد بأنه هو الأفضل ثقافةً والأرقى حياةً إزاء الآخر الموجود في العالم، ويعود مثل هذا الاعتقاد إلى الموروث الديني الذي عزّز الفوقية، فاليهود يعتبرون أنفسهم «شعب الله المختار على الأرض»، بل إن أرواحهم جزء من الله، فإذا ضرب غير إسرائيلي (جوييم) إسرائيليًا فكأنما ضرب العزة الإلهية. وأن الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بمقدار الفرق بين اليهودي وغير اليهودي، والمسيحيون بنظر أنفسهم هم نور العالم حيث قال لهم نبيهم: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس» (إنجيل متى: 28-16) أما المسلمين فيعتبرون أنفسهم بأنهم الأمة الخيّرة التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 110].

☆ تعني تلك الهوة النفسية القائمة بين جماعتين، وبأن كل جماعة تمارس في نظر ذاتها الحضارة وبأنهم هي «الواقع» و«الممكن» و«المعقول»، أما الآخرين فهم خارج نطاق المعقول والزمن أيضًا، كتلك المفارقة القائمة في النظرة إلى الزواج من الأقارب، ففي الوقت الذي يحافظ عليه العربي ويشدد على أهمية الزواج من ابنة العم أو الخال مثلًا، يراها الغربي نوعًا من سفاح القربى وينكره.

☆ تعني أن النظرة نحو الآخرين المختلفين تتعزز دراماتيكيًا من خلال وقائع وأحداث وقضايا اجتماعية غريبة يقوم بها الآخرون بينما النحن لا يمكن أن يفعلها لأنها «غير مستحبة» و«غير لائقة» أو لأنها مجرمة بحق الإنسانية والحضارة، وذلك وفق مقولة: «لا أفعل ذلك أبدًا، وإن حدث لا أفعله بالشكل الفظيع الذي يفعلونه» والمثال على ذلك ما يروّجه الإعلام الغربي دائمًا بأن من يفعل الجرائم في بلادهم ليسوا المواطنون وإنما الغرباء ـ الوافدون من أبناء الأقليات الأخرى المعروف بحبهم للعنف والدم.

مثل هذه الأفكار المنمطة في تقييم الآخر من منطق تفوّقي وأفضلي قد يؤدي برأي بعض الباحثين إلى شيء من التحامل وسوء الفهم والتباعد الاجتماعي والنفور. وهناك مقاربتان نظريتان تحاول أن تفسر الأسباب التي تدفع إلى الانحياز وفهم التوجهات المتحيزة، المقاربة الأولى: ترى بأن التحيز ينطلق من الأفكار المنمطة، أي من أسباغ خصائص ثابتة ومتصلبة على جماعة بشرية معينة قوامها مشاعر العداء والفوقية وإلقاء اللوم عليهم في كل فعل اجتماعي غير مستحب، وقد يلجأ أفراد و جماعات إلى نعت الآخر و التصرف معه أو الحكم عليه من خلال أقوال ذهنية جاهزة دون أن يكون لذلك أيّة منطقية. أما المقاربة الثانية فترى أن هناك جماعات تتحكم فيها اعتبارات تنشئتهم الاجتماعية المبكرة حتى تجعلهم ميّالين أكثر إلى التفكير الانفعالي الذي يتمثل في إسقاط نوازع الفرد و رغباته أو فورات مزاجه ولحظات غضبه على الآخرين . . من هنا تتبدّى ملامح التحيز التعصبية في الاتجاهات التالية:

1 . **اتجاهات تحيّز قومية**، ومضمونها حب الوطن والغيرة عليه، والشعور بالانتماء والثقة بمنتوجاته، وبمهارة أبنائه وإبداعاتهم، وإبداء الكراهية لمن يعاديه أو يستخف به أو يهاجمه، وقد يصل إلى حد رفض زواج أبناء بلد من قومية أخرى أو رفض شراء بضائع مستوردة.

2 . **اتجاهات تحيز دينية**، أي التعاطف مع الأشخاص الذين يدينون بالدين نفسه، تقديم المساعدة، إقامة صداقة معهم أو المصاهرة منهم، والتحمس

لمناصرته والدفاع عنه.

2 . **اتجاهات تحيز اجتماعي**، حين تقتصر التعاملات الاجتماعية على الأشخاص الذين يتماثلون في المستوى المادي، وعدم الارتياح لإقامة أي نوع من العلاقات مع الذين يتباينون في هذا المستوى، كما يظهر في عدم الرغبة بالذهاب إلى أماكن «تعتبر شعبية» أو وضع أبنائهم في مدارس أدنى مستوىً مع أبناء مناطق فقيرة وعائلات دنيا.

4 . **اتجاهات تحيز سياسي**، يدور مضمونه حول تبني فكر سياسي واحد، والاستماتة في الدفاع عنه، ومحاججة الآخرين بشتى الطرق الممكنة في صوابية ما يقوم به، الإيمان بأنه الوحيد الصحيح والهادف، والغيظ الشديد وعدم الارتياح من جوانب نقد تثار ضد الأفكار التي يعتنقها الشخص، وعدم الارتياح للوسائل الإعلامية التي تحاول نشر إشاعات ضدهم.

5 . **اتجاهات تحيز رياضي**، وهو الميل لتشجيع الفرق الرياضية لنادٍ معين دون سواه، والاعتقاد بأنه أفضل من سائر الأندية، والشعور بالسعادة عند مشاهدة مبارياته والشعور بالحزن والضيق عند الهزيمة، والاستمرار بالتشجيع رغم الهزائم، وتفضيل الصداقات مع الأشخاص الذين يشجعون النادي نفسه، وقد يتطور إلى حدوث إشكالات وتوترات بين مناصرين نتيجة ارتفاع حدة الاستفزازات.

6 . **اتجاهات تحيز ثقافي**، ومحورها أن الثقافات تتباين في الغنى المعرفي والقيم والأخلاق ومدى إفاداتها لمعطيات العصر، وأيها يمكن أن تكون المجال للتخصص والتعلم ولمواصلة الدراسة، وهذا ما يحدث بين الثقافات الإنكليزية، والفرنسية، والعربية.

7 . **اتجاهات تحيز حضارية**، سواء من قبل المحافظين تجاه الحضارة الغربية حيث يعتبرونها بمثابة السرطان الذي يفتك بالعادات والتقاليد، وإن مجمل مشاكل الجيل الجديد في المفاسد تتأتى من ورائها ومن عدم تمسكهم بالتراث. . . أو سواء من قبل التحررين، الذين يقولون بأهمية التجديد والتقدم والتخلص من التقاليد البالية في الفكر والملبس والسلوك. .

والمناداة بالتحرر في شتى الأمور.

* الأصولية والتعصب:

استخدم لفظ الأصولية كترجمة حرفية للتعبير الأجنبي FUNDAMENTALISM للدلالة على الدعوة في العودة إلى أصول الدين الأولى. يعني هذا اللفظ في اشتقاقه اللغوي: معاني التأسيس والتأصيل والقاعدة والجوهر والحقيقة، وفي دلالاتها معاني الرجوع إلى الأصل وقواعده والتمسك بحقيقته اعتقادًا وممارسةً، بداية هذا المصطلح تاريخيًا انطلق من حركة بروتستانتية أمريكية أطلقت على نفسها ذات الاسم، عندما أخذت في الثلاثينات من القرن الماضي تؤكد على أساسيات الدين المسيحي المتمثل في التطبيق الحرفي لنصوص الإنجيل والعصمة عن الخطأ وعودة المسيح الوشيكة والغفران، وإنجاب السيدة العذراء للمسيح والفداء والقيامة ومعجزات المسيح كأساس للعقيدة المسيحية. وما زال معظم الأصوليين من هذه الحركة يمتنعون عن التدخين وشرب الخمرة والرقص ومشاهدة الأفلام مع حضور الصلوات والأناشيد الدينية كالتزام بالأصوليات.

كذلك الحال في الإسلام ترافق المصطلح مع بروز جماعات تدعو إلى ممارسة معالم الدين الإسلامي كما هي، وفي الوقت الذي يسميها أصحابها بالصحوة، أي حركة تصحيحية تدعو إلى العودة لأصول الدين الإسلامي والسير على خطى السلف الصالح الذي طبّق العقيدة بتمامها في السلوك والحياة، شنّ الإعلام الغربي ـ ولا يزال ـ حملة على هذه الدعوة الإسلامية مُسبغًا عليها صفة الأصولية التي حوّلها إلى مسألة تطرّف وتعنّت وظلامية وصولًا إلى اعتبارها إرهاب منظم.

تتوافق ـ إذن ـ الجماعات الدينية إلى حد بعيد حول مكونات الثقافة الأصولية، فالأصولية البروتستانتية (الأمريكية) والكاثوليكية (الأوروبية) تنادي بالتمسك بأساسيات الدين المسيحي والعودة إلى الأصول النقية بالابتعاد عن مظاهر الانحلال الاجتماعي والموقف المتزمت من الذات ورغباتها، وبالمثل الحركة الإسلامية التي نادت بالعودة إلى الفطرة والخضوع للإرادة الإلٰهية

وصدارة الإيمان على العقل والحجة وإقامة دولة حكم الله (للخروج من وضعية الكفر) والتمسك بالمرجعية النقية أيام الرسول وإلغاء ما بعدهم، توحيد المسلمين تحت راية القرآن ويحتم ذلك على المسلمين أخذ قيادة العلم والسياسة من غير المسلمين (استعادة المرجعية المفقودة) وهكذا تتلاقى الأصوليات الثلاث ـ البروتستانتية والكاثوليكية والإسلامية ـ في وضعية الدعوة إلى الحالة الماضية المثالية (الفردوس المفقود يجب استعادته) في مقابل رفض آفات الحاضر وفساده والتمسك بسلوك متشدد مع الذات يصل إلى حد التزمت في التعاليم والشعائر وتطبيقها. تبدو الأصولية (وبتعبير مرادف التمامية integrism كما يطلقها الغرب على الحركات الإسلامية بمعناه المتعنّت في تصلبه ورجعيته وجموده) في اختلاف مفاهيمها الدينية واحدة التوجه لجهة:

✓ فساد الحاضر وضياع إنسانه.
✓ ضرورة العودة إلى حالة النقاء السلفية كطريق وحيد للخلاص.
✓ تلمّس الضوء المرشد إلى الطريق الصحيح بعد تخبّطه في لُجّة الضلال.
✓ استلهام الصحوة من الثبات والعودة إلى الحركة بعد السكون.
✓ ادعاء الحل الوحيد لمشكلات الكون.

إلا أن العودة إلى هذه الحالة ينزلق نحو الدخول في صراع مفتوح مع الآخر الذي يرفض الاعتراف بحقه في الاختلاف والمغايرة مما يفتح السبيل أمام احتمالات العنف، وقد تتدرّج حالة الصراع مع الآخر: ما بين مجرد عودة إلى الأصول بحثًا عن معنى روحي أو ما ورائي للوجود وبين فرض الجماعة لذاتها في حالة رفض الآخر لها وهذا ما أدى إلى حالات التعصب.

*** ما العلاقة القائمة بين الأصولية والعصبية والتعصب؟.**

العصبية هي غريزة التجمع والتعصب له والميل إلى القطيعة في الانتماء وإلغاء المغاير المخالف، حيث الفرد كل الجماعة في نوع من ذوبان الذات في النحن. تقوم العصبية في الأساس على النسب والقربى ومن هنا فإن أعضاء العُصبة هم إخوة في رابطة الدم وفي حالة الأيديولوجيات تتحول الأخوّة من رابطة القربى إلى رابطة الأخوّة العرقية أو الدينية أو القومية. .من هنا تتخذ

عصبية شكل «النحن العصبي» المتمثل في التناصر والتعاضد والالتحام وصولًا إلى حالة الدفاع عند المواجهة.

أما التعصب فيشير إلى آلية الغلو والقطيعة التي تذهب إلى حد الشطط في دعاء الحق والكمال للذات في مقابل استنكار ما يكون غير ذلك، والتصدي لضد بالقوة وصولًا إلى إخضاع الآخر في الرأي وإنكار وجوده، أنه ـ إذا كان فرديًا ـ التشنّج المفرط في الموقف والسلوك على نحو ما تفسره أبحاث علم لنفس، كما أنه ـ إذا كان جماعيًا ـ الانتماء إلى جماعة والتوحّد بها بحيث تصبح مرجعية تحديد الهوية والوجود لكل من الداخل (النحن) مقابل الخارج (الآخر) حتى يصبح هناك انشطار انفعالي واضح ((split-off) ويُقصد به في لغة التحليل النفسي ذلك الفصل القاطع بين نزوة الحب ونزوة الكره، فيُوجّه الحب إلى موضوع/موقف/جماعة، ليصبح في مرتبة المثال وهو ما يكون عليه الأنا في الغالب، أما الآخر فهو نموذجًا للرذيلة ومجسّدًا للشر. لهذا تبين الدراسات الاجتماعية تواتر الميل التعصبي عند البيض ضد ما يُعتبر غريبًا عنهم سواءً على مستوى العرق (هناك السود) أو سواءً على مستوى الجنسية (هناك العرب) أو سواءً على مستوى العقيدة (هناك الشيوعيون) كما ينصب الميل التعصبي ضد من يعتبر ضالًا عن الجماعة وعن مبادئها (مثليي الجنس).

وبالحديث عن الاتجاهات التعصبيّة أبرزت دراسة ميدانية حديثة[1] (لبنان 2010)، معطيات هامة على صعيد اتجاهات التحيّز المذهبي عند الطلاب الجامعيين في لبنان، فقد توصلت الباحثات إلى معطيات مهمة لجهة وجود تعصب شاسع لدى الطلاب في الجامعات حيث أكد من نسبتهم 54% بأن هناك تعصب فيما بينهم، ويأخذ هذا التعصب أشكالًا منها: الديني (29%) السياسي (40%) الاجتماعي (10%). وقد أظهرت الدراسة أن سبب التعصّب يرده الطلاب إلى رجال الدين (38%) رجال السياسة (33%) وسائل الإعلام (25%).

(1) الاتجاهات الدينية والتعصبية لدى الشباب الجامعي، أطروحة أعدتها: رجوى فيتروني ودعاء غصن وعايدة نصر الله؛ قسم الإشراف الصحي الاجتماعي/كلية الصحة العامة، الجامعة اللبنانية/ زحلة 2010.

ولدى سؤال أفراد العيّنة عن الغايات الأساسية التي يجب أن يولوها درجات الاهتمام أولًا (من الخيارات المدرجة)، جاء مؤشر: «أن يتمسك كلٌ بمعتقداته» بأعلى نسبة (41%) يليه مؤشر: «أن يثبت وجوده كملتزم مهما كلف الأمر» (28%)، ثم «أن يحترم معتقدات الآخرين» بما نسبته (16%) فالانفتاح بأدنى نسبة (10%) وعن إذا كان الطلاب يعتبرون أنفسهم متعصبين طائفيًا أو مذهبيًّا أقرّ من نسبتهم 54% بنعم، مقابل 20% بلا، في حين لم يرد من نسبتهم 25% الإجابة.. وتأكدت مثل هذه النسبة للباحثات لدى الاستفسار عن موقفهم فيما لو تعرضوا لاستفزازات حول معتقداتهم الدينية، ليجيب أكثريتهم بأنهم يقومون بردات فعل مباشرة أو بأخرى حسبما يقتضيه الموقف.

* ارتداء الحجاب... إشكالية تحيز أم تمييز؟

«منع المحجبات يثير استنكارًا» هكذا عنونت صحيفة لبنانية لخبر مفاده أن مجموعة طالبات محجبات من كلية جامعية مُنعن من دخول مستشفى حكومي بهدف القيام بالتدريب العملي المطلوب من قبلهن، وقد ورد في البيان الصادر عن تجمع طلابي لمناصرة قضية الطالبات والذي استندت إليه الصحيفة في نقل الخبر «أن ما جرى يدعو للاستغراب والاستنكار ويأتي في سياق نهج عنصري بغيض وقمع لحرية المعتقد والثقافة ومحاولة للسير على خطى ما يجري في فرنسا» (صحيفة النهار / 17/ 4/ 1999) هذا في لبنان.

أما في فرنسا فقد أثارت قضية ارتداء الفتاة المسلمة للحجاب استنكارًا جماعيًا في أوساط الجالية الإسلامية، وذلك بعدما أخذت المدارس تشدد على منع ارتداء الرموز الدينية في المدارس والجامعات مثل الصليب والحجاب، وصل الأمر بالقرار التربوي إلى أن من يرتديه يُطرد، مثل هذا القرار أثار حفيظة المسلمين واعتبروه بمثابة تجنّ ومسّ بمشاعرهم ورموزهم الدينية. إزاء ذلك وجد البرلمان الفرنسي نفسه أمام تحدٍّ في موضوع منعه، فإن أقرّ به يأتي ذلك بمثابة طعنة للتلاقح الحضاري وتنوّع الثقافات التي تنادي به فرنسا، وإن لم يقرّ ويترك الأمر يصبح ذلك بمثابة تكريس للامساواة بين المواطنين كما يقول المعارضون له، سيما وأن 78% من الفرنسيين في

ستطلاع للرأي حول الحجاب يدعمون قرار البرلمان في منعه.

ومثلما حدث في فرنسا كذلك الأمر في تركيا فقد أثار ارتداء الطالبات حجاب في الجامعات جدلًا واسعًا بين مؤيد ومعارض خاصة بعدما عمدت حكومة إلى منع ارتدائه داخل الحرم الجامعي.

في أمريكا حدد الباحثون ثلاث تصورات للحجاب من خلال ستطلاعات رأي عنه (استخدم لفظ حجاب hijab وليس الترجمة الإنكليزية له «VEIL») فتبين أن هناك: فئة من الفتيات المتعلمات تؤيد ارتداءه في الوسط لأمريكي باعتباره يدخل ضمن «الحرية الشخصية»، وهناك فئة من النساء لمتقدمات وذات مستوى علمي متوسط لا يرين مشكلة في وجوده، بل يتساءلون لماذا يثير مثل هذه القضية، والفئة الثالثة من نساء في أعمار مختلفة وبمستويات علمية متفاوتة يعارضن مسألة الحجاب ويرفضنه في وسطهن.

إلى ما يعود هذا الجدل في ارتداء الحجاب أو منعه؟ ألأنّه رمز ديني ينمّ عن التزام و ممارسة لمعتقد ديني فرضه القرآن الكريم فيأتي التحامل عليه ضمن الحملة على الإسلام كدين؟ أم لأنه رمز الإسلام التقليدي فينبغي إعادة النظر فيه برأي دعاة التغيير (كما فعل كمال أتاتورك عندما حكم تركيا 1923 فمنعه واستبدله بغطاء رأس آخر)؟ يبدو أن إشكالية ارتداء الحجاب اليوم ليست من مجرد كونه سترًا أو غاية شرعية لناحية التعفف، بل لحالة «التسيّس» التي رافقت هذا الرمز الديني حتى اتخذ بُعد ارتدائه مظاهر ومعانٍ جديدة، كاستعماله للتعبير السياسي والطائفي وحتى المذهبي..(ظاهرة تنوع الأحجبة لدى الفتيات اللبنانيات كلّ مجموعة يؤشر طريقة حجابها إلى الجهة التي تنتمي) فأصبح اللباس الشرعي ـ وبما فيه الحجاب ـ من أكثر المجالات إظهارًا للخطابات الاجتماعية ودلالات التمييز، ويكتنز في ارتدائه خيارات عقائدية وسلوكية، فالأبعاد الخطابية للزي متعددة إما أن يكون خطاب استعلاء وتحقير (ما أرتديه أنا.. أثمن مما تريده أنت/ فتاة محجبة تعتبر نفسها أفضل من المتبرجة..) يعتمد التنقيص والتكفير أو خطاب دعوة ووعظ عام، وإما أن يكون مدخل لخيار ديني معين حيث يُفسر باحثي علم النفس

التواصلي الحجاب على أنه «نوع من الانتماء إلى شريحة معينة وإحساس الشخص بأن له هوية دينية، بل ظاهرة تعكس فرضًا على نساء وأطفال لأغراض سياسية».

إزاء تنامي ظاهرة انتشار الحجاب في مختلف الأوساط وتحامل بعض الأنظمة السياسية عليه، يلاحظ أن هناك مبررًا في سر انتشاره يعكس في الأساس قيمة ثقافية أكثر منها دينية، ذلك أن الأنماط الجديدة للحجاب أخذت تتأثر بمفهوم الموضة والعلاقات والشخصيات ومصالح العمل، إذ غالبًا ما تبحث الفتيات المتحجبات عن صورة عصرية لمظهر يعبر عن بُعد ديني، وفي بعض الحالات يرتدينه من أجل الحصول على أمان اجتماعي (إزاء ضغط العائلة والمجتمع) كذلك دخل انتشاره عالم الأعمال والتجارة فأصبح مع مرور الوقت مدلول تجاري يسوّق لأشكال مختلفة من اللباس.. كما أن ارتدائه قد يكون عائقًا أمام قبولهم في الأعمال والوظائف، حسبما أظهرت دراسة لبنانية بعنوان «أحكام الحجاب عند المرأة المسلمة» (الجامعة اللبنانية/ معهد العلوم الاجتماعية / زحلة 2005)، استطلعت فيها الباحثة عينة من الفتيات الجامعيات بأن 50% منهن يجدن في ارتداء الحجاب عائقًا أمام قبولهن في الوظائف مقابل 50% لا يعتبرونه كذلك. وعن سبب ارتدائهم الحجاب؟ 66% أجبن لأسباب دينية، 14% تأثرًا بصديقات، 14% لقناعة شخصية، 6% كشرط زواج. وبالسياق ذاته بينت دراسة مسحية أُنجزت العام 2007 (المغرب) بعنوان «الإسلام اليومي: الطقوس والممارسات الدينية عند المغاربة» إلى أن نسبة 84% عبّرن عن تثمينهن لهذا اللباس إلا أن 17% من مجموع النسبة حددن اختيارهن للحجاب لأسباب غير دينية تتعلق بالموضة والتستر من المجتمع، فما دلالة هذا المؤشر؟ تشير مثل هذه المسألة إلى بداية انزياح الشعائر والالتزامات الدينية من مضمونها التعبّدي إلى مظهر اجتماعي وسلوك تقليدي كما حلل باحثو الاستطلاع[1].

(1) (عن مجلة إضافات العدد الثامن ـ خريف 2009، من مقالة لرشيد جرموني: التحولات القيمية بالمغرب: الشباب نموذجًا).

خلاصة

في حالات كثيرة قد يكون التراتب الإثني مركّبًا يشتمل على أكثر من متغير هيكلي: في المجتمع الأمريكي مثلًا هناك: **محور سلالي عنصري** تكرس قوة القانون الوضعي (حيث يضع البيض في رأس الهرم وأبناء الأعراق الأخرى في رُتب تالية)، **ومحور ثقافي ـ لغوي**، الذي تكرس بدوره بقوة الأعراف والتقاليد غير المكتوبة، حيث تأتي الثقافة الإنجلوسكوسونية ومن ينتمون إليها في قمة الهرم الإثني، تليها الثقافة اللاتينية فالسلافية ثم الثقافات الأخرى غير الأوروبية، **ومحور ديني ـ طائفي**، حيث توجد ثلاث جماعات دينية رئيسة وهي البروتستانت والكاثوليك واليهود بشكل تراتبي وفق التسلسل المشار إليه. مع هذه التصنيفات والتي يوجد مثيل لها في دول أخرى من العالم لا يتوقّف الباحثون عند تباين المتغير الهيكلي الذي تنقسم على أساسه الجماعات بل يركّزون على نمط العلاقات القائمة و القواعد التي تحكم هذه العلاقات التي قد تكون في عدة أوجه منها:

ـ **الاندماج** (amalgamation) ويظهر عندما تتخالط جماعات وافدة مع أخرى مقيمة ليظهر مع الزمن جيل جديد نتيجة التزاوج (A+B+C=D).

ـ **الاستيعاب** (assimilation) و هو العملية التي تمتثل بها جماعة معينة لمعايير جماعة أخرى حتى يصبحان متقاربان في العادات والتقاليد وأسلوب الحياة (A+B+C=A).

ـ **الانفصال** (segregation) ويعني في مدلوله فصل جماعة عن جماعة أخرى في وضعيات العمل/ الإقامة/ المناسبات الاجتماعية/ المدارس/ المقاهي والمطاعم/ وسائل النقل ودورات المياه.. (A+B+C= A+B+C).

ـ **الاعتراف** (pluralism) وهو نوع من التقديرالذي تظهره أقليات أو إثنيات تجاه بعضها البعض واحترام ما لدى الآخر من تراث ثقافي ـ اجتماعي خاص (A B =A+B).

ـ **الاستعلائية** .(ethnocentrism) وهي نزعة التفوق والاستعلاء التي تنميها جماعة (إثنية) في أفرادها على غيرها من الجماعات التي تعيش معها في نفس المجتمع، هنا لا تريد أن تنفصل ولا أن تتصل وإنما تريد أن تبقى أفضل وأرقى (A:b,c,d....).

المصطلح الخامس
الأعراف والانحراف

يربط بعض الباحثين الأعراف بمفهوم «المعاييرالمبجّلة» (mores) التي تعني سننًا اجتماعية يضعها الناس بشكل يتطابق مع أنظمتهم الأخلاقية والمعيشية عامة، ويسيرون عليها حتى تصبح كمفاهيم متعارف عليها، «المتعارف عليه» عنها الكلمة الأكثر تعبيرًا عن مفهوم العرف (NORMS) الذي يعني: أنماط السلوك المعتمدة في مجتمع/ موقف معين. لكن بعض الناس قد لا يروقها ما هو قائم وسائد، وهنا يصبح مدى قبول الناس للأعراف والمعايير غير محدد اجتماعيًا. حيث تتباين في مفاهيمها وأنظمتها لسبب أنها:

1) **تخضع لقانون النسبية** أي تختلف بين مجتمع وآخر فما يكون مقبولًا في مجتمع ما قد لا يكون سلوكًا سويًا في مجتمع آخر (مفهوم العيب واختلاف النظرة إلى أحكامه بين المجتمع الغربي والشرقي/ وضعية المساكنة) في أمريكا مثلًا الفتيات النحيلات - عرفًا - هن الأجمل وهناك مشكلة إذا ما بدونَ بدينات، بينما في نيجيريا وموريتانيا الشكل لا يثير قلقًا لدى أصحابه على الإطلاق بل إن معيار الجمال لديهن هو البدانة.

2) **تستند على خلفية اجتماعية تكوّنت** بفعل الزمن والتراث تسمى بالعادات الرائجة والتقاليد السائدة، لدرجة أصبحت هذه الخلفية بمثابة الموجه للسلوك المسموح أو غير المسموح، كالنظرة إلى العلاقات الجنسية قبل الزواج هي من الأمور التي تتناقض مع القيم والأعراف التي يحملها الناس منذ عدة قرون.

3) تساهم برسم توقعات الفرد في المواقف الاجتماعية ويكون هذا التوقع مقبولًا من الناس، يتعلّمه الفرد بالتجربة أو بالتنشئة وينبغي أن يسير عليه أو يتمثله حتى يجد القبول الاجتماعي، في الريف اللبناني مثلًا تعتبر المشاركة في العزاء واجب وأي تقصير في أدائه غير مستحب ويعتبر من يرفع الموسيقى قريبًا من أهل الفقيد أمرًا منكرًا وخرقًا للأعراف.

4) ترشّد وتُوجّه أفعال البشر في العالم الاجتماعي، فهي والقيم تعملان سويًا على تشكيل الأسلوب الذي يتصرّف به أفراد جماعة/ ثقافة ما، إزاء ما يحيط بهم. ففي الثقافات التي تعلي من شأن الكرم وحسن الضيافة فإن المعايير الثقافية تؤكد التوقّعات بتقديم الهدايا مثلما تشدد على إنماط السلوك الاجتماعي تجاه الضيوف. كذلك في بعض المجتمعات الغربية نظام أعراف صارم يفترض الأخذ به وإلاّ هناك مس به، مثلًا:

1 ـ من غير اللائق أبدًا أن تطلب أحدهم بعد منتصف الليل عبر الهاتف.

2 ـ من غير اللائق أن ترفع الموسيقى في ساعات الصبح الأولى وإلا استُدعيت الشرطة.

3 ـ من الغرابة أن يتزوج أحدهم على الفور بعد أيام من الخطبة والتعارف.

4 ـ من المستهجن أن تبقى في دراستك الثانوية لخمس سنوات وأكثر.

تُفهم الأعراف ـ إذن ـ على أنها من العناصرالجوهرية في جميع الثقافات باعتبارها منظومة الأفكار غير المكتوبة التي تحدد ما يمكن الأخذ به والابتعاد عن ما يمجّه الناس، وهذه الأفكار ـ المنظومة ـ غالبًا ما تصف السلوك الحقيقي أكثر مما تصف السلوك المتوقع، إذ أن الأفعال وردود الأفعال والمواقف الاجتماعية التي يتمسّك بها الناس تعتمد على وجود المعايير ومدى اعتقادهم بها، فلو أخذنا مسألة: المجاملات الاجتماعية اليومية، بعض علماء الاجتماع ذهبوا إلى القول ـ وبعد دراسات مكثفة ـ أنه لا يوجد مجتمع بشري إلا ويأخذ بهذه المسألة، فتبادل أشكال متنوعة من السلع والخدمات المختلفة عبر مجموعة من الاتكالات المتبادلة هو ما يربط الأفراد بعضهم ببعض في

وحدات ذات كفاية عالية. لهذا يجد الناس أنفسهم في ظل الأعراف آخذين بقاعدة المسايرة التي تقول بأنه على أحدهم أن يقوم بسداد ما قدّمه شخص آخر له، (فإذا قدمت لنا سيّدة معروفًا ما علينا أن نرد جميل عرفانها، وإذا أرسل أحدهم هديّة لنا في عيد ميلادنا فعلينا أن نتذكّر عيد ميلاده بهدية من قبلنا، وإذا دَعانا زوجان لحفل فعلينا أن نتأكد من دعوتهما إلى إحدى حفلاتنا لاحقًا..) من هنا يعلق السوسيولوجي (مارسيل موس) في وصفه للضغوط الاجتماعية التي تحيط بعملية تبادل الهدايا في الثقافات البشرية المختلفة: «أنه يوجد إلزام بأن تُعطى وإلزام بأن تؤخذ وإلزام بأن تسدد». وهكذا سرت أعراف الهدايا منذ عصور ساحقة على أنها اشتراك سليم في شبكة الاحترام المتبادلة والمتوارثة منذ فجر التاريخ بغض النظر عن مقاصدها السلبية (استغلال/ خضوع/ ابتزاز/ مكر ودهاء.).

ويلعب في ترسيخ الأعراف وثباتها **عوامل خاصة** (تنطلق من الشخص نفسه) كأن يكون الشخص على قناعة تامة بالعرف أو يتمتع بمكانة هامة وسط جماعته أو يكون على علاقة موزونة مع جماعته، **وعوامل عامة** (تتعلق بالجماعة التي ينتمي إليها) عندما تكون الجماعة متماسكة ومتجانسة وتوفّر شبكة تواصل وتفاعل بين أفرادها، أو عندما يكون هناك اعتبار والتفات واهتمام من الأغلبية حول المعيار أو عندما تواجه ضغوطًا في الانحراف أو الفناء أو المواجهة لمعايير أخرى وافدة.

وقد اعتبر بعض الدارسين الأعراف هي جزء من الموروث الشعبي FOLKWAYS حيث من شأن هذا الموروث أن يشكّل سياق التصرفات اليومية والتوقعات المفترضة بين الناس سواء الذين يعرفون بعضهم (عبر تقدير المكانة لذوي الأدوار المهمة) أو سواء تجاه الذين لا يعرفون بعضهم (احترام/ عدم التدخل في شؤونهم..) إلا أن مثل هذا الاعتبار (الأعراف = موروث شعبي) قد يجعل الأعراف تبدو نسبية القيمة لا تُطبّق بنفس الاهتمام من كلّ الأشخاص، وربما منها ما يُتبع في مكان وفي أمكنة أخرى ليس لها أهمية، وبعضهم قد يتجنّب تطبيقها لقناعة منه بأنه «عفى عليها الزمن»، ومثال على

ذلك ما هو معروف في عالمنا العربي بالمنزول، تقضي أعراف الضيافة وتراثنا الشعبي أن يحافظ الناس على شيء اسمه المنزول، فكيف يمكن تفسير ظاهرة المنزول سوسيولوجيًا؟.

من الناحية المعرفية السوسيولوجية يرتبط المنزول مع مفهوم الضيافة المعروف في بلادنا وبقدر ما تقدر الأعراف الضيافة يصبح المنزول حضوره هامًا، وخاصة في المجتمعات العربية (في الكويت هناك ما يعرف بالديوانية) القاسم المشترك بين جميع المنازيل هو الاتفاق على ضرورة تكريم الضيف باسم المجموعة وليس باسم الوجيه وحده فمن يأتي إلى المنزول كأنه أتى إلى منزل جميع أفراد العائلة أو العشيرة، لهذا تصبح المشاركة في خدمة المنزول ـ عرفًا ـ واجبًا معنويًا جماعيًا يطول أفراد المجتمع الذي يحل فيه المسافر ضيفًا، في دلالته هو مؤسسة اجتماعية عائلية قروية، تخضع لشبكة من علاقات القرابة ومن علاقات التعاضد الاجتماعي والاقتصادي ولكن أين أصبح المنزول الآن كموروث شعبي؟.

خضع واقع المنزول لتحولات البنية السياسية والإدارية ولسلسلة تغييرات أدخلتها الحياة الحديثة، لكن جوهر الوظيفة التي قام من أجلها المنزول كتأمين الصلة بين الجماعة والسلطة ولمّ شمل العائلة وفق ما يتداوله الناس بتعبير «البيت المفتوح» حين يحافظ أولاد العائلة المعروفة على تراث الضيافة والوجاهة، تبدل إلى حد ما مع دلالات تتجسد فيما يقيمه حاليًا بعض الزعماء السياسيين في لبنان بأكثر من منطقة. لأن المنزول بالنسبة لهم هو حلقة من حلقات السلطة السياسية، وهمزة وسط بامتياز يلعبها الزعيم أو الوجيه كي يبقى على صلة مع الأنصار أو يُبقي علاقة الناس بالسلطة مستمرة.

*** أنواع الأعراف:**

صنّف بعض علماء الاجتماع الأعراف في إطارين:

أولها: **الأعراف الرسمية** (formal norms) وهي المعايير الموضوعة كقواعد صارمة يجب الالتزام بها وإلا ثمة عقوبات في حال الاستخفاف بها،

فنظام الجامعة لجهة الحضور واحترام قوانينها والتزام مقرراتها هو أعراف أكاديمية رسمية يجب الأخذ بها. وترتدي الأعراف طابعها الرسمي عندما تُكتب وتقرر من قبل جماعة ما، وأي تجاوز لهذه الأعراف يُعاقب عليه، إنها بمثابة القانون الوضعي أو الضبط الاجتماعي الرسمي.

ثانيها: **الأعراف غير الرسمية:** (informal norms) وهي المعايير التي نحسّ بها، نستشعرها مع آخرين دون أن يطلب منا، نقوم بها تلقائيًا (عفويًا) دون أن تكون مكتوبة حيث نُلام إن لم نقوم بها وبالمقابل نحترم إذا فعلناها، كما هو الحال عندما تدخل صالة هادئة (سينما/ مسرح/ قاعة تقبل عزاء/ مكان واجب ديني..) يفترض منك التزام السكوت لأن الهدوء والصمت هو المعيار المتعارف عليه هنا.

في كلا الإطارين هناك ضرورة بالتزام الأعراف، وعندما ينتهك أحدهم عرفًا فإنه يحدث صدمة أو بلبلة في أوساطه، ولكن متى ينتهك الناس الأعراف ولماذا؟ وماذا سيحدث فيما لو انتهك؟.

الانتهاك بمفهومه المبسط تصرفٌ فيه خروجٌ عن السائد أو المعايير المتفق عليها.. إلا أن هذا الخروج عن ما هو سائد قد يكون مرفوضًا عالميًا ومستهجنًا اجتماعيًا (كزواج مثليي الجنس) وقد يكون هناك انتهاكًا صارخًا في تصرفات معيّنة لدى مجتمع دون آخر، في أمريكا يعتبر الإدمان على المخدرات أخطر انتهاك ضد المجتمع والناس، في الدول الإسلامية من يلعب القمار أو يشرب الكحول إنسان منتهك للأعراف والتعاليم الدينية، في بعض ديانات الهند من يتزوج بأكثر من امرأة يعاقبه القانون أشد العقوبات لأنه خرقٌ لنظام مقدس، من هنا يرى بعض علماء الاجتماع بأن مفهوم الانتهاك يرادف الانحراف، وقد يكون هناك لائحة من الانحرافات الواضحة بين جميع الناس إلا أن وقائع الحياة اليومية المعاصرة عدلت من نظرتنا أو مفهومنا للانحراف، إذ في الوقت الذي نجد فيه بأن البغاء ـ والذي ننظر عليه على أنه انحراف اجتماعي وأخلاقي صارخ كمجتمع محافظ ـ هو في بلدان متحررة عمل سياحي بامتياز يدر دخلًا مهمًا لأصحابه ولحركة البلد الاقتصادية...

كذلك في بعض الثقافات والمجتمعات:

- ✓ **من يخل بموعد قطعه لأحدهم انحراف عن مصداقية في احترام الوقت (يعني هو كاذب/ منحرف).**
- ✓ **من يقطع إشارة سير حمراء فذلك انحراف عن قانون المرور والسلامة.**
- ✓ **ومن يتجاوز صف انتظار إهانة بل انحراف (لأنه تعدى على اعتبارات الغير).**
- ✓ **وإذا ما تشاجر صبية وشاتموا بعضهم بكلمات بذيئة، فإنهم منحرفون عن الآداب والتربية.**

هذا يعني أن الناس يضعون أنفسهم في معتقدات تجاه المعايير المفترض اتباعها، فقد تكون منصفة في الاتباع وقد تكون مبالغة، كحال النساء والفتيات تجاه صورة جسدهن، حيث الرغبة الدائمة في البحث عن المعايير الهامة ليبدين على أجمل ما هنّ عليه، وفق ما يُعرف بأسطورة الجمال التي تسلب عقول الفتيات، تصل إلى حد اعتباره نمط حياة الكثيرات من العاملات في المجال العلائقي مع الناس، وعليهن أن يحافظن على هذا النمط مهما كلف الأمر وأي خروج عبثي (أكل أكثر من اللازم/ التصرف بشكل غير لائق في مكان عام/ عدم ممارسة الرياضة / عدم متابعة الموضة..) يُعتبر بمثابة انحراف عن النمط.

هناك التزام وهناك انحراف وكلاهما يتناقضان في المفهوم، فالأول يعني التمسك بتقليد، بنظام، بقانون، بعرف ما، وأي تهاون أو استخفاف في هذا التمسك قد يؤدي إلى انحراف، إلا أن مفهومي الانتهاك والالتزام يختلفان بدورهما بين ثقافة وأخرى وذلك تبعًا للعادات والتقاليد والأعراف السائدة وهذا ما جعل علماء الاجتماع يقرون بأن حدود الانحراف غير مُدركة لتنوّع أعماله، ولتشعّبه ما بين فردي وجماعي ومجتمعي عام، إذ من الصعب الحكم على تصرف معين بأنه منكر أو مستغرب أو مستهجن أو على أنه انحراف بحد ذاته لأنه قد يكون مقبولًا في وسط دون آخر. مثل هذا الرأي لا يمنع من

نقول بأن هناك أمورًا ومسائل تبدو نافرةً جدًا كما هو الحال عند إقرار إيطاليا تشريع زواج الجنس الواحد الذي يُعتبر انحرافًا واضحًا عن السياق الطبيعي والاجتماعي والأخلاقي للحياة ولو أقرّه البرلمان. كذلك مسألة الاعتداء الجنسي والاغتصاب يظل انتهاكًا صارخًا على كيان شخص مهما كانت المبررات، يستدعي فعله عقوبة قاسية لأنها في جميع الثقافات انحراف، ولكن ماذا يعني تحديدًا الانحراف؟.

تعريف الانحراف:

إنه ذلك الفعل الشائن الذي يظهر بصورة انتهاك أو تجاوز صارخ أو ارتكاب للمحظور يحدث من جرائه مظاهر سيئة على صاحبه وعلى الآخرين. وإذا ما بالغ أحدهم في الانتهاك ـ بحسب تعريف معاجم العلوم الاجتماعية ـ يُوصم بالعار وينبذ ويرفض أو قد يعاقب. برأي بعض الباحثين لا يعني تعبير الانحراف: انحلال أو فساد بقدر ما يعني «**تصرف بعيد عن معايير الجماعة**» ولو تمثّل ذلك في أبسط تصرف يومي كما في حالة التأخر عن الصف في الجامعة فهو في بعض الأنظمة.. انحراف، وارتداء الجينز في حفل رسمي أو زفاف... انحراف، التقاعس عن التزام قطعته هو بمثابة انحراف، لكن علماء اجتماع آخرين وجدوا مغالاة في توصيف أفعال الانحراف بتصرفات يومية بسيطة لمجرد خروج الناس عن الإتكيت أو العرف السائد، لهذا يُقصرون تعريفهم للانحراف على أنه فعل جرمي عنيف يستحق العقوبة وذلك حفاظًا على ثبات المجتمع وسلامته، وهذا ما قصده السوسيولوجي (إميل دوركايم) الذي ربط بين الانحراف ومفهوم الاغتراب ANOMIE عبر حالة من «اللاأخلاقية» «normlessness» تحدث خلال فترات التغيير الاجتماعي أو عندما يحصل اضطرابات في المجتمع أو خلال وضع اقتصادي متأزم (وهذا سر القول بأن البطالة أم الرذائل) بحيث يصبح الناس أكثر إحباطًا، أكثر عدائية في مظاهر عنف أو جريمة أو انتحار، أما بالنسبة للسوسيولوجي (روبرت ميرتون) فإن الانحراف يتأتى ببساطة عندما لا نطيع أونحترم ونقدّر توقعاتنا الثقافية، ونستخفّ في الالتزام بالمعايير المجتمعية.

في كتب الخدمة الاجتماعية يشير الانحراف على أنه سلوك متعلم (مكتسب) مرتبط بتغير اجتماعي في عالم المنحرف، وقد يأتي بمثابة رد فعل دفاعي ضد القلق، يعمد إليه صاحبه بشيء من الزهو ليخفف من شعوره بالدونية. وكثيرًا ما يرد في كتب العلوم الاجتماعية ربط الانحراف بالأحداث وفق ما يعرف ب «انحراف الأحداث» أو «الأحداث المنحرفون»، الذي يحدث نتيجة الفشل في أداء الواجب أو ارتكاب لعمل سيئ أو خرق لقانون وانتهاك صارخ للأصول القانونية والأخلاقية من قبل المراهقين، ويندر أن يرتكب حدث معين جريمة دون أن يمر بمرحلة سابقة تبدو على سلوكه الاجتماعي مظاهر الخروج على قواعد المجتمع المتعارف عليها والإتيان بأفعال يأباها العرف السائد والتقاليد المستقرة، ويعرّف الحدث المعرض للانحراف على أنه:

1. الحدث الذي يعتاد الهروب من المدرسة.

2. الحدث الذي اشتهر عنه مخالطة رفاق السوء (اللصوص والأشرار).

3. الحدث الذي يشبّ على البطالة والجريمة والعنف.

4. الحدث الذي يسلك سلوكًا من شأنه الإضرار بنفسه وبغيره.

5. الحدث الذي يتغيب عن المنزل دون سبب معقول وموافقة الأهل.

6. من يأتي بأفعال شائنة أو مخلّة بالآداب. (من يعتاد التفوه بألفاظ بذيئة وفاحشة).

7. من ينام في الطرقات أو يمارس التسول وأعمال مثل مسح الأحذية و نوافذ السيارات.

وانطلاقًا من اعتبار الفعل المنحرف هو نمط السلوك المخالف للقيم والمعايير السائدة في المجتمع، تظهر علاقة الأعراف بالانحراف في أربعة صور هي:

1 . الانحراف الخطير: ويكون في أفعال سيئة يطال خطرها المجتمع

ؤفراده كالسرقة والقتل وإدمان المخدرات.

2 . **الانحراف المؤذي**: وهو ما تقوم به فئات معينة غير منضبطة سلوكيًا و لعِلّةٍ في تربيتهم كالاغتصاب والاعتداء على الأملاك والتدخين عند لصغار.

3 . **الانحراف المرفوض** وهو الفعل الذي يقوم به صاحبه في مكان عام بينما لا يكون مقبولًا أو مسموحًا به في مكان آخر (لباس البحر في الأماكن لرسمية / الموسيقى الصاخبة في أماكن الاستشفاء . .).

4 . **الانحراف المكروه** وهو يبلغ درجة معينة من التكرار عند صاحبه نتيجة حالات نفسية أو عصبية يمر بها (شرب الكحول بكثرة/ المقامرة / القيادة المتهورة. .).

يُرجع بعض علماء الاجتماع الانحراف إلى الإحباطات المتلاحقة في تحقيق الطموحات أو لوجود مسافة بين واقع الإنسان وعدم تحقيقه ذاته وفق الميول والرغبات، مما يدفعه إلى الانزلاق في مسالك الانحراف ويطلقون على هذا الاتجاه بنظرية الدفاع الاجتماعي، لأن المجتمع هو المسؤول الأول عن تعزيز المعايير وعندما يخفق في دوره المسؤول لجهة ترسيخ القيم يفتح الباب أمام الانحرافات السلوكية. فالمنحرف لا يصبح منحرفًا إلا لأنه عاش خبرات سيئة مع أفراد مجتمعه أو أسرته فيتصرّف بالانحراف كرد فعل استنكاري. كحال الشاب مثلًا في قريته قد لا يشعر بالحاجة الأساسية للنقود ولا يشعر بفارق بينه وبين بقية الشباب في القرية، ولكن عندما ينتقل إلى المدينة أو عالم الاغتراب، تختلف القيم عنده ويتحسس أهمية المال وحاجته إليه نظرًا لإمكانيات الإنفاق المفروضة عليه، وعندما لا يستطيع تأمينها إما أن تتحول أفكاره إلى الرثاء على ذاته أو إلى الحقد والغيرة، مما يولّد في نفسه الغبن والقهر حتى يقوده ذلك إلى الانحراف كأن يسرق أو يسطو على مخزن. . وقد يتطور معه الأمر حتى يصبح من أفراد العصابات وحملة السلاح.

* مظاهر الانحراف

تعتبر مظاهر العنف وترويج المخدرات والاعتداء الجنسي وجرائم القتل والرشوة والسرقة والابتزاز وصولًا إلى ما يُسمّى بانتهاكات الملكية الفكرية وأعمال القرصنة الإلكترونية واقتحام حسابات المصارف من الممارسات المندرجة ضمن مظاهر الانحراف، فمجمل هذه الظواهر وأخصّها الجريمة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالانحراف، حيث بينت دراسات عديدة علاقة متغير انتشار الجريمة في مظاهرها بمتغيرات أخرى منها:

☆ التفاوت الثقافي أو المناطقي، ففي المجتمعات التي يتواجد فيها أقليات متعددة متنافرة تنشط الأعمال غير الشرعية.

☆ كما تكثر معدلات الانحراف والجرائم في المناطق التي تعاني الحرمان المادي.

☆ كما يتعرض الأفراد المقيمون في الأحياء الفقيرة في ضواحي المدن لمستويات أعلى من خطر الجرائم قياسًا على من يسكنون في ضواحٍ أكثر رخاءً من الوجهة الاجتماعية أو الاقتصادية.

الشباب والانحراف:

هل يمكن القول أن بعض الأفراد أو الجماعات هم أكثر ميلًا من غيرهم لارتكاب الانحراف؟ يجيب علم الجريمة بالإيجاب، إذ تبين بالمتابعة العلمية وجود صلة بين مرتكبي الجريمة وضحاياها، فالذكور على سبيل المثال أكثر ميلًا من النساء إلى ارتكاب الجرائم، كما أن الشباب يرتكبون أعمالًا إجرامية أكثر من المتقدمين في السن، وعليه سنتوقف عند ظاهرتين من الانحراف في عالم الشباب: الجريمة المنظمة وظاهرة الدعارة:

1 ـ الشباب والجريمة: في أكثر مجتمعات العالم تنحصر الأعمال الجرمية في مسائل مثل: السرقة والسلب والاعتداء والاغتصاب وجرائم الشوارع والأزقة التي يكون أغلب مرتكبيها من الذكور الشباب. وكثيرًا ما

ترتكز وسائل الإعلام على ما تُسمّيه بالانحلال الأخلاقي وانهيار القيم كسبب حدوثها في عالم الشباب. وتشير تقديرات إحصائية إلى أن معدل الجريمة يرتفع بشكل ملحوظ في أوساط الشباب عما هو عليه في فئات عمرية أخرى، حيث لم تعد مظاهر الانحراف مقتصرة بالنسبة لهم على تعاطي المخدرات و الهروب من الدراسة أو المشاركة في أحداث شغب وأعمال نهب، إنما تعدّى الأمر نحو ما يعرف **بالجرائم المنظّمة (سميت منظمة لأنها تماثل في خصائصها العامة مع أنشطة العمل التجاري والإداري المعتاد ولأن لها امتداد عبر دول عديدة مع أشخاص محترفين في أساليب السطو وفق قوانين غير المشروعة)** مثل: تزوير وثائق، ممارسات البيع غير القانونية، التلاعب بخدمات الائتمان المالي، والعقارات والرشوة والاختلاس وأنشطة جرمية أخرى على كثير من الخطورة منها: المتاجرة بالسلاح والأطفال وغسيل الأموال وتزوير تأشيرات الدخول وتهريب الآثار وتهريب المهاجرين والمتاجرة بالأعضاء البشرية، وجرائم عبر الحدود التي تستخدم وسائل الاتصالات الحديثة لنقل أموال وأرصدة، ترويج لمشروعات استثمارية وهمية، بيع سلع مزيفة، انتهاك وسرقة أقراص مدمجة، اختلاس أرصدة من مؤسسات مصرفية وبنوك، التلاعب بحسابات الهاتف الشخصي. هذا فضلًا عن جرائم أخرى مثل: الخطف (البشري والطائرات) القرصنة البحرية، الإرهاب، جرائم البيئة (نقل مواد سامة) نقل المنتوجات الفنية القيمة (سرقة الإبداعات واللوحات النادرة).

2 ـ **الفتيات والبغاء**، يمكن تعريف البغاء بأنه تقديم المتعة الجنسية مقابل كسب مادي، وقد وُصفت قديمًا المرأة التي تقوم بهذا العمل بمصطلحات أخرى مثل: المحظيّة/ الغانية/ الجارية. . أما حديثًا فتتميّز بأن المرأة تقوم بدور ظرفي ـ منح اللذة الجنسية ـ لزبون دون أن يكون هناك معرفة شخصية مسبقة، ويحكم عمل البغايا مدى «الالتزام المهني» فيه حيث أن منهنّ من يمارسن البغاء بصورة مؤقتة ثم يتركن الدعارة، ومنهن تمارسه بصورة غير منتظمة للانتفاع بما يكسبنه لتعزيز دخل، وهناك بالمقابل فئة تمارسه بصورة دائمة باعتباره مصدرًا أساسيًا للعيش، من هنا نلاحظ بأن

البغاء يرتبط غالبًا بفقر حال النساء ويبرز كبديل للشغل، أي كعامل جنسي مأجور تلجأ إليه كثيرات من الفتيات المحتاجة والعاطلة عن العمل سيما في المناطق الفقيرة، ولا يمكن حصر البغاء في العامل الاقتصادي وحسب بل أصبح خدمة يقوم بها الفتيات بهدف الارتقاء إلى مستوى معيشي لائق (عبر تجميل الجسد واستخدام تقنيات الاستعراض والإغواء لإيقاع رجل مهم وقيام علاقة استثنائية معه)، وقد تنوعت طرق تقديم الخدمة الجنسية في أكثر من سياق فمنهنّ من يلتقطن الزبائن في الشارع (بائعات الهوى)، وهناك ما يعرف بفتيات الهاتف اللواتي يمكن استدعاؤهن بمكالمة هاتفية وفق أرقام معلنة على قنوات تلفزيونية مخصوصة، وهناك ما يعرف بفتيات الكتالوج، حيث تودع لدى الفنادق صورًا لفتيات من مختلف الجنسيات وعلى النزيل أن يختار الصورة ليتم استدعاؤها. وهناك المومسات العاملات في الأندية الليلية الخاصة، مثلما هناك مجموعة من النساء اللواتي يقدمن خدمات خاصة في محلات التدليك.

لقد أصبح البغاء ظاهرة منتشرة على نطاق واسع بين الفتيات والفتيان، النساء المتزوجات والمطلقات والطالبات والموظفات لدرجة بدأ البعض يتحدث عن اقتصاد البغاء كظاهرة خطيرة أخذت تنتشر حتى في مجتمعات معروفة بالمحافظة، كما كثر الحديث عن دوره في تنشيط حركة السياحة والاستثمار والاستهلاك وكأن الجمال رأسمال والجسد سلعة للاستهلاك وللعيش في الرفاهية وليس وسيلة لمجابهة الفقر والبطالة (بالنسبة لفتيات متحدرات من طبقة اجتماعية متوسطة في بعض الدول العربية لا يشكل حلًا اضطراريًا لإعالة الذات والأسرة وإنما وسيلة للتمتع واللهو وللظهور بمظهر الغنى وحتى للهروب من تشدد أسري).

ولكن السؤال المهم لماذا تنتشر هذه الظاهرة اليوم بشكل ظاهر خاصة في مجمل الدول العربية؟ إلى ما يعود السبب الأبرز: هل الفقر وحده هو الدافع؟ حول ذلك قامت الباحثة والأستاذة المغربية (فاطمة الزهراء أزرويل) بمقاربة هذه الظاهرة ميدانيًا عبر عينة من 60 فتاة وامرأة، ثم أصدرت نتائجها في كتاب بعنوان «البغاء أو الجسد المستباح» ارتكزت فيه على عشرات الشهادات من نساء

يمارسن البغاء، وحول أبرز العوامل المسببة له تقول: «البغاء جزء من انهيار شامل في القيم عرفته (مجتمعاتنا) خلال العقود الأخيرة، نتيجة الاختيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اتبعت، ظواهر سلبية كثيرة تفشت في مجتمعنا كالرشوة وسرقة المال العام والمتاجرة في المخدرات والبغاء أحد هذه الظواهر»(1)، وقد رتبت الباحثة معطيات المستجوبات بحسب الأهمية التي كانت في الشهادات، كالتفكك العائلي في مختلف مستوياته، كأن تعيش طفلة صغيرة صراع الأبوين الدائم، وإذا ما حصل الطلاق، تعيش جحيم الحياة بعد الطلاق سواء تمثل ذلك في الصعوبات التي تعيشها الأسرة من أجل لقمة العيش، أو في تشريد المرأة والأطفال بعد الطلاق، وتكون البنت هي البكر أو تتابع دراستها في بداية الثانوية، وهناك حالة زواج الأب من أخرى أو الأم من آخر، فتعاني الطفلة المراهقة من كل الضغوط الممكنة من إحداهما، كالضرب أوالتعنيف أوالحرمان، وقد يكون الوالد فقيرًا، وقد يكون لها طفلان إذا كانت مطلقة، وترفض الأعمال الهامشية مثل الخدمة المنزلية أو ترفضها بمجرد أنها جميلة، ويكون الطريق سهلًا للبغاء...»(*).

خلاصة القول إذا كان الانحراف يعني بصورة عامة «عدم الامتثال» أو «عدم الانصياع» لمجموعة من الأعراف المقبولة لدى قطاع مهم من الناس في

(1) عن مجلة: «التجريد» المغربية، 8/ 8/ 2002.

(*) وفي هذا السياق أبرزت دراسة ميدانية حول «تجارة الجنس في اليمن» التي نفذها ملتقى المرأة للدراسات والتدريب ـ أن من يمارسن البغاء أو الدعارة لجأن لذلك بسبب افتقارهن للمال وبهدف الإنفاق على أنفسهن وأسرهن بمن فيهم الذكور، إلى جانب افتقارهن إلى من يهتم بهن وبكفاءة حياتهن ويعانين من مشاكل اجتماعية، ويتخذن من الشارع مأوى لهن، ويتعرضن لإغراءات الحياة في الفنادق. وأشارت الدراسة ـ التي شملت متهمات أمام المحاكم وكذا نزيلات السجون ـ إلى أن أعمار من يمارسن الدعارة والبغاء في الغالب تكون بين ١٨-٢٣ عامًا، و٤١ ٪ عازبات، ٢٩،٤٪ متزوجات، ٢٣،٥٪ مطلقات، ٥،٨ ٪ أرامل، وغالبيتهن بدون عمل في حين أن ١١،٧٪ يعملن ودخلهن لا يكفي كمصاريف للعائلة ومصاريف شخصية و ٥،٨ ٪ طالبات. وأشارت الدراسة إلى أن هناك مبحوثات قلن إنهن يمارسن الدعارة من أجل الصرف على إخوانهن الذكور العاطلين عن العمل وتسديد نفقات العلاج، وأوضحت أن غالبيتهن لديهن أسر ويقمن بإعالة الأسر والمتزوجات بعضهن زيجاتهن صورية وغطاء لامتهان الدعارة أو لأن دخل الزوج لا يكفي وقمن بإعالة الأسرة.

الجماعة، فإن الجريمة وانحراف الشباب نحو العنف والجنس يعتبران من أهم المظاهر التي تدل على الانحراف وعدم الامتثال للقيم خاصة بعدما تكاثرت النتائج الاجتماعية التي ينطوي عليها حال الانحراف من انتشار أمراض خطيرة كالسيدا واستغلال الأطفال والقاصرات وانتهاك حقوق الإنسان بشكل صارخ.
ولكن لماذا يعمد الناس إلى ارتكاب المحظور؟ بحسب دراسات علم الاجتماع، الانحراف موجود في الكائن الإنساني باعتباره الحد الذي يساعد على معرفة التصرف المناسب، فالولد الذي يرى أبوه يُوبّخه لأنه يتجشأ على الطعام أو يقذفه أو يعبث به يدرك أن مثل هذا التصرف غير لائق فيتجنّبه. كذلك الحال من يُعاقب بضبط من جراء السرعة في القيادة يدرك أنها خطيرة ويجب التنبه، والأمر سيّان بالنسبة للطالب الجامعي الذي يتأخر عن تسليم موعد مشروعه قد يخسر علامات تقدير وربما سنته الجامعية. لهذا تشدد كثير من الثقافات على الأعراف ومسائل الانحراف وضرورة احترامها وتقدير أهميتها، وأي استخفاف بها يعرّض صاحبها إلى جزاءات فعلية:

☆ في سنغافورة مثلًا يغرم الشخص الذي يمضغ العلكة في مكان عام أو يبصق على الطريق ب 50$ دولارًا أمريكيًا باعتباره أمرًا محظورًا، ومن لا يستخدم «السيفون» في الحمامات العامة بعد استعماله يغرم ب 95$ د.أ. أما من يطعم الطيور في الحدائق العامة فيحاسب بغرامة مالية تصل في حدها الأقصى 640$.

☆ في اليابان أحدثت مؤخرًا سجون خاصة للسائقين المتهورين، أما في بريطانيا فمنذ العام 1992 فإنها تعتمد أنظمة ضبط في أماكن التسوق والمصانع والطرقات العامة من خلال كاميرات مراقبة لترصد المخالفين للأنظمة والقوانين أو عند قيام أحدهم بأعمال النشل والاعتداء على أملاك عامة أو تحرش جنسي.

☆ في لبنان أجريتُ (المؤلف) استطلاعًا للرأي عن الضوابط الاجتماعية ودورها في المجتمع اللبناني، ولدى سؤال العينة عن أكثر الحالات تطلّبًا للضوابط والعقوبات، كانت الإجابة على الشكل التالي:

الحالة	الرقم الموزون (عدد التكرارات من المائة).
الكذب[1]	67
السرقة	52
الألفاظ البذيئة(شتم وكفر في الأماكن العامة)	34
علاقات جنسية غير مشروعة	32
الاستخفاف بالسلطة وعدم التزام القوانين	31
تمرد الشباب	19

* الضوابط الاجتماعية بين الأعراف والانحراف.

بات واضحًا أن التزام الناس بالأعراف يعود إلى فعل التنشئة الاجتماعية منذ الصغر، وتكون هذه الأعراف مقرونةً بآليات الجزاء تهيب بهم كي يعملوا بمقتضاها أو لينتهوا عن العصيان، وتضم منظومة الجزاء هذه جانبًا إيجابيًا يتمثل في الثواب على الأعمال الجيّدة والعقاب على التصرفات التي تحيد عن النموذج المحبّذ، ويمكن أن تُطبّق منظومة الجزاء هذه ـ إما رسميًا ـ عبر هيئات أو مؤسسات تضمن الاستمرار في اتباع المعايير مثل المحاكم والسجون ودور التأهيل، وإما ـ بصورة غير رسمية ـ كما في حالات الرفض والنبذ والفتور لهذا يأتي الحديث عن الضوابط الاجتماعية من الأهمية بمكان في هذا المجال.

* الضوابط الاجتماعية:

ما هو المقصود بالضوابط ومن الذي يحددها؟ هل القيم والأعراف والشرائع لها علاقة بذلك؟ كيف ومتى تُفرض وتُلزم؟ أسئلة كثيرة تطرح عن الضوابط التي هي مدار نقاش في إطار السوسيولوجيا والتربية وعلم النفس باعتبار: من يحق له أن يفرضها؟ ولما نحن ملزمون بها؟ وماذا يحدث إن لم نلتزم؟ سيما وأن مصطلح الضوابط الاجتماعية يعود بمفهومه إلى الآلية المتبعة لمنع تصرفات الفرد من أن يتمادى في أي خطأ أو انحراف داخل جماعته،

(1) ملاحظة: ذكر الكذب أكثرها باعتباره الغطاء الذي تمارس تحته مظاهر الآفات الاجتماعية، من خيانة/ تزوير/ مكر وخداع/ عدم الالتزام بما هو صواب/ التسول/ و........

ولكن تبرز إشكالية من الذي يقرر الخطأ على أنه خطأ؟ بالملاحظة والمتابعة الدراسية تبين أن الإنسان في أي مجال/ وسط/ مجتمع، هو أمام جملة ضوابط:

✓ في العائلة مثلًا يتربّى على واجب الطاعة للأبوين (احترام / التزام / طاعة).

✓ مع الرفاق وفي مكان ما ملزم التحرك وفق أصول ومعايير (احترام الخصوصيات . . .).

✓ في الجامعة هناك نظام تعامل مضبوط يجب احترامه لجهة التسجيل/ الحضور/ التدريس/ . .(تقدير الانضباط).

✓ في أماكن العمل محكوم فعليًا بجملة التزامات . .(نظام العمل / سياسة المؤسسة / . . .).

✓ تجاه الدوله ومؤسساتها هناك مسؤوليات/ حقوق / واجبات ومن الضروري الالتزام بها كي تتكرس المواطنة (مراعاة القوانين).

هذا يشير إلى أن الضوابط هي «السياق المنظّم لحياتنا سواءً كان ذلك مناسبًا لنا أو لم يناسبنا» لأنها في كثير من المواقع تضبط إيقاع حياتنا/ تفاعلنا/ تواصلنا، وعليه نحن مدفوعون إلى أن نحترم الضوابط لسبب ما تقدمه من منفعة اجتماعية عامة وحفاظًا على صيرورة حياة مفترضة. . قد لا يرى المرء للوهلة هذه المنفعة والسلامة إلا أنه وعلى المدى البعيد تبرز أهميتها لجهة الأمان والاستقرار الذي توفره. ويمكن أن نلاحظ ذلك بسهولة من خلال تعليمات الشرطة أثناء الأحداث الأمنية الطارئة أو إزاء كوارث طبيعية مرتقبة. . بضرورة الالتزام حرصًا على السلامة المدنية.

أنواع الضوابط:

انطلاقًا من اعتبار الضوابط هي القبول الطوعي للقوانين والأحكام

واعتماد جميع الأعراف والقيم، والإقرار بوجود أنظمة اجتماعية متعارف عليها.. ترتدي الضوابط الاجتماعية وبرأي السوسيولوجيين وجهين:

1) الضبط الاجتماعي غير الرسمي: ويتم بفعل التقاليد والقواعد الاجتماعية المتواترة بفعل التربية القائمة على شبكة من الأخلاق والقيم، ويمكن ملاحظة هذا النوع من الضوابط في المجتمعات المغلقة إزاء أي حادثة اجتماعية أو شائنة لاأخلاقية، كيف يتحرك عندها المعنيون (الوجهاء/ أهل الخير/ كبير القوم/ شيخ القبيلة/ رجل الدين) لتسوية الأمور وفق ما يعرف بـ «التوفيق» (أي تسوية الخلافات عن طريق المجاملات)، من هنا يرى بعض علماء الاجتماع أن المجتمع الذي تتوفر لديه مظاهر الضبط الاجتماعي غير الرسمي (الضمير الواعي/ العرف/ احترام ذوي المكانة/ الخوف من العيب) نادرًا ما يعرف التفسخ الاجتماعي ومظاهره كالخلافات الزوجية/ الحد من تمادي ظاهرة الثأر عبر المصالحة ودفع دية القتيل.

2) الضبط الاجتماعي الرسمي: يتجلى هذا الضبط عبر مؤسسات وهيئات ولكنه يتحرك عندما يخف و ينعدم فعل وتأثير الضوابط غير الرسمية من خلال: المحاكم/ تدخل الشرطة/ قانون وضعي/ توقيف وسجون التي غالبًا ما نجدها في المجتمعات التي تشهد تبادلًا في المصالح المادية وحياة مدنية حيث فرص الانحراف ممكنة مع ضعف الترابط الأسري وتشرد الأحداث وتمرد الشباب وانتشار الدعارة.

يرى بعض الباحثين أن أساليب الضبط الاجتماعي غير الرسمي (الأخلاق/ الدين/ القيم/ الضمير/ الجماعات الأولية..) أكثر كفاءة ومقدرة في الرقابة على سلوك الأفراد من الأساليب الرسمية (القهر/العقوبة/ التحذير) لماذا؟ لأن تصرفات الناس تعتمد على ما يتحلى به المرء ومما يوجد لديه من وعي قيمي مخزون في اللاشعور (الأنا الأعلى) ومثل هذا الوعي المتجمع بفعل التربية من الآباء وأولياء الأمور تكون شديدة في أحكامها...

*** العقوبة:**

وُجدت لتمنع التمادي في الخطأ وتحول دون تفشي الآفات الاجتماعية والأفعال الشاذة في المجتمع.

1 ـ إما عن طريق توجيه الملاحظات والتعليمات والتنبيهات والتعنيف والضرب التأديبي إزاء من يستخف بقيم أو بعرف ما، (في بعض الثقافات يعتبر ضرب الأولاد أو صفعهم نوعًا من الجزاء المطلوب لتأديبهم..).

2 ـ وإما عن طريق الإجراءات الرسمية التي تتولاها هيئات الضبط الرسمية (الشرطة/ المحكمة/ المراكز التأهيلية/ المؤسسات الدينية/ .) حيث تلعب دورًا تأديبيًا عبر محاسبة المرء وإعادته سويًّا إلى المجتمع.

ويوضح بعض الباحثين أن العقوبة الرسمية تُفرض كتأديب وتغريم عندما يتقاعس دور الضوابط غير الرسمية، فعندما تحدث مشكلة اجتماعية وتمتد آثارها وتصبح خطرًا على المجتمع لا تنفع عندها العقوبات التأديبية الخفيفة بل يتطلب الأمر عندها أكثر من عقوبة وذلك بحسب الانحراف الذي ارتكب، فقد تكون:

1 . **عقوبة دينية**: هذا النوع من الجزاء محفور في نفوس الناس إذ أن الجزاء الديني مرجعه الكتب السماوية التي فيها الكثير من الوصايا التي تحمل في طياتها التهديد والوعيد والقصاص لمن يجهل بالتعاليم، فالمسفّه لبعض الشرائع مثلًا يُعاقب إما بالرجم والسارق بقطع اليد والقصاص بالقتل للقاتل أوالحرم الكنسي..).

2 . **عقوبة تشريعية**: وهي القوانين الوضعية والنصوص التشريعية التي وضعت لتبين حق كل فرد في المجتمع، ومن يتعدّى على هذا الحق ثمة عقوبة منتظرة على مستوى الجرم، هذا النوع من العقوبات وجد لحماية المجتمع من الفوضى وتسلّط الأقوياء على الضعفاء.

3 . **عقوبة اجتماعية**: وتتمثل في صورة المجتمع ككل الذي يُعاقب غالبًا في مجالات معينة كالنبذ، التشهير الإعلامي، تجنّبه كمشارك في جماعات ومناسبات، حرمانه من امتيازات.

4 . **عقوبة أخلاقية**: قد يدفع المرء إزاء تصرّف شائن أو انحراف، ثمنًا لمخالفته الأعراف من سمعته وهيبته، من مركزه الاجتماعي، أو من سلامته النفسية عبر ما يعرف بوخز الضمير والشعور بالندم، أو جلد الذات ذهنيًا ومحاسبتها على ما اقترفت من أمور كان بغنى عنها، كحال الموظف النزيه الذي غُرّر به وارتشي، أو قيام أحدهم بنميمة فأحدثت خلافًا كبيرًا لم تحمد عواقبه، أو حال الحامل التي عمدت إلى الإجهاض وبالسياق ذاته يمكن تصور حالة الذي يتخذ قرارًا بموت رحيم.

ولكن السؤال الأهم لماذا نعاقب وليس فقط كيف؟ هل يمكن للعقوبة أن تحول دون تكرار الفعل؟ إذا كان هناك إجماع على أن الانحراف والجريمة توجبان العقاب فإن هناك اختلافًا حول العقاب وأسلوبه ودرجته والأطراف التي يحق لها القيام بذلك..

إجابة على السؤال المتقدم يقدم عالم الاجتماع الكندي (MAURICE CUSSON) تحليلاته وآراؤه حول العقوبة في كتاب له بهذا العنوان، حيث يشير إلى أن العقوبة تؤدي وظيفتين للمجتمع وأفراده هما الأمن والعدالة.

فبالنسبة **لوظيفة الأمن** من شأن العقوبة أن تحدث على الجناة تأثيرًا ردعيًا مزدوجًا سواء بالنسبة للفاعل كقصاص أو بالنسبة لآخرين تحدثهم أنفسهم بارتكاب جرائم وانحرافات فتكون العبرة في الجاني، كما يمكن لعقاب الجناة في بعض الحالات بالسجن مثلًا أن يؤدي إلى حماية المجتمع من الأفراد ذوي السلوك الإجرامي الخطير على سلامتهم وأمنهم. وهذه مسألة بديهية في كل المجتمعات على حد سواء قديمها وحديثها، فالمجتمعات البدائية مثلًا طالما لجأت إلى الثأر وسيلة لمعاقبة الجاني، بينما تستعمل المجتمعات الحديثة السجون ومراكز التأهيل والإصلاح والعقوبات المالية والإعدام والتأبيد والأشغال الشاقة إذا كان الجرم كبيرًا.

أما بالنسبة **لوظيفة العدالة** فيقترح المؤلف بديلًا لتحقيق مبدأ العدالة بين طرفي الإجرام أو الانحراف ويتمثل في البحث عن صيغة قانونية وفقًا للأعراف والتقاليد السائدة وأفضل السبل في رأي الباحث لإقامة عدالة متزنة في القضايا الجنائية هو اللجوء إلى لغة الحوار بين الأطراف المعنية (الضحية والجاني)

سيما وأن هناك عوامل عدة ينبغي أخذها بعين الاعتبار عند إنزال العقوبة بالجاني، وهي: مدى مسؤولية الجاني (المنحرف) في ارتكاب جريمته وبأن درجة عقوبة المجرم يجب أن تكون متناسبة مع طبيعة الجريمة/ الانحراف الذي ارتكبه ضد الضحية ومدى الأضرار النفسية والصحية والاجتماعية التي ألحقها إجرامه بالضحية، وفيما إذا كانت لديه سوابق جنائية أم لا.

*** إلى أي مدى يمكن اعتبار السلوك غير الشريف انحراف عن المعيار وبحاجة إلى عملية ضبط؟.**

من نماذج السلوك غير الشريف تذكر المهن التي تدور حول الربح السريع بالوسائل السهلة بدون خرق للقوانين بشكل صريح إنما من خلال التحايل عليها، حيث يعمل نفر من الناس بشكل احترافي في أعمال سهلة مربحة دون الوقوع في فخ السلوك الجانح وينجحون في قلب المفاهيم التي دفعتهم للقيام بهذه الأعمال حتى تبدو وكأنها كانت بحكم الضرورة، كذلك هناك من يخرج عن ما هو شائع من قبول طوعي للقواعد لعدم اقتناعه بها ويقدّم التبريرات الكافية التي جعلته يخرج عنها، فهي بالنسبة له ليست مستنكرة أو ممنوعة أو محظورة وإلا لما كانت سائدة في مجتمعات أخرى مختلفة عن بيئتهم ومجتمعهم.

هنا فئة جانحة تحت ستار من التكيّف الاجتماعي السطحي، المبرّر بأعذار أقبح من ارتكابها، عملًا بالمبدأ الميكافيللي: **الغاية تبرر الوسيلة**، فأمورهم تتعلق بالغايات أكثر مما تتعلق بالوسائل، فهم يريدون الوصول إلى غاياتهم ومنافعهم الخاصة ولكن عبر طرق مشكوك في أمرها، أيًّا كان أمر السلوك (التصرف) فإنه بحاجة إلى قاعدة (معيار/عرف) وإلى سلطة (ضبط) تراقب تنفيذه، فإذا غابت الرقابة كثُر الاعتداء على القاعدة وإذا غاب التعاضد الاجتماعي كثر السلوك غير الشريف الذي قد يتحول مع الوقت إلى انحرافات خطيرة. لكن النقاش عند العاملين في الدراسات الاجتماعية لا زال مفتوحًا وذلك لاختلاف وجهتي النظر بين: **البحث لماذا ينحرف الناس؟** إلى البحث **ما الذي يدفع الناس إلى الانحراف؟** في الوقت الذي يُرجع كثير من الباحثين

تصرفات المنحرفة إلى شخص مرتكبها، هناك باحثون آخرون يعتبرون مسؤولية الانحراف ليست محض شخصية وإنما هناك مسؤولية اجتماعية أيضًا في حدوثها، ذلك أن كثير من حالات الانحراف تكون كرد فعل على فعل التلامذة المشاغبون.. هل هم يشاغبون ويعمدون إلى السلوك غير الشريف من تلقاء ذاتهم أو كرد فعل على ممارسة قهرية يمرون بها؟) وبالسياق ذاته بالنسبة للناس الذين ينقصهم اللطف والتهذيب تصبح فظاظتهم وتصرفاتهم مثيرة للريبة. قد يكون الجواب على تصرفاتهم بديهيًا وهو أن أمهاتهم لم يربينّهم تربية صالحة، لكن ثمة أسباب أخرى خلف ذلك «السلوك غير الشريف» الذي يقوم به بعضهم وهو أن الناس نتاج الأمكنة التي يأتون منها، ونتاج القيم السائدة في بيئتهم ونتاج المعاملة حيث يعملون، ذلك أن القيم والمناخ الاجتماعي له تأثير كبير على سلوك الأفراد.

الوصم الاجتماعي:

تقول العامة عندما يتصرف أحدهم بعمل أرعن: «أنه وصمة عار على جبينه»؟ إلى ما يرمز مثل هذا التعبير؟ ماذا يعني الوصم (stigma)؟ هو نعت بشع يرافق الذين ارتكبوا عيبًا ما، في مختلف التصرفات يحرص الناس ليس على أن يكونوا في المظهر اللائق وحسب وإنما في صورة الذات النقية (سمعة نظيفة) ووفق هذا المنظور يأخذ الحفاظ على «ماء الوجه» دلالته الذي يرمز افتقاده إلى الخجل الاجتماعي الذي وقع فيه صاحبه. وعندما تُخدش الصورة الاجتماعية بفعل منافٍ للآداب تصبح «موصومة». وهذا قصده أحد السوسيولوجيين عند تعريفه الوصم بأنه لصقة بيان المحتوى (label) التي تشير إلى انخفاض قيمة المرء إزاء جماعته الذي يمكن أن يكون:

* إما معنويًا حيث يصبح الفعل المنافي الذي ارتكبه بمثابة «اللعنة» التي ترافقه طوال حياته رغم توبته عنه، وأحيانًا قد لا يكون له علاقة به إنما هو مجرد «حكم قاس» تراكم مع الزمن ليحمل بعضهم وزر بعض من سبقه (جده الذي حرق/ أبوه الذي سرق/ ... هذه العائلة معروف عنها.../ أساس بيتهم قائم على ...).

* وإما اجتماعيًا حيث تهبط مكانته الاجتماعية ويُدرج على اللائحة السوداء، لأنه خالف الأعراف فيتجنب الناس التعامل معه، حتى يشعر بالعزلة (ويلاحظ ذلك مع عدم تزويج الناس بناتهم للخارجين عن القانون أو لمن سمعتهم غير محمودة أو ممن ارتكب جناية) ليصبح مع الوقت «إنسانًا غير سوي»، ولعل النظرة إلى من هم بشرتهم سوداء لازال يشوبها كثير من التحامل رغم التقدم الحضاري والمعرفي وحقوق الإنسان[1].

ورغم أنه ليس من السهل أن يتخلص المرء من صفات دمغته، ورغم أن كثيرون يجهدون كي يتخلّصوا مما علق بهم من صفات سيئة منسوبة إليهم، يبقى مفهوم الوصم وإطلاق مؤثراته نسبي في واقعه، ذلك أنه إذا كان الوصم مرتبط بفعل العيب فإن العيب ذاته غير مضبوطًا بالمعنى والفعل والدلالة.. فما يمكن اعتباره هنا عيبًا قد لا يكون بالدلالة ذاتها لدى مجتمع آخر وما هو موجود ومتعارف عليه في مجتمع معين قد لا يؤخذ به في مجتمع آخر، تختلف النظرة تبعًا للثقافة والعرف السائد بطبيعة الحال، فالأشخاص الذين يصابون بمرض السيدا مثلًا في مجتمعات «هو مريض» تستلزم معالجته، وفي مجتمعات أخرى «هو إنسان وسخ» وتكال عليه الشتائم، ويصبح بنظر هذا المجتمع موصوم اجتماعيًا (والوصم المستخدم هنا هو بالمعنى الفعلي للكلمة أي فصل الفرد المريض وعزله عن بقية المجتمع وإلصاق وصفات مشينة به، مما يجعل النظر إليه بعد الوصم نظرات الشك والعداء من تصرفاته ومسلكياته) وعلى هذا الأساس فإن جانبًا من المجتمع يعتبر أن المريض هو المسؤول الأول عما أصابه ولا يمنحونه في أغلب الأحيان العطف والعناية والمساعدة (كما هو الحال مع المصاب بمرض خبيث) أو الحقوق والامتيازات التي ينطوي عليها المريض العادي وتبرز هنا إشكالية: أيعالج لأنه مريض أم يُنبذ لأنه هو من جنى على نفسه؟.

---

(1) فقد وصل الأمر بأن ينسب ما هو غير محبب إلى الشيء الأسود وإلى الأبيض كل شيء جيد وطيب وطاهر، فتفسير كلمة BLACK في أي قاموس لها المعاني التالية: gloomy, forbiding, destitute of moral light, evil, threating ,clouded with anger,dismal.... في حين تشير كلمة WHITE إلى ما هو نقيض ذلك.

الفصل الثاني
مفاهيم سوسيولوجية

الجماعات

الطبقات

المجتمعات

المفهوم الأول
الجماعات

عندما يدرس علم الاجتماع «المجتمع» دراسةً واقعية فإنه يركّز على التجمعات البشرية القائمة فعلًا باعتبارها المكوّن الأساس، بدورها هذه التجمعات تتميّز وتختلف اختلافًا بيّنًا عن غيرها بآلية الممارسة وطبيعة النشاط، حيث إنها تعيش واقعًا اجتماعيًا محددًا وتمارس نشاطها المتنوع اقتصاديًا وسياسيًا ومعرفيًا ضمن مجال جغرافي محدد وظروف تاريخية متوارثة، ومن هنا برزت فكرة تنميط المجتمعات إلى أنماط رئيسة متعددة تقوم على الاختلافات القائمة بين الجماعات. ولو أردنا أن نحدد مفهومًا للجماعات بماذا يمكن وصفها وتحديدها: هل يقصد بها جماعة العائلة أم علاقة القرابة؟ هل هي مكوّن اجتماعي أكبر من العائلة والقرابة وجماعة الحي وسكان القرية؟ هل تتشكل بمظاهر أخرى غير المتعارف عليها من جماعة الصحبة، جماعة القرابة، جماعة الأقلية، جماعة العرق الواحد في الاغتراب وجماعة الشبيبة في الضواحي. مختلف أنواع هذه الجماعات اهتم بها علم الاجتماع باعتبارها مظاهر التجمع البشري ونواته. وعندما نتفحّص مفهوم الجماعة نجد أن أنساقها الاجتماعية تقوم على ثلاثة أسس عامة عند التكوين:

1 . الشكل الأسري، حيث تعتمد قاعدة الانتماء القائمة على روابط محددة. .وغالبًا ما يكون الشعور بالصفات المتقاربة والمصالح المشتركة الهدف من اللقاء والاجتماع والانتماء.

2 . الشكل المكاني، وتقوم على أساس أن عددًا من الأشخاص لهم محل إقامة مشترك و يعيشون في منطقة واحدة ومن هذه الزاوية تعتبر القرى والمدن والمناطق الإقليمية جماعات اجتماعية ـ إقليمية وعضوية الناس فيها

تقوم بناءً على الإقامة رغم وجود اعتبارات أخرى (تنوع ديني/ تنوع عرقي/ تنوع مناطقي ،مثال على ذلك شبيبة الضواحي).

3 . الشكل الخاص ويقوم على أساس الاهتمام بنوع معين من النشاط بغض النظر عن المكان والقرابة، كجماعات الأدب أو الموسيقى أو النشاط الرياضي.

1) جماعة العائلة؟

في كنف كل عائلة عاش أيٌّ واحد منا وفي مرحلة لاحقة يهيئ نفسه لتأسيس عائلة، قد يختلف مفهومها بين مجتمع وآخر إلا أن القاسم المشترك في كل أنماط العائلة هو التقاء شخصين بالغين من ذكر وأنثى، قادرين على إنجاب الأطفال ورعايتهم وتربيتهم وعلى أن يكونوا مسؤولين أمام أنفسهم وتجاه المجتمع. وقد لاحظ أكثر من باحث في مجال الأسرة أن العائلة الأساس تنطلق من زوج وزوجة وأولاد وهذا ما يسمى بالعائلة النواة لتتوسع مع مرور الزمن على أكثر من جيل بين أحفاد وأبناء وأجداد وتصبح حينئذ عائلة ممتدة، في هذا النمط من العائلة تتداخل علاقات الرعاية والتربية ويعيش الجميع في مسكن واحد أو بمساكن متجاورة بعلاقات تواصل يومي مباشر تحت إمرة سيّد يكون الجد أو الأب النافذ أو الابن الأكبر وهذا ما يعرف بالسلطة الأبوية. (PATRIARCHY) وقد أشار السوسيولوجي البريطاني (أنطوني غدنز) بحديثه عن العائلة إلى وجود نمطين آخرين منها:

1 ـ العائلة الموجهة Orientation family ويشير إلى نمط من العائلات يتأثر بسمات المكان الذي ترعرع فيه، حتى تتسم بطابعه وتتخذ هويته (عائلة شرقية / عائلة غربية. . .عائلة حضرية . .عائلة بدوية الخ).

2 ـ العائلة الانتقالية (precreation family) ويقصد بها ما يحدث مع عائلة تنتقل من محيط لآخر لينشأ مع الوقت نمط عائلي متحرر من جذر عائلي محافظ، كما هو الحال مع العائلات المهاجرة من الشرق إلى الغرب المختلفين في العادات والتقاليد ليظهر نوعًا من التنازع بين ثقافة الأصل الآتية

مع الآباء المهاجرين الأوائل وثقافة الأبناء الذين نشأوا في مجتمع آخر تشرّبوا قيمه وأصبحوا في ثقافة أخرى مختلفة عن آبائهم.

إلى جانب هذه الأنماط الفردية (monogamy) من الزواج، لاحظ الباحث George Murdock بعد دراسته أكثر من 565 مجتمعًا بشريًا أن هناك حوالي 80% من المجتمعات عرفت نمط العائلة القائم على الزواج المتعدد (polygamy). ورغم أن هذا النمط من الزواج آخذٌ في الانحسار فإنه لا تزال هناك مجتمعات وخاصة في أفريقيا يتزوج فيها الرجل أكثر من سيدة، وهو ما يعرف بالزواج الضرائري (polygyny) أي زواج رجل واحد بأكثر من امرأة في نفس الوقت، يعيشون في منزل واحد، يتشارك فيه الجميع الواجبات المنزلية والمسؤوليات الخاصة بالتربية والرعاية والعمل الزراعي، يقابله ـ وحسبما أظهرت الدراسات الأنثروبولوجية ـ **الزواج السدائي** (polyundry) أي وجود أكثر من زوج لامرأة واحدة، بمعنى تعدّد أزواج وليس تعدّد زوجات كما في النمط الآنف، (لا يزال هذا الزواج مأخوذ به في منطقة بتدوس/ شمال الهند)، انتشر هذا الزواج بكثرة لدى الجماعات البشرية التي شهدت انخفاض نسبة الإناث نتيجة عادة جاهلية تدعو إلى «قتلهن»، فأصبحن أقلية إزاء عدد الذكور فكانت ظاهرة الزواج المتعدد بالأزواج. ورغم أن نمط الزواج المتعدد آخذ بالانحسار ويعتبر من ظواهر الماضي، إلا أن بعض الدول أعادت إليه اعتباره فأقرّت تشريعات تسمح فيه زواج الرجل بأكثر من واحدة لمن يرغب كحلّ لتخفيف حالة العنوسة المتزايدة في صفوف البنات أو إعطاء الفتاة مبادرة طلب يد الشاب للبحث عن شريك حياة في حال رغبتها بتأسيس عائلة (بعض مقاطعات روسيا).

1.1: ما هي وظيفة العائلة؟

تعتبر العائلة نواة التنظيم الاجتماعي وظاهرة التعاون والالتزام والمودة بين أعضائها من أجل استمراريتها ومكانتها في المجتمع، لهذا يكون الفرد في العائلة جزءًا تابعًا أكثر منه فردًا مستقلًا، والعلاقات القائمة هي علاقة انتماء ومسؤولية حيث يصبح ـ وبموجب هذه العلاقة ـ كل فرد في الأسرة ليس

مسؤولًا فقط عن تصرفاته الشخصية الخاصة وإنما عن تصرفات الأعضاء الآخرين (الأشقاء) من هنا يلاحظ كيف أن القرارات التي تخص الأسرة غالبًا ما تكون جماعية، وبناءً على هذه المفاهيم: الجماعية/ الشراكة العاطفية/ العلاقة الحميمية/ الالتزام، تتجلى وظائف العائلة وأبرزها:

1 . **تحديد المركز الاجتماعي للفرد**، رغم أن هذا الدور تضاءل الآن حيث أصبح بإمكان الفرد أن يحدد مركزه الاجتماعي بنفسه، بكفاءاته، بجدارته في العلوم وبانتمائه إلى جماعات أخرى غير العائلة (الحزب السياسي/ التنظيم الديني)، لازال البعد العائلي فاعلًا في الأوساط التقليدية، ففي بلد كلبنان ـ المتعدد الطوائف والجماعات ـ فإن الهوية الاجتماعية تتحدد بالانتماء العائلي أولًا وبالانتماء المذهبي ثانيًا فالطائفي ثالثًا فالمناطقي رابعًا.. وربما هذه العناصر تكفي لتحديد موقع الفرد ومنحه ليس وجودًا ماديًا فحسب بل موقعًا اجتماعيًا وثقافيًا أيضًا.

2 . **تأمين السند**، تعتبر الأسرة كنواة صغرى والعائلة الممتدة كنواة كبرى المرجع الأساسي للدفاع عن حقوق الأفراد وحمايتهم خلال الأزمات واللحظات العصيبة حيث نلاحظ كيف أنه تتكاتف العائلة إزاء المصاب[1]. وتتضح صورة هذا التعاضد عندما تحل عبارة «نحن» «إننا» أو «العيلة» محل الأنا المنتظرة، وهنا من الواضح أن المتكلم يتحدث لاشعوريًا باسم عائلته أو جماعته، لأن التحدث عن العائلة يمثل هنا إحدى الاهتمامات المفضلة لجميع الفئات التي تشكل علاقة القرابة بالنسبة لها أولى دعائم الحياة الاجتماعية.

3 . **تقديم التربية**، الذي يتجلى عبر جملة القيم والمعارف والمعايير الأخلاقية التي من الضروري أن تمدها الأسرة لأبنائها كي ينشأوا متوافقين مع المجتمع، وإذا تراخت ولم تقم الأسرة بها بالشكل الأمثل فقد يخرج الأبناء منحرفين. وتعتبر هذه المهمة ـ الوظيفة من أجلّ الوظائف ومن المبادئ

(1) وهذا ما يسمى بالعصبية ويقال له بالعامية اللبنانية العنصور أو لمّة الشرش.

الأساسية والمنطلقات التي تعمل على بلورة الشخصية الاجتماعية الموزونة، وأي خلل أو افتقاد لبعض هذه المبادئ قد ينشأ الأولاد غير عابئين بمسؤوليتهم واحترامهم لمواقع الآخرين، وهذا ما يعبر عنه في الحياة الريفية اللبنانية عندما يراد تعيير أحدهم أو إهانته بالقول: «يا بلا تربية» وكأن في تلقي أصول التربية القويمة المعايير المهيأة للتواصل مع الآخر بشكل أفضل.

وأيًا كان نمط الأسرة أو طبيعة الأدوار التي تتولاها فإن ضرورة القيام بوظيفتها مسلّمة دقيقة لابد منها لسلامة المجتمع لهذا يُلاحظ كيف أن المجتمع يتحرك بالحزم، عندما تتقاعس الأسرة عن القيام بدورها. كما يحدث في مجتمعاتنا إزاء صيغة المعاشرة من دون زواج الآخذة في الظهور، وبالمثل فعلت الحكومة الصينية مع انتشار ظاهرة المساكنة عبر إطلاقها حملة اجتماعية تطالب العودة إلى المفاهيم التقليدية في الزواج والحياة الأسرية تجنبًا لمظاهر التفكك الأسري والاجتماعي. مما يعني أن العائلة كمؤسسة والزواج كرباط مقدس بين اثنين آخذ في التحول.

2.1: ما هي أبرز التحولات التي شهدتها الأسرة؟

كانت العائلة -ذات زمن ـ المؤسسة، التي تعمل على «إنتاج الأولاد» لحاجتهم في العمل الزراعي أو الحرف اليدوية، وكان يعتبر الزواج والإنجاب ضرورة لاستمرارية وجود العائلة ونشاطها الاقتصادي.. غير أن هذا الواقع لم يتبدل بوتيرة سريعة بل استغرق وبحسب ملاحظات الباحث البريطاني (لورنس ستون) ثلاثة عقود من الزمن حتى وصلنا إلى نمط جديد من الأسر يُعرف ب open lineage family الذي يتسم بالمتغيرات التالية:

1 ـ تبدل في طبيعة دور الرجل والمرأة على حد سواء لناحية خروج المرأة إلى العمل، تقليديًا كانت الأدوار موزعة في الأسرة وفق إطارين: مجال يكافح فيه الرجال من أجل الرزق ومجال داخل المنزل تتولاه النساء. أما اليوم تبدلت الأدوار إلى حد ما وأصبح هناك تعاون ومساواة في مختلف وجوه الحياة الأسرية ولا غرو من يقوم به الرجل أو المرأة. فقد بينت دراسة أمريكية أن المرأة الأمريكية العاملة تعطي إلى جانب عملها خارج المنزل حوالي 60 ساعة أسبوعيًا

من وقتها للقيام بواجباتها المنزلية، و70 ساعة إذا كان لديها أولاد. وكذلك بينت دراسة مسحية لبنانية ارتفاع مؤشر مشاركة النساء في قوة العمل والنشاط الاقتصادي من 9% في العام 1970 إلى 15% في العام 1997[1].

2 ـ تبدل في نمط الاستهلاك وزيادة طلب العائلة للكماليات على الحاجيات، فمع انتشار المؤسسات الصناعية المتنوعة والدعاية والإعلان والمنافسة للسلع الاستهلاكية تبدلت خيارات الحياة نحو الرغبة في الرفاه الاجتماعي. فالمناسبات الاجتماعية والمواصلات والملابس والأثاث المنزلي المتجدد والكومبيرتر والإنترنت والصحون اللاقطة والهواتف الخليوية، أصبحت مجالات إنفاق متطلبة لدى أسرة اليوم مما ترتب عليه تحول في مستوى المعيشة والاستهلاك نحو الترفي والكمالي بعدما كان للحاجة والضروري.

3 ـ تبدل النظرة إلى التعليم مع بروز قوانين تشريعية جديدة تقول بأحقية التعليم وإلزاميته. حيث أخذت الحكومات توصي الأهل بعدم ترك الأولاد دون مدرسة إطلاقًا ومنعهم من العمل قبل سن معين (12 سنة حسب قانون العمل اللبناني) أصبح هناك تحول في مستوى الثقافة العامة، فتنوعت التخصصات وظهرت الإبداعات التعبيرية من موسيقى وفن وعلوم وأزياء وطبخ ومهارات تعليمية مستحدثة تلائم متطلبات الحياة المعاصرة.

4 ـ تبدل في الروابط العاطفية، أي نزوع الرجال والنساء إلى تقاطع المصالح في الزواج لا الإقدام عليه بداعي الحب. فكما الناس يتزوجون لنداء الحب مع شريك، أصبحوا يُطلّقون عند الافتقار إليه، وهكذا تتصاعد حالات التوتر بين الرجل والمرأة، وتصبح حياتهم متأرجحة بين الأمل والندم والمبادرة والمحاولة من جديد... وهذا ما أدى إلى انتشار حالة الطلاق بشكل مذهل، فقد أشارت دارسة أمريكية إلى أن هناك حالة طلاق إزاء حالتي زواج، وفي إيطاليا هناك حالة طلاق كل ثلاث دقائق، وفي الكويت هناك 40 حالة طلاق مقابل 100 حالة زواج.

5 ـ تبدل في مفهوم الإنجاب الذي حدث بدوره نتيجة انشغال الأب أو الأم من جهة، وشيوع ثقافة تنظيم الأسرة ووسائل منع الحمل من جهة أخرى،

(1) عن تقرير: الأوضاع المعيشية للأسر اللبنانية العام 1997، إدارة الإحصاء المركزي، 1998.

فضلًا عن أسباب أخرى كعدم الاستطاعة المادية المناسبة لعدد أكبر من الأولاد وعدم رغبة المرأة بالإنجاب حفاظًا على نضارتها أو لانشغالها خارج المنزل بوظائف ونشاطات اجتماعية.

6 ـ تبدل في طريقة التربية حيث انحسرت عمليات الإرشاد والتوجيه والتنشئة المفترضة من الأهل مع ازدياد ظاهرة الحاضنات والمربيات والخادمات في المنازل، وأصبح هناك بدائل عن التفاعل الأسري الحميم مع دخول الإنترنت والتلفزة ووسائل الترفيه.

في ظل هذه المعطيات تبرز صورة عائلة عصرية تشهدها أغلب المجتمعات التقليدية منها والمعاصرة، هناك نموذجًا جديدًا من الأسر قوامه التشارك في الأعباء والمسؤوليات والسلطة والقرارات بشكل قلّ نظيره. حيث أصبحت حرية الاختيار متاحة أمام الأولاد لما يرغبونه انسجامًا مع الفلسفات الحديثة التي تدعو بضرورة إعطاء الأولاد المسؤولية والثقة لاتخاذ القرارات وتقرير مصيرهم.

3.1: العائلة والزواج في لبنان.. نموذجًا

تلعب العائلة في لبنان دورًا هامًا في حياة الفرد، فهي الأسرة بالمقام الأول، والجذر الذي يشد النسب والفروع نحو التقارب والعصبية في المقام الثاني، ورغم التغييرات التي طرأت على الأسرة في لبنان من انحسار الزواج المبكر وارتفاع نسبة التزاوج بين الأفراد المتقاربين في العمر، وتجنب الارتباط من ابنة العم وانخفاض معدل الولادات (ثقافة تنظيم الأسرة) لازالت العائلة صورة مصغرة للمجتمع اللبناني لجهة انبثاقها ـ أولًا ـ عن نمط زواج متعارف عليه من الأوجه التالية: الوجه الطبقي (التزاوج ضمن الطبقة الاجتماعية الواحدة) الوجه الطائفي (ضمن الطائفة الواحدة) الوجه الإقليمي (التزاوج ضمن الإقليم الجغرافي الواحد) الوجه المختلط (التزاوج بين الطوائف) ووجه عاطفي (زواج الخطيفة).

ولجهة تمثلها ـ ثانيًا ـ مظاهر القيم السائدة من سلطة وتبعية وميثاق من التفاعلات المستمرة بين أعضائها خاصة في مسائل ذات أهمية اجتماعية، حيث يعمل الجميع من أهل وأقارب على ترتيب المناسبات، ففي مشروع الزواج

يتطوع الجميع لإبداء الاستعداد بالترتيبات وهنا ينشط دور الخطّابات (matchmaker) حيث البحث يجري بناءً على مواصفات ومعايير مناسبة بحدها المقبول وليس بناءً على انجذاب عاطفي. وهذا يعرف بالزواج المرتب (arranged marriage) حيث في حالة هذا الزواج لا يبحث المقبل عليه عن فتاة ليحبّها وإنما نزولًا عند رغبة الأهل لابنهم كي يتزوج، مثل هذه الزواج قد يبدو غريبًا بالنسبة للغربيين الذين يتوقعون أن يجد كل شخص شريكه عبر نظرة الحب من أول لقاء ليبدآن معًا بناء الأحلام والآمال للمستقبل وليس أن يتولى أحد غيره. مثل هذا الارتباط (المرتب) وإن كان مستغربًا إلا أنه معروفًا تاريخيًا ولمّا يزل لدى ثقافات ومجتمعات عديدة وأخصها المجتمعات التقليدية حيث ترتيب الزواج للأبناء هو بمثابة العرف والتقليد الاجتماعي يعمد إليه الأهل كوسيلة حماية من الانحراف ولإعطاء الابن موقعًا اجتماعيًا ولتحميله المسوؤلية باكرًا. . ولا نغالي القول أن مثل «الترتيب» لازال قائمًا مع انحسار العلاقات الاجتماعية وانشغال الشباب بالدراسة والعمل، وقلما يلتفتون إلى متطلباتهم العاطفية فتلعب «المدبّرات» دورًا (وقد استحدث للغاية مكاتب تهتم بتأمين شريك الحياة) وفي سياق مواز يلاحظ لدى جيل اليوم حرية في اختيار شريك حياته بشكل مغاير عما كان يفعل الآباء والأجداد، فقد يبدأ أحدهم حياته العاطفية من على مقاعد الدراسة بمواعدة زميلته على بناء أسرة قبل أن يرتبطان فعليًا عبر خطوبة وزواج، وهناك ما يمكن تسميته بالزواج المساعد (assisted marriage)، حيث لا يتدخل الأهل بشكل ضاغط على الأبناء إنما يهيأون لهم رغبة التقرب والتعرف على فتيات من أناس مقرّبين ثم يتركون لهم حرية الالتقاء والمواعدة، وعندما تتقارب وجهات النظر يبلغون العائلتين لإتمام مراسم الزواج وفق التقاليد المتعارف عليها.

وحول واقع الزواج في العالم العربي تنبئ دراسات حقلية عن تبدلات في النظرة إليه على نحو ما يحدث في بلدين عربيين:

* فقد بينت دراسة قامت بها وزارة الشؤون الاجتماعية اللبنانية، أن معدل سن الزواج في بيروت هو 31 سنة للفتاة و35 سنة للشاب، وأظهرت أن أهم سبب لارتفاع معدل سن الزواج لدى المرأة والرجل على حد سواء هو

ـنقة الاقتصادية التي أثرت من خلال أمرين: فمن جهة دفع الضغط المادي م يصاحبه من غلاء إيجارات المنازل وارتفاع الضرائب وندرة فرص العمل تأخير سن الزواج، ومن جهة ثانية فإن هجرة الشبان خففت من حظوظ المرأة في الزواج، حتى أصبح عدد الإناث المقيمات مضاعفًا لعدد الذكور المقيمين، مما يتيح الفرصة أمام هذه الفئة من الذكور وبحسب دراسة أجراها مركز بحوث العلمية في بيروت، للارتباط بالفتيات العاملات فحسب. إذ بحسب دراسة أعرب 87% من الشبان المقيمين الذين شملهم الاستطلاع عن رغبتهم في الزواج من امرأة عاملة، وأكد 77% أن المرأة العاملة ملزمة بمساعدة زوجها، بينما رأى 33% أن عمل المرأة يضمن استقلاليتها، وحسب دراسة صادرة عن وزارة المغتربين فإن 80% من الشباب اللبناني المغترب يعود إلى لبنان ليتزوج، إنما بعد مرور سنوات على سفره وبعد التمكن من تأمين متطلبات الزواج، وهذا ما يفسر أيضًا تأخر سن الزواج لدى الشباب.

* أما في تونس فقد أظهرت دراسة ميدانية أن الحديث عن الجنس في المجتمع التونسي لم يعد من المحرمات، وأن ما بين 50 و60% من الشبان التونسيين مارسوا الجنس قبل الزواج. ووفقًا لهذه الدراسة التي أعدها الديوان الوطني التونسي للأسرة والعمران البشري (مؤسسة حكومية)، فإن ما بين 12 و18% من الفتيات التونسيات مارسن الجنس قبل الزواج، واعتبرت الدراسة، التي تناولت بالتحليل مدى وعي الشباب غير المتزوجين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18 و29 عامًا بالممارسة الجنسية وأساليب الوقاية من الأمراض المنقولة جنسيًا، إن الحديث عن الجنس في المجتمع التونسي لم يعد ممنوعًا، لكن الحديث عن الممارسة الجنسية في حد ذاتها ما يزال ممنوعًا اجتماعيًا ودينيًا. ولفتت إلى أن 10% من الفتيات التونسيات يرفضن ممارسة الجنس قبل الزواج، بينما توافق على ذلك 9%، بينما يوافق على ذلك 40% من الشبان التونسيين[1].

مع أن مجتمعاتنا تنتهج المفهوم التقليدي للزواج حيث يفترض الاقتران

(1) «في تونس الجنس ليست من المحرمات» عن الموقع الإلكتروني: www. rmw. nl/ arabic/ article/ تموز 2009.

بشريك واحد وفقًا للثقافة الاجتماعية السائدة، يبدو أن مفاهيم جديدة تقتحم عالم الأسرة والعلاقات الزوجية وأنماط العائلة، ولعل واحدة من أبرز هذه التبدلات هي تضارب المصالح بين العائلة والعمل والحب وحرية السعي إلى تحقيق الأهداف الشخصية، ويبدو الإحساس أكثر حدة في العلاقات الشخصية عندما يسعى الطرفان ـ الرجل والمرأة ـ إلى متابعة مسار حياتهما المهنية في سوق العمل بعد الزواج وبعد الإنجاب.. ولم يعد التفاوض بينهما يدور على مسائل الحب والأطفال والمهمات الزوجية أو المنزلية بل أصبحت في جوهرها تشمل قضايا أخرى مثل العمل والأمور المهنية والتحديات التي ستواجههما. حتى تولد عن ذلك تراجع في هيمنة العائلة النواتية التقليدية وبروز أشكال أخرى بديلة من الحياة الزوجية والعائلية والعلاقات الجنسية.

2) جماعة القرابة (TO WHOM ARE WE RELATED?)

يفترض الحديث عن العائلة تمييزه عن مفهوم آخرمتعلق به وهو القرابة، التي تعني علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية أو المصطنعة، وليس بالضرورة هي الصلات المتحدرة من نسب واحد إنما المتأتية عبر علاقة زواج أيضًا، فعلاقة القرابة من نسل واحد دموية بينما علاقة القرابة بالزواج علاقة مصاهرة، من هنا يمكن أن نميز في القرابة لجهة انحدار الأبناء من ذويهم في تصنيفين:

✓ **القرابة الأولية وهي العلاقة الدموية والاجتماعية التي تربط الآباء بالأبناء** والأبناء بمن يليهم عبر انحدار النسب الذكوري، وعليه يُعتبر الولد المتحدر من هذه القرابة هو النسب الأبوي.

✓ **القرابة الثانوية وهي العلاقة الدموية ـ الاجتماعية التي تربط الفرد بالخال** أو ابنة الأخت وهنا يكون ابن المتحدر من هذه القرابة ينسب إلى النسب الأمومي.

وفي حال كان الابن متحدر من نسب أب وأم في آن واحد (نفس الجذر) فيُسمّى بالنسب المشترك. ورغم أنه في بعض الأحوال يُفضّل دائمًا الزواج من خارج النسب القرابي نجد في المقابل أن هناك من يشدّد على

ضرورته ضمن نسب العائلة الواحدة (ابن العم لابنة العم) وفي هذه الحالة لا يمكن التمييز عندها بين القرابة والمصاهرة لأن الأقارب أصبحوا أصهارًا والأصهار يعتبرون أقارب بعد أجيال.

ومسألة القرابة بعلائقيتها المتشعبة شغلت حيزًا في تفكير الباحثين وعلماء الدّين منذ أقدم العصور عبر أحكام الميراث والوصاية وحصر نسب الأبناء وتفصيلات مسائل التزاوج (من تكون حليلته ومن لا تكون) وذلك انسجامًا مع الموروث الثقافي القائم على تعاليم الدين ومقتضيات العُرف، فالكنسية الكاثوليكية مثلًا تمنع زواج ابن العم بابنة عمه، كذلك في الإسلام هناك تفضيلٌ في أن يبتعد الرجل في الزواج عن نسبه المقرّب نقاءً للنسل وسلامةً للوِلدْ، كذلك يحرم المسلمون زواج «الإخوة بالرضاعة»[1].

وقد لوحظ في بعض القبائل أن هناك عُرف يمنع الرجال من الزواج بنسائها، وفي مجتمعات غربية (كندا/ أمريكا) هناك تقليدٌ بأن الولد لا يتزوج ابنة عمه فهي بالنسبة له كأخت وأي اقتران بها يعني سفاح قربى.

1.2: مظاهر القرابة:

لا يمكن فهم علاقات القرابة انطلاقًا من العائلة الممتدة التي قد تشمل بالإضافة إلى الزوجين والأولاد والأجداد والأشقاء والشقيقات وأزواجهن (الصهر) وحسب، وإنما يُمكن النظر إليها من زاوية اشتمالها منظومة علاقات فاعلة ومؤثرة أكثر اتساعًا وتشابكًا نجدها في المسميات التالية:

1 ـ **القبيلة:** (tribe) وهي وحدة اجتماعية متماسكة تتكوّن من مجموعة أفراد تعيش على بقعة جغرافية معينة، تتمتع بدرجة من الاستقلال السياسي، يتكلم أفرادها لغة واحدة تمتاز بلهجة معينة تختلف عن لهجات القبائل الأخرى التي تتكلم اللغة نفسها، لهم عادات وتقاليد خاصة ونظام اجتماعي مغلق.

(1) في العصر الجاهلي كان الشاب العربي يقترن عادةً بابنة عمه حتى سمي والد الزوج أو الزوجة بالعم، وسميت الزوجة بابنة العم ولم يخرج المتأخرون عن هذه العادة لدرجة بات الاقتران مرادفًا للعمومة ولو لم يكن بين المقترنين أية رابطة فعلية والزوجة بدورها ابنة عم مجازًا ولو كانت من قربة بعيدة.

2 ـ العشيرة: (clan) مجموعة من الأفراد الذين يعتقدون أنهم ينتسبون إلى سلالة واحدة أبًا عن جد لعدة أجيال وينحدرون من أصل واحد، يعتبر هؤلاء أنفسهم مثلما يعتبرهم الآخرون وحدة اجتماعية ذات هوية متميزة، تشترك في منظومة واحدة ومتقاربة من القيم والعادات والتقاليد وتقيم فروعها في أنحاء جغرافية متقاربة. ما يربط بين أعضاء العشيرة علاقات والتزامات اقتصادية واجتماعية متبادلة.

3 ـ الفخذ: أي ما يقال له في العاميّة الجب، في سياق الأنتروبولوجيا البدوية هو وحدة قرابية تنتسب إلى أحد الأجداد الذي يقع على خط النسب العشائري البعيد يمتد على ثلاثة أجيال وحتى خمسة أجيال، يُعتبر الجد القديم هو نقطة انطلاق الفخذ الذي ستتفرع منه عدة أجباب لاحقًا، وميزة الأفخاذ/ الأجباب أنها تتحرك كوحدة مقربة (عصبية) عندما يطال أحد أفرادها مكروهًا أو يطلب إغاثة أو حماية ودعم، وللأفخاذ شعائر طقوسية خاصة ومناصب دينية وسياسية معينة وعادات اجتماعية قاسية (ظاهرة الثأر).

4 ـ الطائفة: وهي الملة أو الجماعة الدينية التي تتوافق على غايات ووظائف دينية ودنيوية محددة، الغاية من وجودها أن تخدم الأتباع وصهرهم ضمن بوتقة روحية واحدة، في الطائفة المسيحية الجميع «أبناء الكنيسة»، وعند المسلمين هناك أخوّة إيمان «إنما المؤمنون إخوة»[1].

في كلا الجماعتين يلعب الدين دورًا جامعًا وضامنًا ويرسم طريقة حياة الإنسان منذ ولادته وحتى مماته، فالمسيحي لا يعتبر مسيحيًا إن لم يُعمّد، والزواج لا يستقيم إن لم يتم وفق مراسم كنسية، وكذلك الحال عند المسلمين هناك أركان الإسلام الخمسة كشرط في الدخول إلى جماعة المسلمين.

(1) في دراسة ميدانية تحت عنوان الإسلام اليومي: الطقوس والممارسات الدينية عند المغاربة، (2007) ظهر أن أقرب الناس للمستجوبين هم أولئك الذين تجمعهم الرابطة الدينية حيث طلب منهم تحديد أي الناس أقرب لهم من ثلاثة خيارات: المسلم الأفغاني أو اليهودي المغربي أوالمسيحي الفلسطيني، فعبر ما مجموعه 67% بأنهم أقرب إلى المسلم الأفغاني، بينما لم يحصل مواطنة اليهودي المغربي إلا على نسبة 13% عن مجلة إضافات/ العدد الثامن/ 2009/ بيروت).

2.2: هل لا زال السياق القرابي فاعلًا ناشطًا وموجودًا؟

عندما تجالس أحد أقربائك ممن سبقك بالعمر المديد سرعان ما يحدّثك عن نسله وحسبه ونسبه: الأجداد القدامى/ الأعمام/ الآباء ثم أبناؤهم وغيرهم من ينتمون إليهم بالقُربة، في الواقع لا يتحدث هذا الشخص المسن عن تاريخ آبائه أو «شجرة العائلة». بقدر ما يقصد من ذلك إحياء الإرث العائلي المتوارث منذ مئات السنين، إنه يُحيي أصل العائلة عبر التذكير بتلك الشبكة من الأفراد الذين يتواصلون اليوم برابطة الدم، وهذه الشبكة سواءً المتوغلة عمقًا في التاريخ نحو الأجداد أو الممتدة أفقيًا عبر الأقارب هي ما تعرف بـ kinship، ومع أن هذا المفهوم هو مجرد مصطلح اجتماعي أكثر مما يُشير إلى علاقة بيولوجية، إلا أنه يختلف عن مفهوم العائلة ببعض معانيه، فالعائلة وحدة اجتماعية مصغّرة محددة في الزمان والمكان والأفراد، بينما جماعة القرابة ممتدة، متشعبة، غير مضبوطة الأعضاء لا في التاريخ ولا في الجغرافيا، كونها تشمل جميع الأنسباء قديمًا وحديثًا سواءً كانوا من الأحياء أو الأموات وفي الوطن أو في المهجر.

وتتجلى جماعة القرابة بوضوح عند المناسبات الاجتماعية الخاصة فيما تفرضه على عصبتها من التزامات وواجبات تجاه ممن ينتمي إلى شجرة العائلة المعروفين على الأقل، فأنت تجاه أقربائك بلحظة ما مضطر للمشاركة بفرح، تُولي الاهتمام بمصاب، معنيّ بمساعدة من تربطك به صلة قربى بمال أو بخدمة.

وقد لاحظ الباحث الأنثروبولوجي (GEORGE MURDOCK) حضورها الفاعل في مختلف المجتمعات وبأن هناك حوالي 64% من الجماعات البشرية تقدّر عامل القرابة لجهة الأب (patrilineal descent) الذي يظهر بشكل واضح من خلال مسألة المواريث حيث تتولى المحاكم الشرعية والمدنيّة غالبًا توزيع الميراث على الورثة الذكور ذات العلاقة بالأب كجهة أولى، وبالمقابل هناك مجتمعات يعنيها أكثر العلاقة القرابية المتوارثة والممتدة من خلال الأم ونسبها (matrilineal descent).

وفي هذا االسياق يلاحظ أنه في بعض المجتمعات البدوية والصحراوية والمحافظة على العرق والنسب، لازالت القرابة حاضرة ومأخوذ بها إلى حد كبير، إلا أن هذا المفهوم يبدو هو الآخر ـ كغيره ـ قد تَعَصْرَن ولحقه تحولات على غرار ما حدث مع العائلة النواة و الممتدة، فبات يطلق اليوم مثلًا على من ينتمون إلى نسب واحد لقب معروف أو كنية خاصة بهم يشتهرون بها وهو ما يعرف بالآل (DISTINCT IDENTITY) الذي يعني مجموعة من الأشخاص يعتقدون أنفسهم متحدرين من أب وأم واحدة على عدة أجيال متعاقبة وينظرون إلى أنفسهم وينظر إليهم الآخرون على أنهم ذوي هوية اسمية محددة النسب.

ومما يميز جماعة القرابة أنها:

☆ تقوم بالتزامات مادية فيما بينها.

☆ ينشأون في مكان واحد ثم ينتشرون مع بقائهم على اتصال حميمي.

☆ قد تكون صغيرة العدد أو كبيرة.

☆ لها تأثير على قرارات أفرادها وهذا ما يعرف بالشورى.

☆ يتولى زعامتها شيخ، يصبح وجيهًا في جماعته وإليه يعود القرار الفصل.

☆ وجود تشابه كبير في أسماء أبنائها المتداولة فالرجل يُسميّ ابنه حكمًا باسم أبيه وأجداده وتبقى التسمية ثابتة مع الاسم كقولهم: سعد بن طراف بن سعد بن ....إلخ.

وتبرز أهمية جماعة القرابة من خلال اعتبارها خط وسط بين المجتمع الأكبر وجماعاته الصغيرة، في المجتمع هناك أسر معينة، بينما في جماعات القرابة هناك تفرّق على أكثر من مجتمع. ومن جدلية هذه العلاقة والوظائف التي تقوم بها لصالحها أولًا ولصالح المكان الجغرافي الذي تقطن فيه تاليًا، تتحدد خصائصها البنيوية الاجتماعية المفترضة. لكن السؤال الأهم الذي يطرح نفسه في هذا المقام:

*** هل لا زالت جماعة القربة مثالًا حيويًا على حميمية التواصل بين الأفراد في الملمات أم تضاءل وهجها حتى انتهت القرابة عند حدود لفظة «UNCLE»؟.**

*** لماذا يبرز اليوم ما يسمى بالراوبط العائلية تحت أسماء متعددة مثل:** جامعة آل عيتاني وأنسبائهم في بيروت، رابطة آل طربيه في الوطن والمهجر، تجمّع عائلات أبوخاطر في لبنان والعالم، اتحاد أبناء بيت مشهور.... الخ، هل المقصود منها إعادة إحياء القرابة والنسب عبر العودة إلى جمع الأسر المنتسبة إلى أصل واحد بعد تشتتها أم لأمر آخر؟.

3. جماعة الأقلية (MINORITY GROUP)

تسمى هذه الجماعة بالأقلية لأنها أقل عددًا عن التعداد العام لمجموع السكان المتواجد ضمنه، إلا أن مؤشر العدد لا يحدد بالضرورة ماهية الأقلية، بل القوة الاقتصادية أو النفوذ السياسي هو ما يأخذ به علماء الاجتماع عند دراسة الأقليات وذلك بالسؤال عن مدى تمتّع الأقلية بالنفوذ أو القوة؟ كذلك يمكن النظر إلى جماعة الأقلية على أنها جماعة كبيرة تمتد على أرجاء بلد معين لها من السيطرة والنفوذ على أفرادها بشكل يجعل هؤلاء الأفراد مترابطون ومتماسكون.. ومما يميز الأقلية حيث تتواجد:

1 . **اللامساواة في المعاملة:** والمقصود بذلك أن أبناء الأقليّات يشعرون دائمًا بأنهم مضطهدون من أبناء البلد المتواجدين ضمنه، فلا يُعاملون بالمثل كسائرالمواطنين المحليين، فالأميركي مثلًا يرفض أن يؤجّر منزله لرجل أفريقي أو عربي، بينما يرغب فعل ذلك مع مواطنيه أو مع أوروبيين ويهود، مثل هذه التفرقة الاجتماعية قد تخلق نوعًا من التحامل والتميز والانفصال والتطرّف.

2 . **وحدة الثقافة**، يتميز أبناء الأقلية عن غيرهم في حفاظهم على ثقافة الأصل حتى تُصبح هوّيتهم أينما حلّوا، لدرجة أصبح من المتعارف عليه أن ننسب شخص معين إلى أقلية بناءً على سمات ثقافية يتمتع بها... السريلانكيون في لبنان هم خدم، الأرمن أصحاب حرف وصناعات.

3 . **وراثة النسب**، ومعنى ذلك أنه ليس لدى أبناء الأقليات الخيار بأن ينضموا إليها تطوّعًا وإنما جميع أبنائها مولودون من نسبها، إنهم ذات سلالة ونسب موروث.

4 . تضامن وتآزر، لدى جماعة الأقلية شعور وحس مشترك بالتضامن، ويظهر مثل هذا الشعور التضامني عندما تشعرالأقلية بأنها مهددة،مستهدفة، مضطهدة. .حيث يتكاتف الجميع ضد من يناوؤهم من الآخرين.

5 . التزاوج الداخلي، ثمة عرف ثابت في وسط الأقليات وهو الرغبة في اقتران أبنائها من بعضهم البعض، ويشجّعون عليه كي تبقى الأقلية في كيانها وتحافظ على هويتها الخاصة، لهذا يستاء الأقليون عندما يتزوج واحدهم من خارج ملته. **(ليس سهلًا أن تدخل وسط أقلية بهدف زواج)**. . فهو أشبه بالأمر المستهجن خاصة إذا كانت الأقلية في مجتمع أو بلد يُنظر إليها دائمًا على أن أبنائها من الدرجة الثانية.

1.3 ـ شبيبة الضواحي:

يُنظر إلى هذه الجماعة على أنها نوعٌ من التكوين الاجتماعي وغالبًا ما يكون جيلي ومديني، إنهم شباب الأحياء الأشد شكيمة وعنفًا[1]. يميل هؤلاء الشباب إلى أن يُصبحوا أكثر تجانسًا على صعيد المعاش اليومي ومع الوقت يتمأسسون كغيتو اجتماعي أو ديني أو عرقي، له ثقافته الفرعية الخاصة، كما هو الحال مع الشباب المغاربة المتحدرون من مناطق محرومة اجتماعيًا في بلدانهم يقطنون في ضواحي مدن فرنسية/ ضاحية ليون تحديداً، فعبر لغتهم ـ العامية الفرنسية ـ وملابسهم (قبعات البايسبول وقمصان لاكوست وأحذية نايكي الرياضية) وموسيقاهم (الهيب الهوب والراب) وطعامهم (fast food) يصبحون أشبه بجماعة شبابية جديدة لا هي بالمغربية ولا الفرنسية الحديثة، إنهم أقرب إلى السود الأمريكيين، والدليل على أنهم أبعد ما يكون عن ثقافتهم الأصيلة ـ وتحديدًا الإسلامية ـ هو تربيتهم كلاب البيتبول في الشقق، مع أن الإسلام يرفض تربية الكلاب في البيوت وقد يعمدون إلى إثارة شغب وإقلاق وإزعاج والتهور في أنشطة غير شرعية، إذن هنا جماعة تعمل على إعادة تكوين

(1) لماذا الأكثر عنفًا؟ لأن بعض التقارير عن الشرطة تبين أن معظم الموقوفين يتحدرون من أحياء ضاحيوية.

ذاتها وفق منطق تمرّدي ـ عنفي، على شاكلة النضال الثوري لليساريين، ويمكن ملاحظة ذلك مع ما يحدث عند كل أزمة تندلع في الشرق الأوسط يتحرك هؤلاء في أعمال عنف (حرب الخليج الثانية 1991/ والانتفاضة الفلسطينية 2000، والحملة على أفغانستان 2001) حيث قام هؤلاء الشبيبة باعتداءات في بعض المدن الفرنسية على دور العبادة والمدارس اليهودية..

يمكن فهم جماعية (collective)الشباب الضاحيوي، على أنها ظاهرة نفسية دفينة تتبلور من خلال حالات الوعي الجماعي في الحياة اليومية، فالذين ينتمون إلى منطقة معينة نجدهم ينجذبون إلى بعضهم البعض، والذين ينتمون إلى جيل واحد نلاحظ أنهم يتشاطرون المفاهيم نفسها والوعي الديني عينه والمواقف الوطنية المنظمة. الجماعة الاجتماعية هي بمثابة وعي جماعي يغرف الجميع منه تصوراتهم وأفكارهم ومسالكهم[1]. بعض الباحثين دلل على هذه الجماعية من خلال ما أسماه طبيعة الانتماء وطبيعة العلاقات القائمة داخلها فأصبح لها تسميات أخرى مثل:

* **الجماعة من حيث العلاقات**، ما هي طبيعة العلاقة ضمن النسق الاجتماعي، هل هي قوية/ وشيجة لدرجة الاستغراق وهذا ما يعرف «بالجماعة المستغرقة» كما هو الحال مع الطوائف أوالعشائرية حيث الشعور بالانتماء يغلب على المصالح وأفرادها متضامنين ومتضمنين في الجماعة الكبرى. أم أن العلاقات واهية مما يجعل الأفراد ينصرفون عن الجماعة الأصل ليشتتوا أفرادًا وفرق على نسيج آخر من العلاقات.

* **الجماعة المرجعية** التي تعني تجمع لأشخاص يتفاعلون مع بعضهم

(1) أطلق شباب الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت على وسائل النقل المشترك صاحبة الرقم 4 التي تسلك الطريق من الضاحية باتجاه شارع الحمرا بوسط العاصمة، تعبير «اللواء الرابع»، لأنها هي الفانات نفسها التي استعملت في نقل الحشود الغاضبة من الضاحية إلى ميادين التراشق الطائفي والمناطقي التي تتالت في السنوات الأخيرة، فدرجت التسمية ودرج معها منطق ساد عقول الشباب الضاحيوي: إن رأسمال أي منطقة لكي تسقط هو فانان من اللواء الرابع... عن مقالة: من الضاحية إلى الحمرا... حكاية طريق، (جريدة حبر لبناني، العدد 1، كانون الأول 2009).

البعض في سياق معين أكثر مما يحدث بينهم في أي سياق آخر، وبهذا المعنى أشار علم النفس الاجتماعي عن هذه الجماعة على أنها «صورة عقلية موحدة» تنطبق على مجموعة من الأشخاص يشغلون وضعًا معينًا في سياق اجتماعي.

4 ـ السلوك الجموعي collective behavior.

يتناول علم الاجتماع الإعلامي السلوك الجماعي لما له من صلة بكثير من التجمعات، هذا السلوك والذي يسمى أيضًا بالسلوك الشمولي، يمكن فهمه من خلال درس بعض الحالات مثل الحشد والرعاع والهلع والهوس والرقص المسعور والتدافع والرأي العام والصرعات والموضة والحركات الاجتماعية والثورات والحركات الإصلاحية.

1.4 ـ **الحشد**، يتسم سلوكه بالاندفاع والثورية بدل التقيد بالقوانين المرعية، هو بمثابة جماعة لا ثقافية ولا أخلاقية، لأنه تنقصه ملامح الجماعات المنظمة من هيكلية في الأدوارالمقرة، قيادة معترف بها ومجموعة أعراف وقوانين ووعي ذاتي للهوية المميزة. .لهذا يصبح من السهل إدراك الأسباب التي تجعل الأعمال الصادرة عن الحشد مستهجنة ومنفرة وأحيانًا مروعة، وبطبيعة الحال هو مختلف عن الجمهور باعتبار الأخير جماعة من الناس يشترك أفراده في لقاء عفوي حول إحدى القضايا الهامة وغالبًا ما ينتهي هذا اللقاء إلى نقاش وإلى قرارات جماعية وآراء مشتركة، ويتقارب الحشد في طبيعته مع مفهوم الكتلة باعتبار أن أفرادها منفصلون ومعزولون ومجهولون، والكتلة مثل الحشد لا تنظيم يضبطها ولا قواعد تسيّرها ولا طقوس تنظمها ولا قيادة تتزعمها.

2.4 ـ **الرعاع**: هم جماعة من الناس يقومون بأعمال عنف وتخريب، تعبر عن استياء معمم أكثر مما تعبر عن أهداف محددة.

3.4 ـ **الهلع**: ويحدث في مواجهة المخاطر المفاجئة والحالات الأمنية الطارئة التي تهدد السلامة، يرتبط الهلع غالبًا بظاهرة العدوى الاجتماعية التي يعزز من انتشارها وجود آخرين يعملون على حالة من الهياج

أو حدة الرعب.(كحالة الإعلان عن قدوم إعصار أو كارثة طبيعية ستحدث، أو نتيجة لإعلان وباء خطير، كما هو الحال مع مرض H1N1 الذي أعلنته منظمة الصحة العالمية وباءً عالميًا استدعى معه حالة استنفار طارئة لطرق الحماية والمعالجة) ويتوقف علماء الاجتماع عند ظواهر الهلع كيف أنها تُحدث ردات فعل انفعالية مستنفرة تبرز في هيئة استنكار/ رفض/ احتجاج. خاصة بعدما يتناهى إلى سمع الناس أخبار عن حوادث تقنية مميتة (كتحطم طائرة أو قطار/ تسرّب نووي/ تسمم كيميائي/ ...).

4.4 ـ **الهوس**: هو تكتل بشري مؤقت (ظرفي) يظهر نتيجة اهتمام معين، فمتفرجي كرة السلة ومشجعي الراليات ومثيري الهرج كلها أمثلة عن حالة الهوس الجماهيري. وكثيرًا ما تلعب التلفزة والصحافة والأقاويل والخبريات المتداولة بما فيها الإشاعات دورًا في تعزيز حالة «الهوس»، حيث يأتي التصرف عندها كرد فعل على اعتقاد معمم، والمثال على حالة الهوس الجماهيري ما ترافق مع مباراة الترشح لكأس العالم في كرة القدم بين مصر والجزائر (2009) حيث بلغ التنافس أشدّه حتى وصل إلى حالة غليان شعبي في الشارعين المصري والجزائري وأكثر من ذلك أحدث توترًا في العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بعدما أخذ الإعلام ينقل أخبارًا عن حالات الاستفزاز والتعنيف والتهديد والاعتداء التي طالت مواطنين من كلا الدولتين أثناء المباراة وبعدها.

5.4 ـ **الصرعة والموضة**، الأولى عبارة عن امتثال مجموعة من الناس لمنتج استهلاكي ظهر فجأة ليلاقي بدوره هوى في نفوس بعضهم، وقد يظهر من خلال طريقة ثياب/ موسيقى رائجة/ قصة شعر...إلخ، بينما الموضة قد تكون أكثر تقبّلًا من الصرعة لأنها تظهر كأسلوب حياة جديد أو متجدد مع معطيات العصر. في الغالب عندما تذكر كلمة موضة يربطها الناس بالثياب وطريقة ارتدائها والدارج من الألوان أو التصاميم، لكن واقع الموضة تدخل في سمات ثقافية واجتماعية أخرى: السيارات، الرياضة، الدراما، الفنون، الصحة، الأثاث المنزلي، اختيار الحيوانات الأليفة وحتى إعادة تشكيل

الجسد/عمليات التجميل والترشيق باتت خاضعة لمسائل الموضة، وأصبحت تحدد وفق «الذوق الدارج».

وقد اهتم باحثو علم الاجتماع بهذه الظاهرة ومآلها فوجدوا أن الصرعة غالبًا ما تكون نمط حياة مغاير لثقافة معاشة وسائدة، سريعة الزوال، تسعى إلى البحث عن جديد بهدف الجديد، كما أنها تصبح المقياس الذي يفرّق به الناس بين ما هو رمز ثقافي أصيل وما هو طارئ ومؤقّت لزمن محدد، لهذا يقال بأن هناك عادات وتقاليد (أصول) وهناك موضة دارجة اليوم (صرعة)، واحدة ثابتة على الدوام كمحور ثقافي، وأخرى متغيرة كسمات مستحدثة تظهر اليوم وتستمر لحين ظهور سمات جديدة تحل محلها، الأولى (التقاليد) مرتبطة بالإرث الثقافي - الديني المتوارث، الثانية (الموضة والصرعات) مرتبطة بالذوق الشخصي.

تظهر الصرعة كشيْ ترفيهي يستهوي جيل الشباب فيمارسه كحالة مزاج، بينما الموضة غالبًا ما تعطي الانطباع بأنها تلازم أصحاب الثروة وذوي المكانة الاجتماعية (الفنانين/ المشاهير/ رجال الأعمال) كما يمكن اعتبارها تعبير عن الآراء والاتجاهات والفنون والتكنولوجيا وغيرها من المعنويات الثقافية التي تتبناها جماعة أو طبقة في المجتمع لفترة من الزمن، ثم تنخفض بعد ذلك ليحل محلها موضة أخرى جديدة، وفي مقاربة أولية لموضوع الموضة وجماعتها، تبين أنها أنماط سلوكية انتقالية تعكس نظامًا طبقيًا مرنًا يمكن تناقلها من طبقة لأخرى، وأن الذي يتبنى الموضات بدايةً هم الأغنياء ثم تنتقل بعد ذلك إلى أفراد الطبقة الوسطى فأفراد الطبقة الفقيرة، باعتبار أن النخبة هي التي تهتم بالمظهر وبمسائل التأنق في وقت يكون أبناء الطبقات الفقيرة مهتمين بأمور أكثر حاجة. ويذهب البعض إلى الاعتقاد بأن دافع التفرّد يُعتبر من الدوافع الأساسية في نظام الموضة، وآخرون يعتبرونها من وحي التماثل مع الآخر[1].

---

(1) تبين بالدراسة أنه يمكننا من خلال ثيابنا تمرير رسالة عن شخصيتنا بعيدًا عن التماثل مع الآخرين وأننا أيضًا نستعمل الثياب لنعطي صورة مميزة عن ذاتنا ولكن ما نجهله هو أن صورة الذات التي كوناها عن أنفسنا ليست سوى انعكاسًا لتفكير الآخر بمعنى أننا ننظر إلى أنفسنا من خلال أعين الآخرين، وبما أن الثياب هي جزء من صورة الذات ومن مظهرها الخارجي =

ينشأ السلوك الجماعي عندما تلتقي خطوط العمل الفردي استجابة لنزعات واهتمامات عدد كبير من الأفراد المعزولين حول نقطة مشتركة وجديرة بالاهتمام ولا تقع ضمن دائرة اختياراتهم الشخصية بالضرورة.. ويلصق بهذا السلوك غالبًا سمة السلبية لسبب أن أقبح الجرائم في التاريخ كالحروب والتصفيات العنصرية وموجات الإبادة والعنف والكراهية العرقية لم يرتكبها أفراد بل جماعات من الناس تخلى أفرادها عن إنسانيتهم واشتركوا بأعمال لاعقلانية ولاواعية. لهذا يرى علم الاجتماع عند الحديث عن «هذه الأنواع من التجمعات» بأنه ليس من السهل تحديد مسببات التجمعات لأن لكل تجمع أبعاده ودلالته، فبطبيعة التجمع الغاضب والهائج أو المشجع أو المهووس إزاء حدث معين، تختلف تمامًا عن ذاك التجمع الذي ينادي إلى احتفال ديني لمناسبة إحياء ذكرى، ويختلف كذلك عن الحشود التي اجتمعت عفويًا لوداع زعيم إلى مثواه الأخير. لهذا السبب يمكن القول بأن الحشود أكثر من لقاء عاطفي وأكثر منه إيحائي وليس بالضرورة أن يكون له بعدًا تدميريًا.

كذلك تجدر الإشارة بأن في هذه الحالات وخاصة في حالتي الهوس والهلع لا يعي المرء ما يقوم به بل يكون في حالة لاشعورية ولاواعية تدفعه إلى التصرف بسلوك هستيري. وقد لاحظ الباحثون بالدراسة والمتابعات الميدانية كيف أن الناس تندفع بشكل ثائر حالما يدركون بأن هناك حريق هائل مثلًا في المكان الذي يتواجدون فيه (مسرح/ مركز تجاري/ ..) وكيف يدفعهم الذعر إلى التدافع وحتى إلى القفز من على الشرفات، وكأن مثل هذا التصرف التلقائي هو بمثابة رد فعل غريزي إزاء حالة الخوف العارمة تدفع بأحدهم القيام به وفق غريزة «الحفاظ على البقاء»[1].

= لذا فإننا نعمل لكي تلقى قبولًا عند الآخرين. (رانية سعد/ الدوافع والدلالات المتعلقة بموضة الشباب/ مجلة إضافات/ صيف وخريف 2008).

(1) (الفرق بين الهلع والهوس: الهلع هو فرار من حدث ما، بينما الهوس هو اندفاع لشيء ما).

5) الحشود الجماهيرية في الاحتجاجات:

إذا كانت بعض التعريفات ترتكز على القول بخاصية العدد الكبير الذي يتميز به «حشد التظاهر» لما لهذا الاعتبار من دور تأسيسي في تحديد معالمه. إلا أن هذا الاعتبار غير كافٍ للتفسير أساسًا وجوهرًا لمعنى التظاهر وأهميته، لأن إذا أردنا التوصل إلى وصف حقيقي للكتلة الجماعية باعتبارها فريقًا ـ أي جزءًا مساهمًا وفعالًا في عمليات التعبير ـ وجب علينا أن ننظر إليها كجمهور يتألف من أناس يشترك أفراده في ظهور/ لقاء/ نقاش عفوي حول إحدى القضايا العامة من شعور مشترك، لينتهوا إلى قرارات جماعية وآراء مشتركة. لهذا فإن ألفًا أو مائة ألف يتواجدون بالصدفة في ساحة أو محطة قطار أو ينتظرون الدخول إلى سنتر تجاري بهدف الاستفادة من أسعاره المخفضة لا معنى لتجمعهم وعددهم إن لم يكن لديهم توجّهًا واضحًا، في حين أن بضعة مئات ـ على سبيل المقارنة ـ من عناصر متحركة لها هدف وتنطلق وفق خطة مطلبية يمكن اعتبار تحركها ذا جدوى. إن خاصية العدد لا يفرضه سلوك التجمع بقدر ما يفرضه فعل الإيمان بجدوى الاحتشاد/ التظاهر. وهنا يصبح هذا التكتل البشري «الهادف» ممتلكًا ـ وكما يرى الباحث الفرنسي (غوستاف لوبون) في مؤلفه سيكولوجيا الجماهير ـ خصائص جديدة مختلفة جدًا عن خصائص كل فرد يشكّله إذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، فتتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة لكنها تتمتع بخصائص محددة، لتصبح والحالة هذه ما يمكن تسميته بالجمهور النفسي له كينونته ووحدته العقلية المشتركة. وبناءً على ذلك أيًا تكن نوعية الأفراد الذي يشكلونه، وأيًا يكن نمط حياتهم متشابهًا أو مختلفًا وكذلك اهتماماتهم ومزاجهم أو ذكائهم، فإن مجرد تحولهم إلى جمهور / حشد تظاهري يزودهم ذلك بنوع من الروح الجماعية، وهذه الروح تجعلهم يحسون ويفكرون ويتحركون بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة التي كان سيحس بها ويفكر ويتحرك كل فرد منهم لو كان معزولًا. وهذا ما أشار إليه الباحث النفسي (CATTELL) في تحليله لديناميات التركيب، عندما رأى أن كل فرد يرتبط بالجماعة بهدف إرضاء بعض حاجاته

النفسية يجلب معه للجماعة درجة من الطاقة، ومجموع الطاقات المتاحة يفعّل النشاط كي تحصل الجماعة على ما تبغيه.

بهذا السياق يمكن النظر إلى الحشود الشعبية فأيًا كانت هويتهم أو مهنتهم أو جنسهم والمصادفة التي جمعتهم، فإنهم ينصهرون في بوتقة «التركيب» وفي الفاعلية التي تحرك الجماعة ككل مما يجعلها وحدة خاصة. تُنشئ من يمثلها ومن يفسر اتجاهاتها ومن ينطق باسمها، وعندما يتمكن هؤلاء من مس وإثارة عواطف أفراد الجماعة بشكل عميق في التأثير الدعائي، لا يغدو المضمون المستوعب مادة للتفكير وحسب، وإنما مصدرًا للهيجان والاضطراب وقوة دافعة نحو رغبات وطموحات جديدة. ومثل هذه الإثارة الانفعالية جماهيريًا غالبًا ما تشق الطريق نحو واقع الجماعة المرتقب.

إن السلوك الشمولي -كما يسميه هربرت بلومر ـ ينشأ عندما تلتقي خطوط العمل الفردي استجابةً لنزعات واهتمامات عدد كبير من الأفراد المفصولين، المجهولين، المنعزلين، حول نقطة معينة تبدو جديرة بالاهتمام ولا تقع ضمن دائرة اختياراتهم الشخصية. والتقاء اختيارات الناس هو ما يجعل من «ظاهرة التظاهر» مثلًا قوة ذات تأثير، خاصة في الظروف المثيرة التي ترتفع فيها قابلية التأثر بالنداءات الحماسية، ليصبح لدى جمهور التظاهر خصائص مثل: سرعة الانفعال، النزق، انعدام الرأي الشخصي، ظهور الروح النقدية، المبالغة في العواطف والمشاعر، إذ من شأن هذه العوامل أن تعمل على تهييج جماهير متنوعة ومتعددة وتحركها إلى أبعد حد لقول غوستاف لوبون: «لاشيء متعمد أو مدروس لدى الجماهير، فهي تستطيع أن تعيش كل أنواع العواطف وتنتقل من النقيض إلى النقيض بسرعة البرق وذلك تحت تأثير المحرّض السائد في اللحظة التي تعيشها..»[1].

خلاصة:

إلى ما يعود السلوك الجماعي؟ ما هي الدواعي التي تعمل على إيجاده؟

(1) غوستاف لوبون: سيكولوجيا الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت. 1991.

ثمة أسباب ترافق السلوك الجماعي وتبعث عليه، ومنها:

- ✓ فقدان الأشكال الاجتماعية، عندما تكون التدابير الاجتماعية السائدة غير مجدية، يجد الأفراد أنفسهم مضطرين للارتجال.
- ✓ المواقف الغامضة إزاء الأمور التي لم يبت بها، تفتح الباب أمام تأويلات وأخذ ورد في شأنها.
- ✓ تغير القيم والمفاهيم، إزاء التغييرات المادية المتسارعة غالبًا ما تكون القيم المعنوية غير قادرة على اللحاق بالتغيرات المستجدة، فيجد الأفراد أنفسهم في ظروف جديدة عليهم، تقود تصرفهم وتدفعهم إلى التجمع خارج النطاق الرسمي.
- ✓ تأثير وسائل الإعلام عبر ما يعرف بالأمية النفسية وهي حالة يتعلم فيها الفرد أن يكوّن طموحات معينة ويتعلم الأساليب التي تتيح له تحقيق هذه الطموحات وفي حال الفشل يتحول إلى أخرى بديلة.
- ✓ العدوى الاجتماعية وربما هي نتيجة عدوى ثقافية تظهر في مكان وتتناقل كالعدوى حتى تصبح كظاهرة / كشعور مشترك . .يتأثر به أحدهم وبقدر ما يدرك الفرد شعور الآخرين يصبح وإياهم في حالة استعداد لتغيير تصرفاته تجاوبًا وتعاطفًا (الصرعة / الموضة/ الإشاعة/ الهوس الجماعي . .).

المفهوم الثاني:
الطبقات

عُرفت الطبقات أول أمرها منذ زمن سحيق مع مجتمعات بلاد الإغريق قبل الميلاد حين كان سكان القرية ينقسمون إلى طبقتين: فقراء وأغنياء، تنشب بينهم حروب كثيرة طاحنة ونزعات لا تنتهي، وخلال العصور الوسطى انقسمت المجتمعات طبقيًا إلى ثلاث رتب: الأغنياء، عامة الناس والفقراء دون أن تكون بين هذه الطبقات أيّة عاطفة اجتماعية، لكن مع طور اجتماعي آخر أصبح بين هذه الطبقات «مرونة اجتماعية» حيث قلّت حدة التنازع وأصبح الانتقال الاجتماعي بين الطبقات ميسّرًا إلا أن ما ميّز هذه المرحلة هو توسّع نسبة الطبقة المتوسطة بين أفراد المجتمع الحديث بشكل ملحوظ.

* الطبقة من وجهة نظر اجتماعية:

إن تصنيف الناس في طبقات اجتماعية ظاهرة ملازمة لوجود الجماعات البشرية، لأن هناك عوامل تجعل من التشطير الاجتماعي أمرًا مفروضًا، فقدرة الإنسان على التعلّم تختلف من فرد لآخر، كذلك إجادة طبيعة عمل تختلف من جماعة لأخرى، وبعدما كان يُقال عن المتعلّمين بأنهم القدوة والنخبة، وكل من لا يعرف القراءة أو غير متعلم هو إنسان آخر إلا أن حد التفاوت لم يقف عند حدود المعرفة والعلم بل امتد نحو مستويات أخرى:

- ✓ **اجتماعيًا**: هناك أغنياء وفقراء/ سادة وعبيد/ سود وبيض/ عائلة معروفة وعائلة وضيعة.
- ✓ **اقتصاديًا**: إقطاع وفلاحون / رأسماليون وعاملون/ أرباب وخدم.
- ✓ **سياسيًا**: تقدمي وراديكالي/ موالٍ ومعارض/ يمين ويسار..

✓ دينيًا: مؤمن وغير مؤمن/ ملتزم وأصولي/ منفتح ومغلق/ متشدد ومتساهل.

في مجمل هذه التنوعات هناك توجهات أيديولوجية تحكم الأفراد المنضوين في سياقها بأنماط سلوك محددة سواءً باتجاه الأفراد المماثلين لهم (مجموعة . . .مع) أو باتجاه الآخرين المختلفين عنهم (مجموعة ال. .ضد). كما في النماذج التالية:

1 ـ النخبوية:

يبرز مفهوم النخبة كقوة منظمة تسود أي وسط اجتماعي، وداخل هذه المنظمة نواة تدير دفّة الأمور بشكل مباشر وكأن السلطة الفعلية بيدها، خاصةً بعدما أشار إليها كل من الفيلسوف الإغريقي (أفلاطون) في كتابه الجمهورية الذي دعا فيه إلى تسليم السلطة السياسية «النخب حاكمة» و(كارل مانهايم) في إطار أطروحته النظرية عن النخبة الذي يرى ضرورة تسليم الحكم السياسي لنخبة من المثقّفين الأحرار تكون مهمتهم قيادة البشر نحو العدالة والمساواة، وميزتها أنها تختار الأكفاء من خارج الإطار الطبقي والانتماءات الأيديولوجية كي يكون حكمها حياديًا. وفي الوقت الذي ينظر الناس إلى النخبة على أنها جماعة تمتلك صفات يثمّنها المجتمع (مراكز إدارية حساسة/ قوة عسكرية/ كفاءات علمية. .) تتميز هذه الجماعة بخصال أبرزها:

* إمكانية التأثير على سائر الأفراد لما تمتع به من قوة وسلطة.

* عددها غالبًا يكون أكثر بكثير من عدد الطبقة.

* أفرادها متحدون، كلّ منهم يعرف الآخر ويتفاعلون من أجل أهداف مشتركة.

* جماعة متماسكة لا توفر المجال بسهولة لأي شخص خارجي الانتماء إليها.

* يظهر على أفرادها أحيانًا الأبهة/ العظمة / المجد. .

وفي سياق متصل يربط باحثون في علم الاجتماع وأبرزهم (فيبر) النخبوية بفرص الحياة (life chances)، حيث تتيح لبعضهم الفرص في أن يكونوا من ذوي المكانات الاجتماعية الراقية وظروف العيش المرفه من خلال فرصة توليهم لوظائف هامة في المجتمع إما نتيجة جهد ذاتي (تعليم / وإنجارات) وإما نتيجة ظروف استثنائية (استزلام سياسي/ . .) حيث يدخل عندها ممن تمتعوا بفرص الحياة الاستثنائية ما يصطلح على تسميته «النادي الاجتماعي المميز». . قد لا تهيأ الثروة والمنزلة والقوة السعادة، لكن في حدها الأدنى تقدم فرصًا لحل الكثير من مشكلات الحياة اليومية التي يواجهها أبناء طبقة الدنيا عبر عملية حراك اجتماعي في أن يكونوا من أصحاب الامتيازات. ولعل أبسط مثال على ذلك ما يسيمه السوسيولوجي (ريتشارد شيفر) ب: digital divide، التشطير الرقمي المنبثق عن ثورة المعلوماتية واستخدام الإنترنت، فالعائلات الفقيرة وقاطنو الأحياء الشعبية قلما يشتركون في هذه الخدمة في منازلهم نظرًا لأكلافها الدورية، بينما العائلات الثرية تكون فرص الحياة التفاعلية بالهواتف والإنترنت والتواصل التقني أكثر توفرًا.

2. الأرستقراطية:

ويحددها العالم الاجتماعي (ماكس فيبر) من خلال مظهرين: المرتبة (status) وأسلوب الحياة (lifestyle)، فبحسب دراساته هناك تمايز يحصل بناءً على الوراثة في المناصب والألقاب في أي جماعة بشرية، ومن شأن هذه الوراثة أن تضع الناس في امتيازات ومستويات اجتماعية راقية، كما هو الحال بالنسبة للأطباء والمحامون في المجتمع البريطاني الذين يعتبرون من أبناء الطبقة الراقية في مقابل ما يعرف بالطبقة المنبوذة اجتماعيًا. وافترض (فيبر) أن الأرستقراطية تتحدد من أسلوب الإنسان في المعاش وفي طريقة استهلاكه لا في طريقة إنتاجه، هذا الأسلوب الذي يرتبط بمدى توافر اختيارات فرص الحياة المرفّهة من طرق اللبس إلى استغلال أوقات الفراغ وكيفية قضاء الإجازات أو الانضمام إلى مجالات ترفيه وحضور حفلات الموسيقى العالمية. . تُظهر بعض الأرقام المتوفرة عن النشاط الاستهلاكي في المنطقة

العربية، وخاصة حول بعض السلع الكمالية والرفاهية، مؤشرات عن التوجهات الاستهلاكية لدى المواطنين:

* ففي مجال الأثاث: يقدر معدل النمو السنوي لسوق الأثاث في السعودية مثلًا بنحو 4%، ويبلغ حجم هذه السوق ما يزيد على 800 مليون دولار. وحجم إنفاق الأسر السعودية على الأثاث يسجّل ارتفاعًا مستمرًا، حيث يزيد على 3% من الدخل السنوي للأسرة وفقًا لدراسات السوق، وتغيّر الأسر السعودية المتوسطة الدخل أثاثها كل 5 سنوات، فيما تنخفض المدة للأسر الأكثر دخلًا، والتي تغير أثاثها كل 3 سنوات.

* العطور ومستحضرات التجميل: أظهرت دراسة اقتصادية أنّ إنفاق المستهلك الخليجي على العطور ومستحضرات التجميل، تعتبر من أعلى معدلات الاستهلاك في العالم. وقدرت حجم وإرادات مجلس التعاون الخليجي منها بنحو817 مليون دولار سنة 1995م. وأشارت الدراسة التي أعدها مصرف الإمارات الصناعي إلى أنّ دول الخليج استوردت سنة 1995م نحو 190 ألف طن من العطور ومواد التجميل، ولاحظت الدراسة تزايد استهلاك العطور ومستحضرات التجميل بصورة مطّردة مع ارتفاع مستويات المعيشة.

* الذهب والألماس: تعتبر السعودية ثالثة أكبر سوق عالمية للذهب تقدر قيمتها 3 بلايين دولار سنويًا، وقدّر مسؤول في شركة (دي بيرز) أكبر شركة للألماس في العالم حجم سوقه ـ عدا بقية الشركات ـ في منطقة الخليج بأكثر من بليون دولار سنويًا. وقال إن الطلب على الألماس في منطقة الخليج يعتبر من الأعلى في العالم.

* السيّارات: تنفق السعودية ما يصل إلى 13 بليون دولار في سوق شراء السيّارات، ما يجعلها أكبر سوق للسيّارات في الشرق الأوسط، حيث تستورد أكثر من 275 ألف سيارة سنويًا تقدر قيمتها بأكثر من 10،9 بليون دولار. وفي الأردن يعكس واقع اقتناء الطلاب الجامعيين السيارات تفاوت

طبقات المجتمع ويمثل مرآة لواقعه ومدى الهوة التي تفصل بين فئاته وأطيافه، ما يمكن أن يرسم صورة للمشهد الاقتصادي المختل بين قلة تملك وكثرة لا تملك، وما تجسده ثقافة التفاخر والتباهي الاستهلاكية. معظم هذه السيارات إن لم يكن جميعها تعود لطلبة تتراوح أعمارهم بين 18 و23 عامًا المفترض بأنهم معالون من قبل أهلهم ولا دخل لأغلبهم على الأقل. وتشير دراسة لأمانة عمان إلى أنّ «40% من طلاب الجامعة الأردنية يستخدمون سيارات خاصة»، في الوقت الذي يقدر فيه عدد طلاب الجامعة بحوالي 40 ألف طالبًا فلا يمكن أن تصنف هذا الصورة إلا تحت بند المباهاة والتظاهر الاجتماعي ومظهر من مظاهر الاستهلاك في مجتمع يضم 60 ألف أسرة جائعة.

عند الحديث عن سلوك الاستهلاك ولماذا يتجه الأفراد إليه؟ قد تكون الإجابة البديهية أن سلوك الاستهلاك يحقق إشباعًا لاحتياجات ضرورية لايمكن الاستغناء عنها أو حتى لجعل الحياة أكثر سهولة عن طريق اقتناء المنتجات الكمالية. إلا أن الدراسات أثبتت أن للمستهلكين أهدافًا أخرى يسعون إلى تحقيقها من خلال سلوكهم الاستهلاكي، فمفهوم الاستهلاك التفاخري، أحد أهم المفاهيم التي توضح أنماط الاستهلاك ذات الطبيعة الطبقية، هو وسيلة للتعبير عن الثراء والمنزلة الاجتماعية من جهة، ومن جهة أخرى هو وسيلة لتحقيق غاية هامة وهي بناء هوية اجتماعية جديدة، أي أن المستهلك يستطيع من خلال سلوكه الاستهلاكي أن يخلق طبقة اجتماعية أعلى لنفسه وأفراد أسرته، و يؤكد العالم (أونتس) وآخرون أن عملية الاستهلاك عند الطبقات الدنيا في المجتمع هي أمانٌ من العوز والحاجة، لذلك ينصب جل الإنفاق الأسري على المنتجات الغذائية، أما الطبقات الأعلى فهي تحقق وظائف أخرى مثل عرض للمنزلة الاجتماعية، بناء الهوية الخاصة إلى المشاركة في الطبقة الاجتماعية وغيرها.

* الطبقة من وجهة نظر اقتصادية:

انطلاقًا من أسس التفاوت الطبقي يظهر وجود ثلاث طبقات رئيسة:

1 . **الأرستقراطية التقليدية**: وهي الطبقة التي تحتل موقعًا هامًا في بنية الحركة الاقتصادية، إذ تسيطر على ملكيات كبيرة من الأرض ورأس المال وتنعم بالجاه والنفوذ وتمارس الاستغلال والقهر ضد الطبقات الكادحة، تتكون هذه الطبقة إجمالًا من فئات أبرزها: مالكي الأرض الكبار/ شريحة التجار والصناعيين/ أصحاب المصارف/ الأغنياء الجدد.

2 . **البورجوازية الجديدة**: وتضم أصحاب الملكيات المتوسطة وأصحاب المهن الحرة والموظفين البيروقراطيين والضباط الكبار، أي تلك الشرائح التي تشغل موقعًا وسطًا في التراتب الاجتماعي فلا يعتمدون على استئجار اليد العاملة ولم يفقدوا ملكية وسائل إنتاجهم.

3 . **طبقة البروليتاريا**: تشكل هذه الفئة البشرية قاعدة الهرم الطبقي كونها تتألف من الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا أو من العمال المأجورين في المدن، أو من الكادحين الذين لا يملكون سوى قوة ساعدهم، يلحق بهذه الطبقة أيضًا: الجنود / الباعة المتجولون/ الخدم/ .

توصف العلاقة بين هذه الطبقات بأنها علاقة تناقض وتنافر بسبب عدم المساواة في الملكية، ويكون التنافس على أشده لناحية رغبة الطبقات الأدنى بالحصول على مكانة ونفوذ أو ثروة ومكتسبات أخرى من الكبار الذين يعلوهم ويحتكرون الفرص أمام تقدّمهم، وقد يتحول هذا النفور إلى مزيد من الصراعات والتوتر. وفق ما تناوله المفكر الاجتماعي (كارل ماركس) عند حديثه عن **الصراع الطبقي** الذي اعتبره نتيجة صراع على الامتيازات الاقتصادية بين المُستغِل والمُستغَلّ، بل هو نتيجة حالة من الاغتراب الإنساني التي تفرضها ظروف الإنتاج الآلي وحرمان العاملين عليها من فرص إشباع حاجاتهم النفسية نتيجة استئثار الرأسماليين لكامل وقتهم وطاقاتهم، فيشعرون حينئذ بأنهم: طبقة مغلوب على أمرها، مسخّرون لأعمال غيرهم، مهدّدون في

معيشتهم وصحتهم، ومعرّضون أكثر من غيرهم للقهر والاستغلال، وهذا ما يجعلهم يعيشون حالة اغتراب تدفع لاحقًا إلى أن يتضامنوا ويشكّلوا قوة اجتماعية ونفسية وسياسية من أجل تحقيق أهداف مشتركة ليس أقلها المطالبة بحقوقهم كعاملين. لجهة:

☆ تحسين الوضع المادي والتعويضات العائلية وزيادة المداخيل الاجتماعية.

☆ الحق في العطل الأسبوعية والسنوية وتخفيض ساعات العمل.

☆ الحق في التنظيم النقابي.

☆ تأمين الحد الأدنى للأجور.

وفي الوقت الذي يجد (كارل ماركس) في الطبقة وجهًا ثوريًا ومبعثًا على الصراعات، ثمة باحثين اجتماعيين يقولون بصوابية وجود الطبقة لما تساهم به من حوافز نفسية تجعل الناس يتنافسون لنيل المراكز الأفضل، بل هناك شعوبًا لا زالت تجل وتقدر الطبقية كشأن عقائدي قائم على احترام الموروث الديني - الاجتماعي، ففي الديانة الهندوسية مثلًا هناك نظام طبقات معتمد منذ وصول الآريون إلى الهند ولغاية اليوم وهو نظام مقدس لأنه لم يكن - وبحسب معتقداتهم - نتيجة الإرادة البشرية بل هي تقسيمات تمت بفعل إرادة إلٰهية، وعليها بنى الهندوسيون تفاوتهم الطبقي، فالبشر يعودون إلى أصل واحد هو «مانو» (أول البشر) ومن رأسه جاء أعظم الناس وأكثرهم قداسة وهم البراهمة والكهنة والقضاة، ومن ذراعيه جاء المحاربون والملوك (الكاشتر) ومن فخذيه جاء التجار والصناع (الفيشية) ومن قدميه الخدم والعبيد (الشودرا) وبناء على هذا النظام يعتقد الهندوسيين ب:

☆ ضرورة احترام هذا النظام الطبقي باعتباره مقدسًا.

☆ لا يجوز للرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى، في حين يجوز له أن يتزوج من طبقة أدنى.

☆ البراهمة صفوة الناس لهم الحق في أن يأخذوا من أموال الآخرين ما يشاؤون.

☆ لا يجوز للملك أن يحاكم البرهمي بالقتل.

☆ الشخص الذي هو من أصل برهمي أو برهمي صغير يفوق قدرًا رجال الطبقات الأخرى ولو ناهزوا المائة من العمر.

* هل يمكن أن تنتظم الحياة الاجتماعية دون هرم اجتماعي متمايز؟

طُرحت هذه المسألة من قبل العديد من المفكرين ورجال الدين والباحثين الاجتماعيين وهيئات المجتمع المدني وغيرهم من هيئات التحرك الإنساني المناهض للتمييز العنصري الذين أخذوا ينادون بأفكار المساواة في الحقوق والواجبات، في موازاة ذلك أخذ علماء الاجتماع يلاحظون انحسار الطبقية لدى أغلب المجتمعات البشرية، حيث لاحظ الباحث الأنتروبولوجي (GUNNAR LANDMAN) أثناء دراسته لقبيلة كويابوبس في غينيا الجديدة انتفاء الفروق الاجتماعية القائمة بين سكان هذه القبيلة، فجميعهم يسكن منازل متشابهة، متقاربون في وسائل الحياة والعيش، حتى الرجال المحاربون والصيادون والخياطون، الذين يعتبرون «أعلى شأنًا» لا يقابلهم طبقيًا إلا من لايملك مهنةً أو أرضًا أو العزّاب. كذلك أشار باحثون أن ما يحفّز الناس بالمضي قدمًا ليس إيجاد الفوارق إنما وجود الرضا الذاتي عن العمل وقيم المهنة بحد ذاتها والتقدير الذي يحصلون فيه على عمل متقن هو ما يجعل الناس تحوز مراتب الامتياز. مما يعني أنه ليس الدخل الأعلى هو المؤشر لجعل الناس يتمايزون ودليل ذلك هناك شركات تدفع أجورًا عالية لعمال عاديين مقابل أعمال خطرة أو مبالغ مالية ضخمة تُعطى لمن لا موقع اجتماعي مهم عندهم كما هو الحال مع نجوم الرياضة.

مع هذه الاتجاهات الجديدة القائلة بانحسار الطبقية، يؤكد باحثون آخرون على وجود الطبقية في أكثر من مجتمع تتجلى في مظاهر اجتماعية تكوّنت نتيجة

فرص حياة حظي بها بعضهم دون سواهم فنقلتهم من عالم الفاقة إلى عالم أكثر ثراءً وتميّزًا في السلم الاجتماعي. كما هو الحال مع الشباب المغترب الذي ينحدر من أسر عانت الفقر ثم وبجهود دؤوبة في المهجر جمعوا ثروات وغيّروا من واقع حياتهم وحياة أسرهم، وطلاب العائلات الدنيا الذين يحصلون علمًا متقدمًا وعملًا رائدًا فينتقلون من حياة الفاقة إلى حياة الرفاهية.

ولكن هل ينبغي للمرء أن يغترب ويعمل ويدرس تخصصات أكاديمية عليا كي يتغيّر مستواه الاجتماعي وينتقّل من طبقة إلى أخرى؟ هل فرص الحياة ملازمة بالضرورة للطبقية؟ بالطبع لا!! يجيب بعض المحللين الاجتماعيين: لماذا الاعتقاد دائمًا بأن إنتاج المال الوفير هو خاصية أبناء الطبقات العليا في المجتمع؟ ذلك أنه في مجتمعات الغرب لا فرق بين من لديه مال وآخر ليس لديه شيئ، بل أكثر من ذلك يُلاحظ بأن ذوات الدخل الأعلى والأدنى هم سواسية في مواقع الحياة الاجتماعية، يلتقون في أندية واحدة، يشترون من مراكز التسوق نفسها ويدخلون المقاهي عينها ولا ضير في ذلك. مما يعني أن النظرة إلى الطبقية تبقى نسبية مأخوذٌ بها في مجتمعات دون أخرى فعندما يقول لك أحدهم بأن ابنته طبيبة وابنة صديقه نادلة في مطعم، لا يعني ذلك أنهما مختلفتان في المستوى الاجتماعي أو العلمي وإنما في المهنة وحسب، فالمهن بالنسبة لهم بمتناول الجميع وكلٌّ يعمل بالمجال الذي يرغب.

ورغم أنه ليس من السهولة بمكان أن يُصنّف فرد معين إلى أيّة طبقة ينتمي وبأن الطبقات ليست رتب هرمية موجودة في المجتمع، إلا أنه يبقى - ونظريًا على الأقل - هناك ترتيب لفئات دون غيرها في مواقع اجتماعية بناءً على دورها المهني في المجتمع، مما يحقق ذلك امتيازات مالية تنعكس على حياتها اليومية، ومثل هذه الامتيازات تجعل الناس يؤطرونهم في فئة ال: CLASS، بناءً على مظاهرهم الفارهة في الممتلكات: سيارات حديثة/ أثاث منزلي فاخر/ ثياب ذات نوعية عالمية. .إلخ.، وهذا ما يفسر ظاهرة البرستيج الذي يحدده ليس العمل بحد ذاته وإنما نظرة الناس وتقييمهم وتقديرهم لمهنة دون غيرها، كما تبين من دراسة إحصائية قامت بها إحدى المجلات الواسعة الانتشار في الولايات المتحدة الأميركية، حين ذكرت جميع وظائف المجتمع

وطلبت من قرائها اختيار أفضلها (واعتُبرعلامة 100 أفضل تقدير وصفر لأدناها مستوى) فتبين بالنتائج المعطيات التالية لأبرزها:

الطبيب	86	حانوتي	49
المحامي	75	السكرتيرة	46
أستاذ جامعي	74	موظف البنك	43
رجل الدين	69	المزارع	40
الممرضة	66	الحلاق	36
معلم ثانوي	66	مربية أطفال	35
شرطي	60	سائق الباص	30
صاحب مكتبة	54	مزيل النفايات	28
الإطفائي	53	حاجب	22
العامل الاجتماعي	52	موزع صحف	19

إذا كان التفاوت الطبقي يتم تناوله بناءً على مؤشرات الدخل أو الممتلكات أو نمط الاستهلاك أو المستوى التعليمي أو مكان الإقامة فهو لغايات دراسية ـ إحصائية فقط، تستخدم غالبًا لمعرفة موقع الناس على السلم الاجتماعي، لأن التطور العام للحياة الاجتماعية يقدم براهين إيجابية عن الوصول إلى مجتمعات تنتفي فيها الفروق الطبقية، فالمجتمعات الحديثة تتغير بخطى سريعة الإيقاع، إذ كثير من الفروق التقليدية المستندة إلى الدين والسياسة فقدت وهجها بين النبلاء والعوام، بين رجال الدين والعلمانيين وتميل الفروق الاقتصادية الناتجة عن الحركة الصناعية أيضًا إلى التناقض عما سبق بفعل التطور التقني وإعادة النظر في توزيع المداخيل بناء على سلم أجور وضرائب تصاعدية ورواتب وفق الكفاءة، يضاف إلى ذلك التطور الفكري وأثره في ثورة التحرك الاجتماعي التي تدعو إلى المساواة والعدالة والقضاء على التمييز العنصري. كذلك تحول الواقع الاجتماعي للطبقات العاملة مع التشريعات الاجتماعية المختلفة وخضوع أرباب العمل لمطالب النقابات العمالية والليونة في التعاطي مع هذه النقابات جعلت العمال يعيشون في مناخ اجتماعي مختلف عن المناخ الذي عرفته الأجيال السابقة.

* الطبقة الوسطى

لعل القوى المحركة الأكثر ثورية التي اتسم بها مطلع القرن الحادي والعشرين اعتمدت على نمو الطبقة الوسطى بنسب كبيرة عالميًا، ويتوقع بعض المراقبين أنه مع حلول عام 2015 سيكون هناك نحو ملياري شخص ينتمون إلى الطبقة الوسطى في العالم، قد يبدو هذا الرقم كبيرًا على نحو يكاد لا يصدق لكنه لا يجافي الواقع، فلدى الصين ما لا يقل عن 100 مليون إنسان ـ بحسب المعايير الصينية ـ من الطبقة الوسطى، أما في أمريكا اللاتينية والتي طالما ضمت طبقة عليا صغيرة وطبقة فقيرة كبيرة، فستشهد بين الفينة والأخرى نموًا راسخًا ومهمًا في حجم الطبقة الوسطى، ومن الممكن جدًا أن يتراوح الرقم مع حلول العام 2015 بين 250 ـ 300 مليون شخص من ذوي الطبقة الوسطى وإذا ما أضفنا كلًا من نسب أوروبا وأمريكا الشمالية وأندونيسيا وإيران فيصبح الرقم في حدود المليارين، ولا ننسى أن مصطلح الطبقة الوسطى لا يعني المسائل المتعلقة بالدخل فقط بل يشمل أمورًا أخرى قد تكون أكثر أهمية، منها مجموعة القيم التي تدخل في تركيبة العقلية البورجوازية، ومن هذه القيم الإيمان بالحرية وفرص الطموح والحياة الأفضل للأطفال وأهمية التعليم.

لكن ماذا نعني بالطبقة الوسطى وهل لها وجود في المجتمع اللبناني؟ يُقصد بالطبقة الوسطى تلك الفئة التي يستوي لديها حال المعيشة بين حد الفقر النسبي نزولًا وحد الاكتفاء الواسع صعودًا على عتبة الغنى، ويلعب في تحديده غالبًا مؤشر الدخل والإنفاق، حيث يقوم أبناء هذه الطبقة بمواءمة بين إمكانيات دخلهم ووجهات الإنفاق. لهذا كلما قلّ الدخل وزاد الإنفاق كلما كان من المتوقع أن تحدث أزمة في ميزانية الأسرة، (ويبرز الوضع بشكل ملحوظ مع زيادة متطلبات الحياة الأسرية المستجدة وارتفاع نسبة الغلاء للاحتياجات دون تحرك لمستوى الدخل بما يوازيه). إلا أن مستويات الدخل ومستويات الإنفاق تختلف بين منطقة وأخرى وبين فئة وفئة، خاصة مع تنامي الاحتياجات، فبعدما كان كثيرٌ من المقتنيات هو من قبيل الكماليات أصبح اليوم من الضروريات كالسيارة والتلفون والأجهزة الإلكترونية.

وتتصف التجربة اللبنانية للطبقة الوسطى بخصوصية تتصل بالتركيبة الاقتصادية للمجتمع اللبناني والتحدّيات السياسية وبالنتائج المتقلّبة للأزمات القائمة، وقد أدت هذ الخصوصية والأزمات إلى انعكاسات حادة على المؤشرات المعيشية العامة وعلى وضعية الطبقات في لبنان. إذ بناءً على استقصاء ميداني لنحو مئة وخمسين ألف عائلة لبنانية (2007) توصلت الدراسة إلى نتائج منها:

✓ **أن دخل الأسرة كما إنفاقها اتجه إلى انخفاض واضح مع تقدم الإنفاق على الصحة إلى مرتبة متقدمة على حساب النقل والتعليم، وهذا المؤشر يعكس صورة تطور الإنفاق وثبات الدخل ويشير إلى تراجع الادخار الأسري (والمثال على ذلك أنه بحسب موازنة 2006 كان يمثل متوسط الإنفاق الشهري 2250711 ل.ل. لعائلة مؤلفة من خمسة أشخاص).**

✓ **تبين أن 4 ملايين ليرة لبنانية شهريًا هي خط الكفاية العليا واعتبر أن 900000 ليرة لبنانية شهريا لأسرة من 4 أفراد يمثل حد الفقر وإذا انحدرت عن هذا المبلغ فهي في فقر مدقع.**

كذلك بينت المعطيات المقدمة من دراسة الدكتور غسان الشلوق بعنوان: «الطبقة الوسطى: التجربة اللبنانية»، أن الطبقة الوسطى تدحرجت بوضوح في السنوات الأخيرة في لبنان، فحجمها تقلّص وحصل تبدّل واسع في هيكليتها لناحية بروز غلبة متزايدة للشريحة الدنيا (الفقيرة) على حساب الشريحتين الوسطى ـ المعتدلة والعالية التي على حدود الكفاية المطلقة، وبحسب الإحصاءات التي قام بها الباحث فإن الطبقة الفقيرة ـ بل التي تحت خط الفقر ـ نسبتها 4.38%، والمتوسطة 56% والغنية 3% ولكن تبين أن هناك قسم كبير من نسبة 56% من الطبقة المتوسطة ينحدر نزولًا نحو الطبقة الفقيرة، حتى أصبحت الفئة الفقيرة تتوسع بزيادة 15%، وبالمقابل تبيّن تقلّص للطبقة التي تظن نفسها وتعلن بأنها غنية وذلك لأسباب منها:

1 . تراجع المداخيل الفعلية بسبب تجميد الأجور منذ العام 1996.

2. ارتفاع الأسعار وزيادة الاستهلاك.
3. إفلاس مؤسسات وبروز ظاهرة البطالة.
4. تعثّر الوضع السياسي واضطراب الوضع الأمني مما يحد من نشاط المؤسسات المنتجة عن الحركة التسويقية وينعكس على حياة العمل والإنتاج.
5. دخول عمالة أجنبية منافسة بشكل كثيف حدّ بدوره من اليد العاملة المحلية.

في المحصلة يلاحظ أن قسمًا كبيرًا من أبناء الطبقات المتوسطة يشهد تراجعًا في المداخيل، لكن الدراسات البيانية أثبتت أنهم الأكثر استهلاكًا وبالتالي الأكثر قدرةً على تحريك الأسواق، وأنهم يشكّلون بين 45 و70 في المئة من قوة العمل بحسب أوضاع الدول، ويرفع هذه النسبة غالبًا حجم العمالة النسائية، لهذا يعوّل كثيرون على أهمية هذه الطبقة وأيّ «اندثار أو تدحرج» في مستواها المعيشي قد يعزز عوامل الاضطراب المرادف للإفقار وعلى مستوى أشد قد تصبح تهديدًا مباشرًا لبنية الدولة ولمفهوم الوطن.

وبإطار آخر يقرر الباحث الأمريكي (ليستر هيثرو) بأن هناك اتجاه لاختفاء الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة بعدما انخفضت مستويات الدخل من 125% إلى 75%، فقط من نسبتهم 22% من أبناء المجتمع الأمريكي يعتبرون من ذوي الطبقة الوسطى (بحسب دراسة قام بها خلال العام 2004)، ويرجع بعض علماء الاجتماع تعليقًا على هذه المؤشرات، انكماش الطبقة الوسطى لجملة أسباب منها:

1) اختفاء فرص العمل من أمام ذوي التعليم المتدني، فقد ثبت أنه سوق العمل يفضل اليد العاملة الجامعية على ما دونها.
2) المنافسة العالمية للجودة وسرعة التطور التكنولوجي، فالحداثة تفرض مواكبة علمية ومهارات يد مستوعبة للتغير وهذا ما لا يتاح لأبناء الطبقات الدنيا والمتوسطة.
3) نمو ظاهرة الاعتماد المؤقت على قوة العمل(التعاقد الوظيفي)، مما

يرافقه صعوبة توفر الضمانات الصحية ومعاش التقاعد، فيضطر عندها أبناء الطبقة الوسطى البحث عن بدائل لشبكة الأمان الاجتماعي.

4) انحسار دور النقابات العمالية، فيما سبق كان للنقابات دور فاعل على صعيد تكريس حقوق العمال لمستحقات تضمن حياة مستقرة كطبقة وسطى، لكن مع نمو الاقتصاد الحر وتغير طبيعة العمل المؤسساتي وتغير هيكيلته لجهة ساعات العمل، والبقاء للأفضل والطرد التعسفي، تصبح فرص حياة الطبقة الوسطى رهن التوقف والاندثار.

من أولويات الطبقات الوسطى ثبات الدخل وتوفر الحوافز التي تؤمن لها حياة مستقرة، وتريد عائلات هذه الطبقات أن تؤمن المسكن اللائق والتخرج الجامعي لأبنائها والتعليم الأفضل لأطفالها والعناية الصحية المفترضة، إلا أن كل ذلك بثمن وحالما لا تتوفر «تكاليف» الطموحات تتقلص الأمنيات إلى حدها الأدنى، لتنقل بعدها إلى مستوى الطبقات الدنيا أو تضاعف من جهدها في مجهودات عمل إضافية لتأمين مداخيل أخرى كي تستمر بمستوى الطبقة التي هي عليها. .ولكن إلى أي مدى يمكنها ذلك في ظل التحولات الاقتصادية والاجتماعية القائمة والمرتقبة؟.

المفهوم الثالث:

المجتمعات

ماذا نعني بالمجتمع؟

تُجمع التعاريف المتداولة حول مفهوم المجتمع على أنه: «مجموعة من الأفراد على بقعة جغرافية محددة من الناحية السياسية، لها مجموعة من الأحكام الاجتماعية والأهداف المشتركة التي أساسها الدين واللغة والتاريخ» ومن أهم العناصر التكوينية للمجتمعات الإنسانية هو مجموع السكان ووجود تركيب اجتماعي يتكوّن من قوانين يحدد طبيعة العلاقات بين أفراده. لهذا يصنّف الباحثون المجتمعات تصنيفات شتى:

✓ **إما بناء على «تركيباته»، حيث هناك:**

1) **المجتمع البسيط:** وهو التجمعات البشرية القائمة على وحدات اجتماعية متفاهمة بالولاء والقرابة والمصلحة المشتركة، وفقًا لمجموعة من العلاقات التي يغلب عليها التضامن والتعاون (من أمثلته: المجتمع البدائي/ القبلي/ البدوي).

2) **المجتمع المركب:** وهو شكل آخر من أشكال التجمعات البشرية تطوّر نتيجة الحداثة ونما في ظلها، في إطاره ليست البقعة الجغرافية العنصر الأساس لتشكّله إنما الانتماء المهني والعلمي والمصلحي العام.

3) **المجتمع التعددي:** وهو مجتمع الجماعات التي تحتفظ بهوياتها الخاصة، وفق صيغة تؤالف بين الهوية الخاصة والهوية العامة، والتفاهم على إقامة دولة مركزية واعتماد نظام سياسي وتربوي موحد (صورة هذا المجتمع موجودة في: سوريا/ الجزائر/ المغرب/ الهند / إندونيسيا/ ماليزيا..).

4) المجتمع المتجانس: يتكون من جماعة واحدة منصهرة اجتماعيًا وثقافيًا، كما تتوحد الهوية الخاصة والعامة في بوتقة واحدة جامعة، يسود في هذا المجتمع نظام سياسي مركزي، (كما في تونس/ مصر/ ليبيا).

5) المجتمع الفسيفسائي: يتألف من عدة جماعات تغلّب هوياتها الخاصة على المصلحة العامة، تتصف العلاقات بين أفراد وجماعات هذا المجتمع بالتراوح بين عملية التعايش والنزاع وعدم القدرة على الاتفاق حول بعض الأسس المتعلقة بشأن أمورهم السياسية وغيرها من القضايا التي تهم المجتمع ككل، ومن الأمثلة على هذا النمط لبنان/ أثيوبيا/ نيجيريا/ تشاد.

- ✓ **وأما بناءً على نوعية وطبيعة الجماعات المتواجدة فيه حيث أجمع علماء** الاجتماع والأنتروبولوجيا على تحديد أبرزها ب: التقليدي/ المعاصر/ الريفي/ الحضري. . . الذي تتواجد تقريبًا في كل مجتمع بشري.

1 ـ المجتمع التقليدي:

لم يقدم المفكرين الاجتماعيين تعريفًا رسميًا للمجتمع التقليدي، إذ في الوقت الذي يعرّفه (أوغيست كونت) على أنه «البناء الجمعي الذي يتسم بالانسجام في وظائفه»، ويعتبر (عبد الرحمن بن خلدون) هو المجتمع الذي يتصف بالخصائص التالية:

- ✓ **يتعاون جميع أفراده فيما بينهم للحفاظ على توازنه.**
- ✓ **يدير هذا المجتمع «حاكم» ملهم.**
- ✓ **تنتشر في أوساطه ثقافة خاصة.**
- ✓ **تظهر فيه العصبية والشعور القوي بالانتماء والولاء.**

أما (إميل دوركايم) فيراه تنظيمًا اجتماعيًا ثابتًا، يسوده شعور جماعي قوي يعرف: بـ «التضامن الآلي» ومثل هذا التضامن ينتج عن التشابه بين الناس بصورة ملحوظة وهو تماثل يعبر عن وجود عواطف ومشاعر مشتركة وعن مشاركة عامة في القيم والمعايير. كما يتسم هذا المجتمع بتجانس الأفكار

والمعتقدات والعادات والآراء مع وجود ولاء ملحوظ للضمير الجمعي الذي يظهر كقوة رادعة أو عقوبة صارمة إزاء أي انتهاك يهزّ النظم التقليدية، فالجريمة ـ ووفق سياق هذا المجتمع ـ فعل يزعج الضمير الجمعي مما يضطر إزائها لأن يتصرّف بكبح شديد، والزنا بعرف الجميع فعل محظور وأي فعل له ثمّة قوة محاسبة عليه. ويحدد باحثون معاصرون المجتمع التقليدي من خلال شيوع ما يسمى بالموروث الثقافي القديم إزاء الحديث المعاصر، بالموروث الديني العفوي مقابل الكنسي السلطوي، بالشعبي مقابل النخبوي وبالهامشي مقابل الرسمي.

وإيجازًا للعرض يتميز المجتمع التقليدي بالمعالم التالية:

1 ـ يتألف من جماعة بشرية يتزاوج أعضاؤها فيما بينهم حسب اتفاقات عائلية مسبقة، أو بناء لطلب أشخاص ذوي مكانة، كما توجد معرفة تامة بين السكان لهذا يُعرف الأشخاص وأماكن سكنهم بناء على العلاقات السائدة.

2 ـ تستند المهمات والأدوار الاجتماعية بالعُرف إلى أشخاص ذوي مكانة، ذلك أن التنظيم السياسي يتمحور حول منصب الزعيم/ الوجيه/ الشيخ/ الذين يشكلون بدورهم صلة الوصل مع الهيئات الرسمية (الحكومية).

3 ـ يتم الضبط الاجتماعي في ظل هذا المجتمع وفق التقاليد المقبولة طواعية بتأثير التربية المتوارثة القائمة على معايير أخلاقية، فإذا ما أراد أن يتصرّف أحدهم بفعل شائن يجد نفسه أمام رهبة «العيب» الذي قد تطاله وتلاحقه. لهذا يتحسّب كل من يريد أن ينحرف كي لا يُعيّر أو يُشهّر بسمعته.

* هل يوجد مجتمع تقليدي فعليًا اليوم؟

عبر دراسة له بعنوان «تحول المجتمع التقليدي» سعى (دانييل ليرنر DANIEL LERNAR) إلى بيان مؤشرات التقليدية ومدى ثباتها أو تحوّلها،

فأعدّ لذلك استبيانًا من مئة وسبعين سؤالًا توجّه به إلى 1600 مستجوبًا من ست دول شرق أوسطية هي: تركيا/ لبنان/ مصر/ الأردن / سوريا وإيران، حاول من خلاله أن يتبيّن الاتجاهات الذهنية والأفعال الاجتماعية القائمة والآراء حول مدى تقبل التجديدات واستخدامها ومدى تبنيها فرص التغييرالاجتماعي، فوجد بأن وسائل الاتصال تقدّم الظروف الفاعلة لإدراك مواقف جديدة وأساليب حياة مختلفة نوعًا ما عن الأساليب الممارسة بالتقليد. وبعد أن يستعرض (ليرنر) في دراسته لمفهوم العصرية (MODERNIZATION) من خلال بعض المؤشرات يخلص إلى القول بوجود ثنائية سائدة في أوساط العينة قطبها الأول مجتمع تقليدي/ بدائي (لاتسامه ببناء اتصالي محدود) وقطبها الثاني عصري/ حديث (لاتسامه ببناء اتصالي شامل) ثم يُصنّف سكان الشرق الأوسط ـ بناء على ذلك ـ إلى ثلاث فئات:

1) التقليدي (traditional) وهو شخص يفكر بطريقة يغلب عليها الطابع الديني أو الشعبي الموروث وهو نادرًا ما يغادر بيئته الاجتماعية أو عالم معتقداته.

2) المتحول (tansitional) وهو شخص يتمتع بشخصية حراكية يودّ أن يتغيّر ولكنه لا يملك إمكانية التغيير، وينتظر حتى تتأتى له الفرص.

3) المتمدن (modern) ويقاس أصحاب هذا التوجّه بعدة مسائل مثل نوع التعليم/ علمانية التفكير/ وسائل الاستهلاك الكمالية/ التعامل مع وسائل الاتصال الجديدة والقائمة.

ويستنتج هذا الباحث أن في الشرق تقليديّون تحوليّون بوجه أعم لما بات يظهر عليهم من مشاركة حضارية (urbanism)وانفتاح على عالم خارجي والتواصل معه وأخذه بوسائل الإعلام وامتلاكها، ويذكر في المبحث الذي أعدّه عن لبنان إلى أن الحياة التقليدية فيه قد أصبحت عرضة للغزو الثقافي البطيء من العالم الغربي، وأصبح كبار السن غير مناسبين للمكانة القيادية في الوضع الجديد المتحول، إذ غدت خبرتهم في الظروف الجديدة محدودة مما

ضيّق نطاق تأثيرهم وأصبح الشباب هم قادة الرأي لأنهم تلقّوا تعليمًا عاليًا في الخارج ويتصفون بحراك اجتماعي حديث حتى أصبحوا «**نخبة التغيير**».

2 ـ المجتمع المعاصر:

يربط كثير من الباحثين وجود هذا المجتمع بالسمات الثقافية الحديثة المنتشرة في وسطه، فارتباطهما معًا لا يدل فقط على حالة من تطور المجتمع، إنما يبين حالة الحراك الاقتصادي والمعرفي على مستوى التكنولوجيا التي تركت ظواهر عصرنة ملحوظة، ويمكن أن نتلمّس ذلك في كثير من الخصائص التقنية التي نستخدمها في حياتنا اليومية مثل شيوع العربات، استخدام الهواتف والحواسيب والابتكارات الفنية الأخرى التي لم تتحقق إلّا في مراحل متأخرة من التاريخ البشري.. حيث معها بدأت البشرية تشهد تغييرات هامة على الصعيد الاجتماعي وتوجّهات حديثة في الفكر والسلوك اليومي، وهذا الانعكاس هو يصطلح على تسميته بـ: «العصرنة» والمجتمع التي يشهدها يعرف بـ «المعاصر»، وأبرز سماته:

- ✓ **متغير وسريع التطور.**
- ✓ **المهمات والأدوار بأشخاص معنيين يتغيرون بحسب الظروف لارتباطها بتقسيم العمل.**
- ✓ **انحسار التشابه العقلي والأخلاقي بين أفراد هذا المجتمع.**
- ✓ **انتشار قيم النجاح الشخصي والكسب المادي والطموح والتحديث.**
- ✓ **برزو الفردية التي تظهر في تنوع الأذواق والمعتقدات والآراء.**

ومثلما في المجتمع التقليدي بدا التماثل هو المحرك الأساسي للعلاقات الاجتماعية وكيف أن هذا المجتمع قائم على تجانس أبنائه وتساندهم العفوي، فإن السمة الأبرز للعلاقات القائمة في المجتمع المعاصر هي «التباين»، والتضامن الموجود بين أفراده هو تضامن عضوي (لا آلي)

قائم على مبادئ تقسيم العمل. كما يتسم بتقدير عالٍ للعلم والمتعلمين والمهنيين والأخصائيين وإسباغ قيمة تقديرية على كل ذي معرفة، وتجري الأفكار الجديدة فيه بحرية ـ دونما تحفظ ـ وتنتشر الصرعات فيه بسهولة.

وثمة سؤال يطرح إزاء الحديث عن هذين المجتمعين: هل يمكن أن تبقى المجتمعات ثابتة على تقليديتها وأخرى على تطورها؟ هل يمكن أن يحدث طارئ ما يُغيّر من التقليدية نحو نمط حياتي آخر؟ باستعراض تاريخ المجتمعات يتبيّن بأن المجتمعات سواءً كانت تقليدية أو انتقالية أو معاصرة، قد تجمع من الخصائص ما يصعب معه تحديد سمة هذا المجتمع أو ذاك، والمثال على ذلك أن الاتصال الشخصي والذي يُعتبر من سمات المجتمع التقليدي نجده يعمل بكفاءة عالية في المجتمعات الحديثة، كما أن هناك الكثير من التقنيات المتطورة في المجتمع المعاصر موجودة في مجتمعات معروفة بتقليديتها. وهذا ما يضعنا أمام معادلة: ما من مجتمعين يتحضران بنفس الطريقة أو الأسباب، إذ لكل مجتمع ظروف انفتاحه، مصادر ثرواته، آفاقه الحضارية ومجالات مهاراته وتنوّع مؤسساته.

وهنا يكمن فعل التغيير بما لدى كل مجتمع من ديناميكية تحرك أو تفاعل في نطاق وجوده المكاني أو سواءً عبر تفاعله الخارجي، لهذا لا يمكن القول بأن هناك مجتمع حديث مئة بالمئة، يقع أقصى اليسار يقابله في أقصى اليمين مجتمع تقليدي، لأن الصفات الحضارية التقليدية تتواجد في كافة المجتمعات والشيئ الذي يختلف هو في درجة تطورها و قوة فاعليتها. هذا يعني إمكانية ظهور ثنائية قائمة بين قديم وجديد، أصيل ووافد، تراث وحداثة يمكن أن تتواجد في زمن واحد بأكثر من مكان، هذا التناقض في وجودهما معًا ناتج عن الاختراق الثقافي ـ الإعلامي (كثقافة معاصرة) إزاء المجتمع التقليدي (كثقافة ثابتة) وهذا ما أدى إلى «براغماتية» في الممارسات السلوكية، فالمجتمع التقليدي ليس بمقدوره أن يبقى جامدًا لا بد من مرونة في البنية المعرفية حتى يستمر كمجتمع وكحياة، وبالتالي لم يعد من الممكن أن يبقى منعزلًا عن العالم ومعطياته والمثال على ذلك عادة الثأر السائدة في أوساط العائلات والعشائر باعتبارها إحدى معالم الوعي الشعبي التقليدي، تخبو هذه

الظاهرة تدريجيًا كلما تقدمت البشرية مع سيادة القانون الرسمي.

ولكن كيف تتغير المجتمعات حتى تصبح معاصرة؟ يُرجع المفكر الاجتماعي (أيفرت هاجن) التغير إلى وجود ما يسميه بالشخصية الابتكارية، إذ بحسب نظريته عن تحوّل المجتمعات نحو المعاصرة رأى أنه في المجتمعات السابقة أو المغايرة على العصرنة هناك ظهور قوي للشخصيات التقليدية، ذلك أن الشخصيات في هذه المجتمعات هي شخصيات غير خلاقة، غالبًا ما تتميز بنوع من الثبات في ذهنيتها وإن حدثت تغيرات فقد تأخذ وقتًا طويلًا.. أما في المجتمعات المعاصرة فهناك الشخصية الابتكارية التي تتمتع بمزايا مثل الإبداع وحب الاستطلاع والانفتاح، وصاحب هذه الشخصية يتطلّع دائمًا نحو حلول جديدة وما إن تتلاقى البيئة المهيّأة للابتكار والظروف والعوامل يتغيّر المجتمع بناءً على إنجازات المبدعين ويصبح عصريًا بمختلف مظاهر الحياة. وهذا ما يؤكده (ديفيد ماكليلاند) الذي اعتبر أن دافع الإنجاز هو الحافز الأول للنمو الاقتصادي.. ذلك أن الذين لديهم رغبة قوية في التحديث وفي أن يحققوا إنجازات على مستوى المشروعات الاقتصادية يمكن أن يطوّروا سبل الإنتاج التي بدورها تخلق مزيدًا من الوظائف ومزيدًا من النمو الاقتصادي الذي يرفع مستوى المعيشة وعندها يُصبح المجتمع عصريًا متقدمًا يواكب التطلعات.
ولملاحظة مدى التغير الحاصل بين المجتمعين يمكن قراءة المعطيات التالية:

مجتمعات ما قبل صناعية/ تقليدية	مجتمعات ما بعد صناعية / معاصرة
* مغلق	* حركة اجتماعية قائمة على الإنجازات الشخصية
* متأثر بالطبقة الاجتماعية	* الثروات قائمة على كيفية استخدام المعلومات.
* الاقتصاد بيد جماعات إقطاعية.	القوة الاقتصادية المتضامنة هي الغالبة
* تأثر قوي بالدين وبالقيم الاجتماعية.	* انحسار بالتأثر الديني، والقيم الاجتماعية أصبحت أكثر علمانية. * الدين أصبح أكثر هشاشة مع انتشار ظاهرات أخرى في التدين الجماعي وبروز ظاهرات إيمانية غريبة.
تكاثر سكاني/ التواصل الاجتماعي شفاهي ـ وجاهي.	* انخفاض في نسبة الولادات وتغير في طرق التواصل (اصبح أكثر تقنية). * انتشار مفاهيم تنظيم الأسرة، اكتفاء بعدد محدد من الولادات، الإعلام أصبح أكثر سرعة وأحدث تقنية
التربية (المدارس) مخصصة لأبناء النخبة	اتجاه نحو التخصصية ودخول المهنية العلمية سوق العرض والطلب

يمكن إيجاز التغيرات في المجتمع المعاصر التي حدثت نتيجة العصرنة بالتالي:

- ✓ تغيرات في المكانة الاجتماعية لبعض فئات المجتمع حيث برزت مكانة المرأة والشباب.
- ✓ توجهات نوعية وكمية في مجالات التعليم.
- ✓ تغيرات في تبني قيم واتجاهات جديدة (المصلحة/ ..).
- ✓ ظهور أنماط عمل جديدة لها طابع إداري ـ خدماتي .
- ✓ زيادة الحراك الاجتماعي الأفقي والعامودي.
- ✓ انتشار وسائل الاتصال وآخر مبتكرات التكنولوجيا بشكل ملحوظ.

3 ـ المجتمع الريفي:

في مرحلة تاريخية سابقة بدأت مجتمعات الصيد والالتقاط بالتحول من جمع النباتات في الغابات إلى النشاط الزراعي المنتظم والمستقر، وشاع استعمال الحدائق والمزارع البيتية واستخدام الري لتأمين احتياجاتها الغذائية، ومع تثبّت نمط الحياة الجديد لم تعد المجتمعات مضطرة إلى الانتقال والهجرة فشاعت سمات الحياة الزراعية ومع الوقت برز المجتمع الريفي كنمط معيشي جديد. وللتعريف عن هذا المجتمع يشير الباحث المصري (محمد عاطف غيث)، في كتابه: دراسات في علم الاجتماع القروي إلى أن المجتمع القروي أو الريفي هو مجتمع بشري له طريقة معينة في الحياة تعتمد أساسًا على الزراعة، محددًا ـ في تعريفه لهذا المجتمع ـ ملامح خاصة به تتلخص في قيمتين أساسيتين هما: المهارة في العمل الزراعي، والقدرة على الإنجاب. وهما قيمتان مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا بالمظهرالعائلي للحياة الاجتماعية والاقتصادية، فالرجل يرتفع قدره في العائلة أو ينخفض تبعًا لتفانيه في العمل الزراعي ومدى قدرته على إتقان جميع عملياته وفي إنجابه أكبر عدد من الذكور، لأن الأرض والأولاد هما المظهران المميزان لقوة العائلة وثرائها ونفوذها بين العائلات. وتتجلى صورة هذا المجتمع من خلال الملامح التالية:

أ) **أهمية الأرض**: ثمة علاقة حميمية خاصة بين الريفي وأرضه، فهي أهم القيم المادية في حياته ووجوده، يعتبرها مصدر رزقه ومكانته ومقر جذوره في الحياة والممات، من هنا يطمح قبل كل شيء على أن يقتنيها ويعتني بها وعندما يبتعد عنها أو يهملها يشعر بالذنب. ويتصل بأهمية الأرض بناء المنزل، فالمسكن الريفي دليل استمرار إرث العائلة، لهذا يُلاحظ استخدام الناس في القرى تعبير البيت أو الدار كإشارة لعائلة فلان أو فلان.

ب) **تقدير القرابة**: وسببه انتماء القرويين غالبًا في الأصل إلى جد واحد، ليؤلفوا جميعًا ما يسمى بالبدنة (line age) والتي تعتبر جزءًا من العشيرة (clan) وللنسق القرابي أهميته الخاصة باعتبار أنه يقوم على قواعد حدّدها

الدين من خلال تعابير معينة كالنسب والإرث والمحارم وذي القربى. وقد يحدث في القرى (خاصة اللبنانية فيما مضى) ما يسمى بالغرضيّة أي الموالاة والمناصرة، فإن حدثت مشكلة بين فردين من عائلتين مختلفتين انسحب الأمر كله على كامل أفراد العائلتين وعائلات القرى المجاورة إن كانوا من نفس الآل، فليست الكرامة الفردية التي أهينت بل الكرامة الجماعية لذا لم يكن لـ «الأنا» أي دور أمام «النحن».

ج) **شراكة العمل**: ينتشر بين القرويين نظام عمل زراعي يسمّونه بالمحاصصة، وهو نوع من الشراكة يقدم فيها أحد الشريكين أرضًا ويقدّم الآخر عملًا على أن تتقاسم أرباح الإنتاج بين الشريكين إما بالنصف أو بالثلث أو بالربع أو بالخمس.

د) **التمسك بالروحانيات**: وما يميز أهل الريف أنهم أكثر إيمانًا بالماورائيات، ولا سيما المتعلقة منها بالقضاء والقدر(النصيب) والصبرعلى المكاره والأمل، وإلى جانب التزامهم بالواجبات الدينية ثمة شيوعٌ للمعتقد الخرافي بشكل ظاهر يتمثل في سلسلة من القناعات الذهنية ذات الطابع الغيبي ويُمارس عبر شعائر وطقوس معينة، يلجأ إليها الريفي في يومياته كونها تقدم له خدمة الحماية والبركة (من هنا نلاحظ ظاهرة انتشار المزارات وأضرحة الأولياء والقديسين ووفي النذور وتعليق الأحجبة..).

هـ) **شيوع الغناء الشعبي**: يتغنى الريفيون في مناسباتهم بألوان فطرية من الكلام المنظوم خلال فترات حياتهم المتقلبة بين فرح وحزن وهجرة وقطف مواسم وفقد حبيب، وتلحظ ذلك بوضوح في فنون الغناء المتنوعة: المواويل/ الدلعونا/ الميجانا/ العتابا/ الزلغوطة/ الحوربة/ الندبة/ الزجل.

و) **الاندفاع للمساعدة**: وهو ما يعرف بالعونة أو النخوة، وهي المساعدة الجماعية التي يسديها الجيران لجارهم في الأعمال التي تحتاج إلى أيد كثيرة، ولا تنحصر فقط في أمور زراعية أو يدوية، وإنما تتعداها، إلى المناسبات الاجتماعية (الزواج/ المآتم) أو في حال الكوارث والحريق تهب القرية كأنها يد واحدة .. في هذه العونات تتجلى روح القرية التعاونية التي

تفرضها حياتهم اليومية الصعبة.

ز) **حركة الزمن**: يتحرك الريفي معرفيًا وفق تقويم خاص في فهمه لدورة الزمن، يتجلى أحد وجوهه في الزمن الطبيعي، وهو المرتبط بتغييرات البيئة من حوله، فالسنة بالنسبة له أربعة فصول، والفصول أيامًا معدودات، تعرف فيما بينهم بالسُّعود كما في تقسيمهم مثلًا فصل الشتاء إلى تسعين يومًا (مربعانية وخُمسانية) تبدأ من 22 كانون الأول وتنتهي في 21 آذار يتخللها فترات شديدة المطر والثلوج والصحو والرياح البادرة، تستمر كل واحدة منها اثني عشر يومًا، وغالبًا ما يحسبون أيام التقويم لحاجتهم في الزرع وغرس الأشجار وتقليمها وتهيئة الأرض وحرثها، فلا يصح أن يتم عمل زراعي في زمن طبيعي غير مناسب له، إذن فكرة الريفي عن الزمن الفلكي غير واضحة ومحددة بل الزمن الذي يسيرون عليه هو الزمن الاجتماعي (كما في المواقيت المقررة لإقامة الشعائر: عند المسلمين هناك ما يعرف قبل رمضان أو بعد العيد، ذكرى عاشوراء، موسم الحج.. وعند المسيحيين هناك زمن الصوم وعيد الصليب وعيد السيدة ..).

يمكن تبين خصائص المجتمع الريفي من الفروقات الهامة التي يختص بها لجهة البطالة الموسمية، الخبرة بالطبيعة والمناخ (البواحير)، ارتفاع معدلات الخصوبة والتوالد، تدني الكثافة السكانية للمساحة المسكونة. على أن السمات الأبرز أهمية تلك المتعلقة بما هو فوق العضوي أي البنية المعرفية التي تحكم أبناء المجتمع الريفي بذهنيات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بظروف حياته اليومية ومن مظاهرها:

* **وضوح ظاهرة التلكؤ الحضاري**، وسببه صعوبة تنازل الريفيين عن عاداتهم وتقاليدهم فهم متمسكون بالقواعد الاجتماعية والأعراف بشكل ثابت.

* **انخفاض مستوى الطموح** لدى الريفيين اعتقاد بأنه ليس في الإمكان أفضل مما كان. وهذا ما يبرر ظاهرة التواني والتواكل والإحجام عن المغامرة.

* شيوع قيم اجتماعية سامية، كالكرم والضيافة والتعاون والطيبة والتسامح والبساطة.

* سيطرة العائلة، ولذلك مبرره التاريخي، حيث كانت العائلات الفلاحية تتكاتف للحصول على إنتاج جيد وللتعاون على استثمار الأرض، من هنا لا وجود للفردية بل ليس للفرد وجودًا إلا من خلال عائلته ولأجل عائلته.

تبدو ملامح المجتمع الريفي من النوع الجماعي، أي أن عقل الفرد وتصرفاته وتفاعله هو عقل الجماعة، وهذا العقل يسير بفعل التقليد و بوحي العرف فلا يستطيع عندها الريفي أن يستقلّ في تفكيره. لقول الباحث اللبناني أنيس فريحة في كتابه حضارة في طريق الزوال: «نحن جمعيًا عبيد العرف والتقليد، فالعُرف يحدد السلوك والتقليد يفرض التصرف، وإن الناس لا يجرأون على الخروج عن النورم (السائد) بيسر، لأن الخروج عنه يحتاج إلى جرأة وإقدام وهذا ما لا يتوفر في الإنسان (الريفي)».

إزاء ذلك نتساءل:

- ✓ **هل هذه هي حقيقة الريف اليوم؟ هل هذا واقعه؟.**
- ✓ **هل يمكن القول أنه لازال هناك مجتمع ريفي صرف؟.**
- ✓ **ما الذي تغير في الواقع الريفي ولم يتغير؟.**
- ✓ **كيف يتصف المجتمع الريفي اليوم في لبنان؟ هل مظاهره (العونة) لازالت موجودة مثلًا؟.**
- ✓ **هل لا يزال الريفي بسيطًا في حياته لجهة المسكن والمأكل والملبس؟ وإن تغيّر ما سبب التغير؟.**

للإجابة على ذلك قام باحث اجتماعي لبناني[1] بدراسة منطقة ريفية في

(1) عبد الرحمن قوطه، «كيف تتغير القرى» صحيفة الديار اللبنانية. 29/ 3/ 1995.

شمال لبنان (بلدة القلمون) حيث لاحظ عددًا من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عند أبناء هذه البلدة، فقد تحولت من مجتمع يعتمد على الزراعة والصيد البحري والحرف التقليدية (**كصناعة ماء الزهر/ زيت الزيتون/ والصابون / صناعة الملح**) إلى مجتمع اقتصاده يقوم على التجارة (**نحاس الزينة**) والصناعة (**معامل العصائر**) والسياحة (**انتشار منتجعات ومسابح على شواطئها**). إلا أن التحول الأبرز برأي الباحث هو الوجه الآخر لهذه التحولات التي وضعت القرية على طريق الحداثة وهو نشوء أنواع جديدة من البنى المعرفية تجلت في وعي سياسي مع ظهور الأحزاب العقائدية والعلمانية. ويرى الباحث ـ استنادًا إلى دراسات ومعطيات ميدانية ـ بأن هذا التحول حدث نتيجة بروز فئة اجتماعية أغلبها من الطبقة الوسطى انخرطت في العمل السياسي حتى أثرت على دور الوجيه التقليدي ومكانته، وأحدثت نوعًا من القطعية المعرفية مع الماضي القائم على ثقافة هوامية أسطورية (**قوامها الجن والإيمان الراسخ بالعفاريت وتأثير الكتبة واعتماد التبصير لكشف المصير والسرقات..**) وإحلال ثقافة أخرى هي العقلانية، ومثل هذا الوعي الجديد أسس بدروه لبنية ذهنية جديدة ساهمت في تحوّلين أساسين تمثلا في:

1) تعديل النظرة إلى المرأة الذي نتج عنه تغيير على صعيد خروجها للدراسة بدل الحقل ومصنع الحرف، بروز أهليتها لوظائف أخرى، حريتها في اختيار شريك الحياة الذي تريد لسهولة الاختلاط مع الشباب في شارع العشاق (وهو شارع في البلدة يتلاقى فيه الشباب والفتيات وكأنه مكان تلقائي للتعارف بعدما كان محظورًا الاختلاط لفترة زمنية طويلة..).

2) تبدل في الإيمان الشديد بالروحانيات نحو أفكار مناقضة تقوم على الشك بمضمون البناء المعرفي القديم القائم، إلى القول بالتعدد والتنوع والمخالفة والالتزام الديني القويم.

بدا من تقصيات الواقع الميداني بالنسبة لهذا الباحث أن هذه البلدة لم

تنتقل في شكلها المورروفولوجي من قرية كسائر القرى نحو مجتمع مدني وحسب، وإنما في التحولات التي دخلت على هذه القرية خلال فترة زمنية لا تتعدى الثلاثين سنة. .لتصبح مجتمعًا متحركًا في عالم الأعمال (تصدير منتوجات نحو أسواق عالمية/ دخول عالم التعامل المصارفي/ وانتشار الفيزا كارت بدل التعامل النقدي المباشر) ازدياد وارتفاع المشاريع الصناعية (مشاغل الموبيليا/ وتكرير الملح عبر مصانع حديثة/ وتنظيم سوق استخراج الشراب من الفواكه المعروفة في المنطقة) وعالم الفكر حيث لم يعد القلموني والريفي اللبناني بشكل عام مقيدًا بذهنية معرفية ثابتة، إنما بات يتخذ مواقفه دون أن يكون ملزمًا بروحية المشاركة التقليدية مع انتشار الأحزاب والوسائل الإعلامية والتواصل مع المجتمع الخارجي التي هيأت للجيل الجديد الخروج من كنف الإقطاع السياسي والمالي إلى تأكيد استقلالية الذات.

4) المجتمع المديني:

يُدرس هذا المجتمع من وجهات نظر متنوعة، بتنوع الاختصاصات العلمية، فالجغرافي يهتم بدراسته باعتباره واقعًا سكنيًا/ بشريًا/ اقتصاديًا، على نحو ما يشير الجغرافي (MAX SORRE) الذي اعتبر المدينة (وحدة المجتمع الحضري) ذلك المكان المستقر نسبيًا، يمتاز بكثافة سكانية عالية، يعتمد معظم سكانه على الصناعة والخدمات.

أما الاقتصاديون فإنهم ينظرون إلى المجتمع المديني على أنه المجال الذي تتاح فيه الإنتاجية الاقتصادية والارتقاء بالمرافق التي تشكل القاعدة الاجتماعية للنمو الاقتصادي. وفي الوقت الذي يصف فيه كثير من الباحثين الأميركيين المجتمع الحضري على أنه المجتمع الذي يتميز بوجود المباني الشاهقة والمكاتب الإدارية والتجارية لمختلف الأعمال والعدد السكاني الكثيف (ليس أقله عشرة آلاف) وتعدّد المهن والمراكز العلمية والثقافية؛ ينظر إليه السوسيولوجي من ناحية اعتباره «**طريقة حياة معقدة**» يشتمل على كثير من درجات التحضر والمدنيّة والمجال الأرحب للمشاركة والتمثيل السياسي

وممارسة الحقوق المدنية.

لكن عندما ينظر كثير من علماء الاجتماع إلى «الحضرية» على أنها طريقة حياة تواجههم صعوبة تحديد هذا النمط من الحياة لجهة: كثافة السكان/ لاتجانس أفراده /سهولة الحراك / نسق التفاعل/ أنماط الاتصالات. فالباحث الاجتماعي (ديفيد هارفي) يشدّد في نظريته الاجتماعية حول التحضر على أنه يمثل جانبًا واحدًا من البيئة المستحدثة التي نشأت عن انتشار الرأسمالية الصناعية، أما الباحث (مانويل كاستلز) فإنه يربط بين عملية التحضر والتحضرن من جهة وتنامي الحركات الاجتماعية من جهة ثانية، إذ يعتبر المدينة ليست مجرد موقع جغرافي بل هي في واقع الأمر «عملية استهلاك جماعي» مع وجود الجامعات/ مرافق الترفيه/ خدمات النقل، حيث يقوم الناس باستهلاك منتجاتها بصورة جماعية.. ويؤكد بعض الباحثين في دراساتهم السوسيولوجية على أن المشكلات المتولدة في المراكز الحضرية من جراء عمليات التمدن والاستثمارات والتوسع المادي للحياة يدفع إلى قيام طيف واسع من الحركات الاجتماعية التي تدعو من جملة ما تدعو إلى تحسين الأوضاع وتطوير المواقع السكنية والاحتجاج على التلوث والدفاع عن البيئة والمساحات الخضراء والعمل على الحد من المسائل المتصلة بالانحراف والتشرد والتعصب العرقي أو الإثني وتردّي الخدمات العامة وتطبيق القانون وحفظ النظام.

كان لنمو المدن أثر هائل ليس على عادات الناس وأنماط سلوكهم فحسب، وإنما على أنماط التفكير والقيم، فاللافت أنه مع انتشارها الهائل بدت تظهر مظاهر التفاوت الطبقي واللامساواة الاجتماعية وشيوع الفقر والانحراف والجريمة، حتى افترض دارسو المجتمع الحضري بأنه كلما زاد التحضّر في مكان مديني ما، كلّما لوحظت معه الوقائع التالية:

1 . **سهولة الانحراف عن المعايير**: يوضع المعيار باتفاق الجماعة ويصبح حينئذ مسلكًا اجتماعيًا ينظم علاقات أفراد هذه الجماعة فيما بينهم، ولمّا كان المجتمع المدني من حيث بنائه الاجتماعي يتكون من عدة جماعات

غير متشابهة، غدا الخروج عن المعيار سهلًا نظرًا لانعدام «الرقيب الأخلاقي» (الضمير الجمعي) ولانحسار موجبات العيب.

2 . **تشرد الأحداث**: إن التفكك الأسري ونشوء الخلافات وارتفاع نسبة الطلاق وهجرة الأبناء وغيرها من المشاكل الاجتماعية البارزة في الأحياء المدنية الشعبية، بسبب قساوة الحياة وضغوط متطلباتها التي تنعكس سلبًا على حياة الأسرة وأفرادها، فيتسربون أبناؤها من المدرسة نتيجة الفقر، ويخرجون من بيوتهم تائهين في الطرقات والشوارع للعمل بتلميع الأحذية أو التسول أو الدعارة، أو تكوين عصابات لبيع المخدرات و ابتزاز الناس بالخطف مقابل فدية مالية.

3 .**انتشار البغاء**: يعود انتشار هذه الظاهرة في معظم المجتمعات المدينية إلى انعدام الروابط الاجتماعية الحميمية وهجرة الشباب من الريف إلى المدينة والبحث عن الإثارة والمتعة وغياب الوازع الديني، أو يكون نتيجة الفقر الذي يصيب بعض العائلات حيث ـ وإزاء هذا الواقع المتردي ـ تندفع بعض الفتيات إلى ممارسة الدعارة[1].

4 . **اتساع نطاق العلاقات اللاشخصية**: بمعنى أن التفاعل الاجتماعي في المدينة يتم في دوائر ضيقة جدًا، فعلاقة الأفراد لا تمتد بين بعضهم بعضًا أبعد من علاقة المهنة أو الجيرة والصداقة، ويرجع سبب وجود هذه الظاهرة إلى الزيادة المطردة في عدد السكان من جهة، ولانشغال ساكني المدينة الدائم بشؤونهم وعدم وجود وقت لإقامة العلاقات الاجتماعية الكثيفة.

تمتاز الحياة المدينية اليوم في أغلب المدن الحديثة بشيء من التنوع، ومن الخطأ الكبير أن ينظر إلى سكان المدن على أنهم واحد من حيث المدنيّة، وبأنهم

(1) جاء في تقريرر نشرته منظمة العمل الدولية 1998 إلى أن: الكساد الاقتصادي الذي تعانيه كثير من الاقتصادات الآسيوية، واتساع الفوارق بين معدلات صرف العملات من جهة، وانتشار ما يسمى بالسياحة الجنسية وارتفاع معدلات البطالة وبروز الأطفال والنساء كفائض سكاني، واستدراج الفتيات للعمل في مجالات الترفيه والرقص كلها عوامل ساعدت على تنامي ظاهرة البغاء في المجتمعات المدينية، التي تنطوي على كثير من المخاطر في حال استمرارها وتناميها كالعنف، الإجرام، تجارة المخدرات، الاستغلال وانتهاك حقوق الإنسان..).

يتشابهون في نمط الحياة، فالباحث الاجتماعي (HERBERT GANS). وجد بأن هناك خمس فئات بشرية تقطن المدن وهي:

1. متعددو القوميات (cosmopolites) هؤلاء يقطنون المدن باعتبارها مكانًا يقدم لهم فوائد ثقافية وامتيازات فكرية أفضل من أماكن أخرى ..حال الفنانين / الكتاب/ المبدعين ..

2. غير المتزوجين (unmarried & childless people) ترغب هذه الفئة الإقامة في المدن لدواعٍ ترفيهية ولفرص حياة أفضل.

3. الريفيون (ethic villegers) وهم الذين ينزحون من أرياف ويقطنون الأماكن المزدحمة ويعيشون نمط حياة متشدد في البيئة والمصروف، وغالبًا ما يتواجدون في أماكن بعيدة عن سكن الأثرياء.

4. المحرومون (the deprived) وهم الطبقة الفقيرة التي تعيش بخيارات حياة محددة ربما أقل من المتوسط، تعيش على هامش الأبنية السكنية الشاهقة أو في الضواحي من مداخيل جد بسيطة.

5. المتفاخرون (the trapped) بعض قاطني المدن يرغبون بتركها إلى أماكن أخرى (ريفية أو ما شابه) ولكن يؤثرون الحياة المدنيّة لأنها مؤنسة لديهم، فالمدن فيما سبق كانت بالنسبة لهم مكانًا لممارسة مناصب اجتماعية ووظيفية هامة ثم تقاعدوا عنها ولكنهم آثروا البقاء فيها لأنهم اعتادوا نمط الحياة المدنيّة رغم زوال الامتيازات الاجتماعية العالية.

*** خلاصة عامة**

استُعرض تباعًا أبرز التنظيمات الاجتماعية من خلال مفاهيمها الأكثر شيوعًا: التقليدية، العصرية، الريفية والمدنية، لكن مسألة توضيح الحدود بين هذه المفاهيم بدلالات ملموسة لازالت مثار بحث وجدل، إذ غالبًا ما تتداخل هذه الأنماط فيما بينها عبر التفاعل والتثاقف والتكامل الاقتصادي، فالنمط المدني مثلًا يجسد ذروة الطموح الإنساني عند البشر في مستوى أساليب الحياة المتطورة، لهذا يرد في الدراسات السوسيولوجية: «أن النمط المديني آخر أجيال

العمران البشري» وهذا يعني في دلالته أن المجتمعات تنتقل من طور إلى آخر بناءً على تغيرات إما بنيويّة وإما وافدة من خارجها. وفي فترات تغيّرها قد تتطور نحو نمط مجتمعي آخر وقد تتراجع إلى نمط مختلف ومتخلف في آن..

وهذا ما يصفه باحثو علم الاجتماع بالمرحلة الانتقالية، فالمجتمعات الانتقالية في ظل حركة التحول تأخذ غالبًا إما منحى تنازليًا عندما تنتقل من المجتمع المنتظم المستقر إلى الفوضوي والمشتت. وإما منحى تصاعديًا عند انتقالها من المجتمع البدائي إلى الحضري أو من التقليدي إلى المعاصر أو من الريفي إلى المدني.. في الحالة الأخيرة تحديدًا يحدث ـ نتيجة التفاعل الثقافي ـ انقلاب كلي في المفاهيم القديمة بحيث تزول الشخصية القاعدية الجماعية (النحن) ليحل محلها الشخصية الفردية أو منطق الأنا أمام هجمة المدنية والتقنيات الحديثة ونتيجة الشرخ الذي أحدثه الاغتراب في الهجرات الجماعية من الريف.

إزاء ما تقدم من تعريفات أين يمكن وضع المجتمع العربي؟ بأية سمات وأنماط اجتماعية يمكن أن يُوصف؟ برأي الباحث حليم بركات في مؤلفه: المجتمع العربي المعاصر، يتصف هذا المجتمع بأنه مجتمع شديد التنوع ـ انتقالي يتجاذبه الماضي والمستقبل، الشرق والغرب، التقليد والحداثة في آنٍ معًا. منكفئ على جذوره انكفاءً أصيلًا، سلفي تقليدي أصيل في منطلقاته، مستقبلي متجدد علماني مستحدث في تطلعاته، متصل بالعالم اتصالًا وثيقًا تارة وتارة أخرى نجده هامشي بين مجتمعات العالم الحديث، منفتح في بعض توجهاته ومغلق وجامد في توجهات أخرى، غني في الثروات وفقير في السياسة الاجتماعية، إنه وباختصار تآلف كل هذه التناقضات في عالم متناقض. وإذا ما أردنا وكاستنتاج نهائي أن نختصر المجتمع العربي بناءً على المعالم التي تقدمنا بها فإننا يمكن أن نضعه على متصل انتقالي قوامه المعادلة التالية:

* تقليدي ← تحولي ← عصري
* ريفي ← تحولي ← مديني

من الواضح حدوث تحول في نمط العمران البشري، من مجتمع ريفي ساد لقرون طويلة في بعض الأقطار ولمّا يزل إلى مجتمع حضري حيث أصبح الناس تفضّل السكن فيه وخاصة الأعمار الشابة التي تسعى إلى التعلم في الجامعات ثم الحصول على وظائف مرموقة في القطاعات العامة والخاصة. ومن أهم نتائج هذا التحول تقهقهر العمل الزراعي بسبب النزوح، قيام أحياء فقيرة على جوانب المدن، ازدهار الحركات الاجتماعية والأحزاب. . لهذا يمكن القول بأن تفوق المدينة الواحدة ضمن البلد الواحد لا يعود فقط لعدد سكانها وإنما لمركزيتها واحتكارها للخدمات الإنسانية المتقدمة، ليحدث هذا التفوق المتعدد الجوانب بدوره خللًا في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتنموية والثقافية في المجتمع ككل.

الفصل الثالث
مواضيع سوسيولوجية

الموضوع الأول: التغيير الاجتماعي

الموضوع الثاني: المجمل الاعتقادي

الموضوع الثالث: الهجرة والنزوح

الموضوع الرابع: الحداثة والهوية

الموضوع الأول:
التغيير الاجتماعي

باستعراض تاريخ المجتمع البشري الطويل يظهر مدى الاختلاف الهائل بين ما كان عليه وبين ما هو الآن، في مسيرة هذا المجتمع عبر التاريخ كان هناك تحوّل جذري ظهر في محطات فاصلة، صنّفها الباحث (لويس مورغن) في نظريته عن التقدم الإنساني في ثلاث: 1) **المرحلة البدائية**: بدأت منذ وجود الإنسان على الأرض حتى مرحلة تحصيل قوته في صيد السمك، **2) المرحلة البربرية**: وهي التي تبدأ من مرحلة ابتكار الفخار إلى فترة استئناس الحيوان وزراعة النبات والأشجار، **3) المرحلة المدنية**: وتبدأ منذ اختراع الحروف الأبجدية واستخدام الكتابة وحتى وقتنا الحاضر. ولكن:

- **كيف يمكن أن يعرّف التغيير؟.**
- **كيف يحدث التغيير ومتى يحدث؟.**
- **ما الذي يتغير: الإنسان/ الطبيعة / المجتمع أم ماذا؟.**
- **هل يمكن أن يحدث التغيير دونما توقع أم أن هناك ترتيبات تحصل؟.**
- **لماذا يرفض بعض الناس التغيير الاجتماعي؟.**
- **ما الآثار التي يمكن أن تتأتى من جراء التغيير؟.**

بعض النظريات ربطت التغيير بالتطور الذي يحدث تلقائيًا في الطبيعة والحياة والمجتمع (باعتبار أن التغير سُنّة الحياة)، نظريات أخرى رأت أنه يحدث نتيجة اختراع تكنولوجي يغير من مسار الحياة والمجتمعات، وفي كلا الأمرين يظهر التغيير على أنه الواقع المتحول دومًا في شتى المجالات الإنسانية من الاجتماع إلى الاقتصاد إلى الثقافة إلى الطب إلى مختلف شؤون الحياة، إنه «حال الاختلاف» بين زمنين: ما قبل وما بعد، ويمكن أن يلاحظ

ذلك بسهولة من خلال رصد بعض المؤشرات الحاصلة في زمنين منفصلين، كمثال المعطيات الديموغرافية التالية عن أمريكا ولبنان(*):

	المؤشرات الأمريكية.	1960	2005
في التعداد السكاني	من هم دون ال15 سنة.	%31	%20
في التربية	من أنهوا الدراسة الثانوية	%13	%15
	من دخلوا الجامعة وتخرجوا	%40	%46
في العمل	نسبة الرجال	%86	%86
	نسبة النساء	%74	%72
في الصحة	عدد الأطباء بين كل 100000 نسمة	150 طبيب	265 طبيب
	معدل الحياة المتوقع	70 سنة	78 سنة
في العائلة	متوسط عمر الزواج بالنسبة للذكور	23 سنة	24 سنة
	متوسط عمر الزواج بالنسبة للإناث	20 سنة	22 سنة
	عدد الولادات في العائلة	4 اولاد	ولدين

	المؤشرات اللبنانية.	1985.	2000.
التعداد السكاني	عدد السكان	2600000	4005000
	من هم دون ال15 سنة.	%36.	%28
في التربية	من أنهوا الدراسة الثانوية	%74	%64
	من دخلوا الجامعة وتخرجوا.	%40	%30
في العمل	نسبة الرجال	%70	%77
	نسبة النساء.	%10.	%21
في الصحة	عدد الأطباء بين كل 100000 نسمة	70 طبيب	237 طبيب
	معدل الحياة المتوقع	67 سنة	70 سنة
في العائلة	متوسط عمر الزواج بالنسبة للذكور	21 سنة	30 سنة
	متوسط عمر الزواج بالنسبة للإناث	19 سنة	24 سنة
	عدد الولادات في العائلة	5.5 أولاد	2.8 أولاد

(*) أستند في معطيات هذا الجدول على:
the world alamanic (book &facts) 1988, mark hoffen, pharos book, scripps howard companies, new York, 1988. والمرأة والرجل في لبنان، صورة إحصائية 2000، الهيئة الوطنية لشؤون المرأة اللبنانية، بيروت، 2000.

ما هو التغيير الملاحظ في الدولتين وخلال الفترتين الزمنيتين؟ هل هناك تقارب أم تباعد بين نسب المجتمعين؟ إلى ما يدل ذلك؟ ما هي الفئات / المؤشرات المتوقعة خلال السنوات العشر التالية بناء على هذه المعطيات هل ستتبدل..؟ اللافت في كلا الجدولين أن هناك تحول في الواقع السكاني نحو ازدياد وتبدل في معطيات العلم والعمل والزواج نحو انخفاض، مما يؤشر ذلك إلى أنه ليس هناك محطات للتغير إنما الموجود فعلًا هو علاقات اجتماعية في تغيّر دائم، تزداد مع قدرة الإنسان في السيطرة على الطبيعة لمصلحته وفق معادلة: **«ما هو موجود» إلى ما «يمكن أن يوجد!»**.

* مسببات التغيير

في مختلف الأوضاع الاجتماعية هناك ظروفًا مهيأة نحو كل تغير، فالطبيعة تتغير وتتبدل وفقًا لعوامل المناخ والدورات الفلكية الممكنة، كذلك يمكن القول عن شؤون الناس في حياتهم اليومية ومحيطهم الاجتماعي كيف أن الأمور ليس هي ما كانت عليه منذ زمن قريب والسبب تحسّن أوضاع الناس ماديًا وعلميًّا واجتماعيًّا. ومن العوامل التي تذكر كمسببات للتغيير هناك: الحاجة والاستعداد النفسي والقاعدة الاقتصادية والتوسع الثقافي وانتشار الأفكار والمعتقدات عبر الإعلاميّات وحتى الكوارث والحروب يمكن أن تحدث تغيرًا، حيث يرى بعض الباحثين أن الحرب يمكن أن تلعب دورًا كبيرًا في التحول الاجتماعي عملًا (بقول غاستون بوتول) بأن الحرب صورة من صور الانتقال المعجّل، فهي تدفع نحو خروج المرأة إلى ميدان العمل (لسبب انشغال الرجل في الحرب أو لوفاته من جرائها) وساهمت ـ نتيجة تكررها في العالم الغربي خلال القرن العشرين ـ في اختراع حبوب منع الحمل الذي ترتّب عليه سيطرة النساء على أجسادهن وتحكّمهن في الولادات، مما حرر المرأة فعليًّا من فكرة تبعيتها للرجل وتقاسمها العالم الاقتصادي معه على شيء من المساواة[1].

(1) محاضرة عن أثر الحروب والنزاعات المسلحة على أوضاع الأسرة العربية (دراسة حالة لبنان) د. منى فياض، الأسكوا، بيروت 2003).

يبدو أن هناك عوامل عديدة تتداخل في أحداث التغيير فلا يمكن إرجاع التبدّل والتحول إلى سبب واحد جوهري. إلا أن بعض الباحثين أمثال (وليم أوجبرن) أولى بعض العوامل أهميةً على حساب بعضها الآخر معتبرًا إياها هي الأساس في كل تغير ويعني بذلك ظهور التكنولوجيا، فدخولها المجتمع البشري هو ما يمكن اعتباره الحد الفاصل بين مجتمع متقدم وآخر متأخر، لأن التكنولوجيا من شأنها أن تُهيّأ للإنسان فرص الوصول إلى أهداف محددة بأقل جهد ممكن وبأقل التكاليف المتوقعة، ومثال على ذلك أن آلة النسيج تقوم بمقام 2000 عامل، كذلك المطبعة تقوم بعمل مليون ناسخ، وفي سنة 1900 كان يلزم ألف وثلاثمائة ساعة لإنتاج سيارة (ثلاثة أشهر) أما اليوم وبعد مائة عام لا يحتاج الأمر لأكثر من 18 ساعة لإنتاج سيارة جديدة. كذلك الحال بالنسبة للطائرة فإنها تقطع ألف كلم بالساعة وهي محملة بمئات الركاب وعشرات الأطنان بينما لا يستطيع الإنسان السير أكثر من ستة كيلومترات حاملًا بضعة كيلوغرامات. مما يعني أن وجود التكنولوجيا كان نقطة تحول في تاريخ الشعوب والمجتمعات والاقتصاد والأعمال، فالوسائل الفنية في الزراعة واستعمال الجرارات الزراعية وطرق تحسين تربية الماشية وتطور وسائل التبريد والتدفئة واستحداث نظم جديدة في العناية الصحية والحماية البيئية من شأنها جميعها أن تؤدي إلى تحسن ليس في زيادة الإنتاج وتحسين نوعيته وإنما إلى تحسن في ظروف الناس وحياتهم اليومية أيضًا.. ذلك أن التغير التقني يستتبع تحول معيشي يدفع إلى استقدام وسائل ترفيه واستخدام وسائل إعلام لم يكن يستخدمها المرء مسبقًا.

إلى جانب الحروب وظهور التكنولوجيا كمسببات في أحداث التغيير، لعبت الهجرة دورًا بارزًا في بعض المجتمعات خاصة تلك التي شهدت هجرات مكثفة من موطنها إلى مواطن أخرى بديلة حتى انعكس في طبيعة الحركة الديموغرافية من تغير على مستوى الولادات والوفيات وتحول المجتمع معها من فتي إلى هرمي، كما هو الواقع في لبنان حيث أشارت بعض الإحصائيات إلى تغير في التوزيع النسبي لسكان لبنان المقيمين، حيث تنخفض نسبة السكان دون الـ 15 عامًا من 30 في المئة في عام 2006 إلى 24 في

المئة في عام 2021، وسترتفع نسبة السكان بعمر 65 وما فوق من 2،7 في المئة في 2006 إلى 8 في المئة في العام 2021. كذلك فإن الهجرة المتزايدة ستقلّص قاعدة الهرم السكاني الشبابية من 19 في المئة عام 1996 إلى 17 في المئة عام 2021. وتبين أن زيادة نسبة العزوبية بين النساء وارتفاع عدد المهاجرين يؤثران في الزيادة الطبيعية للسكان.

*** مظاهر التغيير:**

عندما يطرأ على نمط الأشكال الثقافية نوعًا من التعديل عن المسار المألوف فهذا يعني أنها دخلت طور التغيير ويحدث فعليًا عندما تتبنى جماعة معينة عنصر ابتكاري جديد (سمة ثقافية وافدة) ومع تفاعل هذه الجماعة للعنصر الجديد تبدأ التأثيرات والتغييرات بالظهور في نماذج متنوعة بحسب السياق الذي تنحاه الجماعة، ومن هذه النماذج المتحولة مثلًا:

1 . تحول المجتمعات من الشكل البسيط في العلاقات إلى المعقد.

2 . انتقال الناس من نمط معيشي بدائي إلى آخر أكثر مدنية.

3 . تبدل في الحركة الديموغرافية (انخفاض معدل الولادات / تحسن مدى العمر).

4 . تغير في الدور الاجتماعي للمرأة والشباب.

5 . تغيرات في مجالات التعليم مع استحداث اختصاصات جديدة تواكب العصر.

6 . تغير في مفهوم الأسرة والزواج (**ممتدة نحو النواة نحو الكوبل/ الزواج التقليدي نحو المدني**).

7 . تغيرات في صور الضبط الاجتماعي (انحسار الضمير وتوسع الهيئات المحاسبة).

8 . تبدل في مرجعية القرار داخل الأسرة.

9 . التحول من الفكر الثوري والانقلابات نحو مظاهر احتجاج وعنف سلمي.

10 . الانتقال من التبعية والاستبداد إلى تعزيز المساواة والديموقراطية واحترام الرأي و حقوق الإنسان.

*** أهداف التغيير:**

يحدث التغيير أو يُرتجى عادةً لتصحيح خللًا ما أو تنظيم وضع قائم تشوبه الكثير من المخاطر والمفاسد وقد يكون حلّا لمشاكل عالقة وطرحًا للحد من استمرار حالة التدهور نحو أوضاع أفضل، هذا عن «لماذا نتغير؟» أما كيف نتغير فيمكن ملاحظة ذلك على أكثر من مستوى:

✓ ما يحدث على **المستوى الفردي**، عن طريق اعتماد طرق تدريب وتنمية قدرات وترشيد سلوك واتجاهات لغاية عمل أفضل ولأداء مهني ووظيفي جيّد.

✓ ما يحدث على **مستوى الجماعة**، عن طريق التبدّل الحاصل في بعض معالمها ونمط حياتها بين ما كان سائدًا من عادات وتقاليد ترى أنه لم يعد بالإمكان الأخذ بها فلا بد من اعتماد أطر عصرية أخرى وحديثة لتماشى مع ركب الحضارة والزمن.

✓ ما يحدث على **المستوى العام** عندما تقوم الدول والأنظمة بوضع خطط وإستراتيجيات متطورة لضرورة الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

هذه المستويات تبين أهمية التغيير وضرورته ولكن يبقى السؤال الأهم هل يحدث التغيير دونما آثار مؤذية؟ ما هو ثمن التغيير ونتائجه؟

من المتابعة الميدانية لاحظ الباحثون أن هناك أكلافًا باهظة تحدث من جراء التغيير وتترافق مع حالاته، ومن هذه التكاليف: **التكاليف البيئية** (كثرة النفايات/ تلوث المياه والهواء/ انحسار الغابات/ظاهرة التصحر) **التكاليف الاقتصادية** (ازدياد الإنتاج/ زيادة الاستهلاك/ منتوجات جديدة) **التكاليف**

الاجتماعية (انهيار القيم/ انعدام الأخلاقيات/ انتشار ظاهرة الانحراف والإجرام.) التكاليف النفسية (زيادة الإرهاق/ الإحباط/ ضغوط الزمن/ . .) التكاليف الصحية (انتشار أمراض خبيثة/ ارتفاع حالات مرضى السيكوسوماتيك/).

في مجمل هذه الأوضاع يدفع الإنسان المعاصر ضريبة دخوله عالم التطور سواء من بيئته أو صحته أو قيمه، ولعل دخول السيارة في حياة الناس أحدثت تغييرًا مزدوجًا، فرغم إتاحتها الكثير من الفرص لجهة سهولة الانتقال واختصار المسافة والمشقة، أسهمت من ناحية أخرى بكوارث عديدة من جراء استخدامها فهي المسؤولة عن عدد كبير من الوفيّات والمعوّقين وتعاسة كثير من الناس لما سببته من آلام فضلًا عن مساهمتها في مشاكل ازدحام وتلوث وإزعاج وضغوط نفسية بدأت تظهر في المدن المزدحمة حتى انعكس ذلك على صحة الناس وطريقة تصرفهم إزاء بعضهم بعضًا[1]. وكذلك يمكن القول عن حوادث سقوط وتحطم الطائرات أو القطارات وسائر المركبات وما تحدثه من إزهاق في الروح البشرية.

في كتابها «الربيع الصامت» والصادر عام 1962 قدّمت العالمة الأمريكية (راشيل كارسون) وصفًا حيًّا للأمراض الخبيثة المترتبة على العوامل الكيميائية الجديدة التي تفسد حياة الريف والحضر، فبرأيها ثمة مبيدات تسمم الأغذية الأساسية اللازمة لبقاء العديد من صور الحياة النباتية والحيوانية وأنها على الأرجح ضارة بالحياة البشرية أيضًا. وتنبّه هذه العالمة للمخاطر التي تحدث لجهة العبث بالبيئة وبالأغذية من جراء استخدام كيمياوية خطيرة، لكن المشكلة أصبحت أكثر جدلًا وخطرًا مع اعتراف علماء البيئة في الربط بين انبعاث

(1) (ظاهرة الشغب والنزاع اليومي والعنف الشوارعي في العاصمة اللبنانية يكون في مجمله بسبب ركون السيارة أو على أفضلية المرور/ في الولايات المتحدة الأمريكية هناك أكثر من 5000 حادث إطلاق نار بسبب الانفعال الناتج عن الازدحام / وفي لبنان ذكرت التقارير الصادرة عن منظمة الشبيبة للتوعية الاجتماعية (اليازا) أنه بلغ عدد ضحايا حوادث السيارات في العام 2007 ما يربو على 800 قتيل وعدد كبير من المصابين بإصابات متوسطة وحرجة).

الكبريت من المحطات الكبرى لتوليد الطاقة وبين المطر الحمضي الذي يفسد الغابات ويؤدي إلى استنزاف سلالات السمك في الأنهار والبحيرات.. وهناك احتمال بوجود علاقة مماثلة بين عوادم السيارات وبعض عناصر الحياة النباتية إذ تسبب ذبولًا تدريجيًا للكساء النباتي، والشيء اليقيني المتحقق منه هو أن تركّزات الرصاص في الغلاف المحيط بالمناطق القريبة من طرق السيارات الكثيف تشكل خطرًا على الصحة العامة، والشيء الأكثر مدعاة للتشاؤم ما بات يعرف اليوم بالاحتباس الحراري وتبدلات المناخ وتغيّر حرارة الأرض، وكل ذلك نتيجة الاستخدام غير المسبوق للفحم والوقود الزيتي الذي يؤدي إلى زيادة احتفاظ الغلاف الجوي المحيط بالأرض إلى الاحتفاظ بالحرارة التي تصل من الشمس وهذا ما يعرف بالاحترار الأرضي.. وهناك نتائج مقلقة من أن يسهم هذا الاحترار المزمن إلى ذوبان الغطاء الجليدي القطبي وما من شأنه أن يرفع مستوى مياه البحار ويشكل خطرًا على كل الأماكن المأهولة قرب شواطئ البحار.

وإزاء ما تقوم به التكنولوجيا من مآثر سلبية في دورها ومع تنامي استعمالها، ظهرت حركات مناهضة لها، فهي ساهمت في ارتفاع نسبة وزيادة المتعطلين عن العمل، وأبرز ما عرف من تظاهرات احتجاج ضد استخدام التقنية الحديثة ما قام به عمال بريطانيون خلال القرن الثامن عشر من تدمير آلات حديثة استقدمها أرباب العمل إلى مصانعهم فثارت ثائرة هؤلاء وأخذوا يحطّمونها كرد فعل استنكاري، وعرفت هذه الظاهرة حينها ب: luddites، ونظير ذلك ما حدث في فرنسا عندما عمد عمال غاضبون إلى رمي أحذيتهم (sabots) في فجوات الآلات الصناعية كي تتعطل وبرزت إذاك ظاهرة «sabotage». على ضوء هذه الاحتجاجات المستنكرة إزاء الآلة شهدت الصناعة مطلع القرن العشرين 1930 نشوء نظرية أثارت الاهتمام تقدّم بها المهندس الأمريكي (تايلور) وتقضي بعقلنة العمل عبر تنظيم الصلة بين الآلة والعامل، فبرأيه لا يمكن استبدال الآلة بالإنسان إنما يُفترض اختيار عمال ذوي أجسام قوية للعمل أمام الآلة وفي حال رفض العمال أو تمنّعوا عن القيام بما يطلب منهم فعلى أرباب العمل زيادة أجورهم ولو وصلت هذه الزيادة إلى

مئة بالمئة. ورغم أن عقلنة العمل وفق نظرية تايلور أدت إلى نتائج إيجابية على صعيد تنشيط الدورة الاقتصادية وإدخال التنظيم إلى الصناعة وتوحيد شكل السلع، إلا نتائجها السلبية بدت واضحة لجهة اعتماد العمال الأقوياء دون العمال الآخرين الذين سيكونون ضحية البطالة، كما أنها نظرية استغلالية لما تعتمده من إغراءات في الأجور تدفع العمال إلى زيادة الإنتاج على حساب صحتهم وراحتهم وربما وقتهم مع عائلتهم.. لذلك لاقت بعد حين معارضة شديدة من قبل الكونغرس الأمريكي الذي اتخذ العام 1933 بمنع المساعدات عن المصانع التي تطبق التايلورية.

عبر آلاف السنين كان هناك نفر كرسوا أنفسهم للتقنية، فاستخدموا النار والعجلة والمعادن والتروس والمحركات والموجات الخفية والذرة ورقائق الحاسوب من أجل ما رأوا بأنه يفيد ويتقدم بالحالة المادية للبشرية، وكان العلماء والتقنيون مساهمين رئيسيين في صنع مجتمعات عظيمة واقتصادات مزدهرة، ويعتقد كثير من الناس أنهم يدينون بكل شيء لهم وأنهم سيحلون كل المشكلات التي يمكن أن تطرأ في المستقبل، هذا الموقف يمكن وصفه بأنه تفاؤل مفرط، في المقابل ومع السنوات الأولى للثورة الصناعية كان هناك عصابات عمال وفلاحين تجوب المناطق بنيّة تحطيم الآلات الجديدة في المزارع حيث كانوا يخشون أن تتسبب في فقدانهم لوظائفهم، كما كانوا يخشون أن تحل التقنية محل أسلوب حياتهم أو تنهيه ويمكن وصف موقفهم بأنه كان حالة من الخوف التقني المفرط، وهكذا أصبح هناك التقنيون والخائفون منها، كل يقدّم مبرراته في ما يمكن أن تقوم به التقنية لجهة التفاؤل أو التشاؤم على نحو ما نبينه بالآراء المتعارضة التالية:

التقنيون / جماعة التفاؤل.	الرافضون للتقنية / جماعة التشاؤم.
التقنية سوف توحد العالم، تتغلب على التميز، تنشر التعليم الشامل، تلبي كل الاحتياجات وتحل كل مشكلة.	التقنية سوف تُفقد كل شخص وظيفته، وسوف تسيطر عليه ويصبح عبدًا لها، سوف ينحط قدر القيم الأخلاقية، وأن العلاقات الإنسانية والإيمان سوف تقيدهما الإلكترونيات المعولمة.
تسمح تقنية الاتصالات السلكية واللاسلكية بالعمل من أي مكان وفي أي وقت.	سوف يقع الناس الأبرياء أسرى المراقبة الإلكترونية والأنشطة الإجرامية والهيئات المالية الخارجية من خلال القرصنة وسرقة الهوية.
سيجعل الإنترنت الحياة أسهل وأفضل لكل شخص وسيوجد سكانا أفضل معرفة وأكثر مشاركة عبر شيوع الدوت كوم.	إن الواقع الافتراضي والرقائق المزروعة سوف يزيحان الإنسانية ويخربان المعرفة الحصيفة، وسوف يقوض الإنترنت حماية حقوق النشر بقدر كبير.
سوف يكون لدى الرجل الآلي (rabo-sapiens) وهو نوع هجين من الإنسان والروبوت) ذكاء متفوق على ذكاء البشر بقدر هائل.	سوف تغير الشخصيات السيبرانية (syberpersonalities) العلاقات الإنسانية بقدر يفوق طاقتنا في السيطرة عليها حينما تتمادى.
سوف تنتج الهندسة الجينية ما يكفي من الغذاء لإطعام العالم وتوصيل الأدوية الرخيصة إلى فقراء العالم بالإضافة إلى علاج معظم الأمراض المستعصية أو الممكنة.	سوف تغير الهندسة الوراثية المحاصيل الزراعية والنباتات مما قد تدمر النظام الطبيعي وحتى أجسامنا لجهة التلاعب الجيني الذي من شأنه أن يخلق نتائج وأمراض غير متوقعة.

* مراحل التغيير:

على الرغم من أن حركات الاحتجاج نحو الآلة كانت قصيرة الأمد ويظهر عليها الاندفاع والارتجال من جماعة غاضبة ضد دخولها إلى عالمهم، وبالرغم من أنه لم يُكتب لهذه الحركات الرافضة النجاح، إلا أنها كانت كافية ـ وبحد أدنى ـ لتعبر بدلالاتها ورمزيتها عن حالة القهر والانزعاج الذي يطال العمال من جراء دخول التقنية وما تسهم به من تداعيات على حياتهم ومورد رزقهم وحال معاشهم، ظل حال استقبال التقنيات الحديثة على شيء من الوجوم لدى شرائح كثيرة في المجتمع، وبقي مرهونًا ـ من جهة ثانية ـ بمدى التقبل والاستعداد الذهني والمادي والاجتماعي عند الناس، إذ تبين أن السمة

الثقافية والتقنية التي تتناقل عبر المجتمعات والأفراد والمؤسسات تتصارع حولها الآراء بالقبول أو بالرفض ومع حالات القبول المبدئي أو الرفض الكلي لنماذج ثقافية وافدة تبرز إلى واجهة الاعتراضات صراع الثقافات بين ما يعرف بالثقافة المادية (التقنيات) والثقافة اللامادية (القيم الإنسانية) حيث يحدث ما يسمّيه (وليم أوجبرن) بـ «culture lag» أي الفجوة المعرفية القائمة بين التزام الناس لما في ثقافتهم الأصيلة ومدى تقبّلهم لشيءٍ دخيل عليها، والمثال عليه ما بات يعرف اليوم بالتلقيح الاصطناعي/ طفل الأنبوب/ وسائل منع الحمل وتحديد النسل، التي لازالت تلقى معارضة شديدة من قبل الأعراف الاجتماعية التقليدية وأوساط دينية بالرغم من انتشارها، فالكاثوليكية (الرومانية) مثلًا تشدد على أهمية بناء الأسرة الكبيرة واحترام الإنجاب والولادة، كما ترفض رفضًا قاطعًا مسألة وسائل منع الحمل، كذلك في بعض المذاهب الإسلامية حيث الرفض المطلق للتبني وعدم جواز تحديد النسل والدعوة إلى الإكثار منه لاعتبارات عقائدية. هذا يعني وجود فجوة بين إطارين ثقافيين هما: الثقافة المادية (التكنولوجيا) والثقافة اللامادية (الاعتقادات الدينية) مما ترتّب عليه صراعًا قيميًا واضطرابًا فكريًا وبلبلة اجتماعية أفرز الناس بين متقبل ومتردد ورافض وفق خيارات متعددة:

1) قبول السمة دون أخذ ورد.

2) رفض السمة على الرغم من الأخذ والرد.

3) قبول البعض لسمات ورفض آخرين لها.

4) تعديل السمة من قبل بعضهم وعدم استحسانها من بعضهم الآخر.

5) تجاهل ولامبالاة للسمة.

وهذا ما يوضحه عالم الاجتماع الأمريكي (إيفرت روجرز) الذي أشار في كتابه نشر المبتكرات (1983) كيف أن نشر الأفكار الجديدة (تقدم تكنولوجي/ بدعة/ حركة اجتماعية/ إنتاج جديد) هو من أشكال التغيير الاجتماعي الذي يحدث بدوره عبر مراحل حددها بخمس:

1) مرحلة المعرفة (knowledge stage) وفيها يتعرف الفرد أو الجماعة على المبتكر ويتوفر لديهم بعض الفهم عن كيفية عمل المبتكر.

2) مرحلة الاستمالة والاقناع (persuasion stage) وفيها يكوّن الفرد أو المتبنّون اتجاهًا مميزًا نحو المبتكر.

3) مرحلة اتخاذ القرار (decision stage) وفيها يقوم الفرد باتخاذ قرار إما بتبني المبتكر أو رفضه.

4) مرحلة الممارسة والتنفيذ (implementation stage) وفي هذه المرحلة يقوم الفرد بوضع القرار المتعلق بتبني المبتكر موضع التنفيذ.

5) مرحلة التعزيز (confirmation stage) وفيها يتم تدعيم قرار التبني.

الموضوع الثاني:
المجمل الاعتقادي

إن سألت أتباع ديانة معينة ماذا يعني اعتقادكم بما تعتنقون؟ لسمعت منهم: أنه الإيمان بقوة علوية سامية تأمر الناس بقيم أخلاقية وتبشّرهم أو تنذرهم بحياة أخرى. وإن سألت من لا يتبع دينًا ولا يلتزم معتقدًا عن سر إعراضه، لأجاب بأن: الدين هو من صنيعة البشر ابتُكر لتفسير ما هو مجهول عنهم من ظواهر طبيعية أو اجتماعية وفق ما يراه مؤسس هذا الدين مناسبًا أو ذاك.. مثل هذه الآراء تعكس وجهتي نظر نحو فهم المجمل الاعتقادي كظاهرة اجتماعية حيث يعتبره بعضهم مجموعة من التعاليم التي تستدعي الاحترام وتوحي بالرهبة ويفترض القيام بها مجموعة من الطقوس والشعائر الاحتفالية كإقرار في الانتماء والالتزام، ووجهة نظر أخرى ـ وهو رأي بعض الملحدين ـ هناك نفي للفكرة النمطية عما هو موجود في الكتب الدينية وأن ما هو موجود منها يستدعي الاحترام وليس التقديس والعبادة، ويذهب اعتقادهم نحو تفسير الخلق والوجود والطبيعة وإنكار الماورائيات عبر تقديم استنتاجات علمية لا لاهوتية. إزاء وجهتي النظر هذه:

☆ **لماذا الاعتقادات ظاهرة مجتمعية منتشرة منذ أقدم العصور؟.**

☆ **لماذا تستحوذ هذه الظاهرة أعلى مستويات إيمان والتزام؟ لدرجة التضحية بالنفس باسمها ومن أجلها؟.**

☆ **هل الدين وما شابهه ظاهرة مخصوصة بمجتمع دون آخر؟.**

☆ **ما الذي يعزز استمرارية هذه الظاهرة وما الذي يحول انتشارها؟.**

☆ **بما تلتقي الجماعات الدينية المتنوعة وبما تتمايز؟.**

☆ **كيف يمكن أن نفهم المجمل الاعتقادي اجتماعيًا: بالتأمل / بالشرائع/ بالتعاليم أم بالعادات والتقاليد أم بالممارسة بشيء آخر؟.**

تأتي الإجابة على هذه الأسئلة مدخلًا أساسيًا لفهم هذا المجمل الاعتقادي والاهتمام السوسيولوجي به لا يرتكز بالطبع على النصوص المجردة أو التعاليم المتداولة لدى دين ما مثلًا، بقدر ما يتطرق إلى السلوك اليومي المتأثر به، سيتم تناوله كحالة فعل ممارس سيّما وأنها ابتدأت كما يقول بعض مؤرخي الأديان منذ بداية حياة الإنسان على الأرض، فقد أشار المؤرخ الإغريقي (بلو ناراك) منذ ألفي سنة (ق.م) إلى أنه: «قد نجد مدنًا بلا أسوار، أو بدون ملوك وحضارة أو مسرح ولكن لم نَرَ مدينة بدون أماكن عبادة» هذا يؤشر إلى أنه منذ القدم لا يخلو مجتمع إنساني من أية ظاهرة دينية، قد يكون ذلك من محض تصوراتها ومعتقداتها الوثنية أو قد يكون نتيجة اتباعها لأنبياء ورُسل في فترات زمنية متعاقبة كما حدث مع اليهودية والمسيحية والإسلام التي تعتبر جميعها من أبرز الديانات التي آمنت بإلٰه واحد ونبي مرسل، على خلاف الجماعات البشرية الأخرى التي آمنت بظواهر طبيعية خارقة أو بحيوانات معينة. من هنا ليس من السهولة بمكان دراسة البعد الاعتقادي عند جماعة معينة، وذلك لاختلاف ظواهره باختلافات الثقافات ولاختلاف الشعائر والطقوس التي تمارس ولكن ما يتفق عليه جميع الدارسين اعتباره «شيئًا مقدسًا» فما هو هذا الشيء المقدس دينًا كان أو خرافةً؟.

أولًا: تعريف الدين:

أفضى التنوع الهائل في فهم هذه الظاهرة وممارستها في كافة المجتمعات إلى تنوع هائل في الآراء عند الباحثين مما حال معه وضع تعريف محدد له، لقول الباحث البريطاني (أنتوني غدنز): «في الوقت الذي يعرّف فيه الغرب الدين بالمسيحية والاعتقاد بالمثال الأسمى ويوم الدينونة، نجد أن هذا التعريف غير كافٍ لإعطاء فكرة عن ماهية الدين ككل لأن بالتأكيد هو ليس هاتين المسألتين فحسب لأن المسيحية كرسالة تتضمن الكثير من المعتقدات الغائبة عن حياة الناس في الغرب، بل إن هناك تنوّعًا كبيرًا في نسبة الاعتناق

ودرجة الإيمان ومدى ممارسة الطقوس المرتبطة بالدين حتى يصبح الالتزام بمثابة طابع فردي شخصي أكثر منه مجتمعي.

في بعض الأحيان تعمل المخيلة السوسيولوجية على تفسير ظاهرة الدين ليس من خلال الإطار الذي يكون عليه فحسب، وإنما أيضًا بالابتعاد عنها وملاحظتها موضوعيًا، وفي هذا السياق لا يمكن النظر إلى الدين على أنه مجرد وصفة أخلاقية وُضعت لتقنين وضبط تصرفات البشر كم ورد في الوصايا العشر ومزامير داوود وحكم لقمان أو تعاليم زرادشت وبوذا. .وإنما في معطيات أبعد من ذلك سيما وأن بعض الديانات لا تسلم بمسألة «التعاليم المنزلة» اعتقادًا منها بأن الإله أسمى من أن يتدخّل في أفعال البشر لذلك ـ بحسب رأيها ـ ليس هناك علاقة بين عالم الألوهية وعالم البشر، ومن الملاحظات التي ترد سوسيولوجيًا عند تناول ظاهرة الدين:

* مثلما يعتقد بعض الناس أن الدين اعتقاد بألوهية واحدة، يعتقد آخرون بأن الدين ليس كذلك، ليس مقصورًا على الإيمان بإله واحد بل على عدة آلهة، كذلك إذا كانت الأديان التوحيدية تقول بوجود إله واحد (كما في الدين الإسلامي) أو بعدة أقانيم (كما في الديانة المسيحية: الأب والابن والروح القدس) فإن في ديانات كثيرة ليس هناك وجود لشيء من هذا على الإطلاق. .

* إذا كان الدين يُفهم في أحد جوانبه على أنه شرح لبداية الخلق وتكوّن الكون ومصير البشرية كما الديانات التوحيدية مع التفسيرات العديدة لبداية الخليقة على الأرض من خلال آدم وحواء، يلاحظ في الديانات التعددية ليس هناك شيء من هذا القبيل.

* في الوقت الذي يرى فيه بعضهم الدين إيمان بالماورائي وبالحياة بعد الموت وبالجنة والنار ويوم الحساب، نجد لدى جماعات بشرية متدينة ليس هناك اعتقاد مطلق بهذا الإيمان (كل ما يذكرونه أن هناك صراعًا في هذا الوجود بين الخير والشر. .).

من المناسب الإشارة هنا إلى أن كلمة دين في اللغات الغربية قد تكون مشتقة من الكلمة اللاتينية (RELIGARE) التي تعني وحدة الجماعة وهويتها،

أو من كلمة (RELIGERE) التي تعني الممارسة الجماعية إشارةً إلى طقوس تعبّد الجماعة، أما في اللغة العربية فتشير كلمة دين إلى مفهوم «المحاسبة» سواءً من الله (يوم الحساب/ يوم الدينونة) أو سواء من الناس ـ المجتمع (السيرة الحسنة/ الصيت الجيد/ السلوك القويم) ويبرز الدين في إحدى مفاهيمه على أنه مجموعة من الرموز المبجّلة لها من التقدير والاحترام مما يجعلها بمثابة طقوس وشعائر مقدسة يتوارثها الأجيال والأتباع. وتأخذ هذه الرموز المقدسة حيز الاهتمام ليس فقط لارتباطها بوجود إله ما وإنما أيضًا لما لها من علاقة بمخلوقات وموجودات يوليها أفراد المجتمع التبجيل.

هذا يعني أن الطقوس والدين يتكاملان باعتبار الأولى ممارسة والثاني اعتقاد ولا تعتبر الطقوس خالية من أي معنى أو مجردة من الواقع إنما تعتبر معتقدات مشبعة بقيم ومبادئ يعتنقها الناس ويعيشون بها ومن أجلها، ففي وقائعها يكمن سر التكامل والاستمرار عبر الزمن حينما تحاول كل جماعة أن تنمّيها عن طريق إقامة الحفلات والشعائر في مناسبات مختلفة (عاشوراء/ جُنّاز الفصح) أو عن طريق الأخذ برموز معينة تجري بين الناس مجرى العادة والتقاليد كما يفعل الشرقيين بتعليق التمائم على الأطفال حديثي الولادة أو على مداخل البيوت والممتلكات أو كما تفعل عروس الريف البريطاني عندما تحمل في يدها حلقة معدنية على شكل حذوة حصان خلال زفافها اعتقادًا منها بأنّها تبعد كل شر وتقيها العين الحاسدة. مثل هذه الظاهرة يفسّرها علم الاجتماع على أنها «ممارسات» متواترة منذ أقدم العصور وهي على علاقة بإرث ثقافي أسطوري قد يكون صحيحًا وقد لا يكون وإنما في مكان ما يأخذ الناس بها على قاعدة: أن تؤمن بشيء أفضل من أن لا تؤمن؟ ولكن فحوى هذا الافتراض هو ما جعل الأنبياء يجهدون برسالاتهم نحو تعزيز الإيمان الحق والتشريع القويم وسفه المعتقدات الواهية، لأنه أن تؤمن بخالق عظيم واحد أحد أفضل من أن تؤمن بـ «تُرّهات».

*** الدين من منظور سوسيولوجي:**

لا زالت مقاربة الدين من خلال منظور علم الاجتماع متأثرة إلى حد

كبير بكتابات رواد هذا العلم وخاصة ماركس ودوركايم، وفي الوقت الذي يعتبر فيه بعض الباحثين أن ظاهرة الدين وَهمٌ في أساسها، يرفض آخرون مثل هذا الرأي، إذ يكفي أن تجيل النظر في مختلف الجماعات من أستراليا القديمة إلى طبقات المجتمع الهندي إلى الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا فالعصور الإسلامية، حتى تدرك كم يكون الدين موجودًا وحيويًا في حياة الناس اعتقادًا وممارسةً.

1 ـ ماركس والدين:

بالرغم من أفكاره المؤثرة في هذا الموضوع إلا أنه لم يدرس حقيقة الأديان بكل تفاصيلها، كل ما قدّمه في هذا الإطار يرتكز على كتابات فلاسفة القرن التاسع عشر وخاصة لوديج فيروباش، الذي وضع عام 1841 كتاب بعنوان «أصل المسيحية»، يعتبر فيه الدين عبارة عن مجموعة من الأفكار وضعت من قبل بشر معينين على مر العصور، ثم وبطريقة ما نُسبت هذه الأفكار إلى قوة سماوية حتى تكتسب صفة القداسة والاعتبار ويكون لها التأثير القوي، لأن الناس لا تحترم ولا تعي تاريخها الطقسي إلا إذا كرّست أفعالها وممارساتها اليومية بمسائل إلٰهية، لهذا نفهم الوصايا العشر كيف تبدو على أنها قيم سامية أُعطيت لموسى حتى أصبحت ناموسًا يتبعها الذين دعاهم من العبرانيين إلى المسيحيين وغيرهم من المؤمنين عبر التاريخ.

وبرأي ماركس أن الأيديولوجيا المتمثلة في المناخ الفكري غير الثوري والمعتقدات الدينية الجامدة تمثل إحدى سمات الاغتراب لأنها تسعى نحو تشويه وعي الناس بالواقع المادي الذي يعيشونه فتظل الصورة المؤلمة للإنسان قائمة، لهذا يؤثر عنه مقولته الشهيرة: «الدين أفيون المجتمع» لأنه (الدين) يُرجِئ كل سعادة بشرية في هذه الدنيا إلى حياة أخرى بعد الممات وليتحمّل الناس الظلم واللامساواة، لأن العدالة الحقيقية الموعودة تنال فيما بعد. .وفي الوقت الذي يرى فيه ماركس الدين أهم عامل أيديولوجي يُفقد الناس القوة والمعنى من خلال ما تدعو إليه من تسامح ووداعة وعفو واستكانة على المقاومة تجاه قمع واضطهاد، يتوقع أن ينتهي الدين يومًا ما، لا باعتباره يمثل

قيمًا ساميةً وضعت من أجل الإنسانية وليس لأن القيم والمثل هي «طوباوية غير واقعية» بل لأن الكثير من المفاهيم الروحية تجسّدت خطأً في أشخاص جعلوا أنفسهم أربابًا حتى يهابهم الناس، من هنا ـ وبحسب رأيه ـ يجب إيقاف هذه الربوبية عن مثل هؤلاء.

2 ـ دوركايم والدين:

في كتابه «الصور الأولية للحياة الدينية» يقدّم دوركايم تحليلًا دقيقًا لطبيعة الدين وآثاره الاجتماعية، وقد بيّن فيه أن الدين ليس مسألة اعتقاد بإله أو بقوى غيبيّة فحسب، وإنما هو نسق من المعتقدات والممارسات التي تتصل بشيء مقدس (تابو) وهذه المعتقدات تتحدد بدورها في مجتمع واحد يسمى الكنيسة يضم كل الذين ينتمون إليها. يقصد دوركايم بتعريفه هذا أن الدين هو شيء اجتماعي وأن ما هو موجود في المجتمع ينقسم إلى مجموعتين مختلفتين: المقدّس والمدنّس، يرمز المقدّس إلى كل الأشياء التي وضعها الإنسان وتتضمن المعتقدات والطقوس والعبادات، والمدنّس إلى كل ما يجافي ذلك، وقد انطلق دوركايم في فرضيته من دراسته لقبيلة أريونتا البدائية (أستراليا) التي وجدها تبجّل شيئًا اجتماعيًا على أنه «المقدس» لديها، يمارس أفرادها طقوسهم بشيء من الهالة والقداسة حتى تصبح بالنسبة لهم بمثابة الطوطم[(1)] الذي يتمتع بقوة خفية مقدسة، تتخذه القبيلة رمزًا لها وراعٍ يحميها، يبارك مواسمها وأنشطتها الجماعية، وظهور مثل هذه الأنشطة في ظلّ الطوطم هي ما تتيح فرصًا لظهور دعم التضامن الاجتماعي وتهيأ لبقاء المجتمع واستمراريته.

لهذا السبب يُمارس الدين بحيوية أثناء الحضور الجماعي في أماكن العبادة ومناسبات الموت والزواج والولادة. .هنا ثمة مشاركة جماعية يخرج الناس عن ذاتيهم كي يقتربوا من الآخرين وحتى يتم الاقتراب بحميمية أكثر لا بد من الالتزام بمعايير أخلاقية تتفق عليها الجماعة. .فالحداد مثلًا ليس مجرد

(1) الطوهم (fotem) كناية عن حيوان أو نبات تنظر إليها الجماعات البدائية في احترام وخشوع دون وجود سبب معقول يدفعها إلى التبجيل، بل تعتبره بمثابة رمزًا لها وحاميًا تلجأ له في الملمات، كما يلعب دورًا محوريًا في الأعراف شبه الدينية.

تعبير عن الحزن أو مصاب أليم عند أهل الفقيد بقدر ما يشير في أدنى مفاهيمه إلى الواجب المفروض على الجماعة أن تتمثله وتجلّه، فشعائرية الموت لايمكن أن تتم إلا إذا اجتمع الناس «للتشييع» يخرج كل منهم عن ذاتيته بالالتقاء والمشاركة. وهذا ما قصده دوركايم في نظريته عن أصل الدين بقوله: «إن حياة الجماعة هي المصدر المنشئ والسبب الكافي للدين» وما الممارسات الدينية والمعتقدات في نهاية الأمر إلا إشارة إلى حياة جماعية موجودة.

3 ـ ريتشارد شيفر والدين:

على الرغم من تحديد دوركايم لمفهوم الدين بثنائية المقدس والمدنس إلا أن مثل هذه المفهوم يصبح مشوبًا باللبس وعدم الوضوح فيما هو المقدس؟ ومتى يكون الشيء مدنّسًا ومتى لا يكون؟ ذلك أن هناك مسائل وتفاصيل في حياة الناس اليومية تمارس وفق «ظرفيات»، فالتصرف/ الطُقس الذي يكون في حالات معينة محرّمًا قد لا يكون كذلك في ظروف أخرى، طاولة الطعام عند المسيحيين مثلًا هي كقطعة أثاث مركونة في إحدى الغرف إلا أنها تكتسب قدسيّة معينة حينما تكون مناسبة للقربان المقدس (العشاء الرباني)، كذلك الحال في مسألة الطعام والشراب، مع أنه طُقس يومي ومفترض القيام به على شيء من الضرورة إلا أنه غير جائز تناولهما عند المسلمين خلال شهر الصيام (رمضان) بل يصبح تناولهما انتهاكًا لحرمة الصوم، ويتحلل في الأيام التالية إلا بعضًا منه (لحم الخنزير/ الكحول...) من هنا يلاحظ في توجهات علم الاجتماع الحديث اعتبار الدين قيمًا وتقاليدًا تتدخل في حياة الناس اليومية لتترك تأثيرًا في الفعل والممارسة، ووفق هذا المفهوم يُدرك وجود الدين وفاعليته عبر التشطير الاجتماعي القائم على مدى درجات الإيمان به وفق ثنائية: مؤمن. غير مؤمن/ ملتزم ـ غير ملتزم / معني ـ غير مبال / إلخ.

خلال استطلاع للرأي حول البنية المعرفية بين الثابت والمتحول (القرية اللبنانية نموذجًا) وجه للعينة المستجوبة سؤالًا يتعلق بالجانب الديني في حياتهم اليومية، ومدى ممارساتهم للواجبات، فتبين أن 26% يمارسونها بشكل منتظم، وأن 24% بشكل غير منتظم، بينما أشار من نسبتهم 81 % إلى نعم

(دون أن يحددوا طبيعة هذه الممارسة) في مقابل 11% صرحوا بأنهم لا يمارسون واجباتهم الدينية ألبتة[1].

هل لا يمكن الحكم على جماعة دينية إلّا من خلال قدر التزامها؟ وهل كل من ينتمي إلى جماعة ولا يمارس الفعل يصبح منتميًا بالانتساب لا بالاعتناق التام وفق ما يُقصد به «الانتماء الهويّاتي»؟ بالنسبة لباحثين في علم الاجتماع يعتبر الالتزام مؤشرًا هامًا في تحديد هوية هذه الجماعة، لأن الدين ليس مجرد نصوص وعقائد وكتب مقدسة محفوظة وشرائع سماوية أُنزلت لتُجلّ وتحترم بل هو سلوك ديناميكي يؤثر في الحياة اليومية للناس، متصل بمؤسسات المجتمع اتصالًا فاعلًا مؤثرًا ومتأثرًا في آن، يقوم بوظائف ويلبي حاجات. . فالالتزام بالدين يفسر وجوبه ـ اجتماعيًا ـ بالاحتمالات التالية:

- ✓ إنه السبيل الذي يؤدي إلى حالة من سلام النفس والتخفيف من التوتر.
- ✓ إنه يحول دون التدهور القيمي والاجتماعي وحتى الجسدي (بالابتعاد عن المنكرات كالتدخين والخمر والزنا . .).
- ✓ انه يقدم الدعم الاجتماعي الذي توفره أماكن العبادة ومؤسساتها، إذ تُبين أن المترددين على مراكز العبادة بانتظام وعلى حضور المناسبات الدينية غالبًا هم أناس أقل عُصابية، وذو نفسية إيجابية لما يتمتعون به من شعور بالرضا عن الذات بفعل الإيمان.

4) ـ الدين بين الفكر الإسلامي والمسيحي:

في الفكر الإسلامي هناك تعريفات اصطلاحية انبثقت عن المعنى المتداول عند العرب وعن النص القرآني، فمن الناحية اللغوية فإن كلمة الدين تتضمن علاقة بين طرفين يعظّم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأول كان خضوعًا وانقيادًا، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرًا وسلطانًا ولعله هو هذا المفهوم المقصود مما ورد في سورة الصافات ﴿أَإِنَّا

(1) مأمون طربيه، «القرية اللبنانية في عصر التلفزيون» (بُنية معرفية بين الثابت والمتحول) أطروحة أعدّت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية، الجامعة اللبنانية، بيروت، 2000 (غيرمنشور).

لَمَدِينُونَ﴾[1] أي خاضعون ومملوكون، وأذا قصد به طبيعة العلاقة بين الطرفين كان هو الطريقة المنظمة لتلك العلاقة أو الشكل الذي يمثلها، كما في سورة يوسف ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[2] أي مُلك الملك. أما من الناحية الاصطلاحية فمن أبرز التعريفات ما تعتبر الدين «وضع إلٰهي سائق لذوي العقول باختيارهم إيّاه إلى الصلاح في الحال، وهذا يشمل العقائد والأعمال ويُطلق على ملة كلّ نبي، وقد يُخصّ بالإسلام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران: 19] ويضاف إلى الله لصدوره عنه، وإلى النبي لظهوره منه، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له[3].

أما في الفكر اللاهوتي المسيحي، فأصل كلمة الدين من دان. كما ورد في الإنجيل: دان يدين، ودينونة: حكم الله على الناس بحسب أعمالهم. وقد اختص يسوع المسيح بصفة الدينونة فهو الديان الذي يحاسب جميع البشر عن أعمالهم خيرًا كانت أم شرًا، ويرى القديس أوغسطين الكبير أن كلمة «دين» تعني الرابطة أو العلاقة المشتركة بين الإنساني والإلٰهي علاقة متينة بين النفس الإنسانية والذات الإلٰهية المقدسة، ولكن علاقة كهذه تعد ثابتة كالطريق غير خاضعة للتغيير أو التطور.

* لماذا يدرس علم الاجتماع الدين؟

عني الباحثون في علم الاجتماع بالدين باعتباره جملة من العقائد التي قدمت تفسيرات عديدة لقضايا الإنسان والكون والمجتمع والطبيعة، حاول أن يقدم إجابات على كثير من الأسئلة كان يمكن من الصعب إدراكها بالنسبة للكثير من المتأملين في مصيرهم وطرق تعاملهم وأمور حياتهم. كذلك اهتم السوسيولوجيين بالدين باعتباره مؤثرًا في حياة الناس اليومية فهو برأي بعضهم «الرابط الأساس للجماعات والمُلهم لترابطهم وتعاونهم وتكافلهم»، بل هو

(1) سورة الصافات، الآية: 53.

(2) سورة الملك، الآية: 76.

(3) الدعاة الجدد والشباب، (مقالة)، محمد مصباح، مجلة إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع ـ العدد الثامن. خريف 2009، بيروت، لبنان.

الضابط الأول والمنظم لكثير من تصرفات الناس (الوازع الديني) وإننا لنلاحظ ذلك عندما يمتنع الناس عن الإتيان بأفعال جرمية بحق ذاتها (الانتحار/ الزنى) أو بحق غيرها (الاعتداء/ السرقة/ الخيانة) فهنا المؤمن الحق لا يأتي بفاحشة، بل هو مستقيم لما يقدمه له الإيمان من:

1 ـ معنى للحياة يدفعه إلى أن يتخذ موقفًا إيجابيًا منها فيُقبل عليها ويستمتع بها ويعمل لأجلها.

2 ـ مجموعة من المعايير وقواعد السلوك التي تنظم علاقات الناس ببعضها البعض.

3 ـ تفسير للواقع وما يترتب عليه من مسؤوليات.

4 ـ تخفيف ـ وربما هذا الأهم ـ من مظاهر القلق والخوف، فقد أظهرت بعض الدراسات المتعلقة بالقيم كيف كان للدين دورًا هامًا في مراحل الضيق الاقتصادي والنكسات الأمنية والخوف المستمر على الحياة، عبر توفير نوع من الأمان واليقين والاطمئنان وسط ظروف قاسية ومضطربة، ذلك أن الخطر المادي الذي يهدد الفرد يولّد الحاجة إلى الإيمان بقوة عليا، فإذا ما زال جانب كبير من الخوف والقلق وحل محلهما شعور بالاطمئنان أدى إلى استمراره في ظروف آمنة يحفظها الرجاء. وكأن الدين والإيمان وجدا أصلًا كدواء للخوف ورفيقًا لظروف الحياة الصعبة ووسيلة للبركة والطمأنينة، ولعل ما يقوم به المؤمن أو الملتزم من صلاة ودعاء وابتهال وتضحية وإحسان وصدقة ما هو إلا رغبة منه للتخفيف من حدة القلق اليومي وردًا لهواجس قد تطرأ.

يهتم علم الاجتماع بالدين باعتباره قواعد مشتركة بين جماعة من الناس، مثل هذه القواعد تصبح بمثابة دعائم تبرز من خلال منظومة من الأخلاقيات تتجلى في:

1 ـ المعتقدات religious beliefs، تعتبر الاعتقادات بمثابة «بيانات» عن جماعة معينة لأيّة ديانة ينتمون، كما أنه من خلالها يُدرك ما يتعلق بهذا

نمعتقد أو ذاك: كأن يُفسّر لماذا يصلي أبناء هذه الديانة هكذا؟ ولماذا آخرون يصلون بشكل مختلف؟ كذلك الحال لمسائل الاعتقاد الغيبي الأخرى حيث بعض الناس يؤمنون بالحياة ما بعد الموت وبلانهائية الكون والقوة العظمى لتي تسيّره ويقوى ماورائية موجودة وبعضهم قد لا يؤمن. أو يؤمنون بنسب متفاوتة بحسب المعْلم الديني كما بينت إحدى الدراسات الميدانية في تسع دول غربية إزاء المعتقدات التالية:[1]

	الجنة %	النار %	التردد على الكنيسة %	الله %	بالحياة ما بعد الموت %
فرنسا	30	16	10	57	34
بريطانيا	53	25	13	71	44
ألمانيا	31	13	19	64	38
هولندا	34	14	21	61	39
السويد	27	7	4	38	31
إيطاليا	45	36	40	84	54
إسبانيا	48	27	65	96	78
أمريكا	81	65	43	93	70
كندا	67	38	33	86	61

وعدا عن ما تقوم به مختلف الجماعات الدينية من معتقدات تظهر في العبادات من صلاة وصوم وحج وأدعية وأناشيد وتراتيل وأحكام مختلفة تنبئ عن «الاعتقاد الجماعي المخصوص بكل طائفة»، تتجلى كذلك صورة المعتقدات بوجهها الأمثل في خصوصية المناسبات واحتفالاتها الموسمية، فالمسلمون مثلًا يلتمسون ـ وإلى جانب عيدي الفطر والأضحى ـ بركة ليلة القدر (باعتبارها بدء نزول القرآن من السماء) فيكون التعبّد والتهجّد طوال الليلة وما يليها من ليال في أواخر شهر رمضان، وهناك أيضًا ذكرى الإسراء

(1) عن الدراسات الإحصائية الأوروبية، مجلة الإيكونوميست، لندن، 1992.

والمعراج التي يجلّونها باعتبارها معجزة نبيّهم في ليلة من ليالي سنوات نبوته الأولى حيث أسري من مكة (السعودية) إلى القدس (فلسطين) ثم عرج إلى السماء بصحبة الملاك جبريل، وكذلك من مناسباتهم ليلة النصف من شعبان وذكرى المولد ورأس السنة الهجرية.

أما بالنسبة للطوائف المسيحية فهناك: أسبوع الآلام (يحتفلون بآلام المسيح وموته كما عاشها المسيحيون الأوائل) وخميس الأسرار(وفيه يُحتفل برتبة تكريس الزيوت المقدسة ـ وهي زيوت العمادة ومسحة المرضى ـ والميرون ـ وهو زيت الزيتون الممزوج بالعطور يستعمل في سرّي التثبيت والكهنوت) الجمعة العظيمة (وهو يوم مميز في تقليد كنيسة المسيح، يصوم فيه المؤمنون، يمتنع الكهنة عن القداس مكتفين برتبة تدعى «رسم الكأس» (القداس السابق تقديسه) يلي ذلك مسيرة درب الصليب وفق ما يعرف بالجُنّاز. ثم هناك أخيرًا أحد الفصح وفي هذا اليوم تحتفل الكنيسة جامعةً برتب مختلفة، لاعتقادهم بأن المسيح عينه احتفل به مع تلاميذه بعد الدفن وقبل الصعود.

2 ـ الطقوس religious rituals ويقصد بها صورة التعاليم والشعائر الظاهرة في الأفعال والأحكام، في بعض الديانات يعتبر القيام بالطقوس قمة الالتزام الروحي والبعد الظاهري عن مدى الإيمان من قبل الملتزمين بدين معين بحيث يتوجب عليهم الأخذ بالواجبات المتعلقة بدينهم، معظم الطقوس في الثقافة الدينية تركز على الخدمات التي ينبغي أن يقوم بها أحدهم كي يبرهن: كم هو مؤمن؟ وغالبًا ما تمارس الطقوس في المزارات، والمزار بمعناه الفعلي هو حرم مقدس يقصده الناس للتشفّع والنذر واستجداء العجائب، وقد كتب المؤرخ الروماني (تيدوريطس القورسي) في منتصف القرن الخامس عنها «**هناك في هذه المزارات يصلي من عنده الصحة لحفظ صحتهم، والمرضى يصلون لينتصروا على أمراضهم ويتخلصوا منها، ومن ليس لديهم أبناء يلتمسون أولادًا والنساء العاقرات يبتهلن ليصبحن أمهات، فهذا ما تظهره النذور المعلقة والله في حلمه يقبل تقديماتهم الصغيرة لأنه ينظر لا إلى التقدمة بل إلى الذي يُقدّم**» من هنا أصبح لدى الناس مكانة للمقام أو المزار في معظم دول العالم حتى أصبح لكل طائفة أو مذهب أمكنة يسكن فيها ـ باعتقادهم ـ

أولياء صالحين أو قديسين، يقصدها الناس تبرّكًا وتعبيرًا عن شكر والتماسًا لخير وتقديمًا لعربون ثناء على نجاة من حادث أو شفاء من مرض.

في لبنان مثلًا تكثر المزارات مسيحيًا على اسم السيدة العذراء (**كنيسة السيدة في صور/ كنيسة السيدة في بيروت/ كنيسة السيدة في جبيل / كنيسة السيدة في قنوبين / سيدة إيليج . .وغيره بالنسبة للطائفة المسيحية**) وبالنسبة للشيعة هناك ما يسمى بالعتبات المقدسة التي تطلق على أضرحة الأئمة المعصومين من أهل البيت أو أبنائهم (**كضريح الإمام علي في النجف/ ضريح الإمام حسين في كربلاء/ ضريح الإمام الرضا في مشهد ـ إيران/ مقام السيدة زينب في سوريا**) وبالمثل هناك مزارات لدى طائفة الموحدين الدروز التي تعرف لديهم بالمقامات بُنيت تكريمًا لأثر نبي أو استبراكًا لأهل فضل في الطاعة والعبادة، لهذا جرت العادة لديهم أن يزوروا بعضها في المناطق والجهات بموعد سنوي محدد كي يتآلفوا في الله ببركة صاحب الأثر أو الضريح وأهم المزارات المعروفة لديهم: (**النبي شعيب في فلسطين / النبي أيوب الشوف ـ لبنان/ النبي هابيل في ضواحي دمشق/ . .**) وبالنسبة للسُنّة هناك: **مقام أيوب**، نسبة إلى الصحابي أبو أيوب الأنصاري باعتباره أول صحابي استقبل الرسول في المدينة، وخرج مع الفاتحين نحو بلاد الشام، هو موجود في إستانبول (تركيا) ومقام النبي يحيى (الجامع الاموي ـ سوريا) ومقام خالد بن الوليد (في مدينة حمص ـ سوريا)، ومقام أمّ عطية (قبرص).

ويرى علماء الأنتروبولوجيا بأن الطقوس الدينية أو الاجتماعية على حد سواء هي بمثابة تكرار نمطي لنشاط ما، ولا يتكرر هذا النمط السلوكي فقط نتيجة للعادة بل لأنه اكتسب دلالة باطنية عميقة يمارس بمغزى اجتماعي أو ديني ليؤدي وظائف أبرزها:

- ✓ الاحتفال بالانتصارات (إحياء ذكرى حرب/ موقعة).
- ✓ تجديد المعالم الخاصة بالمناسبات ذات الطابع الاجتماعي (حفلات الزفاف / مراسم الموت).
- ✓ تقوية أواصر التوحد مع الجماعة وإعلان الانتماء إليها (الاختتان ـ العمادة).

- ✓ استرضاء الآلهة التي تتعبّدها جماعة ما (تقديم القرابين/ توزيع حنطة ـ مفهوم الفدو).
- ✓ ممارسة تأثيرشعائري في البيئة (صلاة الاستسقاء/ ورقص القبائل لجلب المطر).
- ✓ التواصل مع العالم الماورائي (جلسات التصوف / حلقات الزهاد/ . .).

3) ـ **الشعائر** religious tradition: ويقصد بها مجموعة الأفعال المرعية والممارسات التي تنظمها قواعد نظامية من طبيعة مقدسة أو موقرة ذات سلطة قهرية ملزمة ضابطة لتحقيق غايات ذات وظيفة محددة. والشعائر ليست إلا طقوسًا اجتماعية والاحتفال العام منها تعيين أهمية المناسبة، تؤثر في الأفراد من غير أن يتدخل العقل في الأمر، وظيفتها أن تنقل أحاسيس تتصل بحقائق كبيرة وبعقائد متوارثة، وهي وظيفة رمزية تمارس بصورة آلية في مجرى الحياة اليومية باعتبارها أداة تنظيمية للوحدة الجماعية، كما في ظاهرة الاحتفال بمناسبة عاشوراء المخصوصة بالجماعة الشيعية، التي يحتفلون بها عامًا بعد عام منذ استشهاد الإمام الحسين بن علي بموقعة كربلاء (العراق) باعتبارها «ذكرى انتصار الدم على السيف» ومعركة الحق والعدل ضد الباطل والظلم. . حين تواجه الإمام الحسين وأهل بيته وبضعة وسبعون رجلًا وامرأة بجيش جرار يزيد عن الثلاثين ألفًا مدججين بالسيوف والرماح والنبال، فاستشهد يومها أبناؤه وأطفاله نحروا ومُنع عن آل بيته الماء ليهلكوا ظمأً في تلك الأيام الرمضاء، هذه الأحداث المأساوية يعيد إحياؤها الأتباع بشيء من التفجع واللوعة والحسرة تأثرًا لما جرى لأهل البيت وما أصابهم من ظلم وعنت، لهذا تتجدد كل عام وتذرف الدموع السخية حزنًا على وقع ما يعرف بينهم «وقائع السيرة الحسينية»، لقد تحوّل الحدث ـ الموقعة في الوجدان الشيعي إلى ملحمة تاريخية لم ينضب زخمها منذ خمسة عشر قرنًا، أصبح فيها الإمام الحسين رمزًا للشهادة وأصحابه مثالًا أعلى للشهداء. . ويعاد إحياء هذه المناسبة خلال الأيام العشر الأوائل من شهر محرم (من التقويم الهجري) حيث يستعظم المشاركون هول الجريمة وفداحة الخسارة ومقدار المصائب بآل البيت عبر ما يعرف بينهم بمجالس العزاء. وعليه تظهرالشعائر برمزيتها ودلالاتها على أنها

مناسبة تنظيمية متواترة تاريخيًا لتعمل على تثبيت قواعد سلوك جماعية والتمسك بالموروث الاعتقادي شعائر وشعارات.

4 ـ الممارسة religious experience يدل هذا المصطلح على الشعور العميق الذي يختبره أحدهم أو يتجلى لديه عندما يكون في حالة التزام كلّي لمعتقدات وتعاليم دينه، كما هو الحال مع المتعبدين الذين يغوصون في أعماق دينهم حتى يصبحوا على شيءٍ من التصوّف، وحال النساك الذين يعيشون بعيدين عن العالم في حياة صعبة عندما يأوون إلى مغارة أو صومعة لتكريس حياتهم في عبادة الله بالصوم والصلاة والأذكار، يذكر التارخ الإسلامي بعضًا من هؤلاء كرابعة العدوية/ ومحيي الدين ابن العربي، وفي التاريخ المسيحي يُعتبر الرهبان الذين يعيشون حياة نسكية داخل بعض الأديرة النائية مثال على ذلك ولا زال نسّاك جبل آثوس في اليونان هم النسّاك الأكثر شهرة في العالم حاليًا. وتتميز الممارسة بأن المظهر الغالب عليها يكون شعائريًا، أي هناك استجابة عاطفية للمناسبة تتضمن إقامة الشعائر، وتنطوي في جانب منها على مجموعة من المحرمات المقدسة والأمور والأفعال والمواقف التي يجب على الأفراد القيام بها وبخاصة إذا كانت تستند إلى الجزاء الديني والرادع الخلقي.

فعل الممارسة الصافية تفضي إلى حالة من الروحانية كحال الحجاج الذين يقصدون أماكنهم المقدسة ويمارسون شعائر ينسون معها وجودهم الدنيوي عندما ينصرفون إلى حالة تعبّد يصلون معها إلى اندماج كلي بروحانية المأثور الديني، فالحاج المسلم مثلًا حين يريد الخروج إلى الحج (مكة المكرمة في السعودية) يترك شؤون الدنيا ـ لدرجة يخلع ثيابه المعتادة ويلبس أخرى بيضاء يطلق عليها ثوب الإحرام ـ ويتوجّه في رحلته نحو عبادة خالصة، يقوم خلالها بممارسة شعائر ويتلو أدعية ويستلهم بركات الله وغفرانه. من هنا تعتبر هذه «الممارسة» بالنسبة لهم نقطة تحول إيماني بين عالم قد يكون مليئًا بالخطايا وعالم زاهد يصبح معها المؤمن الحق على شيء من النقاء كيوم ولدته أمه كما تقول كتب المسلمين المتواترة في وصف مآل الحج وتأدية شعائره. ومثلما مناسك الحج عند المسلمين التي تعرف بينهم برحلة العمر، هناك ما

يعرف بال: born again عند المسيحيين حيث يُختبر إيمان بعضهم بولادة جديدة لمرة واحدة في حياته حينما يلتزم تعاليم السيد المسيح بالغفران والتثبيت.

المعتقدات، الطقوس، الشعائر، الممارسة، هي مرتكزات ديانة أو مذاهب عقائدية، ولكنها في الوقت ذاته هي هوية الجماعة في خصوصية العلاقة باللاماورائي والغيبي، ويفعل فعله ليس في أن تكون الهوية والجامع وإنما فيما تمدّه من راحة نفسية للملتزمين بها، فقد بينت الدراسات النفسية أهمية الروحانية في العالم الاجتماعي والعلائقي وعلى الصعيد النفسي، «فعندما يكون أي منّا مشبعًا بإيمان عميق فإنه في حقيقة أمره ينمو عاطفيًا في علاقات طيبة»، إن الأشخاص الذين يتسمون بإيمان وبعد روحي يظهرون بأنهم أكثر إيجابية في تفكيرهم وفي تعاملهم مع الآخرين وغالبًا ما يكونوا أكثر نجاحًا في أعمالهم كما أنهم أكثر تفاؤلًا عبر توقعهم دائمًا الأشياء الجيدة وهم بالتالي أكثر مودة للزملاء والأشخاص الآخرين الذين يعملون معهم، إنهم وباختصار: أكثر إيجابية وأكثر إيثارًا للمساعدة وأكثر تقبلًا للآخر وأكثر صحةً من الناحية الذهنية.

ثانيًا: المعتقد الخرافي:

تقضي دراسة السلوك الديني من زاوية علم الاجتماع الإشارة إلى التمييز بين الدين الخالص القائم على النصوص والشريعة والأحاديث الصحيحة المتواترة، وهو ما يمارس على الأغلب من قبل الطبقة المثقفة والمدركة وأبناء المدن وفي الأوساط المتعلمة وبين الدين الذي يعتبره البعض «شعبيًا» ويتمثل في الاختبار الروحي وعلاقة المؤمن بإله عبر أولياء ومزارات، مثل هذا التعبد قائم على تأويل ورموز وصور وأشخاص أكثر مما هو قائم على قواعد شرعية مجردة، وغالبًا ما يمارسه البسطاء من الناس العاجزين عن الفهم المجرد لمقتضيات الدين والذي غالبًا ما يشطحون نحو ممارسات تعبدية خرافية قد لا تكون من الدين في شيء فتسري بينهم مسرى العادة حتى تصبح بمثابة عبادات.. **ولكن ما سر اتخاذ الناس بالمعتقد الخرافي؟.**

يعتبر المعتقد الخرافي بديلًا شعبيًا للنص الديني ونوعًا من الفهم الملموس لنص ديني مجرد يصعب فهمه، فالمزار مثلًا اجتهاد لعلاقة مادية يومية عند الطلب لحاجات الناس وتفاصيل حياتهم، كما في المعبد (المسجد أو الكنسية) يتم الاتصال الروحي بالله عبر الصلاة ثم ينتقل المؤمن إلى المزار حيث الهموم والمشاكل والأزمات المفاجئة ليتلمّس البركة في حل فوري وتلبية عاجلة ومن هنا سر تقديم القرابين وذبح الفدو وإقامة الموالد إيفاءً لنذر حيث يشعر بعدها الناذر بالراحة النفسية وبأن عبئًا زال عن كاهله). وهذا ما أحدث ولا زال يحدث صراعًا في عالم الدعاة والمبشرين الذين يدأبون في إعلان تعاليم الدين الصحيح خوفًا من أن ينزلق الناس في متاهة «تعدد الآلهة» المرفوضة، يبدو أن هناك نوعًا من الازدواجية في حياة الناس الدينية بين قطبي إيمان: دين توحيدي لله خالصًا، واعتقاد خرافي ما برح الكثيرون يقفون عنده دون أن يدروا ماهيته وإنما بالنسبة لهم هو بمثابة محض اعتقاد.

في سنة 1996 سألت إحدى مؤسسات استطلاعات الرأي حوالي 1000 أمريكي فيما إذا كانوا خرافيين، فقال 53% منهم بأنهم كذلك قليلًا، واعترف 25% بأنهم خرافيون كثيرًا أو نوعًا ما، وقد كشف استطلاع آخر بأن 72% من العامة يحتفظون بتعويذة واحدة على الأقل لجلب الحظ الطيب أو لدرء نحس. .وثمة سبب بالطبع وراء اعتبار هذه المستويات العالية من التفكير الخرافي رغم أن العديد من الناس لا يقرون الاعتراف بإيمانهم بمثل هذه المعتقدات الخرافية إلا أن التجربة بينت ـ وبعد أن أُخضع بعضهم لاختبار معملي ـ كيف أنهم يقعون فيها دونما وعي كامل لماهيتها، والمثال على ذلك أن 12% من الناس قالوا بأنهم يتجنبوا السير تحت السلالم في الشارع لما في ذلك ـ باعتقادهم ـ نذير شؤم وفأل غير جيد. . . وهنا تساءل الباحثون إذا كان ذلك التصرف يعكس فعلًا المستوى الحقيقي للسلوك والاعتقاد الخرافي؟ وللوقوف على حقيقة الأمر أُسند إلى الحائط سلّمًا في وسط بلدة مزدحمة وقد ذهل (الباحثون) حين اكتشفو أن أكثر من 70% من الناس خاطروا النزول إلى الطريق حيث السيارات بدل المرور من تحت السلم التي على الرصيف.

وبالسياق ذاته تبين ـ وخلال دراسة ميدانية عن البنية المعرفية بين الثابت

والمتحول في الريف اللبناني (2000)[1] ـ بأن هناك شملة من المعتقدات التي تمارس على أنها بمثابة أحكام اجتماعية ومعايير منمطة وأحيانًا مقدسة (تابو)، وقد لوحظ بعض هذا المجمل الاعتقادي بشكليه الإيماني الصحيح إلى جانب الخرافي المتوارث منذ أقدم العصور، وخاصة ما يتعلق منها بميثولوجيا الصحة والمرض والمستقبل والغيب والكون والطبيعة والناس، وقد عمد فريق البحث إلى عرض جملة من المعتقدات تتعلق بحياة الناس اليومية تتضمن أمور مثل: صيبة العين/ زيارة المقامات/ وفي النذور/ التبصير والكتبة/ الطب الشعبي/ العادات والتقاليد.. وغيرها لتأتي النتائج على الشكل التالي:

✓ **في صيبة العين اعتقد من نسبتهم (69%) بصحة وقوعها بينما رفض (31%) الإيمان بها.**

✓ **في زيارة المقامات وأضرحة الأولياء والقديسين رأي من نسبتهم 61% بصوابية وجوبها مقابل 33% لم يروا ذلك.**

✓ **في وفي النذور آمن من نسبتهم (83%) بأهمية دورها في مقابل (15%) لا يعتقدون بهذه المسألة.**

✓ **في التبصير انخفضت نسبة الإيمان بها إلى (17%) في مقابل (81%) لا يؤمنون بها ألبتة، في حين تأرجحت مسألة الإيمان بالأحجبة والكتْبة بين أكثرية لا يؤمنون بها إطلاقًا (62%) إزاء أقلية (32%) تؤمن بها كأمور تحصل.**

✓ **في الطب الشعبي، 62% رأوا صحة مفعول هذا الطب بينما لا يعتقد من نسبتهم 32% بهذا الطب.**

✓ **في العادات والتقاليد الخاصة بالأعياد والأفراح والأحزان صرح من نسبتهم (90%) بحسنة هذه العادات ودورها.**

يصنف بعض السوسيولوجيين ما يتضمنه التراث الشعبي من اعتقادات خرافية متنوعة في:

✓ **الاعتقاد بالكائنات العلوية والسفلية كالجن والعفاريت والأرواح.**

(1) مأمون طربيه، القرية اللبنانية عصر التلفزيون، سبق ذكره.

- ✓ الاعتقادات الخاصة بالتشاؤم أو بالتفاؤل من أشياء وأفعال أو التوقي مما يجلب النحس (الأحجبة).
- ✓ الاعتقادات التي لها علاقة باستقراء الغيب والكشف عن المستقبل بقراءة الكف وما يطلق عليه «ضرب الودع».
- ✓ الاعتقادات المتضمنة الإيمان بالسحر والتعزيم من خلال أخذ الأثر وعمل الخواص السحرية.
- ✓ الاعتقاد بالأولياء والوسطاء والإيمان بالهبات والقرابين.
- ✓ الاعتقاد بالطب الشعبي وفيه العلاج بالكي والأعشاب والرقية والزأر.
- ✓ الاعتقادات المرتبطة بعادات يومية أي ما يدور حول الولادة والختان والخطبة وهدايا العروس والزفاف والموت.
- ✓ الاعتقادات المتعلقة بالمواسم الزراعية أو الزمنية أو الأعياد والموالد.

الفرق بين الدين والتدين:

يعني الدين ـ وكما أشرنا ـ نسق من المعتقدات يرتبط بشيء مقدس، وعلى نحو مخصوص هو فعل إيمان يهدي إلى الحق في الاعتقادات ويرشد إلى الخير في التعامل، أما التديّن فمقصود به نمط سلوكي وأسلوب حياة والتزام يومي بأفكار المعتقد الديني وتعاليمه تجاه الخالق والمجتمع، يتميز التديّن بالإرادة لتعديل السلوك استجابةً لمضمون العقيدة الدينية، وإذا شئنا التحديد فإننا نقول بأن الدين هو النظرية والتديّن هو التطبيق، باعتبار الدين هو مجموعة الأفكار والمعتقدات الموجهة والنموذج المعياري الذي يستمد منه المؤمنون معنى الوجود وتفسيراتهم عن الله والكون والطبيعة، وبهذا المعنى هو ثابت لا يتغير، أما التديّن فهو إنزال هذه القيم والمعايير من مستواها المجرّد الموجود بين دفتي الكتب المقدسة إلى الواقع عبر جملة ممارسات والسير على نهجها وفق أصول وتعامل وعلى أنماط منها:

- **التدين الفكري**: وهو ينحصر في دائرة المعرفة حيث نجد الشخص يعرف الكثير من أحكام الدين ومفاهيمه ولكن هذه المعرفة تتوقف عند الجانب

العقلاني الفكري ولا تتعداه إلى دائرة العاطفة أو السلوك، فهي مجرد معرفة عقلية وربما يكونون بارعين في الحديث عن الدين ولكن لا يلتزمون بتعاليمه في حياتهم اليومية.

- التدين العاطفي: نجد أن الشخص يبدي عاطفة جارفة وحماسًا «كبيرًا» نحو الدين، ولكن هذا الحماس لا يواكبه معرفة جيدة بأحكام الدين ولا سلوكًا «ملتزمًا» بقواعده.

- التدين السلوكي: تنحصر في دائرة السلوك، حيث نجد أن الشخص يقوم بأداء العبادات والطقوس الدينية ولكن بدون معرفة كافية بحكمتها وأحكامها وبدون عاطفة تعطي لهذه العبادات معناها الروحي. ولكنه يؤدي هذه العبادات كعادة اجتماعية تعوّد عليها.

- التدين النفعي: نجد أن الشخص يلتزم بالكثير من مظاهر الدين الخارجية للوصول إلى مكانة اجتماعية خاصة أو تحقيق أهداف دنيوية شخصية.

وفي هذا السياق تبيّن للباحث المغربي محمد مصباح من خلال دراسة ميدانية[1] حول الدعاة الجدد والشباب الجامعي في المغرب وجود ستة أنماط من التدين عند الشباب المغربي وهي:

1 ـ نمط التدين الرسمي: تتكون الهوية الدينية الرسمية من ثلاثة عناصر: المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السنّي، يهدف هذا النمط إلى توظيف كل مؤسسات النظم القائمة لمصلحة المنظومة الدينية الرسمية.

2 ـ نمط التدين التقليدي: وتعتبر الزوايا والأضرحة من أهم البنى الدالة عليه وهي ترتبط وظيفيًا بنمطي التدين الرسمي والشعبي، فالأول يضفي عليها الشرعية والثاني يزودها بالعنصر البشري.

3 ـ نمط التدين الشعبي: ويقوم على دعامة اعتقادية مفادها أن الأولياء يمتلكون القدرة على منح البركات وقضاء الحاجات لتقربهم من الحضرة الإلٰهية

(1) «الدعاة الجدد والشباب»، محمد مصباح، مجلة إضافات، سبق ذكره.

ـ حسبما ما يعتقدون ـ أو أن لديهم القدرة على التوسط بين الله والبشر.

4 ـ **نمط التدين الطائفي**: أنه تدين راديكالي تتبناه بعض الحركات الاجتماعية وتنزع نحو الحفاظ على ما درج عليه المجتمع من عادات وسلوكيات دينية مستوحيًا طقوسه من مذهبية دينية خاصة.

5 ـ **نمط التدين السياسي**: ويمثله الحركات السياسية التي تهدف نحو تغيير الأشكال والرموز القائمة واستبدالها بأخرى من خلال إعادة قراءة التراث وتأويله بشكل أكثر مرونة من نمطي التدين التقليدي أو الطائفي.

6 ـ **نمط التدين العصري**: الذي بدأ يظهر في أوساط الشباب بشكل واسع نتيجة لشيوع الفضائيات والمواقع الإلكترونية الدينية، وهو تدين فردي يتميز بنوع من الاستقلالية تجاه باقي أنماط التدين الأخرى، لم تتحدد معالم هذا النمط الفكرية بشكل كافٍ مما يحتاج معها إلى مجهود نظري للتأصيل واكتساب شرعية له في الواقع.

يمكن مقاربة ظاهرة التديّن عند الشباب العربي مما هو ظاهر، فالملاحظة السوسيولوجية تبين تطور تديّن الشباب اليوم بشكل مختلف إلى حد ما عن تديّن أسلافه، هذه الفئة أصبحت تتعامل مع الدين بوعي أكبر مبني على اختيار شخصي أكثر منه تقليدًا للأجيال السابقة، أصبح يشكل لعدد منهم مؤسسة أساسية في حياتهم تنعكس في كافة مناحي الحياة لقد أصبح ما يمكن تسميته بالتدين العصري إلى جانب التدين التقليدي، في الأول هناك تدين يتميز بنوع من الاستقلالية النسبية تجاه باقي المؤسسات الدينية الأخرى سواء المدنيّة أو الرسمية ويعود سر انتشاره إلى حركة الدعاة الجدد عبر الفضائيات بشكل مختلف عن الوعظ التقليدي، مثل هذا التطور على مستوى تأثير الدعاة الجدد في الشباب العربي عامة، أرسى حالة التزام مغايرة عن حالة التدين السائدة عند العوام لما يقوم به هؤلاء من خطاب استيعابي لمشاكل الشباب إزاء ما يواجهونه من تحديّات معاصرة في حياتهم اليومية على مستوى العيش والسلوك والعلاقة مع الجنس الآخر وقضايا الهوية والانتماء والانفتاح ومسائل الاختلاط وعمل المرأة وتنظيم الأسرة، لنشهد نتيجة ذلك ما يمكن تسميته

«ظاهرة التديّن الجديد»، التي أخذت تواكب ليس فقط أسئلة الشباب المستجدة وإنما لتطرح أشكالًا جديدة من الممارسات مثل: الحديث عن حجاب الموضة، لباس البحر الشرعي، الغناء الإسلامي[1].

أحدث الدعاة الجدد ـ عبر الفضائيات العربية ومواقع الإنترنت والأقراص المدمجة ـ تحوّلًا جديدًا لدى شرائح كبيرة من المجتمع حيث استوعبوا تعقيدات الحياة المعاصرة وحاولوا تقديم إجابات على شكل برامج عملية ومشاريع مدنية عبر ما يعرف بالخطاب الديني الواقعي في محاولة منهم للتوفيق بين مقتضيات الشريعة (الأصول) ومتطلبات الواقع دون أن يحدث ذلك خللًا على مستوى العقيدة في حياة الناس. لقد أصبح هناك إعادة صياغة إيمانية لالتزام ضروري بالمبادئ الأساسية للدين إما من خلال تبسيط وتسهيل ما ورد في الكتب المنزلة (تأويل الآيات)، وإما من خلال تناغم الروحانية مع الفردانية عبر ما يعرف بثقافة الذات لحياة الشباب وفق أساليب دعوية جديدة[2].

مثل هذا الاهتمام بالذات للعيش في مجتمع معاصر فرضته أخلاقيات الاستهلاك ويتجه نحو شباب يعاني الأزمات والتشوش الذهني، فهو من جهة يرغب التمتع بمعطيات العصرنة وفي نفس الوقت لا يرغب الانزياح عن تعاليم دينه، مما ولّد ذلك ظهور رموز دينية تعيد صياغة التعاليم وفق أطر عصرية بأهداف شمولية تتناغم مع التنوع الاجتماعي والثقافي وسبل الاندماج في المجتمعات الغربية عبر طرح مسلكيات جديدة مختلفة عن توجه المتشددين.

يبدو من تحليل السلوك الديني في المجتمع العربي أن الدين كثيرًا ما

---

(1) ظاهرة المغني البريطاني سامي يوسف/ ومغني الراب الجزائري لطفي دوبل كونان والأفلام والفضائيات الإسلامية والمصارف الإسلامية، الفنادق الإسلامية إلخ ....

(2) مثلما هو الحال مع الدعاة المسلمين في مواضيع تحقيق الذات: كيف تتصرف.../ للحفاظ على هدوئك/ للنجاح في الحياة وتجنب الإجهاد...مترافقًا ذلك مع مواقع إنترنت متخصصة ومجلات وكتب بعناوين جديدة منها: الإجهاد العصري وشفاؤه من خلال القرآن / علم النفس القرآني / علاج عصري للمؤمنين: قضايا معاصرة / الصحة واللياقة البدنية في الإسلام.

يتحول من طاقة روحية ثورية في مرحلة تكونه إلى نظم ومؤسسات وطبقات، كما أنه قد يُستخدم من قبل الجماعات والأنظمة بهدف تكريس مصالح وتثبيت شرعية وهيمنة قوى، لما له من اتصال ببنى اجتماعية ومؤسسات سياسية وهكذا يأخذ الدين في تلبية حاجات ظاهرة وخفية، وقد تكون توظيفاته إيجابية أو سلبية بحسب التأويلات المثارة في عالمه، حتى نتج عن ذلك فجوات عميقة بين القول والفعل، الظاهر والباطن والعام والخاص وتنوعت الفتاوى وتناقضت الاجتهادات على صعيد السلوك المعاش إلى أن عمّ التشكك والإحساس بالاغتراب وباتت حالات التفكك الاجتماعي ظاهرة بذريعة الدين وفتواه.

نخلص إلى القول بأن الدين عبر التاريخ كمفهوم ومعتقد كان مصطلحًا مثيرًا للجدل، يعرّف عادة بأنه الاعتقاد المرتبط بما فوق الطبيعة ،المقدس والإلٰهي، كما يرتبط بالأخلاق، الممارسات والمؤسسات المرتبطة بذلك الاعتقاد. وبالمفهوم الواسع، عرّفه البعض على أنه المجموع العام للإجابات التي تفسر علاقة البشر بالكون. حتى بات تعريف الدين غير واضح وثابت، إذ نجد من يحاول تعريف الدين: من منطلق إيماني، روحاني، يقيني، أو من منطلق إلحادي، أو من منطلق عقلاني يحاول دراسة الدين كظاهرة اجتماعية أو نفسية أو فلسفية.

- علماء الاجتماع وعلماء الإنسان ينظرون إلى الدين على أنه مجموعة مجردة من القيم والمثل أو الخبرات التي تتطور ضمن المنظومة الثقافية للجماعة البشرية. فالدين البدائي كان من الصعب تمييزه بنظرهم عن العادات الاجتماعية الثقافية التي تستقر في المجتمع لتشكل البعد الروحي له.

- من وجهة نظر علماء الدين، الدين لا يمكن اختصاره بمظاهره الاجتماعية والثقافية الجماعية فالدين بالنسبة لهم هو الوعي والإدراك للمقدس، وهو إحساس بأن الوجود والعالم تم إيجاده بشكل غير طبيعي عن طريق ذات فوق الطبيعية تدعى الإلٰه أو الخالق أو الرب.

- علماء النفس والإنتربولوجيا يعتبرون هذا المقدس هو نتيجة للخوف والإحساس بعدم القدرة على السيطرة على المصير والحياة، والإحساس بعدم الأمان هو ما يولد الشعور بالحاجة لوجود خالق.

يمكن إجمال مميزات المجمل الاعتقادي كافة بعدة نقاط:

1 ـ الإيمان بوجود إلٰه فوق ـ طبيعي هو الخالق للكون والعالم والمتحكم بهما وبالبشر وكافة المخلوقات.

2 ـ التمييز بين عالم الأرواح وعالم المادة.

3 ـ وجود طقوس عبادية يقصد بها تبجيل المقدس من ذات إلٰهية وغيرها من الأشياء التي تتصف بالقدسية.

4 ـ قانون أخلاقي moral code، أو شريعة تشمل الأخلاق والأحكام التي يجب اتباعها من قبل الناس ويعتقد المؤمنون أنها آتية من الله الخالق لتنظيم شؤون العباد.

5 ـ الصلاة وهي الشكل الأساسي للاتصال بالخالق وإظهار التبجيل والخضوع.

6 ـ رؤية كونية world view: تشرح كيفية خلق العالم وتركيب السماوات والأرض وآلية الثواب والعقاب، أي كيف ينظم الله شؤون العالم.

7 ـ شريعة أو مبادىء شرعية لتنظيم حياة المؤمن وفقًا للرؤية الكونية التي يقدمها الدين.

8 ـ هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلٰهية وهو مجموعة من التورعات التي تقف أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا.

9 ـ الإيمان والشعور بالورع تجاه قدرة الماورائي، والاعتراف بها بأنها القدرة الخالقة والمتحكمة في هذا الكون.

الموضوع الثالث:
الهجرة والنزوح

«إننا اليوم في عصر الهجرة»، هكذا يقول علماء الاجتماع، مع أن ظاهرة الهجرة ليست جديدة إلّا أنه ومع النمو المتزايد لها في الآونة الأخيرة وتأثيراتها الجمة في كثير من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، بدت محط اهتمام للدراسة والبحث، سيما وأن التقديرات الرقمية لأعداد المهاجرين في أوائل التسعينات حول العالم بلغت نحو ثمانين مليون شخص، فما هذه الظاهرة؟.

أولًا: تعريفات في ظاهرة الهجرة:

الهجرة ـ بتعريفها المبسط ـ هي انتقال جماعات أو أفراد من دولة إلى دولة أخرى بغية العمل والاستقرار، وقد يتحكم في عملية الانتقال هذه عوامل عديدة منها ما يعرف بعوامل الطرد من المحيط الأولي الذي يعيش فيه الإنسان، ومنها ما يسمى بعوامل الجذب التي تشده إلى محيط آخر بديل قرر الانتقال إليه..

وقد تحدث الهجرة قسرًا (إجبارية) أو طوعًا (اختيارية)، في حالات القسر يضطر الناس ترك مواطنهم بسبب الفقر المدقع في بيئتهم أو لسبب الضغوط السياسية والعسكرية، أما في الحالات الطوعية فبناءً على رغبة في الترحال والانتقال من أجل البحث عن حياة أفضل.

هناك عدة أسباب تهيأ لظاهرة الهجرة وسوف نختصرها بالأسباب التالية:

1 ـ أسباب اقتصادية: نتيجة الفقر الذي يحل بمنطقة ما، فيندفع

المقيمون فيها إلى الانتقال منها خوفًا من مجاعة، كما حدث لقسم كبير من الإيرلنديين في منتصف القرن التاسع عشر عندما أصيب محصول البطاطا التي تعتمد عليه الدولة اعتمادًا كليًا فأدّى إلى كارثة معيشية مما دفع بحوالي 500 ألف شخص للهجرة نحو بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية. وكذلك الحال بالنسبة للمهاجرين من آسيا وأفريقيا حيث عامل الفقر كان سببًا في هجرة الأفارقة بأعداد هائلة نحو السلفادور والبرازيل بسبب يأسهم من تحسن حال معاشهم في دولهم.

2 ـ أسباب سياسية: وتتمثل في الاضطهاد السياسي الذي يحدث في العديد من الدول التي تشهد صراعات عرقية أو نتيجة لتغير أنظمة الحكم مما يصعب على بعضهم البقاء في بلدانهم بسبب نهج سياسي متبع من سلطة، فيضطر الكثيرون لمغادرة بلدانهم خوفًا من الاضطهاد والتصفيات العرقية أو التوترات الدينية. ومثال على ذلك ما حدث بين الهند والباكستان عندما استقلّتا عام 1947 حيث تبادلتا ما يزيد 17 مليون نسمة، إذ انتقل قسم من الهندوسيين من باكستان إلى الهند، كما انتقل قسم من المسلمين من الهند إلى الباكستان، وكذلك الحال بين تركيا واليونان حيث تبادل سكاني عام 1923 فهاجر نحو مليون نسمة من اليونانيين كانوا في تركيا إلى اليونان وأعيد أيضًا حوالي 300 ألف تركي إلى تركيا.

3 ـ أسباب طبيعية: في بعض المناطق تحدث كوارث طبيعية من فيضانات وبراكين أو زلازل وأعاصير مدمرة فيضطر عندئذ العديد من السكان الانتقال إلى الإقامة في مناطق أو دول أخرى أكثر أمنًا واستقرارًا.

ويرافق الهجرة غالبًا ظاهرة النزوح الذي يعرّف على أنه انتقال جماعي أو فردي داخلي/ محلي، في حالات معينة يكون هذا الانتقال منظّمًا حين تقوم شركات كبيرة مثلًا باستيراد عمال من منطقة كثيفة للعمل في تعمير مناطق أخرى داخل البلاد (في كندا ينزح من مدن ولاية ألبرتا عشرات الآلاف من الشبان موسميًا نحو مناطق شمالية للعمل في حقول استخراج الزيت الخام) وإما يكون عشوائيًا خاصة بين المدينة والريف كما هو الحال في المحافظات

الجنوبية والشمالية القريبة من مدينة القاهرة، وكذلك بالنسبة لمدينة بيروت التي تجذب الكثير من سكان قرى الجنوب وجبل لبنان بينما في طرابلس اللبنانية نجد أن النزوح إليها يأتي من قرى محافظة الشمال (الضنية/ عكار). ويلعب في حركة النزوح التطور الاقتصادي الذي يترّكز في المدن، فيندفع أبناء المناطق النائية للنزول نحوها بغية العمل والبحث عن فرص الحياة الأفضل، على سبيل المثال يتركز في مدينة بيروت 68% من مجالات العمل و100% من الإدارات الحكومية و90% من المؤسسات المصرفية و80% من مراكز الخدمات الثقافية، مما أدى ذلك إلى:

1 ـ **تزايد سكاني يومي** (كحال الموظفين القادمين نهارًا ثم يعودون مساء).

2 ـ **تزايد مرحلي/ موسمي** (خلال موسم الشتاء يكثر نزلاء المدن عن موسم الصيف كحال الطلاب الجامعيين إلى العاصمة من القرى النائية أو كما هو الحال مع رعاة القوقاز وأذربيجان وأرمينيا وقاطني سفوح جبال الألب الذين يتركون الجبال نحو الساحل والأودية الدافئة من أجل تأمين المراعي وحفظها من برودة الصقيع).

3 ـ **تزايد إقامي دائم**، كحال القادمين من مناطق بعيدة تفتقر بيئاتهم لسبل العمل والعيش فيفضلون البقاء في المدينة لرغدها، كحال أبناء البقاع والجنوب والشمال في لبنان الذين يفدون إلى مدينة بيروت، حتى أصبحت تضم أكثر من 60% من سكان لبنان بينما بيروت لوحدها تحتوي حوالي 38% من عدد السكان الإجمالي.

يشير ذلك إلى أن الانتقال إلى المدينة كنزوح أو إلى الخارج كهجرة، يعود بمجملها لعوامل دفع منها:

- ✓ تخلف المجتمع الريفي مع حصول خلل في العلاقة بالأرض وفي القيم.
- ✓ عدم توفر فرص العمل المستمرة والتسهيلات الحديثة من مدارس ومستشفيات.

✓ طبيعة العمل الموسمي في الريف.

ولعوامل جذب و تشمل:

☆ توفر فرص العمل في إدارات الدولة والشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية.

☆ ازدهار المدن بالمبتكرات الحديثة وفرص الترفيه.

☆ سهولة المواصلات والتنقل.

☆ توفر التسهيلات الاجتماعية من جامعات وأندية ومراكز تنشيط وتثقيف.

☆ شعور الجيل الجديد بأن المدينة هي الملاذ الأرحب لرفع مستوى إنجازاتهم في العمل.

إذن ثمة عوامل مؤثرة تسهم في تشكيل أنماط الهجرة وتميل كثير من النظريات إلى تحديد هذه العوامل بظروف البلد المهاجر منه، التي ترغم جانبًا من السكان على الارتحال مثل الحروب والمجاعات والقمع السياسي وضغوط التكاثر السكاني هذا من جهة، وإلى ظروف البلد المهاجر إليه من جهة أخرى مثل ازدهار سوق العمل وإغراءات مستوى المعيشة والاستقرار الأمني والضمان الصحي والأمان الاجتماعي واتساع أفق الحياة في مجالات التعلم والتقدم ومواكبة التطور.

في دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية الداخلية في مدينة الرياض (السعودية) حول الفقر وارتباطه بالهجرة الداخلية (2002)، حاولت فيها الباحثة (عزيزة عبد الله النعيم) رصد دوافع الهجرة الداخلية إلى مدينة الرياض ودوافع التمركز لبعض المهاجرين في الأحياء الشعبية، فتبين لها ـ وبعدما عرّفت الهجرة الداخلية على أنها المغادرة التي تتم من قبل أشخاص سعوديين أو أسر سعودية وصلت من خارج مدينة الرياض إلى أحيائها الشعبية الداخلية (العود/ الصالحية / المنفوحة) ـ بأن هذه الهجرة «شبابية» فقد بلغ متوسط عمر المهاجر عند قدومه إلى مدينة الرياض 28 عامًا، أما من حيث إذا كانت الهجرة بمحض الإرادة فقد هاجر 79% باختيارهم والباقون هاجروا

مع الأهل أو مع الزوج. وتشكل العوامل الاقتصادية أهم عوامل الطرد من الموطن الأصلي حيث شكلّت بمجملها ما نسبتهُ 89% وتتمثل في عدد من الأسباب:

☆ 82% بسبب عدم توافر فرص عمل.

☆ 49% لعدم كفاية الخدمات العامة.

☆ 37% لمحدودية وسائل العيش.

وقد توصلت الباحثة إلى تعميمات نظرية بناءً على نتائج المعطيات تتعلق بأسباب هجرة الفقراء وتتمثل في عوامل طرد كالبطالة في القرى والبوادي، عدم توفر المساعدات بأنواعها خاصة لمن هم في سن العمل أو لأرباب الأسر، قسوة المعيشة في منطقة جازان (وهي المنطقة الأكثر قدومًا منها لسبب ارتفاع درجات الحرارة، صعوبة المواصلات، عدم تطور البيئة). وعوامل جذب كتوفر الأعمال في مدينة الرياض، تحسن الدخل، وجود الجمعيات الخيرية التي تقوم بإعاشة الفقراء، الحصول على مساعدات من أهل الخير لجهة دفع نصف إيجار السكن أو فاتورة الكهرباء، وجود مساكن قديمة ورخيصة أو موقوفة. فضلًا عن العامل الاجتماعي المتمثل في مؤشر القرابة الذي يساعد في حركة الانتقال لجهة تبديد الشعور بالاغتراب، مساعدة الفرد على اتخاذ قرار الهجرة عبر تأمين عمل له قبل قدومه، تأمين مسكن وتسهيلات حينما يقدم إلى الرياض سيما إذا كان رب أسرة.

وهكذا تتضح صحة الفروض عن علاقة العوامل الاقتصادية بعوامل الهجرة ومسبباتها، إذ كلما ارتفع مؤشر الحياة - المعيشة الصعبة في منطقة ما تصبح كبيئة طاردة، كلما أدى ذلك إلى زيادة مؤشر الهجرة الداخلية أو الهجرة الخارجية على حد سواء.

ثانيًا: أنواع الهجرة:

درج الباحثون في الديموغرافيا على تحديد أنواع الهجرة: بالدائمة والموسمية والمؤقتة، وذلك تبعًا لرغبة المهاجرين في المدى الزمني لحالة انتقالهم وإقامتهم، فقد تكون الإقامة لفترة زمنية طويلة مع تقريرهم المسبق لذلك، كالمهاجرون الأوائل من لبنان إلى البرازيل وكندا وأستراليا. ومهاجرو البلدان الفقيرة والمضطهدة ككوبا والمكسيك وبلدان شمال وشرق أفريقيا نحو الولايات المتحدة الأمريكية. أو قد يكون هناك انتقال مرحلي أو مؤقت لعدد من السنين يعود بعدها المهاجر إلى الوطن الأم مستقرًا (حال الشباب العربي الذي يغترب بهدف الدراسة والعمل وتحصيل ثروة تمكنه من العودة إلى بلاده لقضاء بقية أيامه فيها/ كمهاجرو فلسطين وسوريا والأردن ومصر نحو الخليج العربي) وإما أن يحدث نوعًا من التنقل الموسمي حيث يمكث بعضهم شهور من السنة في مكان ليعود بعدها إلى موطنه، وهذا ما يعرف بالموسمية ويتحدد ذلك بناء على ظروف العمل في بلد المهجر (حيث تكون ناشطة في فترات زمنية دون أخرى) أو بناء على شروط الإقامة وتأشيرات الدخول[1].

وقد درج الباحثون في السوسيولوجيا على تمييز أربعة نماذج لوصف التحركات السكانية الدائرة اليوم في العالم حيث هناك:

1 ـ **النموذج التقليدي للهجرة** ويصدق ذلك على دول مثل كندا والولايات المتحدة وأستراليا والبرازيل التي شهدت في بدايات القرن الماضي هجرات كثيفة ولما تزل تشجع على الهجرة حتى أصبحت هذه الدول تضم شعوبًا من المهاجرين إلى جانب سكانها الأصليين.

2 ـ **النموذج الاستعماري**، وتمثّلهُ دولًا مثل بريطانيا وفرنسا اللتين تميلان إلى إعطاء الأفضلية للمهاجرين القادمين من البلدان التي كانت خاضعة لسيطرتهما الاستعمارية، كما هو حال بالنسبة للمهاجرين اللبنانيين والجزائريين والمغاربة الذين كانوا تحت الانتداب الفرنسي، أما بالنسبة لبريطانيا فإن المهاجرين إليها فعلى الأغلب يكونوا من دول الكومنولث.

(1) بعض الدول المستقبلة للعمالة لا تسمح للوافدين بالإقامة إلا بموجب تصاريح عمل محددة زمنيًا بفترات إقامة لا تتعدى الستة أشهر.

3 ـ **نموذج العمال الضيوف**، وتعتمده دول أوروبية أخرى مثل ألمانيا وسويسرا وبلجيكا، بموجب هذا النموذج يجري قبول المهاجرين ودخولهم تلبية لاحتياجات سوق العمل بصورة أولية ولكنهم لا يتمتعون بحقوق المواطنة حتى لو أمضوا فترات طويلة من العمل والإقامة.

4 ـ **نموذج الهجرة غير المشروعة**، والذي يعني دخول أفراد بلدان معينة بطريقة غير نظامية (تهريب عبر الحدود/ دخول مزور/ أو دخول تحت ذريعة الدراسة أو السياحة) ويحدث ذلك نتيجة اشتراط دول معينة ضرورة توفّر معايير محددة للقادمين قد لا تنطبق على كثير من الراغبين بالسفر إلى هذا البلد أو ذاك، ومع تنامي البطالة وانكماش ظروف العمل في الوطن الأم يُقدم كثير من الشباب على المغامرة بالسفر والهجرة ولو بطرق غير شرعية (وغالبًا ما يتم ذلك بالسفر البحري عبر قوارب تهريب خاصة بين دول متجاورة المغرب والجزائر باتجاه إسبانيا أو فرنسا/ كوبا باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية/ تركيا باتجاه اليونان) ويضطرون عندها للإقامة في مناطق نائية بطريقة غير قانونية بعيدًا عن أعين السلطات الرسمية كي لا تعيدهم إلى بلادهم. وينشط هذا النمط عبر سماسرة وعصابات دولية تقوم بتهريب اللاجئين وغيرهم من الراغبين عبر الحدود البرية أو المنافذ البحرية غير المراقبة لقاء مبالغ طائلة من الأموال.

1 ـ هجرة الأدمغة:

تمثل هجرة الكفاءات اقتطاعًا من القوى العاملة الهامة المتوفرة في البلدان النامية (بشكل عام) وتحتاج إليها حاجة ماسة في الجهد التصنيفي الذي تبذله، ولا يمكن التعويض عن هذا الاقتطاع بالتحويلات النقدية التي تأتي نتيجة هجرة القوى العاملة العادية التي تقتصر على المواصفات الفنية. وبقدر ما يكون مستوى كفاءة القوى العاملة العالية مرتفعًا بقدر ما تكون خسارتها كبيرة بالنسبة إلى اقتصاد البلد المهاجر منه، فبالإضافة إلى تكاليف توظيف قوة العمل والاحتفاظ بها، هناك التكاليف الباهظة للتعليم والتدريب التي تدفع في معظم الأحيان بالعملات الصعبة (كتدريب الكوادر في الخارج) وتتزايد فداحة التكاليف الناشئة عن هجرة الكفاءات عندما تحدث الهجرة بين فئات السكان

الأفضل تدريبًا وإعدادًا والذين استطاعوا بفضل أقدميتهم في العمل أن يكتسبوا خبرة مهنية واسعة ويحدث مع هذه الهجرة:

1 ـ تناقص قدرة هذه البلدان في إعداد المؤهلين اللازمين لعمليات التنمية محليًا، حيث إن هجرة الكوادر العلمية تحرم الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية والتأهيلية من الأطر الكفوءة التي يكون بإمكانها أن تعمل على إعداد المؤهلين محليًا.

2 ـ انخفاض المستويات التعليمية في البلد نتيجة تناقص عدد المؤهلين من أعضاء الهيئة التدريسية بالنسبة لعدد الطلاب في الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية مما يؤدي إلى تخرج دفعات ذات كفاءة محدودة.

3 ـ إرهاق الأجهزة الحالية المؤلفة من الفنيين والكوادر العلمية سواء في الجامعات أو المعاهد أو مؤسسات الدولة بازدياد الأعباء عليهم، مما يؤدي إلى ضعف الإنتاجية وانخفاض المردود وانتشار روح اللامبالاة، ونمو العقلية الروتينية وفتور الحماس للتجديد والتطور.

4 ـ عدم القدرة على إنشاء مراكز للأبحاث العلمية أو التوسع القائم فيها، مما يؤدي بالتالي إلى عرقلة التطور والتقدم الفكري والعلمي لهؤلاء الاختصاصيين، وتناقص وانخفاض قدراتهم الأساسية بحكم عدم إتاحة الفرصة لها للممارسة والتطبيق.

5 ـ تناقص القدرة على الربط بين التطورات الثقافية والتعليمية في البلد وبين متطلبات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

6 ـ اضطرار الدولة إلى استيراد الخبرات العلمية الأجنبية من الخارج لتلافي النقص الحاصل من جراء الهجرة وبالتالي الوقوع في دائرة التبعية.

وفي هذا السياق تشير تقارير أصدرتها كل من الجامعة العربية ومؤسسة العمل العربية والأمم المتحدة (عبر تقارير التنمية الإنسانية العربية)، إلى وقائع وأرقام حول هجرة العقول العربية إلى الخارج. فالمجتمعات العربية باتت بيئة طاردة للكفاءات العلمية إذ تشكل هجرة الكفاءات فيها 31 %، كما أن هناك

أكثر من مليون خبير واختصاصي عربي من حملة الشهادات العليا أو الفنيين المهرة مهاجرون ويعملون في الدول المتقدمة، بحيث تضم أميركا وأوروبا 450 ألف عربي من حملة الشهادات العليا وفق تقرير مؤسسة العمل العربية 2004. وتؤكد هذه التقارير أن 4.5 في المئة فقط من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج يعودون إلى بلادهم فيما يستقر الآخرون في الخارج. ومن الأرقام الدالة أيضًا أن 34% من الأطباء الأكفاء في بريطانيا ينتمون إلى الجاليات العربية، وأن مصر وحدها قدمت في السنوات الأخيرة 60% من العلماء العرب والمهندسين إلى الولايات المتحدة، فيما كانت مساهمة كل من العراق ولبنان 15%. وشهد العراق ما بين 1991-1998 هجرة 7350 عالمًا تركوا بلادهم بسبب الأحوال السياسية والأمنية. وتشير هذه التقارير إلى عمل قسم واسع من العقول العربية في اختصاصات حساسة في بلاد الغرب: مثل الجراحات الدقيقة، الطب النووي، الهندسة الإلكترونية والميكرو إلكترونية، والهندسة النووية وعلوم الليزر، وعلوم الفضاء وغيرها من الاختصاصات العالية التقنية.

تتعدد الأسباب التي تدفع الأدمغة العربية إلى الهجرة، منها ما يعود لأسباب موضوعية تتعلق بالثورة التكنولوجية والتقدم العلمي الذي لا يزال الغرب حقله الفعلي. ومنها ما يعود لعدم توافر فرص العمل اللازمة للاختصاص المتحصّل. وكثيرة هي الدول النامية التي لا تجد نفسها معنية بالإفادة من الاختصاصات العلمية وتأمين مجالات عمل لأصحابها، فيجد الخريجون أنفسهم ضحايا البطالة مما يضطرهم إلى تأمين لقمة عيشهم في أعمال لا تتناسب ومستوى تحصيلهم العلمي. يتولّد عن هذا الوضع شعور واسع بالإحباط واليأس لدى هذه الكفاءات، ويصبح لقرار الهجرة مسوّغاته الذاتية والموضوعية. وتصيب كثيرون مرارة إهمال الدولة ومؤسساتها وكذلك القطاع الخاص في حد كبير لمؤهلاتهم العلمية خاصةً عندما يرون كيف تتم الاستعانة بخبراء أجانب لقضايا تتوافر فيها الكفاءات اللازمة محليًا.

يشكل الواقع السياسي المضطرب والاقتصادي المتأزم عنصران مهمان من عناصر هجرة الأدمغة إلى الخارج حيث تعاني غالبية البلدان العربية من

اضطرابات سياسية وحروب أهلية مما يساهم بنزيف أهل العلم والفكر المحتاج دومًا إلى استقرار كي يُحسن الإنتاج مما دفعه إلى ترك وطنه بحثًا عن مكان آمن يُحسن العطاء فيه.

نجم عن حالة الاضطراب خلال العقود الأخيرة موجات هائلة من نزوح الأدمغة بخاصة في بلدان مثل فلسطين والعراق والجزائر ولبنان، وهو نزيف سائر إلى تصاعد بالنظر إلى تواصل هذا الاضطراب. يضاف إلى ذلك واقع حرية الرأي والتعبير التي تتسم بتقييدات في بعض الأنظمة، وهي أمور ذات أهمية كبيرة يحتاج فيها الباحث إلى الحرية في البحث والتحقيق وتعيين المعطيات وإصدار النتائج. ولا يزال العالم العربي يتعاطى مع الأرقام بصفتها معطيات سياسية ذات حساسية على موقع السلطة، إلى جانب هذه العوامل يشكل التطور العلمي والتكنولوجي وثورة الاتصالات التي تشهدها البلدان المتقدمة عنصرًا جاذبًا لأصحاب الاختصاصات في التكنولوجيا العالية، حيث تقدم المجتمعات الغربية، بخاصة مراكز أبحاثها إغراءات مادية وحياتية لعلماء كثيرين برعوا في هذه المجالات، أو لأصحاب طموح وجدارة بتحصيل علمي متقدم في علوم يستحيل وجود مثيلها في بلده الأم. وهو ما يعني استحالة عودة هذه الكفاءات لاحقًا إلى موطنها بعد تخرجها إدراكًا منها صعوبة الإفادة مما حصلته من هذه العلوم.

يترتب على هجرة الأدمغة خسائر صافية تطاول المجتمعات النامية جملة وتفصيلًا. حيث يشير أحد تقارير منظمة العمل العربية إلى أن الدول العربية تتكبد خسائر سنوية لا تقل عن 200 بليون دولار بسبب هجرة العقول إلى الخارج. تقترن هذه الأرقام بخسائر صلبة نجمت عن تأهيل هذه العقول ودفع كلفة تعليمها داخل أوطانها، لكن الخسارة الكبرى تتبدى في الأثر السلبي الذي تتركه هذه الهجرة على مستوى التقدم والتطور المطلوب في المجتمعات العربية في الميادين العلمية والفكرية والتربوية والاقتصادية والاجتماعية، وهو أثر يطاول مشاريع التنمية والإصلاحات، مما يفاقم التخلف السائد أصلًا في هذه المجتمعات، وذلك بعدما بات مقياس التقدم متصلًا اتصالًا وثيقًا بمدى تقدم المعرفة وإنتاجها.

2 ـ هجرة السواعد.

يتزايد إقبال الشباب على الهجرة نحو بلدان أخرى بشكل مستمر ورغم معاناة الاغتراب، وما يشعر به المغترب من قلق وتوتر وحنين دائم إلى وطنه الأصلي، يتحمّل المعاناة إزاء الفوائد التي يجنيها باغترابه من مال/ جنسية / ضمانات صحية واجتماعية/ فرص حياة تعليمية لعائلته.. إلا وليست هذه الأسباب وحدها هي ما تدفع اليد العاملة إلى السفر والهجرة، فثمة أسباب أخرى منها:

- ✓ **عدم توفر فرص عمل مناسبة للشباب**: حيث أكثر المهاجرين من الذين يحملون شهادات جامعية وعدم توفر وظائف مناسبة واقتصارها على شريحة معينة (ذوي المحسوبيات) تدفع بالشباب إلى اللجوء إلى بلدان أخرى للبحث عن عمل (أي عمل).

- ✓ **تضخم الوضع الاقتصادي وارتفاع تكاليف المعيشة**، مع ارتفاع أسعار السوق بوتيرة مستمرة وبقاء مستوى الدخل ثابتًا، يجعل الشباب يتطلعون نحو السفر سنة أو أكثر حتى يتمكنوا من أن يجمعوا مبلغًا من المال يستطيعون معه أن يكونوا مستقبلًا لهم، فالعازب يريد أن يتزوج والمتزوج يريد أن يستقل بمنزل خاص به وبزوجته، في وقت يبدو فيه تحقيق مثل هذه التطلعات متعسرًا داخل بلده مما لا يمكنه العيش بصورة طبيعية.

- ✓ **الإغراء الذي تقدمه البلدان الأخرى**: فحالة الانفتاح التي تعيشها بعض البلدان العربية وجميع البلدان الغربية تجعل من الشباب يحلمون بالهجرة ليتمكنوا من العيش بصورة أكثر انفتاحًا وعولمة من البلد الذي يعيشون فيه، لهذا يهاجر اليوم أكثر الشباب طلبًا للرزق والمتعة في آن واحد.

- ✓ **تحقيق حلم الدراسة**، يفكر بعضهم بالهجرة لأجل التعليم والحصول على شهادة من بلد آخر، حيث لا يؤهلهم معدلهم من الحصول عليها داخل بلدهم، أو للحصول على شهادة عليا من الصعب الحصول عليها في موطنهم.

3 ـ الهجرة الوهمية:

أو ما تسمى بالهجرة الافتراضية انسجامًا مع التعابير المتداولة اليوم في عالم الفضاء السبيرنطيقي، حيث المجتمع الافتراضي، التواصل الافتراضي. انبثق هذا المفهوم بعد نشأة شبكة المعلومات العنكبوتية (الإنترنت) وأصبح كثير من الناس يتنقّلون يوميًا في حركة ذهاب وإياب مستمرة بين الفرد الواقعي والمجتمع الوهمي، حتى تأثر الشباب في الواقع المستجد وبرزت الفردانية كحالة مستجدة وكواقع سوسيولوجي، هم عاجزون عن تحقيق أحلامهم ومتطلباتهم وأعمالهم في محيطهم اليومي فيسعون عبرالإنترنت إلى «الإبحار في عوالم» غير مدركة الحدود ليصبح هناك انعزال على صعيد الواقع المعاش واندماج وتواصل على صعيد عالمي. .حتى تشكل ما يعرف بالأقلية الافتراضية. من مختلف البلدان والأعراق والجنسيات والأهواء دون أن يدرك أحدهم الآخر، وإنما يجمعهم «موقع واحد» وكأنها أرض مشتركة، ارتحلوا بالهروب النفسي والاجتماعي والفكري نحو هذا الموقع ليكوّنوا سياق اجتماعي خاص. .وهذا ما يحدث مع المسلمون المغتربون الذين أنشأوا ما يعرف بالأمة الوهمية عبر مواقع عديدة منها (muslim online, cybermuslim, ummah.net, www. ummah. org.uk, islam webring)[1].

لهذا فإن هذه المواقع ـ وكما يشير الباحث الفرنسي (أوليفيه روا) في كتابه «عولمة الإسلام»[2] ـ تتوجه إلى جمهور يشعر بأنه اقتلع من جذوره أو يسعى وراء هوية تتخطى القومية، وتشدد على هوية مسلمة تتخطى الأصول العرقية أو القومية.

الحصيلة من فعل التواصل بالفضاء المعلوماتي ليس نشوء عالم وهمي إنما قد يذهب الأمر بكثير من مستخدميها نحو إرساء عالم معياري قوامه إقامة

(1) مهمّة هذه المواقع أنهاتقدم النصائح وطرائق تطبيقها وفتاوٍ لحل المواقف الجديدة كافة، خاصة لتلك التي تنشأ من جراء العيش في بلد غير مسلم (هل يمكن الاحتفال بأعياد غير المسلمين/ هل يمكن الانخراط بجيش البلد المهاجر إليه/ ماذا عن إيداع الأموال في المصارف الأجنبية/ . .).

(2) ترجمة لارا معلوف، منشورات دار الساقي، بيروت 2003.

صداقات ومعارف، تلطيف قساوة العزلة، تأمين الاطلاع المباشر على غياهب المعرفة وسهولة الدخول إلى دول ومناطق وجامعات وأماكن عمل ومكتبات وشركات ومؤسسات رائدة بشكل قد يصعب معها في الواقع . .وهذا ما يجعلنا نطلق عليها بالهجرة الافتراضية.

ثالثا: آثار الهجرة:

تترك الهجرة نتائج عديدة وأبرزها تلك المتعلقة بالتغييرالديموغرافي لناحية التزايد السكاني لدى الدول المهاجر إليها وتناقصه في الدول المهاجر منها، إلا أن المشكلة الأهم لهذا العامل ليس تغير تركيبة السكان بقدر ما يترتب على التغير من مشكلات بنمط الحياة حيث ينتج عن الهجرة أنماط في المعيشة والتقاليد تختلف عن التي كان يعيشها في وطنه الأصلي قبل الهجرة، فكثيرًا ما نجد المهاجر نفسه يختلط في بيئة جديدة وبجماعات غريبة عنه فينتج في حال التوافق والتكيف تثاقف: ريفي ـ مدني، أو تقليدي ـ معاصر أو أميّ ومتعلّم، مما قد يؤدي إلى مشكلات عرقية ولغوية عديدة سواء بالنسبة للسكان المهاجرين أو الأصليين، ومن المعروف أن المجموعات البشرية المهاجرة تصادف دائمًا هذه المشاكل سواء من حيث اللغة أو الدين أو العرق أو السياسة، ولعل المشاكل العنصرية التي تقع بين السود والبيض، بين المسلمين والغربيين، مثالٌ جلي حيث تبرز التفرقة على أشدها وبوضوح في كل مناحي الحياة اليومية وخاصة في أماكن العمل والمدارس والمطاعم والمقاهي ودور اللهو.

إن للهجرة ولا شك آثار جمة سلبية كانت أم إيجابية لكلا المجتمعين المهاجر منه والمهاجر إليه على حد سواء، ومن أهم النتائج والآثار المترتبة على حركات الهجرة تبدّل أنماط المعيشة نتيجة التثاقف الحاصل مع مرور الأيام، فالريفي مثلًا يتحول إلى مدني وفق عمليات تكيف لواقع جديد، كما أن عامل النزوح قد يؤدي إلى تقهقر العمل الزراعي واتجاه الشباب نحو العمل الخدماتي، ومع تكدس الشباب في المدن ينتج عن ذلك بطالة مستعصية لينشأ مع الوقت أحياء بؤس في ضواحيها. . ومع حالة البطالة أو التدكس تبرز

مشاكل وتوترات بين القاطنين (وهذا ما يعرف بالجرائم الأثنية) أو تجاه أنظمة الدولة باعتبار أنها لا تلتفت إليهم (كما في حالات التمرد والعصيان عن الضرائب والمستحقات). . فيكون بنتيجته تلقّف جماعات سياسية ومنظمات عقائدية حالة القهر الذي يعاني منها هؤلاء فيعملون على استقطابهم كجماعات كادحة ومحرومة وتجنيدها في خدمة قضايا التغيير أو الضغط السياسي الذي تهدف إليه هذه المنظمات، وهكذا تتحول أحزمة البؤس من جماعات هامشية إلى طاقة ثورية فاعلة.

(وفي هذا السياق قامت أستاذة الأنتروبولوجيا (د.مها كَيال) بمقاربة إنتروبولوجية لواقع الهجرة وآثارها في مدينة لبنانية في شمال لبنان، فوجدت أن هناك دينامية تغيير ثقافي يحدث بين المقيم والمغترب تتجلى ملامحه في الأطر التالية:[1]

1. **الهوية الأم وانخفاض أمرها**: إن ما يكتسبه المهاجر من مدخلات ثقافية عند تركه وطنه هي التي تتثبت عادة في ذهنه وتتحول إلى مرتكز أساسي في حياته.

2. **صراع تثاقف**، غالبًا ما يتواجه المهاجر بين ثقافة مستجدة (وغريبة) عليه إزاء عقائد متعمقة في تكوينه الشخصي فينتج عن ذلك صراع داخلي (ظاهرة GIRL - FRIEND).

3. **إثبات الوجود الهوياتي إزاء التمايز العنصري**، نتيجة الانتماء العقائدي المتنوع بين مجتمع المهاجر ومجتمع الهجرة تظهر مسألة التمييز الاجتماعي إلى العلن والممارسة عندما يضعه أرباب عمل بلاد الهجرة في أسفل السلم الاجتماعي والاقتصادي ـ وفي أعمال وضيعة لانعدام القدرات العلمية ـ فيولّد ذلك لدى الشباب المهاجر شعورًا بأن هناك تطرف عنصري فتكون ردة الفعل بتأكيد الذات وهويته إزاء المعاملة غير المنصفة.

4. **الخوف من الفردنة**، كثيرة هي الأسر التي ترغب العودة من أجل

---

(1) «جذور وهجرة، مقاربة أنتروبولوجية لواقع الهجرة» في مدينة المنية (شمال لبنان) (مقالة)، د. مها كيّال، مجلة إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد الثاني، ربيع 2008، بيروت لبنان.

الأولاد خوفًا من فقدهم نتيجة تأثر هؤلاء بنمط الاستقلالية الفردية التي يحياها أبناء جيلهم في الغرب.

5. **بروز ظاهرة التبادل الزواجي**، مع حرص المهاجرين على بناتهن من ثقافة المجتمع الغربي، أخذ بعضهم يرسلهن إلى الوطن عند بلوغهن سن الزواج لتمضية الصيف مع الأهل والهدف بالطبع هو رغبتهم في التعرف على شباب من الوطن الأم حتى أصبح هناك مفهوم جديد للزواج: عريس مقابل فيزا للهجرة.

6. **فائدة التحويلات المادية**، شكلت العملات الصعبة المحولة من المهاجر إلى المقيم رافعة اقتصادية لأسر كثيرة عبر استثمار ما يرسله المهاجرون لذويهم في الوطن من أجل تحسين أحوالهم، تأمين فرص عمل لأبناء الأسرة، أو تأمين زوجات وأزواج أو إعمار المنزل وتحسين تأثيثه.

*** ظاهرة اللجوء السياسي.**

يحتل موضوع اللجوء أهمية كبيرة ومتزايدة لاسيما في السنوات الأخيرة. والدوافع التي أملت إيلاء موضوع اللجوء الإقليمي واللاجئين هذه الأهمية هو تزايد حجمها وتفاقمها وانتشارها في قارات مختلفة من العالم، والأسباب التي تدفع إلى اللجوء عديدة منها: الحروب الأهلية والصراعات الداخلية وعدم الاستقرار السياسي والأمني في بعض البلدان ،وانتهاك حقوق الإنسان في العديد من دول العالم سواء كانت موجهة إلى جماعات عرقية أو أثنية أو دينية أو سياسية، أو كانت موجهة إلى كل المعارضين لنظام حكم معين أو للاتجاه السياسي السائد أو بسبب الخلافات العقائدية، ما يضطر العديد من الأفراد إلى الفرار و اللجوء إلى دول أخرى طلبًا «للحماية أو اتقاءً للاضطهاد أو التعسف» ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى اللجوء الإقليمي هي النزاعات المسلحة بين الدول المتجاورة أو التي تتعرض إلى غزو أو اعتداءات خارجية، كما إن العنف السياسي يلعب دورًا بارزًا في تصعيد حدة اللجوء الإقليمي. وبسبب هذه الظروف ظهرت جماعات كبيرة من اللاجئين من قارات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

رغم الصعوبة في تعريف من هو اللاجئ لغرض تحديد من له حق الاستفادة من اللجوء الإقليمي والتمتع بالضمانات التي يوفرها القانون الدولي لأمثال هؤلاء يمكن أن نورد تعريفًا «نسبيًا» عنه هو: (إن اللاجئ هو الشخص الذي ابتعد عن وطنه الذي ينتمي إليه خشية أو هربًا من الاضطهاد لأسباب تتعلق بالعرق أو الدين أو الجنسية أو الرأي السياسي أو الانتماء إلى فئة اجتماعية خاصة، ولا يريد أن يضع نفسه تحت حماية بلده الأصلي) ونصت (المادة 14) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان صراحةً على حق كل فرد في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هربًا من الاضطهاد ولا ينتفع من هذا الحق في المحاكمات المستندة إلى جرائم غير سياسية أو أعمال مخالفة لأغراض ومبادئ الأمم المتحدة.

اللجوء ما زال ينظر إليه من قبل العديد من دول العالم وخصوصًا دولة اللاجئ التي فر منها إلى دولة أخرى قبلته أو ساعدته على اللجوء على أنه عمل غير ودي، وتنظر إليه بشك وريبة ويفسر بعض الأحيان على أنه عمل عدائي كما أن منح حق اللجوء عمل سيادي بمعنى أن للدولة الحق في أن تمنح حق اللجوء على أراضيها لأشخاص فارين من بلاد أخرى عملًا بما ورد في المادة 14 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التي تشير بأن لكل مضطهد الحق في اللجوء إلى بلدان أخرى فرارًا أو هربًا من الاضطهاد. والاضطهاد هنا واسع ويمكن أن يكون اللاجئ انتهك أو خرق كل أو بعض حقوقه وحرياته لأسباب تتعلق بالعرق أو الدين أو الجنسية أو الرأي السياسي أو الانتماء إلى جماعة معينة، ويؤكد الإعلان بصريح العبارة على أن للمناضلين المكافحين ضد الاستعمار حق التمتع باللجوء الإقليمي وقد أوجبت المادة الثانية من الإعلان المجتمع الدولي أن يهتم بحالة اللاجئين الذين ينطبق عليهم هذا الوصف مع عدم المساس بسيادة الدول. ولا يجوز أن يخضع اللاجئ لتدابير منها إجراءات منع اجتياز الحدود وإذا كان قد دخل أراضي دولة ما بالفعل فلا يجوز ترحيله أو إرغامه على العودة إلى الدولة التي قد يكون فيها عرضة لأي نوع من أنواع الاضطهاد.

الموضوع الرابع:
ما بعد الحداثة (المستقبليات)

من خلال دراسة الحداثة كظاهرة تاريخية تبرز دلالاتها كرمز فاصل بين مجتمع متأثر بالمبتكرات الجديدة من العلم والصناعة والأفكار ومجتمع آخر لمّا يتح له فرص الأخذ لها، وبذلك تصبح المجتمعات تصنف بناءً على مدى أخذها للأفكار المستحدثة ومدى تخلفها عنها، حيث تبين للباحثين أن الحداثة حيث الاتباع التام لأساليب الحياة التقنية والتي يمكن أن يكون في أكثر من مجال:

1) **التحديث الصناعي**: ويبرز من خلال زيادة تقسيم العمل، وفرة الإنتاج وتنظيم المجتمع لكفاءاته العلمية، متابعة التطور الصناعي وآخر المبتكرات التقنية.

2) **التحديث الثقافي**: من خلال الدخول في ميادين معرفية جديدة، تخصصات جامعية مستحدثة، وأنماط حياة عصرية في أساليب العيش.

3) **التحديث المؤسسي**: من خلال تعديل أنظمة عمل المؤسسات، انحسار البيروقراطية، الاتجاهات الديناميكية في عالم الأعمال، تبدّل في نمط العمل الإداري للشركات ومؤسسات الخدمة.

4) **التحديث السياسي**: مع غياب الأيديولوجيا الموحدة، غياب القيادة المركزية، تغلّب التعددية وبروز التجمعات الشعبية على حساب الحزب السياسي التقليدي.

وفق هذه المستويات من التحديث تُفهم الحداثة بأنها العملية التي تنتقل بواسطتها المجتمعات (الجماعات/ الأفراد) من نمط حياتي ثابت إلى آخر

مغاير عنه، ناتج عن تطور بنى الإنتاج وانتشار التكنولوجيا والقدرة على الابتكار والتعلّم لفهم أسرار الطبيعة وتجييرها لخدمة البشرية. التحديث نمط شامل من المتغيرات في وقت واحد وعلى مستويات عدة، هو شكل من أشكال المحاكاة والمنافسة ونقل لنماذج ومنتوجات التكنولوجيا المختلفة من الأقطار الغربية إلى الأقطار الأقل تقدمًا. وترى بعض النظريات بأن الحداثة تشير إلى قدرة الإنسان على التعلم والتعليم وزيادة قدرة الجماعة على استخدام المعلوماتية. لهذا تعود كل أشكال التحديث إلى وجود منظمات متخصصة وإلى وجود أشخاص مميزين معرفيًا يعرفون بـ«مفاتيح الأدوار»، في التحديث الصناعي هناك العمال المجددين والمخترعين، في التحديث الثقافي الأدوار تكون للمهاجرين والطلاب والأعضاء المتحررين من القبلية، وفي التحديث المؤثر تكون للساسة والمفكرين. في عالم التحديث يتميز أصحابه بمستوى عالٍ من التمايز وبخصائص معينة مثل:

- ✓ شعور ملحوظ بالكفاءة الشخصية.
- ✓ مستقلون في علاقاتهم بالمصادر التقليدية للتأثير.
- ✓ مستعدون لاستقبال الأفكار والخبرات الجديدة.
- ✓ يكونوا ذو عقلية منفتحة ومرنة.
- ✓ يشاركون في الشؤون العامة وينظمون التنظيمات المحلية والقومية.

قد يُخيّل لبعض الناس أن الحداثة هي حضارة العمران وبناء المصانع وتنظيم الأطر المؤسسية، إلا أن هذا التقدم قد يكون نواحٍ من الحضارة لأن الحداثة الحقة هي الحضارة المرتكزة على جوهر القيم الإنسانية والأخلاق والفن التي بمقدار ما يحافظ عليها المجتمع يتقدم ويزدهر، إذ لا معنى للحضارة دون فضائل أخلاقية ولا جدوى للحداثة إن لم ترتكز على تراث راسخ من الثقافة الأصيلة. وهذا ما يُعرف بالتحديات المرتقبة التي تواجه المجتمعات التقليدية في فضاءات التقدم والتواصل مع المجتمعات الأكثر تقدّمًا أو المختلفة عنها ثقافة وحضارة. هذه التحديات باتت اليوم مثار جدل لدى كثير من الباحثين (ماركس/ غدنز/ ديفيد هارفي/ أرنستو لاكلو) من خلال

تناولهم لموضوع العولمة والهوية وما بعد الحداثة والواقع المستقبلي. باعتبار الحداثة هي تثوير دائم للإنتاج وإزعاج متواصل لجميع العلاقات الاجتماعية وعدم استقرار مستديم لما هو ثابت، مما يعني أن الحداثة لا تحدد فقط بصفتها تجربة العيش مع التغيير السريع والواسع وإنما هي أيضًا شكل من الحياة يقوم على درجة عالية من التفكر. يتخذ هويات جديدة وإنتاج ذوات أخرى.

1 ـ العولمة:

يمكن وصف العولمة بأنها عملية يتم من خلالها تعزيز الترابط بين شعوب العالم في إطار مجتمع واحد لكي تتضافر جهودهم معًا نحو الأفضل. تمثل هذه العملية مجموع القوى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية. إلا أنه غالبًا ما يستخدم مصطلح «العولمة» للإشارة إلى **العولمة الاقتصادية**؛ أي تكامل الاقتصاديات القومية وتحويله إلى اقتصاد عالمي من خلال مجالات مثل التجارة والاستثمارات الأجنبية المباشرة وتدفق رؤوس الأموال وهجرة الأفراد وانتشار استخدام الوسائل التكنولوجية. حيث من مزاياها كظاهرة أن تشتمل في حد ذاتها على مجموعة من العمليات الصغيرة التي تهدف إلى نزع سيطرة الدول على كل ما أسسَّ فيها ليكون قوميًا، سواء على مستوى السياسات أو رأس المال أو الأهداف السياسية أو المناطق المدنية والحدود الزمنية المسموح بها أو سواء عبر تقليل وإزالة الحدود بين الدول بهدف تسهيل تدفق السلع ورؤوس الأموال والخدمات والعمالة وانتقالها بين الدول. ويعرّف «توم جي بالمر» (Tom G. Palmer) من معهد كيتو Cato Institute (بواشنطن)، العولمة بأنها عبارة عن «تقليل أو إلغاء القيود المفروضة من قبل الدولة على كل عمليات التبادل التي تتم عبر الحدود وازدياد ظهور النظم العالمية المتكاملة والمتطورة للإنتاج والتبادل نتيجة لذلك».

تعتبر العولمة بمثابة عملية تمتد عبر العديد من القرون وتتأثر بنمو السكان ومعدلات ازدهار الحضارة والتي زادت بشكل كبير على مدار الخمسين سنة الماضية. تمثلت أولى أشكال العولمة في أثناء وجود

الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية فارس القديمة. كذلك، يعد العصر الذهبي الإسلامي مثالًا واضحًا على انتشار العولمة؛ وخاصةً عندما أسس المستكشفون والتجار المسلمون أول نظام اقتصادي عالمي في العالم القديم، مما ترتب عليه انتشار العولمة في الكثير من المجالات مثل المحاصيل الزراعية والتجارة والعلم والمعرفة وقد بدأت العولمة في الانتشار بشكل أكبر بتوسع التجارة الأوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما استطاعت كل من الإمبراطورية الإسبانية والبرتغالية استعمار أمريكا بعد استعمار فرنسا وإنجلترا لها. وقد استطاعت بريطانيا فرض أفكارها وثقافتها الخاصة بها على الدول الأخرى في أثناء تلك الفترة. حتى أصبح يُطلق على القرن التاسع عشر «العصر الأول للعولمة». ومع حلول القرن الحادي والعشرين، شهدت الكثير من الدول الصناعية في العالم فترة كساد وركود كبيرة. وقد صرح بعض المحللين أن العالم سيشهد فترة لن يتم فيها السعي وراء تحقيق العولمة بعد المرور بسنوات من ازدياد التكامل الاقتصادي بين مختلف الدول.

تعد العولمة منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية نتيجة بارزة لتخطيط القادة السياسيين الهادف إلى إزالة الحدود التي تعرقل التجارة بين الدول سعيًا وراء زيادة معدلات الرخاء الاقتصادي واعتماد الدول على بعضها بعضًا، لقد تم تقليل الحواجز التي تعترض التجارة الدولية بشكل كبير منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية من خلال العديد من الاتفاقيات الدولية مثل اتفاقية الجات. وقد تم تنفيذ مبادرات خاصة كنتيجة للتوصل إلى اتفاقية الجات؛ وقد تضمنت هذه المبادرات ما يلي:

* تعزيز التجارة الحرة باتباع الآتي:

- ○ إلغاء التعريفات الجمركية وإقامة مناطق للتجارة الحرة بتعريفة بسيطة أو دون تعريفة على الإطلاق.
- ○ تقليل تكاليف النقل وخاصة الناتجة عن تطور عمليات نقل البضائع بحاويات الشحن البحري.
- ○ تخفيف أو إلغاء الضوابط والقيود المفروضة على رؤوس الأموال.

○ تنسيق القوانين الخاصة بالملكية الفكرية عبر معظم الدول مع فرض المزيد من الضوابط عليها.

○ الاعتراف دوليًا بتطبيق الضوابط المفروضة على الملكية الفكرية بشكل يتخطى الحدود والسلطات القومية (على سبيل المثال، يتم الاعتراف في الولايات المتحدة الأمريكية بصلاحية براءات الاختراع التي تمنحها الصين).

إذا ما نظرنا إلى العولمة الاقتصادية على وجه الخصوص، فإنه سيتضح إمكانية تحديد مستويات لها بعدة طرق مختلفة. وهذه الطرق تتمركز حول أربعة تدفقات اقتصادية رئيسة تتسم بها العولمة منها: **السلع والخدمات**: (أي الصادرات والواردات التي تمثل نسبة من الدخل القومي بالنسبة لكل فرد من السكان)، **العمالة/الأفراد**: (عبر معدلات تدفق الهجرة الداخلية والخارجية وحسابها من جملة السكان)، **رؤوس الأموال**: (الاستثمارات المباشرة الداخلية والخارجية كنسبة من الدخل القومي بالنسبة لكل نسمة)، **التكنولوجيا**: لجوانب البحوث والتطوير الدولية واستخدام اختراعات تكنولوجية معينة مثل التليفون والسيارة والشبكات عالية السرعات).

أما عن **العولمة الثقافية**، فتتمثل في إمكانية وصول الفرد بشكل أفضل لشتى صور التنوع الثقافي. واستيعاب كل ما هو جديد من الثقافات بشكل عام. ذلك إن العولمة قد عملت على الربط بين الثقافات المختلفة وقامت بتحويلها إلى شيء مختلف وفريد من نوعه. كما تم التصريح عنه في إحدى مقالات مجلة National Geographic تحت عنوان «العولمة» بالقول: «عندما تستقبل الثقافات مختلف التأثيرات الخارجية، فإنها تستوعب بعضها وترفض البعض الآخر منها؛ ثم تعمل بعدها فوريًا على تحويل ما تم استيعابه على الجانب الآخر. ومع امتزاج الثقافات، يُصبح استخدام لغة دولة أخرى في أحاديث الأفراد أمرًا عاديًا».

فالثقافة تعبر عما يتناوله الأفراد من طعام[1] وما يرتدونه من ملبس، كما

(1) تشتهر الولايات المتحدة الأمريكية بالبرجر والبطاطس المحمرة. قديمًا، كان الطعام المقدم في مطاعم ماكدونالدز هو الطعام المفضل لدى الأمريكيين بوجباته السريعة المتعددة الشهية. =

أنها تعبر عن المعتقدات والأفكار التي يتبعونها والأنشطة التي يمارسونها.

ومع اعتبار الأهمية التعددية الثقافية كأمر مفيد من أجل تعزيز السلام وسبل التفاهم بين الشعوب. يعتبر البعض أن الثقافة الواردة إلينا من الخارج (أو ما تسمى بالثقافة المستوردة) تمثل خطرًا كبيرًا منذ احتمال أن تحل محل الثقافة المحلية، مما يتسبب في حدوث انخفاض في معدلات التنوع، وهذا ما يعرف بالاختراق للخصوصية الثقافية، لقول الدكتور محمد عابد الجابري «أن العولمة تعني: نفي الآخر، وإحلال الاختراق الثقافي .. والهيمنة، وفرض نمط واحد للاستهلاك والسلوك». أي أن الغرب: يريد فرض نموذجه وثقافته وسلوكياته وقيمه وأنماطه واستهلاكه على الآخرين، تتجلى في رموز شتى أبرزها سيادة اللغة الإنجليزية كلغة التقدم والاتجاه نحو العالمية، وسيطرة سينما هوليوود وثقافتها الضحلة وإمكاناتها الضخمة، ومشروب الكوكاكولا وشطائر البرجر والكنتاكي حتى بدت لبعض الباحثين على أنها بمثابة غزو ثقافي اجتماعي اقتصادي سياسي يستهدف الدين والقيم والفضائل والهوية، كل ذلك باسم العولمة وحقوق الإنسان.

أغلب التعريفات التي قدمت استقرت على أن العولمة هي ظاهرة تتداخل فيها أمور السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع والسلوك، وتحدث تحولات تؤثر على حياة الإنسان في كوكب الأرض أينما كان، وتبرز بفعل هذه التحولات قضايا لها صفة العالمية مثل قضايا البيئة، وتشابك أدوار المنظمات الأهلية المحلية والمنظمات الأهلية متعددة الجنسيات، فضلًا عن دور منظمة الأمم المتحدة والمنظمات المتخصصة المنبثقة عنها. ويقول أحد المتخصصين: «إذا أردنا أن نقترب من صياغة تعريف شامل للعولمة، فلا بد من أن نضع في الاعتبار ثلاث عمليات تكشف عن جوهرها:

= أما الآن، فقد أصبح هذا المطعم مطعمًا عالميًا؛ حيث أضحى له 31،000 فرع حول العالم وفي هذا الصدد يقول الصحافي توماس فريدمان في كتابه: «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون»: «إن حربًا لا يمكن أن تنشب بين بلدين افتتحت فيهما مطاعم ماكدونالدز»، وذلك إشارة منه إلى انضوائهما في العولمة الاقتصادية والثقافية.

- ✓ العملية الأولى، تتعلق بانتشار المعلومات بحيث تصبح مشاعة لدى الناس جميعًا.
- ✓ العملية الثانية، تتعلق بتذويب الحدود بين الدول.
- ✓ العملية الثالثة، هي زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات».

2 ـ الهوية:

الهوية بالنسبة للفرد هي الذات الخاصة تتحدد على أنها مصدر معنى وتعبير، فالمعنى المخصوص للذات هو حجر الزاوية في مفهوم الهوية الذاتية عند الفرد بوصفها بناءً اجتماعيًا ديناميكيًا لوعي الفرد بذاته عبر العلاقات مع ذاتيات أخرى، وهنا الآخرين أشخاصًا معينين ذوي دلالة واعتبار، أما على صعيد الجماعة تعني الهوية مدى قدرة جماعة على أن تتعرف إلى ذاتها ويتعرف إليها الآخرون، هي تتضمن معنى الديمومة والتماسك داخل الرموز الاجتماعية والهوية المخصوصة سواء للذات الفردية أو الجماعية هي سلوكات شبيهة بالمسرحة الاجتماعية تجسدها أنماط التواصل والثقافة والسلوكات والكلام والمظهر الجسدي الدال. وهذا ما يعنيه السوسيولوجي (أنتوني غدنز) في اعتباره الهوية نوعين: الهوية الاجتماعية والهوية الشخصية، ويمكن التمييز بين هذين النوعين عن طريق التحليل إذ يمكن النظر إليهما من خلال علامات تدل على ماهية الشخص لناحية الجنوسة والجنسية أو المنطلقات الدينية (ومن الأمثلة على الهوية الاجتماعية: الطالب / الأم / المحامي/ الآسيوي/ الكاثوليكي/ المتزوج..) ومؤشرات تحدد موضع أفراد آخرين يشاركونه الخصائص نفسها..وعلى هذا الأساس فإن الهويات الاجتماعية تتضمن أبعادًا جماعية تعطي مؤشرات على أن الأفراد «متشابهون» مثلهم مثل غيرهم .. والهويات المشتركة هي التي ترتكز على منظومة من الأهداف والقيم والتجارب...

أ ـ أزمة الهوية:

في مهرجان سينمائي أوروبي أثار فيلم فلسطيني (وهو فيلم يتناول

تحضيرات المقاومين الملتزمين لعملية استشهادية ضد اليهود) بعنوان «الجنة الآن» (2006) حفيظة المنظمين والمشاركين خاصةً اليهود، وحاولوا إبعاده عن مشاركات المهرجان، لكن منتجو الفيلم أصروا على وجوده حرصًا منهم على إبراز هويتهم وخصوصيتهم في ثقافة المقاومة والاستشهاد. وفي السياق ذاته انزعج مسؤول فرنسي رفيع من تحول نمط حياة الجيل الفرنسي نحو أنساق ثقافية مغايرة وخاصة منها الأميركية، ليتوقف إزاءها قائلًا: «**لم يعد من الجائز أن يربى أولادنا على أفلام تنتجها هوليوود**» وكأن في ذلك دعوة إلى ضرورة المحافظة على الحياة الفرنسية في التنشئة و التربية.

في هذه المشاهد ثمة حرص من قبل بعض الجماعات / المجتمعات على التمسك أو العودة إلى خصوصياتها الثقافية باعتبار أن هذه الخصوصية تمثل تصورات قيمة تعبر عن حياة الجماعة، تستمد حيويتها من حضورها اليومي بممارسة العادات والتقاليد وشعائر الدين وسائر القيم المتفق عليها. في الخصوصية يكمن سر التكامل الاجتماعي عندما تحاول كل جماعة أن تنمي ثقافتها الخاصة بها بإقامة طقوسها الاحتفالية بحميمية ملحوظة، وأي تخل عن هذه الممارسة يُعتبر اندثار لما يميز هذه الجماعة كجماعة مستمرة بالزمن والمكان وإلا أصبحت بلا هوية أصيلة. إن هذا الترابط بين ما هو محلي (خصوصي) وما هو عالمي (عولمي) هو ظاهرة قديمة ـ جديدة في تاريخ الدول والشعوب، لكن ازداد هذا الترابط كثافة وسرعة واطرادًا خلال العقود الأخيرة بفعل مجالات الاتصال وتقنية المعلومات وتيسر المواصلات التي انعكست على حركة السلع والناس والمعارف في أن يتواصلوا بشكل فوري وفعال، إلا أنه ترك تداعيات على هويات الشعوب الثقافية وأصبح الحديث عن الخصوصية إزاء العولمية، والمحلي إزاء العالمي، والخاص أمام الشمولي، بمثابة المآزم تتجلى مظاهرها في أنها:

1 ـ عززت النزعة الفردية بشكل ملحوظ وجعلت الفرد ينقطع ويستغني عن جماعته، فانتشار الوسائل الاتصالية وما تركته من آثار معرفية أخذت تتيح للناس الإسهام بدور أكبر في تكوين أنفسهم وبناء هويتهم الخاصة فانحسرت معها وطأة التقاليد والقيم الراسخة و تزايد التفاعل مع

جماعات خارجية وتناقص وزن الرموز الاجتماعية التي كانت تحدد الملامح الرئيسة لخيارات الناس وأنشطتهم.

2 ـ غيرت من أنماط العمل حتى جعلته بكل تفاصيله رقميًا أمام أعيننا على جهاز الكومبيوتر وعلى شبكة الإنترنت التي أصبحت بمثابة مكتبة ضخمة، متجر واسع، أرشيف هائل، ملعب فسيح، منظم حسابات، مبرمج معلومات، مما يعني اختصار لعدد العمال والوقت والجهد.

3 ـ قولبت الناس في أفكار ونمط حياة متقارب عن طريق تحقيق التجانس وتوحيد القياس بين الناس، بحسب ما قاله الصحافي الأمريكي (توماس فريدمان) في كتابه عن العولمة «بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» عبر إيجاد نموذج كوني موحد للقارئ والمستمع والمشاهد.

4 ـ أوجد تفكيرًا جديدًا على حساب الثقافة المحلية السائدة حتى اختلفت طبائع الأجيال وأخذت تطرح معها تحديات مرتقبة، كما حدث في تايلندا (2002) عندما قام فريق من الباحثين وبناءً على طلب من وزارة التعليم وضع برامج تعليمية عن الجنس لتدريسها في المدارس بعدما كان الخوض في هذا الموضوع محرمًا، حيث يفيد مستشار في معهد الأبحاث الصحية التابع لإحدى الجامعات في بانكوك أن الانفتاح على العولمة ووسائل الاتصال الحديثة لها أثر على شبابنا لما يتعلق منها بالجنس لهذا يمكن تعليمه شيئًا منها تجنبًا لمشاكل اجتماعية ونفسية. (رويترز 18/ 10/ 2002).

عن هذه الظاهرة يستخدم علماء الاجتماع تعبير العولمة باعتباره تلك العمليات التي تضفي الزخم والكثافة على العلاقات الاجتماعية المتداخلة والاقتصادية المتبادلة والمعرفية المتنقلة، حتى غدت بالغة الاتساع وعظيمة الأثر في تداعياتها ليس فقط على مسار السياسات العامة وإنما في حياتنا اليومية المباشرة، وتتزايد التركيز على الهوية مع تصاعد سيرورة العولمة التي يرى فيها أصحاب فكرة الهوية الضيقة، خطرًا ماحقًا على الثقافات الأخرى «غير الغربية». ويطابق البعض بين العولمة والإمبريالية أو القطب الغربي

الواحد، ويرون فيها مخططًا أو حتى مؤامرة للهيمنة على الثقافات الأخرى: بوعي وقصد، فالعولمة حين تسقط الحواجز والحدود ويتحول العالم إلى قرية تهدد بالفعل ثقافات أخرى ولكن ليس بقصد المؤامرة والمخطط بل بحتمية تطور التداخل: ثقافيًا واقتصاديًا.

وقد يقف دعاة الهوية عمومًا أمام خيارين (أقرب إلى المستحيل) وقف العولمة أو تعميق الخصائص والميزات والصفات التي تحصّنها من أي تأثير خارجي. يرى البعض صعوبة تحديد وتعيين الهوية أو الخصوصية على صعيد الواقع وبالتالي اعتبر الكثيرون أن مفهوم الهوية مصطلح أيديولوجي أكثر منه علمي. وذلك لأن الهوية يمكن التعبير عنها أو تجسيدها من خلال الدين أو اللغة أو الدولة الوطنية أو القومية. وكل هذه خصائص متغيرة حسب طريقة استخدامها وتوظيفها، لذلك يمكن لمجتمع واحد أن يبدل «هويته» حسب المراحل المختلفة تاريخيًا ووفقًا للظروف الحاكمة. وهذا ما يجعل الهوية تتداخل مع مصطلحات عديدة مثل الخصوصية الثقافية، الاستثناء الثقافي، إزاء وجود هوية مختلفة مما يتطلب سلوكًا وردود فعل مختلفة أو حتى مقاومة لما يمكن أن يعتبر تهديدًا للهوية بسبب «غزو ثقافي» مثلًا وعندها نصبح في أزمة هوية.

3 ـ ما بعد الحداثة:

منذ الخطوات الأولى لنشوء ما يعرف بـ«عصر المعلومات» أو الحقبة الإلكترونية أو القرية العالمية أو ما بعد المجتمع الصناعي، والتساؤل مشروع حول ما يحدثه هذا العصر من آثار في فئات المجتمع كافة من أفراد أو جماعات أو مؤسسات، ليجتهد الباحثون نحو إيجاد مجموعة من الآراء حول التأثير الاجتماعي والنفسي والمعرفي لتداعيات هذا الحقبة، وكشف أولويات هذا التأثير الناتج عن العلاقة بين وسائل الاتصال والأوساط الواسعة من شرائح المجتمع، والتنبؤ بالتحولات الممكنة عند الناس على صعيد السياسة والعادات والطباع والأفكار والانفعالات في الحياة اليومية، وليس هنالك شك من أن ما يُرمز إليه بالتغييرات يمكن تبيّنها من صيغتين: صيغة أولى تسمح بدراسة قدرات وسائل الإعلام على مسار الحياة اليومية باعتبارها جزءًا مهمًا

في عملية الاتصال نظرًا لقدرتها على التحكم بالشروط الخاصة لظاهرة الاستقبال والإرسال، وصيغة أخرى توقفت عند نوعية الأثر بعد مرحلة الاتصال والاستقبال بدراسة أمور مثل: أمزجة الجمهور، آلية التقبل، الآراء والتصورات والأذواق وما إلى ذلك من تبدلات في السلوك.

وعن نمط العلاقة المعقدة بين الاتصال كوسيلة والشخصية الاجتماعية. يتحدث (ألفن توفلر) في كتابه «الموجة الثالثة» عن ثورة ما تحدث من جراء هذه العلاقة، فبرأيه الإعلام والمجتمع الذي ينشأ فيه صنوان، فلا يمكن أن يتغير الإعلام بوسائله ونتوقع بأننا كأشخاص وكهيئات لن نتغير.. فهل انتهى عصر «ما بعد الحداثة» وحل عصر «الثقافة الإلكترونية». وهو عصر له ملامحه ومبادئه وأخلاقياته.؟ على الرغم من أن كل هذا لا يزال في طور التشكل والتحول، فإن كثيرين يرون أننا ندخل أكثر العصور ديمقراطية في التاريخ. ما سمات العصر الجديد الذي نعيشه؟ وبماذا يختلف عن عصري «الحداثة» و«ما بعد الحداثة»؟ خلال أكثر من 400 سنة، تطورت الثقافة الغربية من «كلاسيكية» (تقليدية) إلى «رومانتيكية» (خيالية) إلى واقعية إلى حداثة إلى ما بعد الحداثة إلى الحقبة الإلكترونية كما أسماها (ألفن توفلر) أحد خبراء المستقبليات، وتتميز هذه الحقبة بشيوع الثقافة الإلكترونية التي ترى نفسها ثقافة من نوع جديد. و تميل نحو الليبرالية أو الليبرالية الجديدة. وتراها فلسفة يمكن أن تطبق على السياسة والاقتصاد والمجتمع. ولا تُذكر الثقافة الإلكترونية إلا وتذكر معها ثقافة الإنترنت الذي جعل العالم قرية واحدة صغيرة، وجعل نفسه حلقة الاتصال. وتقول آخر الأرقام إن 500 مليون شخص يشتركون في الموقع الاجتماعي «فيس بوك» يكتبون بأكثر من مائة لغة. ولم تعد اهتمامات الجيل الجديد شرائط الفيديو الغنائية، بقدر ما أخذ يهتم بالأخبار والتحليلات التي تعنيه ويشترك في الحملات الوطنية مثل تشجيعه على التصويت في الانتخابات. ومؤخرًا، ظهرت علامات ثقافية أخرى لهذ الجيل الإلكتروني: موقع «youtube» لشرائط الفيديو، وموقع «facebook» للاتصالات الاجتماعية. وصارت ماكينة البحث «google» ودائرة المعارف الإلكترونية «ويكيبيديا» عماد هذه الثقافة الجديدة.

يعكس عصر ما بعد الحداثة، أن «الثقافة الإلكترونية ستكون أكثر ديمقراطية من أي ثقافة سبقتها. حيث في مطلع القرن التاسع عشر استطاعت أفكار الثورة الفرنسية أن تكسب أنصارًا لها في إسطنبول وشنغهاي وبوينس إيريس، وقد انتقلت إلى هذه العواصم بفضل عربات الخيل والسفن قبل ثورة البخار وفي مطلع القرن العشرين تمكنت الأفكار الاشتراكية من أن تغزو العالم بواسطة القطارات التي كانت تستغرق أيامًا لكي تصل. أما اليوم لم يعد لزامًا أن تنتظر أيامًا كي تصل أفكارك إلى حيث تريد . . فإمكانات الاتصال البصري والسمعي لم يعد يعوقه أي حاجز جغرافي أو سياسي أو حتى ثقافي. . تيسَّر انتقال الأفكار بشكل غير مسبوق في تاريخ تواصل المعلومات، فالصحف مثلًا أصبحت تصدر في طبعات مختلفة وتوزع في اليوم نفسه في أكثر من منطقة، والكتب تترجم إلى عشرات اللغات وأصبح بمقدورها أن تدخل أي عالم. بفضل ماذا؟ بالطبع بفعل التقدم الهائل لتكنولوجيا الاتصال، الذي ألغى المسافات واختصر الزمن معًا، وأوجد مناخًا اجتماعيًا مفتوحًا عندما أزال موانع الالتقاء والتفاعل بين الشعوب والثقافات. لم يعد هناك عزلة حتى عند أبناء الجماعات الأثنية أو العرقية أو الدينية المنتشرة في أصقاع المعمورة. فالمهاجر التركي إلى ألمانيا يمكنه أن يعيش في وطنه واقعيًا بافتراض آلي ليس عبر القناة الفضائية الخاصة بموطنه التي تبث له الأغاني والأخبار التركية ولكن بالاتصال التفاعلي عبر الإنترنت الذي أخذ يُتيح له قراءة الصحف الصادرة في إسطنبول أو أنقرة صباح كل يوم قبل أن يذهب إلى عمله في برلين أو فرانكفورت، وأكثر من ذلك يسَّر له أن يقيم مع ذويه حين يعود مساءً سهرة حميمية «يدردش وإياهم ويراهم ويرونه» كأنهم جميعًا على شرفة منزله في بيته المحلي.

وبالمثل يمكن للبناني المقيم في باريس أو مونتريال أن يطمئن عن أخبار الأهل يومًا بيوم حتى ولو لم يكن موجودًا عبر أكثر من وسيلة (المجيب الآلي/ الهاتف الخليوي/ البريد الإلكتروني) لم نعد ـ وكما عبر أحدهم ـ «نشعر بالانفصال عن تفاصيل الحياة اليومية بالبلد الذي نترك، كنا في السابق ننقطع فعليًا عن أقاربنا وأصحابنا وأعمالنا في حين أننا اليوم قد نغيب ونعود قبل أن

يلاحظ أحد غيابنا» فالغربة لم تعد غربة أو هجرة لأن المسافات لم تعد بعيدة بفعل وسائل التواصل المتاحة، إذ أي واحد منا لا يتابع أخبار بلده وحسب وإنما أخبار حيه ومنزله. مما يعني أن ثمة أثنيات أقامت أوطانها على شبكة الإنترنت بحيث أصبح بمقدورها أن تتواصل فيما بينها مهما تباعدت مهاجرها.

لقد أعطت التطورات الجديدة في مجال تقنية المعلومات والاتصالات زخمًا جديدًا لمسيرة التفاعل بين الناس ووسعت مجالاته وعجلت به في مختلف أرجاء العالم. يمكن أن نأخذ مثالًا على ذلك الأحداث السياسية العالمية أو المناسبات الدولية الهامة كمباريات كرة القدم التي يشاهدها ملايين من البشر ويتفاعلون معها في آنٍ واحد[1].

وفي السياق ذاته قرر بعض علماء الاجتماع الأمريكيين دراسة أثر تكنولوجيا الاتصال على الحياة الاجتماعية عند بعض العائلات الأمريكية (في مقاطعة كاليفورنيا خلال العام 1991 ليتبين طغيان وسائل الاتصال والإعلام بشكل مباشر على حياتهم اليومية بدءًا من البريد الإلكتروني ((E-mail)) ويب بيج (WebPages) الهاتف الخليوي، المجيب الآلي، المفكرة الإلكترونية (Digital organizers) المستقبل الآلي (Pagers) حيث أصبحت هذه الوسائل بجملتها في متناول العائلة/ الفرد الواحد وتسمح لمستخدمها أن يبقى على تواصل أينما وجد مع أفراد عائلته. واستنتجوا أن هناك ما يسمى (MULTITASKING) عندما رأوا بأن:

Families are socialized into multitasking as the social norm

أي أخذ يتضاءل الاهتمام بأداء عمل واحد في وقت محدد شيئًا فشيئًا وبات بالإمكان القيام بأكثر من مهمة في نفس الوقت ولو كنت تقود سيارتك فأنت محوط بأكثر من وسيلة اتصال.

(1) عندما ربحت إيطاليا كأس العالم لعام 2006 تحرك مناصرو هذا الفريق في شوارع بيروت بمسيرات فرح وابتهاج حتى ساعة متأخرة من الليل وكأن بيروت إحدى أحياء إيطاليا .. مما دفع بالسفارة الإيطالية في بيروت إلى أن تصدر بيانًا تعرب فيه عن «امتنانها الشديد للشعب اللبناني الذي برهن عن دعمه الحار والودي للفريق الإيطالي طوال فترة البطولة» (عن صحيفة النهار اللبنانية 11/ 7/ 2006).

4 ـ المستقبليات.

في كتاب له بعنوان «عالم جدي شجاع» يعرض (ألدوس هكسلي) بعض التنبؤات المتشائمة عن تطورات المستقبل حيث يصور فيه عالمًا تسوده تمييزات اجتماعية صارمة بناء على فوارق بيولوجية من صنع الهندسة الوراثية، وفي السياق ذاته يطرح (جاك إيلول) نظرة سوداوية في كتابه «المجتمع التكنولوجي» إلى أن التكنولوجيا ستكون قوة ماحقة تقمع الشخصية الإنسانية تحت ضغوط بيروقراطية مركزية كما عبر في قوله: «سيكون الإنسان عبدًا طيّعًا للآلة شأن سروال تحت مكواة»، وكأن في ذلك إنكار للنفوذ البشري أمام الهيمنة التكنولوجية حيث ستخضع الإنسان لمآلها ولنظامها الآلوي سواء كانت شبكة قوى أو نظام دفاع أو صناعة، وهذا ما يعرف بالاستجابة للحتمية التكنولوجية التي تتنامى بشكل مذهل قد لا يحسن الإنسان مواكبتها. لقد أحدثت ثورة المعلومات صراعًا جديدًا في العالم اليوم، حيث لم يعد الصراع القائم بين الدول للحصول على مادة ثمينة أو الاستيلاء على نفوذ في منطقة، بل الصراع بين الذي يعرف والذي لا يعرف، صار القوي من يعرف أكثر في عالمه، أو من يملك براءات اختراع أكثر من سواه بين الدول. لأن المعلومات ليست مجرد معرفة، بل مجموعة من المعطيات الأرشيفية إلى أن نقرر نحن: ماذا سنفعل بها. إن الشبكة الجديدة، تكنولوجيا المعلومات الغريبة، التي تضيق على العالم كما تضيق أصابع اليد عنق الزجاجة، أصبح الإنسان معها مواطنًا شموليًا ـ عولميًا وليس محليًا، غدت هي عصب الحياة المعاصرة والقادمة، حتى أصبحت حياتنا أكثر تقبلًا من ذي قبل إزاء التقنية التي غدت جزءًا من حياتنا..

ولعل الحدث الأكبر ما يعرف اليوم ب: BIOTECHONOLOGY، حيث اكتشاف الهندسة الوراثية (الحدث العلمي الهام الذي اكتشف العام 1997 وتضاهي أهميته بأهمية صعود الإنسان إلى سطح القمر)، وعمليات الاستنساخ وتحديد مواصفات الجنين التي تزيد من مآل التكنولوجيا الطبية..بعض علماء الاجتماع أشاروا إلى سمات هذه الثورة التقنية على الواقع الاجتماعي لجهة ما يسمى بظاهرة medicalization حيث التلاعب

بالجينات البشرية لغاية طبية أو علاجية أو شكلية، ما أحدث ذلك صراعًا قيميًا بين متقبل وبين رافض، وطرح المسائل الأخلاقية والسياسية والدينية على بساط الواقع الإنساني والاجتماعي.. هل تعديل الجينات الوراثية هو لغاية علمية طبية بحتة؟ هل يمكن إساءة استخدام هذا التعديل لمآرب أخرى؟ هل يمكن لمثل هذه الحدث الطبي أن لا يترك أية آثار جانبية على صحة الإنسان والبيئة والمجتمع لاحقًا؟ خاصة وإن مثل هذا التعديل طال عالم الحيوان والنباتات فبات هناك ثمار وخضار مهجنة يستهلكها الإنسان يوميًا. هل سيصل بنا الأمر لأن نستنسخ أعضاء بشرية شبيهة من الحيوان والنبات لنزرعها في جسم الإنسان تمامًا كالعضو المصاب وتؤدي دوره؟ يبدو أن الاحتمالات على عالم الطب والمجتمع والصحة مفتوحة على تخمينات كبيرة، ولا زالت التكنولوجيا في طور تقديم الإجابة خاصة وأن الحدث الأبرز الذي يطرح في عالم الطب اليوم هو العلاج الجيني، حيث تجري اختبارات معملية على مجموعة من الفئران لمعرفة إذا كان بالإمكان تعديل الجينات المتعلقة بالسلوك الإنسان السيئ نحو جينات أخرى تحمل مواصفات طيّبة تحد من مخاطر الإجرام والعنف والإدمان[1]، كما تقصى العلماء طبيعة الهرمونات الذكرية والأنثوية فوجدوا أن زيادة هرمون التستوستيرون عند الذكور يكون أحيانًا عاملًا يؤدي إلى العدوان.

التطور التكنولوجي المستقبلي ليس مجرد آلة أو اختراع بل إنه وسيلة معرفية وحركة اقتصادية بامتياز تساعد الإنسان على معرفة البيئة التي يعيش وفق أسهل السبل. كما إنها وسيلة غائية لتحقيق الإنسان حوائجه ورغباته.. لقد تقلص زمن الاختراعات وأصبح بالإمكان يوميًا أن نشهد جديدًا.. لقد تحول الإنسان إلى مواطن عالمي بفضل الإنترنت فبات يشارك في انتخابات ويسجل في جامعة ويشتري مواد استهلاكية من أمريكا إذا كان من مواطني البلاد العربية أو الصين أو في أقاصي البلاد الإسكندنافية. فضلًا عن متابعة آخر الأحداث

(1) بعض نظريات علم النفس تعيد ظروف السلوك العدواني وأعمال العنف إلى أسباب بيولوجية (عطب ما لحق في وظائف الفصوص الأمامية أو الصدغية من الدماغ التي تتحكم بالانفعالات الفجة كانفعال الغضب الهيجاني).

العالمية في لحظة حصولها والدخول في عالم البورصة وشراء الأسهم عبر جهاز صغير يحمله أحدنا بين كفيه، وعليه لا يمكن التنبؤ بالآفاق التي سيرتادها الجيل الرابع والأجيال اللاحقة من الهواتف النقالة ووجوه تقنيّة عديدة مماثلة.. وهذا ما يجعلنا نشير إلى ما هو متداول اليوم في العلوم الاجتماعية من مفاهيم ومواضيع بالمستقبليات.

* علم المستقبليات أو الدراسات المستقبلية هو علم يختص بـ «المحتمل» و«الممكن» و«المفضل» من المستقبل، بجانب الأشياء ذات الاحتماليات القليلة لكن ذات التأثيرات الكبيرة التي يمكن أن تصاحب حدوثها. حتى مع الأحداث المتوقعة ذات الاحتماليات العالية مثل تضخم الإنترنت أو زيادة نسبة شريحة المعمرين ببلاد معينة، لذلك فإن المفتاح الأساسي لاستشراف المستقبل هو تحديد وتقليص عنصر «لا يقين» لأنه يمثل مخاطرة علمية. يمكن اعتبار الدراسات المستقبلية أسلوبًا لدراسة ظاهرة طبيعية أو اجتماعية لجهة تطوير نظرياتها في الوصف والتفسير والتنبؤ بمسارها في المستقبل، عبر ما يعرف بـ «السيناريو المستقبلي»، ولا يأتي هذا السيناريو من لا شيء، بل يعتمد بشكل رئيس على منظومة كبيرة من البيانات المبرمجة والمخزنة والتي يتم تحديثها باستمرار وفقًا للتغيرات في جميع الميادين بناءً على أنه:

- وصف لوضع مستقبلي وسبل إدارته.
- وصف لمستقبل محتمل، أكثر من كونه توقعات محتملة لمستقبل فعلي.
- وضع سلسلة من الافتراضات لأحداث مقبلة.
- رسم صورة متناسقة لمستقبل محتمل.

يعرف علم المستقبل بأنه نظام عمل مبرمج للاستجابة على الأحداث والتطورات الرئيسة داخل إطار من التخطيط المستقبلي للدولة أو لمؤسسة، وذلك بهدف تحقيق النجاح في المدى المنظور عبر سيناريوهات علمية تعمل على وصف وضع مستقبلي ممكن أو مرغوب فيه، وتوضيح خصائص المسار أو المسارات التي تؤدي إليه، بدءًا من الوضع الراهن أو من وضع ابتدائي

مفترض عبر إجراءات نشطة للتعامل مع الأحداث الخارجية أو الداخلية، وتسخير الإمكانات لتحديد الأسلوب وبتوظيف الأشخاص والمنظمات التي سوف تعالج مراحل الأزمة. هذا السيناريو لا بد منه للحفاظ على استمرارية وسلامة الدولة والمؤسسات وعدم تعرضهم لصدمات قوية.

تأتي خصوصية الدراسات المستقبلية وأهميتها في موقفها من الزمن (لا من وجهة نظر فلسفية ولكن من وجهة نظر منهجية) فعادة ما يعد الزمن متغيرًا مستقلًا ويؤخذ كمعطى، ولكن الدراسات المستقبلية تأخذ الزمن بصورة جدية، كإشكالية لا كمعطى، وتنظر إليه على أنه متغير تابع للخبرة الإنسانية والحضارية. من هنا تأتي أهمية التفريق بين الدراسات المستقبلية ووظيفة التنبؤ في العلوم الاجتماعية.

الفصل الرابع
تقنيات بحث سوسيولوجية

1) الملاحظة

2) المقابلة

3) الاستمارة

4) العينة

5) تحليل المضمون

البحث الاجتماعي

مدخل:

برأي بعض الباحثين أن الظاهرة الاجتماعية لا تحدث من فراغ، وأي ظاهرة حاصلة لابد لها من مسببات تجعل الباحث يتساءل أولًا: عن ما حدث؟ كيف حدث؟ ولماذا حدث؟ ويجهد في البحث عن الإجابة عبر طرق ثلاث وهي:

1 ـ **استقرائيًا**، وهي المعرفة التي تقف عند الإدراك الحسي العادي دون أن تسعى إلى تحليل العلاقة القائمة أو سبب وجودها، ويمكن تمثيل هذا النوع من المعرفة عبر الملاحظة اليومية العادية أو المستغربة، مثال (للأشياء الساخنة حرارة).

2 ـ **استدلاليًا**، أي ربط الأمور المحصّلة بالحواس بمسائل أبعد، بأن نرجعها إلى العقل والتحليل والتجربة والفهم الأعمق: مثال: يلاحظ ارتفاع ملحوظ في نسب الطلاق في العديد من المجتمعات العربية، وقد أرجع الباحثون انتشار هذه الظاهرة بشكل واسع إلى أسباب عدة:

1 ـ التساهل في الوازع الديني.

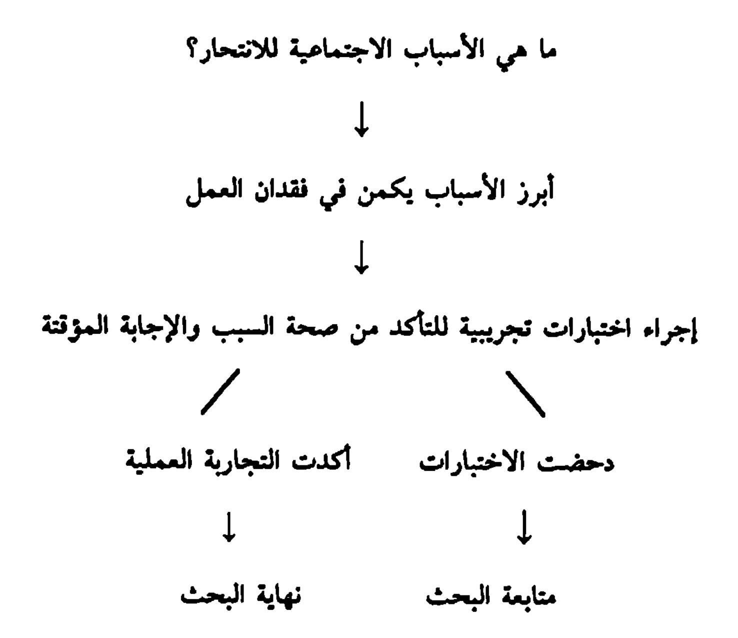
2 ـ تسامح القوانين مع رغبة اثنين متزوجين في الافتراق، دون أن يؤذي أحدهما الآخر بمشاكل قائمة.

3 ـ تدنّي مستوى الدخل.

4 ـ فرص الاكتفاء المادي لدى المرأة (لم تعد تابعة إنّما مستقلة).

5 ـ تبدل في القيم عند شباب اليوم في مفهومهم للزواج كرباط مقدس. .

3 ـ علميًا، أي التجربة والعمل الاختباري، مع هذه الطريقة ـ والتي تعتبر أكثرها وثوقًا ـ يتم: استبعاد المعلومات غير الصحيحة، الانطلاق من المعطيات والنتائج العلمية السابقة، الأخذ بالملاحظة الحسية (الاستقراء) كمعيار للتثبت من صوابها، تحويل: كيف إلى كم، وتُعتبر موضوعية لاستخدامها وسائل قياس مثال:



وبناء عليه يفهم البحث الاجتماعي على أنه استنباط طريقة جديدة ومعالجة ظاهرة ما بمعطيات معينة / واكتشاف حقائق لم تشر إليها أبحاث سابقة وتفسير وتحليل الأحداث بشكل علمي. عبر إطارين: منهجي وتقني:

* منهجيًا: عبر صوغ الافتراضات من مصادرها (الاستقرائية والاستنباطية) وتحديد الإشكالية، التي تبرز بدورها في تساؤلات / استنتاجات مسبقة/ تكهّنات بالإجابة، كما في الفرضيات التالية:

1 ـ كلما أقبل الفرد على التعليم وانتقل من الريف إلى المدينة كلما أدى ذلك إلى تأخر في سن الزواج.

2 ـ إن الأشخاص ذوي المستوى التعليمي العالي يستعملون وسائل إعلام أكثر من ذوي المستوى التعليمي المنخفض.

3 ـ أثبتت الأبحاث أنه كلما كان مستوى المرأة العلمي مرتفعًا كلما أدى ذلك إلى قلة ولادات.

4 ـ كلما ازدادت نسبة تناول الأطعمة الغنية بالبروتينات كلما انخفضت معدلات الولادة، وعلى العكس من ذلك يترافق ارتفاع معدل الولادات عند السكان الذين يغلب على أطعمتهم المواد الغنية بالنشويات.

5 ـ كلما كانت الحالة الصحية سيئة وخاصة عند الأنثى كلما أدى ذلك إلى الإجهاض.

* **تقنيًا**: عبر البحث الإتنوغرافي/ البحث الاستقصائي/ التجارب/ الدراسة التوثيقية، حيث من شأن هذه الخطوات الإجرائية أن:

☆ **تحلل بمنطقية العلاقة بين السبب والنتيجة مثال ما درسته طالبتين من كلية الصحة في قسم الإشراف حول تأثير برامج العنف الإعلامي على الأطفال، فتوصلتا إلى نتيجة بأنه كلما شاهد الأطفال برامج الرعب كلما أدى ذلك إلى روح العدوانية، ووجدتا أن تصرفات الأطفال العنفية من تكسير وتحطيم وضرب مردها إلى كثافة المشاهدة للألعاب المتلفزة المثيرة.**

☆ **تؤكد أو تدحض: نعتقد كثيرًا أن وراء كل نتيجة سبب معين، ولكن قد تتعدد الأسباب فتكون النتيجة واحدة، ويمكن معرفة ذلك ببساطة من خلال المقارنة (إجراء البحث في أكثر من مكان وزمان . .هل يؤدي ذلك إلى نفس النتيجة؟) مثال: إذا أردت أن أعرف ما الذي يدفع البنات إلى ممارسة الدعارة، باحثون يعتبرون أن سببه الفقر، ولكن ماذا يرى باحثون**

آخرون إزاء هذا الرأي؟ آخرون دحضوا التبرير وقدموا أسبابًا أخرى أبرزها البطالة، وبعضهم ربطه بالصدمات العاطفية، وغيرهم بالخبرات الطفولية المنجرحة، غيرهم ربطه بمسألة الشهرة والنفوذ[1].

☆ تساهم في استقصاء المعلومات من الحقل الميداني بشكل أكثر دقة، (خاصة وأن الظاهرات الاجتماعية عرضة للتبدل بين زمن وآخر / مكان وآخر/ ثقافة وأخرى.. مثال: هناك افتراض بأن سبب عزوف الفتيات عن الزواج مرده إلى رغبتهن الطموحة في تحقيق ذاتهن علميًا أو وظيفيًا، لكن مثل هذا الافتراض غير كافٍ فقد يكون هناك أكثر من سبب:

1 ـ هن يعزفن خوفًا من الارتباط والمسؤولية لذا يرفضن الاقتران.

2 ـ لأنهن ينتظرن متقدمين أفضل مما يأتي لديهن.

3 ـ غير راغبات بالانفصال عن أسرتهن لأسباب .

4 ـ لأنهن غير مدركات وواعيات لعلاقتهن مع الجنس الآخر.

5 ـ لعيب خلقي أو مرضي لديهن.

يُشبّه البحث الاجتماعي بلعبة البزل (PUZZLE)، معلومات مبعثرة / موجودة في أكثر من مجال، ومهمة الباحث ليس إعادة جمعها فحسب وإنما ترتيبها وتنسيقها بشكل جيد. فالترتيب الجيد يستلزم:

1 ـ بناء فكري عبر نمط الأسئلة المعتمد حيث نماذج الأسئلة السوسيولوجية تختصر في البيان التالي:

---

(1) دراسة ميدانية بعنوان: «البغي بين الضحية والمجرمة ـ واقع البغاء» أشارت مجموعة من الباحثات (كلية الصحة العامة / صيدا/ 2010) وبعد دراسة بالعيّنة لمجموعة ممن يمارسن البغاء بأن الأسباب التي دفعتها إلى ذلك: عنف جسدي خلال الطفولة (28%) تحرش جنسي (34%) أسباب اقتصادية (52%) إرغام الزوج (4%) عنف الزوج (2%) هروب من الأهل (6%) علاقة عاطفية (8%) رغبة جنسية (15%).

الأسئلة الواقعية.	ماذا حدث؟	لوحظ في الآونة الأخيرة أن نتائج البنات المدرسية أفضل من نتائج الشباب.
الأسئلة المقارنة.	هل حدث/ يحدث ذلك في كل مكان؟	هل الظاهرة عامة / عالمية/ مخصوصة بمجتمع معين دون غيره/.
الأسئلة التطورية.	هل حدث ذلك على مراحل زمنية؟	كيف كانت الظروف قبل وبعد حصول الظاهرة.
الأسئلة النظرية.	ما الذي يكمن وراء هذه الظاهرة؟	ما هي العوامل التي يجب أن نتقصاها لتفسير الظاهرة، وهل هي السبب أم هناك أسباب أخرى متعلقة بها.

2 ـ تحضير تقني، وهو الإجراءات العملية التي يتبعها الباحثون غالبًا في الأبحاث الاجتماعية:

1) انبثاق الفكرة/ تعريف المشكلة.
(اختيار موضوع البحث).
↓
2) جمع بيانات.
(التعرف على الأبحاث التي تدور حول الموضوع).
↓
3) صياغة الفرضية.
(ما الذي تحاول اختباره؟ ما الترابط بين المتغيرات)
↓
4) وضع تصميم البحث
(التعرف على الإجراءات التقنية واختيار أنسبها)
↓

الملاحظة — المسح — المقابلة / الاستمارة — التحقق.

تنفيذ البحث.

(صياغة المعلومات)

↓

تحليل المعطيات وتفسير النتائج.

(دلالات / استنتاجات/ بيانات)

↓

وضع التقرير النهائي.

(إبلاغ نتائج البحث/ فرضية جديدة/ التوصيات..).

في كل مرحلة من هذه المراحل ماذا يحدث؟.

1 ـ تعريف المشكلة: في مجمل الأحداث التي تدور حولنا على كافة صعدها الاجتماعية / الاقتصادية / السياسية/ الصحية/ البيئية / التربوية/ هناك رغبة بأن نعرف (لماذا)، هذا الاستفهام يفتح الباب على التفكير ويلعب دورًا في الحث على البحث (لماذا تزداد نسبة الطلاق في المجتمع اللبناني..).

2 ـ جمع البيانات: بعد تحديد «التساؤل» لابد من جمع المعلومات حوله، وهناك أكثر من مصدر: المكتبات/ أرشيف الصحف/ أشخاص معنيون/ دوائر حكومية/ هيئات أهلية مختصة.. في المثال الذي طرحته (الطلاق) أراجع هنا: المجلات الاجتماعية/ جمعيات الأسرة/ رجال الدين / مواقع إنترنت/ برامج تلفزيون/ سجلات المحاكم الشرعية والمدنية.

3 ـ صياغة الفرضية: مع التحصيل الوافر للمعلومات الأولية عن ما أود أن أدرسه يبقى «غربلة» هذه المعطيات بهدف تحويل التساؤل إلى «فرضية» التي تعني علاقة حدث بحدث آخر(متغيرات) حيث بوجود متغير (أ) يتأثر متغير

(ب)، وإن تغير واقع (ب) تحت ظروف معينة ينعكس ذلك تأثيرًا على واقع (أ). في مثال الطلاق تصبح الفرضية على النحو التالي:

* كلما فقد الزواج مقوماته.. كلما أدى ذلك إلى احتمال انفصال.

من المهم جدًا أن تكون الفرضية مناسبة جدًا للموضوع، لأن قيمتها هي في مدى توصلها إلى: نتائج هامة/ وأن تمتاز بالدقة والمرونة والموضوعية والوضوح.

4 ـ الاختبار الميداني، كيف لي أن أعرف أن ما افترضته مؤكد أو غير مؤكد، لغاية ذلك هناك إجراءات اختبار لابد منها أبرزها: مسح حقل الدراسة (أين) في أيّة فترة (متى) مع من (عينة) كيف (مقابلات / استمارات) أيّة نتائج (التقييم) بالعودة إلى مثالنا الآنف عملًا بإجراءات التحقق لابد من القيام بالتالي:

✓ ظاهرة الطلاق في الوسط البقاعي (حُدّد المكان).

✓ خلال عامي 2007-2008 (حدُدّت الفترة).

✓ دراسة بالعينة على عدد من المطلقين (تحديد الفئة المستهدفة).

✓ مقابلة واستطلاع عدد من النساء المطلقات والرجال المطلقين. (من المستجوب؟).

5 ـ تحليل البيانات: قبل عرض البحث يتم تحليل المعطيات التي توصل إليها الباحث من خلال التدقيق في صحتها ثم تكميمها في رسوم بيانية ودلالات إحصائية ونسب مئوية، وبعد ذلك ينظمها الباحث في تبويب منهجي (أقسام وفصول) عبر نتائج رقمية ونسب مئوية كما هو الحال في النتائج التالية عن الطلاق: في الأردن هناك 48% من إجمالي حالات الانفصال تحدث قبل إتمام الزواج. وتبين أن فرصة زواج المطلقة مرة ثانية في هذا البلد نحو 25%، وفرصة زواج المطلق ثانية 58%.

التقنية الأولى:
الملاحظة

يقول الباحث في العلوم الاجتماعية (هنري مندراس): «إن أسلم طريقة لفهم عقلية جماعة هي مراقبتها كيف تتصرف ومقارنة تصرفها هذا بأسلوب التعبير لديها أي بالآراء التي تبديها لموضوع ما ولما يرتبط به من عوامل..» يهدف هذا القول إلى ضرورة اعتماد وسائل لتقصي المعلومات، التي تعتبر بحد ذاتها مرحلة تتوسط ما بين البناء النظري من جهة وفحص المعطيات المستعملة لاختبارها من جهة أخرى. ومن بين هذه الوسائل: الملاحظة.

* كيف تنظّم الملاحظة؟

عندما يقرر الباحث الميداني دراسة جوانب معينة من موضوعه على الأرض، يضع تصوراته المسبقة للمواقف التي يريد دراستها ثم يعمد إلى خطة تحرك بناء على مراحل. وفي سياق التصور والتحرك لا بد من الانتباه إلى مسألة «الفئات» أي ملاحظة ما له علاقة بموضوع الدراسة كلٌّ على حده مثال: إذا أردت أن أعرف مدى تأثير وسائل الإعلام على حياة الناس، عليّ كباحث هنا:

☆ أن أحدد أولًا أيّة وسائل إعلام؟ (التلفزيون/ المجلات/ الإنترنت/ المسرح..).

☆ أي فئة من الناس أقصد (الأطفال/ الشباب/ النساء/ الطلاب/ ربات المنازل...).

☆ وأية حياة أعني (الدراسة/ العمل/ أوقات الفراغ/ التدبير المنزلي/ . . .).

تستخدم الملاحظة باعتبارها وسيلة بحث تختبر التصرفات الاجتماعية المتناولة بالمشاهدة وبشكل قد لا تقدمه التقنيات الأخرى. لهذا تعتمد بشكل أساسي في الأبحاث الاستطلاعية/ الأنتروبولوجية والوصفية. . ليس بهدف المعاينة فحسب (الملاحظة النوعية) وإنما أيضًا لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات (ملاحظة كمية).

* أنواع الملاحظة:

هناك أشكال عديدة للملاحظة في سياق البحث العلمي: الملاحظة العفوية/ الملاحظة البسيطة / الملاحظة المخبرية (العلمية)، إلا أن البحث الاجتماعي يركز أكثر على نوعين من الملاحظة:

1) الملاحظة المشاركة: ينخرط فيها الباحث بالمجموعة التي يدرس خلال فترة من الزمن عن طريق المشاركة اليومية (فيسهر على مراقبة الظاهرة وتدوين ما يرافقها من تصرفات) مثال: أراد باحث أمريكي (وليم وايت) دراسة ظاهرة شباب الشوارع ((corner boys) فذهب إلى الأحياء الشعبية من بوسطن وسكن هناك لمدة خمس سنوات، وأخذ يشارك هؤلاء الشباب في نشاطاتهم وجلساتهم وألعابهم دون أن ينسى دوره كباحث، إلى أن توصل لمعرفة كيف تتركب هذه الجماعة ما الذي يربطها ويحركها؟ متى تتقبل الغريب ومتى تنبذه؟.

وعلى الباحث خلال استخدامه الملاحظة التنبه لمتطلبات هذه التقنية لناحية:

أ ـ أن يتشابه وأفراد المجموعة التي سيدخلها.

ب ـ أن يمتنع عن إعطاء أوامر ونصائح عندما يدخل المجموعة.

ج ـ أن لا يخرق عادات وتقاليد الجماعة.

د ـ أن يكون طبيعيًا (لا منحازًا / لا متأثرًا/ ولا مأخوذًا بما يحصل. .).

هـ ـ أن يعمل على أن يكون مقبولًا.

2 ـ الملاحظة غير المشاركة: حيث لا يشارك الباحث مباشرة حياة الجماعة بل يراقبها من الخارج من خلال وسائط (مراقبين مكلّفين / أشرطة فيديو/ تقارير وصور / شهادات حية . .) رغم أن هذا النوع معتمد أكثر في ميادين علم النفس والتربية، إلا أن الباحث الاجتماعي يلجأ إليه في حالات معينة منها:

أ ـ عندما لا يتمكن من الإحاطة بكافة جوانب الموضوع فيكلّف مراقبين بعد تدريبهم.

ب ـ عندما يضطر ولظرف ما الابتعاد عن حقل الدراسة فيستعين بملاحظين يجمعون المعلومات.

ج ـ عندما يريد «حدث» عفوي فلا يظهر خلال وجوده فيعتمّد السرية كي يأتي الحدث على طبيعته.

*** ملاحظات على الملاحظة:**

✓ لا يستطيع الباحث ـ الملاحظ الإحاطة بكافة ظروف الملاحظة نظرًا لتداخل وتأثير عوامل متعددة بها، (عوامل نفسية/ عوامل بيئية/ عوامل زمنية . .).

✓ لا يمكن الاستغناء عن الملاحظة في دراسة بعض الحالات الميدانية، فهي تدعم أو تدحض أفكار شائعة.

✓ يمكن أن تكون الملاحظة «تقنية تأكيدية» ففي البحث الاستكشافي تدفع إلى القيام بتجربة وإجراء مقابلات أو إلى التحقق من وثائق.

✓ تتطلب الملاحظة تحضيرًا مسبقًا بأبعادها وكيفية استخدامها، عبر الممارسة والتدريب العملي والقراءات المتخصصة ومقارنة ملاحظات الباحث المقررة بالشروحات التي سبق واطلع عليها.

التقنية الثانية:
المقابلة

كيف نستجوب؟ سؤال يطرح عند كل بحث وتجيب عليه تقنيات عديدة من المناسب تصنيفها وفق غايات خاصة بالباحث ووفق درجة الحرية المتروكة للمستجوب، وعليه تكون المقابلة:

☆ محادثة هادفة أو لقاء يحدث بين شخصين يحصل ضمن إطار ووضع اجتماعي معينين.

☆ تهدف إلى الاستحصال على معلومات والخروج برؤى جديدة تفيد البحث.

ولكن كيف يحضر لها؟ كيف تجري؟ وكيف تستغل معلوماتها؟ يمكن أن يتم ذلك وفق آليات عدة منها:

أ ـ تحديد المعلومات التي يريدها الباحث.

ب ـ إيجاد أفكار جديدة على علاقة مباشرة بالواقع المدروس.

ج ـ تعيين من يجب أن يقابلوا وعددهم وكيف يتم عرض الموضوع.

د ـ استخدام لوازم تقنية: مسجل/ شرائط/ دفاتر/ وثائق.

هـ ـ تأمين المكان الهادئ/ تقرير الوقت المطلوب/ تهيئة مناخ الثقة: التقبل/ الانفتاح/ الاحترام/ . .

و ـ عدم الذهاب بعيدًا عن الموضوع بالمحادثة باعتماد التركيز(لنعد إلى

فكـرة.. سبق وذكرت ..ماذا تقصد بعبارة .. أرجو أن تحدد لي ما تعني ..؟).

وليست المقابلة مجرد لقاء أو محادثة عابرة، بل هي تفاعل وتعاون يتم بين طرفين، يتطلب الإعداد لها: اطلاع ومعرفة بالوقائع المراد السؤال عنها، معرفة المرجعيات (من نسأل) وأين (مكان عملهم / في المكتب/ في الشارع / في البيت..) طرح الأسئلة وتسجيل الاجابات مثال: إذا أردت أن أسأل الناس عن رأيهم في العلاقات الجنسية قبل الزواج، هنا يستوجب علي:

☆ **أن أصوغ أسئلة الاستجواب بشكل واضح ومبسط ومحدد.**

☆ **أن أحدد من أستجوب وأين (عينة من العامة في الطريق/ أم طلاب جامعيون/ أم ..).**

☆ **أن أنتبّه لردات الفعل والتعليقات وتوقعات الآخر.. فالأسئلة المتعلقة بموضوع عن المرأة تختلف الإجابة فيه عمن يكون هو السائل: رجل أم امرأة.**

☆ **أن لا أتوقف كثيرًا عند حساسية الموضوع، (تبين مثلًا أن الأسئلة عن العلاقات الجنسية / الخيانة الزوجية/ الدين)، من المواضيع التي يتحفظ البعض بإبداء الرأي بحرية حولها..**

أنواع المقابلة:

من المتعارف عليه في مجال استقصاء المعلومات أنواع المقابلات التالية:

1 ـ المقابلة غير الموجهة: وتعرف بالحرة وتستخدم عندما لا يملك الباحث أية معلومات عن الموضوع الذي يتناوله بل يترك الحديث للمستجوب بعد أن يتولى الباحث فتح الموضوع بأسئلة مقتضبة مثال: قامت الباحثة الاجتماعية (هنادي مراد) في بحث اجتماعي حول المرأة والتحرش الجنسي في أماكن العمل (معهد العلوم الاجتماعية/ بيروت/ 2005)، مستخدمة في ذلك تقنية المقابلة حيث توجهت إلى المستجوبات بأسئلة منها:

- هل أنت مرتاحة في عملك؟.
- هل تختلطين في عملك بالرجال؟.
- هل تتعرضين للتحرش الجنسي في مكان العمل؟.
- ما نوع التحرش الذي تتعرضين له؟.
- ما هو برأيك أسباب التحرش؟.
- كيف تتعاملين مع التحرشات التي تتعرضين لها؟.
- عند تعرضك للتحرش إلى من تلجئين؟.

2 ـ المقابلة النصف موجهة: وهي نوع من التحاور الذي يجري بين الباحث والمستجوب لجهة الاستفسار والتعليق المركز أو لطلب الاستيضاحات أو للمشاركة برأي ثم قياس ردود فعل. مثال: ما فعلته الباحثة الأمريكية (كاثرين أيروين) حول ظاهرة التاتو (tattoo) متسائلة: لماذا يرغب الشباب والفتيات بالتاتو؟ أين تنتشر هذه الظاهرة؟ وكيف؟ ولماذا أصبحت «صرعة» (new look)، ماذا يعني التاتو، وما هي مآثره النفسية والاجتماعية؟ لغاية الإجابة تابعت وعلى سنتين زيارة أكثر من 200 مركز وشم، ومقابلة الآلاف من الناس على مختلف الأعمار والأجناس والطبقات، ومقابلة العديد من شركات إنتاج مواد الوشم والتاتو.

3 ـ المقابلة المفتوحة وتستعمل كثيرًا لدراسة حياة الأفراد، عبر لقاء معمق ومفصل، قد تتم عبر أكثر من جلسة حتى استيفاء كافة المعلومات. (مثلًا إذا أردت أن أجري لقاء مع رجل مسؤول أو مدير أعمال ناجح فإن غالب أسئلة المقابلة تتركز حول:

- ماذا يعني النجاح؟.
- كيف اختبرته فعليًا؟.
- هل ترك نجاحك تأثيرًا على العالم من حولك؟
- ما هي القيمة الحقيقية التي تؤمن بها فعلًا؟

- ما هي المبادئ التي لا تتغير برأيك والتي يمكنك أن تبني عليها حياة جديدة ناجحة ورائدة وأكثر مغامرة؟
- ما هو الشيء الذي يبقيك دائمًا مشغولًا بحماس؟
- ما الذي يساعد الناس الناجحين على البقاء ناجحين؟.

4 ـ المقابلة المركزة، وتتم لتحليل وقع حدث أو تجربة محددة على الأشخاص الذين كانوا على مقربة منها، هنا لا يملك الباحث أسئلة كثيرة ولكن يملك قائمة من النقاط الراجعة إلى الظاهرة . .مثلًا إذا أراد أحدهم أن يستقصي موضوعًا حول العنف الأسري وتحديدًا عن ممارسة العنف ضد المرأة (النساء المعنّفات) . . يتم الاتصال بهن أولًا إذا كن يرغبن بالتحدث عن الموضوع ثم تحضّر الأسئلة ـ المفاتيح اللاتي تجعلهن يتكلمن أكثر مثال:

* نعرف بأن مثل هذه الأمور تحدث في أكثر من مكان ولكن هل لك أن تخبرينا عن العنف الذي تتعرضينه؟.
- من يمارسه عليك؟ هل يطال كل أفراد الأسرة أم أنت فقط؟.
- ما أشكال الإيذاء التي يتعمدها الزوج؟
- متى تحدث حالات التعنيف إجمالًا؟.
- ما السبب الذي يدفع إلى العنف من قبل الرجال برأيك؟؟.
- ما هي وسائل دفاعك؟ هل تلجأين إلى الجيران/ الصراخ/ الاتصال بالشرطة. .).

وقد تصنف المقابلة(*) وفقًا للمستجوب كأن يكون هناك:

(*) حول نوعية المقابلة ومجال استخدامها (أين ومتى) يختصر أحد الباحثين ذلك بالجدول التالي:

	غير موجهة.	نصف موجهة.	موجهة.
مراقبة			+
تحقيق		+	+
تعمق	+	+	
كشف	+		

1 ـ المقابلة الفردية تتم بين مقابل واحد ومبحوث واحد (تستخدم غالبًا في المعالجات النفسية). مثال: يُسأل الذين يعانون مشكلة نفس ـ اجتماعية معينة أسئلة هادفة لتحديد موقفهم وحقيقة وضعيتهم بهدف الوصول إلى طرق المعالجة، كأن نسأل الذين يعانون من الرهاب الاجتماعي:

- هل وجودك وسط جمع من الناس يجعلك قلقًا بشكل استثنائي؟.
- هل تحس بالخوف في حالة العمل أمام الآخرين؟.
- هل عرقل الخوف من العمل أمام الآخرين حسن أدائك؟.
- هل تحس بالارتباك عندما تلتقي شخصًا أعلى منك رتبة؟.
- هل تحس بالقلق والاضطراب عند التقائك أول مرة بأناس غرباء؟.
- هل تخاف من مراقبة الآخرين لك وأنت تؤدي شيئًا ما؟.
- هل تحاول أن تتحاشى المناسبات الاجتماعية؟.

2 ـ المقابلة الثنائية وتقوم بين باحث يسأل وزميل يدون الملاحظات ومستجوب يدلي بمعلومات. (التحقيق القضائي واستجواب شهود على حوادث).

3 ـ المقابلة الجماعية: بين مقابل ومجموعة من المستجوبين في زمان ومكان واحد، (كما هو الحال مع الأطفال/ أو الطلاب في مدارسهم..).

*** المقابلة الإعلامية:**

يمكن لمتتبع الأحداث التعرف على مجريات الأمور بواسطة ثلاث طرق:

أ ـ المراقبة والمشاهدة حيث يشهد الحدث نفسه.(الاحتجاجات الشعبية).

ب ـ الاستطلاع، أي مراجعة الكتب والوثائق والصحف حول حدث معين.

ج ـ الاستعلام، أي سؤال الخبراء والمعنيين بحدث ما (ارتفاع الأسعار

ورأي الاقتصاديين والنقابيين).

تعتبر الطريقتان الأولى والثانية مهمة ولكن ليست كافية في تغطية الأخبار الصحفية، لذلك تأتي أهمية المقابلة (الطريقة الثالثة) التي تخول فهمًا أكثر وإحاطة أشمل إذا أحسن استعمالها ومعرفة خطواتها من قبل الإعلامي والتي منها:

✓ **أن يضع الشخص الذي يقابله في جو نفسي مريح وطمئنة خاصة إذا كان في حالة تردد.**

✓ **التوضيح بأن هدف المقابلة هو التحقق من صحة بعض المعلومات التي قيلت أو نشرت.**

✓ **بدء المقابلة بسؤال يكون على درجة كبيرة من الأهمية للشخص الذي يقابله.**

✓ **إظهار الاهتمام للشخص الذي يقابله وإبداء الرغبة بالاستماع.**

✓ **تقدير المعلومات وعدم الاستخفاف بما يقوله له المقابل، وإن لم يقتنع فلا يظهر «حشريته».**

✓ **التكلم بلغة الشخص الذي يحاور، والتعرف على المصطلحات المتداولة في عالمه ووسطه (أشياء زراعية لدى مقابلة مزارع / أمور قانونية لدى مقابلة محامٍ أو مرجع قضائي).**

ومن ضمن ما ينصح به باحثو علم الاجتماع الباحث عند إجراء المقابلة العامة أو الإعلامية على نحو الخصوص الإرشادات التالية:

☆ بدء المقابلة ببعض الأسئلة العامة غير المحرجة أو الصعبة (يذكر هنا أن الصحافية الأمريكية (باربرا ولترز) كانت تعتمد كثيرًا مثل هذا الأمر بأن تسأل من تقابل: لو كنت مريضًا في المستشفى من هو الشخص من غير أقاربك تود أن تراه إلى جانبك؟ متى آخر مرة بكيت فيها؟ كيف كانت علاقتك بأول شخص أحببته؟ ما هي أطيب الأوقات التي قضيتها في العام الماضي؟).

☆ عند إجراء استفتاء تُطرح الأسئلة الحساسة بشكل لطيف (أسئلة الدخل الفردي/ العلاقة مع الجنس الآخر/ الرأي السياسي..).

☆ الانتباه إلى ما يظهره الشخص المستجوب من علامات، فإذا لاحظ الباحث انزعاجًا/ إحراجًا/ انفعالًا.. يجب تغيير مجرى الحديث.

☆ استعمال الألقاب اللائقة بالشخص الذي يحاور (دكتور/ معالي الوزير/ سيادة المطران/ سماحة الشيخ..).

☆ التنبه إلى مسألة الاستطراد فإذا أفاض المحاور بالحديث يجب إعادته إلى الموضوع بشكل لبق، (انتهاز لحظة صمت/ قطع كلامه باستفسار) ثم الإمساك بدفة الحديث، كقوله مثلًا: ما تقوله مفيد ومهم جدًا ولكن قبل أن أنسى هل تستطيع تذكيري بما كان ردك على السؤال الذي طرحته.؟)

☆ الابتعاد قدر الإمكان عن الإيحاء بإجابة، يجب صياغة السؤال بشكل دقيق كي يتم الحصول على إجابة دقيقة.

☆ الابتعاد عن طرح المسلمات فقد يكون للمستجوب موقفًا مغايرًا أو مناقضًا فلا يفترض تقديم طروحات مسبقة، كالقول مثلًا: من المعروف أن واقع التخلف الذي يعيشه مجتمعنا هو نتيجة التزمّت الديني، هنا يجد الشخص نفسه أمام عدة فرضيات: أن مجتمعنا يعيش حالة تخلف/ أن التخلف هو نتيجة التزمت/ أن كل ما يتعلق بالدين قد يكون شيئًا من قبيل التخلف...

☆ مع اقتراب نهاية المقابلة على الباحث الإشادة بما يقدمه مستجوبه من معلومات غنية، بأن يسأله عن مدى رغبته في أن يضيف شيئًا على ما تم تداوله، أو إذا كان يود الإجابة على سؤال لم يذكر (كقوله مثلًا: لو كنت مكان الصحافي (الباحث) ما هو السؤال الذي تود أن تطرحه على نفسك..؟) ولا ينسى الشكر العميق على تخصيصه جزءًا من الوقت له.

في مجمل أحوال الاستقصاء عبر المقابلة ينصح الإعلامي الجديد أو الباحث المبتدئ عدم الذهاب لمقابلة شخص مهم أو تقصي حدث ميداني قبل

أن يكوّن خلفية ثقافية عن هذا الشخص ـ الحدث بما يعادل 60% من المعلومات.

*** التقنيات المستخدمة خلال المقابلات:**

يمكن أن تفهم تقنيات المقابلة كمجموعة من الوسائل المساعدة والضرورية التي يستخدمها الباحث على نحو منظم ليقوم بالمقابلة على نحو جيد ومن هذه التقنيات:

1 ـ إنشاء علاقة: (يعرّف عن هويته / اسم المؤسسة ـ الجهة التي يمثل/ يبين مقصده بوضوح/ احترام الباحث في رأيه / اعتماد الحيادية وعدم التعاطف الكلي..).

2 ـ صياغة التعليمات: وتعني من حيث الشكل العام «طرح الموضوع» فمعرفة كيفية طرحه هو المنطلق الأساسي لسير المقابلة والحصول على معلومات، ويظهر ذلك إما بشكل موضوعي: كأن تسأل أحدهم عن رأيه في الاتجاهات التعصبية الدينية لدى الشباب!!. وإما بشكل ذاتي: كأن نسأله مثلًا: هل تعتبر نفسك متعصّبًا دينيًّا؟.

3 ـ إعادة الصياغة لجزء من الحديث، وهي تقنية كلاسيكية يعمد إليها الباحث بهدف التأكد والتصحيح والتوضيح.

4 ـ اعتماد أسئلة الدفع، إذا ما تعثر الحديث لسبب ما، فيجب التنبه لأسئلة جديدة تدفع المستجوب لأن يقول شيئًا على الأقل.

5 ـ التنبه لعلامات الصمت: بعض المستجوبين يبدون رأيًا/ يتكلمون ثم يصمتون برهة، على الباحث أن يتنبه لصمته هل انتهى من رأيه؟ أم استراحة نفس وإعادة تذكر.. فلا يستعجل بطرح السؤال التالي إلا بعد التأكد..

6 ـ الأمثلة المناقضة: أو طرح الرأي الآخر، وهي تقنية هامة لقياس درجة اليقين عند المستجوب مع تقديمنا تعريفات أخرى مناقضة تكون بمثابة معلومات مسربة أو تعليق من مرجع مسؤول).

7 ـ التساؤل المسند: وهو نوع من الأسئلة تطرح بناءً على آراء آخرين بطريقة إيهامية لنعرف رأي المستجوب فيها، كسؤالنا: يقال بأن/ هناك من يعتقد / يرى البعض.. وهي تستخدم لتخفيف الحرج أو التحفظ أو لنفاجئ المستجوب كي نرصد ردة فعله. ومن الأمثلة على هذه الأسئلة:

✓ **هناك من يرى أنه إذا قمنا بتغيير الأوضاع غالبًا ما تصبح أسوأ وهناك من يرى أنها غالبًا ما تصبح أفضل، أي الرأيين أقرب إلى رأيك؟**

✓ **من الناس من هو على استعداد لأن ينزل إلى الشارع ليعبر عن عدم ارتياحه تجاه أمر ما، هل حدث أن قمت بهذا التصرف:**

1 ـ حدث

2 ـ لم يحدث

*** مزايا المقابلات.**

☆ المقابلة فرصة الاجتماع وجهًا لوجه مع من يهمنا أمره (الباحث والمستجوب).

☆ قد تفي المقابلة بملاحظات قيمة قد لا نحصل عليها في وسائل أخرى (خاصة في مسائل الدخل والمستوى الاجتماعي، وذلك بمقارنة ما يقوله الباحث والواقع الذي يلاحظه لدى المستجوب..).

☆ يستطيع الباحث أن يتأكد من صحة البيانات مباشرة من ذوي العلاقة.

☆ يجيب المستجوب على الأسئلة دون أن يتأثر بغيره من الأفراد.

☆ يمكن استعمال المقابلة مع الأشخاص الذين لا يستطيعون قراءة الأسئلة (الأميون / المكفوفون/ أو رجال الأعمال الذين ليس لديهم وقت للإجابة على الاستمارة المكتوبة).

وقد يؤخذ على هذه تقنية مساوئ معينة منها:

- نفقات الانتقال/ وأخذ المواعيد وصعوبة الوصول للأشخاص المعنيين.

- تردد المبحوث أمام شخص يواجهه وينتظر منه أجوبة، خاصة إذا لم يكن هناك معرفة مسبقة بينهما.
- ظن المقابل إن أدلى بمعلومات قد تثير مشاكلًا هو بغنى عنها.
- اكتناف المقابلة بعض التحيز لأنها بالنهاية تعبر عن رأي شخص نستجوبه وعلينا احترامه.

التقنية الثالثة:
الاستمارة

وهي جملة من الأسئلة حول موضوع محدد وغالبًا ما تكون مكتوبة، تعتبر هذه التقنية هامة للاعتبارات التالية:

1 ـ تتوجه إلى أفراد يسمّون بمجتمع العينة وهي أكثر شمولية من المقابلة. (تتوجه إلى جمهور أوسع).

2 ـ تتضمن أسئلة عامة وخاصة تتعلق بالآراء والانفعالات والمواقف والوضع الديمغرافي.

3 ـ أسئلتها تصب مباشرة في سياق وأهداف البحث.

4 ـ إنها تختصر متغيرات البحث ومفاهيمه عبر عمليات استجواب بحث محددة.

5 ـ هناك خيار بأن تملأ من قبل المستجوب نفسه أو من قبل المحقق.

6 ـ بواسطتها يمكن تكميم المعلومات إلى معطيات موثقة و نسب رقمية.

ويشترط في أسئلة الاستمارة أن تكون مبوبة بشكل متدرج ومتناسق، أي تقسيم الموضوع إلى أفكار رئيسة، ثم تقسيم الأفكار إلى أخرى فرعية (وقد تتضمن الفرعية مسائل ثانوية بسيطة. .) وأهمية التبويب إنه:

☆ يجنب الباحث إغفال بعض المسائل.

☆ يجنبه تضخيم بعض النقاط على حساب أخرى.

☆ يسهل عليه عملية الإحصاء عند الفرز النهائي.

☆ يريح المستجوب لجهة التدرج من الأسئلة العامة إلى الخاصة والمقصودة.

☆ يبين مهارة الباحث المنهجية وجديته في البحث.

وحتى تكون الاستمارة «نمطًا من الأسئلة الهادفة والمتقنة» يستلزم النظر في محتواها وشكلها:

أ ـ على صعيد المحتوى: أي أن تتضمن أسئلتها إما وقائع معاشة (كأن تسأل عن الجريدة التي قرأها البارحة/ البرامج التلفزيونية التي يتابعها / المكان الذي يذهب إليه في نهاية الأسبوع أو في إجازته..) وإما مواقف وآراء: كأن نسأل: هل تقدر بأن الجريدة التي تقرأها موضوعية؟ لماذا تمضي عطلتك في المكان الذي تذهب إليه..؟.

ب ـ على صعيد الشكل: ونقصد بذلك طريقة طرح السؤال إما أن يكون مفتوحًا، يقدم للمستجوب ويترك له حرية الإجابة والتعبير والشروحات التي يراها،(كأن نسأل: ما هو رأيك في الزواج المبكر أو المختلط ...) وإما أن يكون مغلقًا أي نعرض لائحة من أجوبة ممكنة (موضوعة أمامه) ويطلب من المستجوب أن يختار ما يتوافق ورأيه وهو ما يعرف بأسئلة المواقف كما في النماذج التالية:

* **هل تعتبر نفسك:**

1 ـ مناصرًا لعمل المرأة .....

2 ـ مناصرًا لعمل النساء اللواتي ليس لديهن أطفال.

3 ـ لا مناصر ولا معارض.

4 ـ معارضًا لعمل المرأة في بعض المهن.

5 ـ معارضًا كليًا لعمل المرأة.

* أين موقعك السياسي من الأحداث التي تجري: معارض/ موالٍ/ حيادي/ لا رأي.

وفي نمط آخر ـ على صعيد الشكل ـ قد يطلب من المستجوب أن يعطي علامات تقدير/ أو يرتب الاختيارات وفق تسلسل رقمي، كما السؤال التالي:

- **أي من هذه الأسباب باعتقادك هي السبب الرئيس أو يؤدي أكثرها احتمالًا إلى نشوء خلافات بين الزوجين: (رقمّ بحسب الأولوية).**

○ عدم خضوع المرأة لزوجها.

○ عدم التفاهم بين الزوجين.

○ تدخل الأهل في شؤون الزوجين.

○ عدم مقدرة الزوج على تأمين مستلزمات الأسرة.

○ اختلاف أسلوب الوالدين حول معاملة الأولاد.

○ عدم الاحترام.

○ عدم ملائمة المسكن الزوجي.

○ عدم التوافق الجنسي.

○كثرة الغياب عن المنزل.

○الشك بعلاقات أخرى.

يرى أصحاب الخبرة في استطلاعات الرأي بأنه في المواضيع التي تتعلق بالثقافة العامة والآراء الشخصية يفضل أن تستخدم الأسئلة المفتوحة حيث هي أجدى وأنفع، (لماذا برأيك/ كيف ترى.. بماذا تعلق على ...) أما إذا كان الموضوع يتعلق بأخذ رأي ويريد الباحث معرفة مدى قبول المستجوب أو رفضه فالسؤال المحدد بخيارات هو الأكثر شيوعًا مثال:

- **من الضروري أن يكون للإنسان دور في كل ما يجري حوله مهما كلفه ذلك من جهد:**

1 ـ موافق تمامًا.

2 ـ موافق.

3 ـ معارض.

4 ـ معارض كليًا.

5 ـ لا رأي.

أو وفق سلم مشابه: نعم / لا، محتمل/ محتمل جدًا / مستبعد / مستبعد جدًا، أو بناء على ثلاثة خيارات فقط: إيجابي (مع) سلبي (ضد) لا جواب.

*** كيف نبني الاستمارة؟**

يشترط في إعداد الاستمارة وصياغة أسئلتها، اتباع الخطوات التالية:

1 ـ **اختبار السؤال**، أي اختبار نموذج الأسئلة المقررة بشكل مبدئي على عينة من الناس المقربين للتأكد من صلاحية السؤال وإذا كان له نفس المعنى بالنسبة لكل شخص.

2 ـ **تبسيط المفردات**، أي استخدام التعابير المتداولة والقريبة من فهم المستجوب، لأن المستجوبين بالنهاية مختلفي المستوى الثقافي.

3 ـ **تجنب الوسطية**، أي حث المستجوب على تحديد موقفه بشكل أكثر دقة بالابتعاد عن المواقف غير الجازمة، فالحيادية المقترحة في السؤال التالي غير محبذة، فسؤالنا لأحدهم: هل تذهب إلى السينما بخيارات: دائمًا / أحيانًا/ نادرًا . . يختلف عن سؤالنا إياه: كم مرة تذهب في الشهر إلى السينما: مرة ـ مرتين ـ ثلاث مرات وأكثر. . لا أذهب أبدًا.

4 ـ **إعادة قراءة الأسئلة أكثر من مرة بهدف معرفة**: هل كل الأسئلة مفهومة من قبل الجميع؟ هل هناك منها ما هو صعب؟ هل لوائح الأسئلة المغلقة تفي بالغرض؟ هل كل الأسئلة ستكون مقبولة من المستجوبين؟ هل مرتبة ومتسلسلة؟ ألا يشتمل السؤال على أكثر من فكرة؟.

*** ملاحظات على الاستمارة:**

ينصح الباحث عند القيام بالاستمارة إعدادًا واستجوابًا، التنبه للمسائل التالية:

- ✓ البدء بالسؤال العام فالخاص، بالبسيط فالمعقد، بالسهل فالأصعب.
- ✓ عدم صياغة الأسئلة بشكل شخصي (في دراسة الخيانة الزوجية لا يُسأل الفرد عن مغامراته في العلاقات ومن ثم رأيه في الخيانة الزوجية..).
- ✓ استعمال الأسئلة غير المباشرة قدر الإمكان.
- ✓ عدم إكثار الأسئلة من نوع «ما هو رأيك» لأن من شأن ذلك أن يدفعه إلى الإكثار من إجابات لا أعرف.
- ✓ الانتباه إلى وضع الأسئلة فلا يمكن الانتقال من سؤال إلى نقيضه مباشرة، إذ من شأن ذلك أن يخلق ميلًا إلى عدم الإجابة.
- ✓ يجب ألا توحي الأسئلة بأية إجابة (هل ترى أن على الأهل الاهتمام بأولادهم): نعم ـ لا، بطبيعة الحال الجواب هو نعم.
- ✓ ألا يزيد وقت تعبئة الاستمارة عن نصف ساعة 40 دقيقة (كحد أقصى).
- ✓ تجنب استخفاف المحقق بالمستجوب أو بإجاباته، وإذا لاحظ استخفاف الآخر به فليوقف الاستجواب.

ويفضل دائمًا استهلال الاستمارة بتعريف بسيط عن الموضوع والهدف منها والجهة التي تمثل، والإشارة إلى أنها لغاية علمية وبأن رأيه فيها مهم للغاية. ومع طرح أسئلة الرأي والمواقف ينبغي وضع مقدمات وشروحات ببداية السؤال ككتابة: هذه الأسئلة تهدف إلى ... ضع علامة x في المربع الذي يناسب إجابتك....

*** كيف تفرّغ الاستمارة:**

بعد جمع البيانات بموضوع البحث عبر الاستمارة، لا بد من تفريغها كي يصار إلى تحليلها (أي تصنيف مكونات الظاهرة إلى عناصر جزئية)

وتفسيرها (أي تبرير كيفية وجود هذه العناصر على هذا النحو المركب..)، وهذا يعني مراجعة الاستمارات المجمعة بعد ترقيمها بشكل متسلسل، ثم فرز المعلومات الواردة على جداول أعدت للغاية على النحو التالي:

رقم الاستمارة	فئات الأعمار			الجنس		درجة التعليم			إلخ
1	0 ـ 5	6 ـ 10	11 ـ 15	ذكر	أنثى	أمي	ابتدائي	متوسط	

التقنية الرابعة:
العينة

من نستجوب؟ هذا السؤال بحد ذاته ينقسم إلى تساؤلين:

1 ـ من هي المجموعة السكانية التي من الضروري معرفتها؟.

2 ـ كيف نختار من هذه المجموعة السكانية / الأشخاص الذين سنستجوبهم فعلًا؟.

في معظم الأبحاث الميدانية يعمد الباحثون إلى جمع المعلومات من «وحدات» (أفراد/ مؤسسات/ جماعات/ مناطق/ . . .إلخ) تتوفر فيها الخصائص الممكنة للدراسة (الأعمار/ الأجناس/ الثقافات/ الأديان/ الاتجاهات. .) إلا أن الوصول إلى كافة عناصر الوحدة فيه استحالة عملية بسبب:

* الجهود البشرية الكبيرة التي تتطلبها.

* التكاليف المالية الباهظة.

* الوقت الطويل.

* الكم الهائل من المعلومات التي يصعب الاستفادة منه.

إزاء ذلك يتم اختيار عددًا (مجموعة) من الوحدات الكثيرة وهذا ما يصطلح على تسميته بالعينة ولكن هل للعينة حجم معين؟ كم يجب على الباحث أن يختار حتى تصبح عينته ممثلة؟ يعتقد باحثون بأن حجم العينة الكبير له تأثير أكبر لجهة صحة المعلومات، لكنه مربك بالنسبة للباحث الفرد خاصة عندما تبدأ الإجابات بالتكرار مما يصل معها إلى مرحلة الرتابة وليس هناك من إجابات نوعية ومميزة. . من هنا نجد التوسع الكبير قد ينتج عنه تعقيد/تشعب/ تكرار وغيره، لأجل ذلك يتم تحديد حجم العينة بناء على:

* **النظرية الإحصائية للاحتمالات** (probabilite) باعتبارها تمثل أصدق تمثيل للأفراد المستجوبين بحيث تعطي المجال لكل فرد فرصة الدخول في العينة (عشوائيًا/ بالصدفة/ . .).

* **القاعدة النسبية**، عبر عملية اختيار واحد من أصل خمسة / أو واحد من أصل عشرة / أو تحديد العدد بمائة مستجوب عملًا بالنسبة المئوية %).

وفي كلا القاعدتين يفترض من الباحث ولتجنب أي خطأ أن يعمل على:

✓ حساب حجمها بالنسبة للخصائص المتعددة والمتتابعة.

✓ توفر الشروط الممكنة لتحقيق التمثيل، هل عدد المستقصين كافٍ لإعطاء معلومات؟ (فعينة من ألف شخص اختيرت من بين ستة آلاف ساكن لمدينة، تختلف من حيث التمثيل عن عينة لحجم مماثل من بين سكان مدينة عددهم مليون نسمة).

* **توفر عامل الدقة في الاختيار** فكلما كبرت العينة كلما زادت الدقة التي تنتجها في أحداث خصائص المجتمع الأم، وعمليًا تعتبر درجة الدقة المطلوبة العامل الأساسي الذي يحدد حجمها، (مثلًا إذا أردت دراسة وضع العمال غير المؤهلين مهنيًا فإنهم يعتبرون عينة متشابهة فيما يخص رواتبهم، أما إذا أردت أن أدرسهم بناء على متغير «العمر» فيجب اختيار عينة يزيد عدد أفرادها عن خمسين شخصًا).

أما كيف نختار المستجوب من ضمن المجموعة التي وقع عليها الاختيار، فإن طريقة (كيش) هي الأكثر استخدامًا لتجنب أية انحرافات وهي موضحة بالجدول التالي:

عدد أفراد الأسرة	رتبة الشخص المستجوب							
	أ	ب	جـ	د	هـ	و	ز	ح
١		١	١	١	١	١	١	١
٢	١	٢	٢	١	١	٢	٢	١
٣	٢	٣	٣	١	١	٣	٢	١
٤	٢	٣	٤	١	١	٤	٣	٢
٥	٣	٣	٥	٢	١	٥	٤	٢
٦ وأكثر	٣	٥	٦	٢	١	٥	٤	٢

أي تُرمّز الاستمارات مسبقًا ـ بالفئات المدرجة (أ/ ب/ ج) وعند ذهاب الباحث إلى الحقل ويدخل المنزل يسأل عن عدد أفراد الأسرة، ثم ينظر في الاستمارة التي بين يديه، وتبعًا للرمز وعدد أفراد الأسرة يختار المستجوب المعين منها، فإذا كانت الأسرة أربعة أفراد، ورمز الاستمارة هـ فإن على الباحث أن يستجوب صاحب الرتبة ألف (أ).

* أنواع العينة:

تصنف العينة وبناء على النظرية الاحتمالية إلى نوعين رئيسين: العينات الاحتمالية ويدخل في إطارها:

1 ـ العينة العشوائية: ويتم اختيار أفرادها عن طريق القرعة من خلال جداول خاصة عبر اختيار متقطع (1/ 5/ 10/ 100) أو عبر قصاصات الورق (تسجيل أسماء وسحبها) وهو ما يعرف بقاعدة التحقيق، أو من خلال الصدفة كأن يسأل الباحث كل من تشاء الصدف أن يلتقي به، بحيث يقف في ساحة/ على الطريق العام/ أو مدخل جامعة وقرر بأن يسأل أول شخص يمر ثم «يُقفّي» إلى عشرة أو خمسة أو ثلاثة.

2 ـ العينة المنظمة: تشترط هذه العينة إعداد لائحة أسماء لجميع وحدات المجتمع الإحصائي، ثم تحسب وفق السحب العشوائي (المذكور آنفًا) إنما هنا محصورة بعدد معين أي ننظم اختيارنا وفقًا للمجموعة التي ندرس

(مثلًا: إذا كان عدد وحدات المجتمع الأصلي 4000 وحدة ونريد أن نأخذ ما نسبته 10% كعينة، في هذه الحالة يكون عدد الفئة المستهدفة للاستجواب 400).

3) العينة الحصصية: أي تقسيم المجتمع الإحصائي إلى فئات اجتماعية تمثل فئاته الرئيسة والفرعية ثم يتم سحب عدد محدد من كل فئة وفق قاعدة رياضية على الشكل التالي: لنفرض في مجتمع مؤلف من 10000 شخص هناك: 2000 امرأة عاملة، 3000 امرأة غير عاملة، 2500 رجل عامل يدوي، 2000 رجل موظف، و500 رجل غير عامل، يجب أن تحسب نسبهم وفق التالي:

500x2000: 10000 = 100 امرأة عاملة.

500x3000: 10000 = 150 امرأة غير عاملة.

500x2500: 10000 = 125 رجل عامل يدوي.

500x2000: 10000 = 100 موظف.

500*500: 10000 = 25 رجل غير عامل.

4 ـ العينة العنقودية: ويقصد بها تتابع الاستقصاء على عينات مرحلة تلو الأخرى، كأن يؤخذ عينة كبيرة أولًا من السكان، (المرحلة الأولى) ثم يختار من ضمن هذه العينة عينات أصغر بهدف تحقيقات أعمق. لو فرضنا أننا نريد أن ندرس المشكلات المهنية التي تعاني منها الممرضات في لبنان، هنا من المتعذر دراستهن دفعة واحدة لذا يتم:

- تقسيم الدولة إلى عدة مناطق (المحافظات) ثم تقسيم كل محافظة إلى أقضية.
- اختيار مجموعة من المستشفيات في كل قضاء.
- ثم اختيار مجموعة من الممرضات في كل مستشفى (عشوائيًا/ نسبيًا).

أما عن النوع الثاني فهو العينات غير الاحتمالية: وتتضمن:

1 ـ العينة المقصودة وهنا اختيار كيفي من قبل الباحث. مثلًا إذا أراد

أحدهم دراسة المواقف السياسية لجمهور ما في حالة التظاهر، بطبيعة الحال يتعذر هنا الحصول على قائمة الأسماء كي نجري قرعة، بل يمكن الذهاب إلى منظمي التظاهر باعتبارهم عينة من الجمهور.

2 ـ العينة الممثلة: حيث يأخذ الباحث حصة ثابتة من كل فئة اجتماعية يدرسها، ثم يجمع المعلومات من أفراد كل حصة (حسب الجنس/ حسب الاختصاص/ حسب السنة الجامعية) بشكل تمثيلي مثلًا: إذا أردت استطلاع رأي طلاب كلية الصحة لناحية الاختصاص وأريد فقط مائة طالب/ طالبة أقوم بالتالي:

- ✓ **بحسب الاختصاص أختار نسبة من الاختصاصات الموجودة تمريض/ قبالة/ إشراف/ علاج فيزيائي/ مختبر/.**
- ✓ **بحسب الجنس: أراجع نسبة الذكور إلى الإناث، أختار مثلًا و55% من الذكور و45% من الإناث.**
- ✓ **بحسب السنة الجامعية من السنة الرابعة: 40 طالب/ السنة الثالثة 30 طالب/ السنة الثانية 20 طالب/ والأولى 10 طلاب وهكذا بالنسبة لكل سنوات الاختصاص الأخرى.**

3 ـ العينة التجميعية، أو ما تعرف بعينة كرة الثلج المتدحرجة، حيث يتصل الباحث أول الأمر بأشخاص معروفون على علاقة بالموضوع أو لاستخدامهم كأدلاء، ثم يسألهم عن أشخاص آخرين يمكن أن يتصل بهم وعلى علاقة بالموضوع ذاته.. فيذهب وبمرحلة ثانية إلى هؤلاء الأشخاص ليستجوبهم ..ثم يسألهم عن أفراد يمكن أن يفيدوه بمعلومات ليذهب إليهم في مرحلة ثالثة وهكذا إلى أن يستوفى العدد المطلوب للاستجواب، مثلًا لنفرض أراد أحدهم دراسة العمال الأجانب في لبنان أو موقف المتحدرين من أصول تركية حول قضية ما، لكن الباحث لا يعرف كل الأسماء وأماكن تواجدهم، فتكون هذه الطريقة بمثابة الاختيار الهادف.

* انحرافات في تحقيق العينة:

ماذا يمكن أن يحدث إذا وقع الاختيار على أفراد عينة في وقت واحد ولم نتمكن من استجوابهم؟ على الباحث هنا أن يستدرك مسبقًا أي خلل يمكن أن يقع أثناء الاختيار أو الاستجواب منها:

☆ **تقدير عامل الوقت**: أن يأخذ بالاعتبار تواجد أكثر أفراد العينة في وقت واحد، وإن لم يكن هناك الجميع ليخصص وقتًا آخر للبقية، لنفرض أنني أود أن أستجوب طلاب كلية معينة من جميع سنواتها و بعض طلابها لا يأتون نهار الثلاثاء في الدوام الصباحي لذا علي أن أسأل عن أنسب الأوقات للبحث ويستحسن دائمًا في هذه الحالات:

أ ـ الاستعانة بمعاون من المجتمع الإحصائي.

ب ـ الإعلان المسبق عن خطة الدراسة في مجتمع العينة عبر وسطاء.

ج ـ إجراء اتصالات مع قادة هذا المجتمع لأخذ مواعيد مسبقة.

☆ **تقدير عامل الغياب**: في حال غياب أحد أفراد العينة ننتقل إلى غيره على أن نعود إليه في وقت لاحق. مؤكدين على أهمية الالتقاء به إن لم يكن لديه اعتراض، وفي حال عدنا إليه ثانية ولم يكن موجودًا نستبدله بآخر.

☆ **تقدير عامل الرفض**: وقع الاختيار على فرد ما بالقرعة أو بالصدفة إلا أن هذا الشخص لا يرغب الإدلاء برأي لذا نحترم رغبته ونستبدله بآخر مماثل. (قريب من فئته).

☆ **تقدير عامل التمثيل**: إلى أي مدى هي ممثلة فعلًا؟ أي من يجب أن أستجوب فعليًا؟ خاصة إذا كثر العدد وتشابهت الظروف.. لمعرفة رأي حزب حول مشاركته في الحكومة أختار عينة من قيادييه ثم من رؤساء النواحي ثم من حزبيين محليين.

* ملاحظات حول العينة:

أهم ما يجب أن يؤخذ في الاعتبار عند بناء العينة الأمور التالية:

☆ طبيعة المعطيات في المجتمع المدروس، هل هي متوفرة؟ فإذا كان ذلك سهل اختياره.

☆ مناسبة العينة للبحث، كيف ومتى تستخدم كل واحدة منها؟ في مجتمع متنامي الأطراف مثلًا العينة العنقودية أو المكانية أو المرحلية هي الأنسب بينما في الجماعات المهنية العيّنة الحصصية هي الأفضل وهكذا وفقًا للموضوع تحدد العينة.

☆ توفر الوسائل التقنية والمادية، هل هي مؤمنة للتحقق الميداني وإعداد العينة، فالميزانية المخصصة تتحكم أحيانًا بحالة الاستجواب، حيث النفقات القليلة تقدر مدى التحرك.

☆ ضرورة أن تخدم العينة أهداف البحث في الحصول على المعلومات، بقدر ما يُحسن اختيارها وتحديدها بقدر ما تفي بغرض ما تقدمه. فإذا أردت أن أعرف تقدير الناس الذين يستخدمون دواءً معينًا لمرض معين، علي أن أستجوب عينة من المرضى الذين يستخدمونه/ عينة من الصيادلة/ عينة من الأطباء المختصين/ .

التقنية الخامسة:
تحليل المضمون

هو طريقة بحث تساعد الباحث على التوصل إلى استنتاج علمي من خلال تقييمه لمجمل المعطيات المستقاة، يفترض أثناء العمل بهذه التقنية عدة شروط:

* **الشرط الأول ـ الدقة**: التي تتم من خلال تعريف الفئات الخاضعة للتحليل تحديدًا دقيقًا، بحيث تكون النتيجة واحدة فيما لو تم التحليل من قبل عدة أشخاص مختلفين.

* **الشرط الثاني ـ المماثلة**: وهو أن يتم تطبيق نفس الطريقة في التحليل على جميع النصوص، فلا يجوز اتباع طريقة معينة لتحليل نصوص واردة في صحيفة واتباع طريقة مختلفة لتحليل مضمون (نصوص) واردة في وسائل إعلامية أخرى.

* **الشرط الثالث ـ التكميم**: أي إخضاع الفئات المدروسة إلى دلالات إحصائية ومن ثم تحليلها، لجهة عدد المرات/ عدد الكلمات / عدد المفاهيم المتضمنة في كل نص أو معطيات.

* **الشرط الرابع ـ الموضوعية**: وهو أن يقسم النص إلى فئات محددة كما تبدو وتظهر وليس كما يريدها الباحث، أي يجب الحكم على المعطيات من خلال ما توحي به وليس من رؤية الباحث وخلفيته.

* مثال: أراد أحد الباحثين متابعة محطات التلفزة اللبنانية التي يرى أنها تقوم ببث أخبار حول حقيقة ما يجري من حوادث أمنية، إزاء هذه الإشكالية عمد إلى:

أ ـ مراقبة ما تورده التلفزة المحلية عبر نشرات أخبارها.

ب ـ مقارنة ما تورده كل وسيلة مع الأخرى.

ج ـ الإبقاء على العناصر(المعلومات) المشتركة، وإبعاد المعلومات الخاصة.

د ـ محاولة التوصل إلى استنتاج عام.

هـ ـ دعم عملية التحليل برأي عينة من الناس للأخبار التي تبث.

و ـ التوجه إلى القيمين على نشرات الأخبار بالسؤال عن مصدر المعلومات.

* الخطوات العملية في تحليل المضمون:

1 ـ اختيار وحدة القياس: أي تحديد ما سنخضعه للبحث والتحليل (الكلمات/ الجمل/ الفقرات/ المقالة ككل) فإذا أردت مثلًا معرفة ما إذا كانت الأخبار الواردة في صحيفة ما تؤيد سياسة الحكومة الضرائبية هنا على الباحث اختيار الجمل المؤيدة لسياسة الحكومة ثم مقارنتها بمساحة الأفكار التي ترفض هذه السياسة عبر الجريدة نفسها.

2 ـ اختيار دوائر القياس: لتوفير الكثير من الجهد والوقت يعمد بعض المحللون إلى استخدام خانات / فئات/ دوائر.. بعناوين معينة مثلًا: سلبي/ إيجابي/ حيادي.... .موال ـ معارض ـ غير مهتم.. مع / ضد/ لا رأي.

وفي سياق التحليل الإخباري في الجرائد مثلًا يستعمل فئات الأخبار التالية: أخبار الحرب والدفاع/ أخبار الاقتصاد والسياسة/ أخبار الثقافة والفن/ أخبار الحوادث والجرائم/ أخبار علمية واكتشافات.. أخبار الناس والمجتمع / أخبار الرياضة.

3 ـ اختيار عينات بحث: أي تحديد الوحدات المقصودة في التحليل، لو أردنا مثلًا أن ندرس كيف عالجت الإذاعات الخاصة في لبنان حرب تموز في العام 2006، في هذه الحالة: أجمع كل ما أوردته هذه الإذاعات عن الحرب (لكن مثل هذا الأمر صعب ومجهد لذا أختار عينة من هذه المحطات..) وفي حال وجدت أن كثير من التسجيلات قد أتلف أو غير

متوفر يمكن العودة إلى أرشيف وكالات الأنباء . . واختيار عينة منها للأيام والأحداث الأكثر تطورًا.

4 ـ تبيان الرابط بين المفاهيم: ويقصد علاقة المتغيرات ومدى تأثير إحداها بالأخرى، فقد لاحظ دوركايم شيوع ظاهرة الانتحار بعد ما تابع العديد من الإحصائيات المتوفرة عن هذه الظاهرة الاجتماعية متسائلًا: ما هي الأسباب المؤدية للانتحار؟ هل هنالك علاقة بين ظهوره وأسباب اجتماعية أخرى؟ ليتبين له علاقته بأكثر من مؤشر منها درجة التضامن الاجتماعي (مدى توافق المرء مع الآخرين ومدى انعزاله عنهم) درجة الترابط الديني / درجة الحرية والمسؤولية المتوفرة. فأستخلص مثلًا بأن:

- ✓ **كلما كان الترابط الاجتماعي ضعيفًا كلما زاد معدل المنتحرين.**
- ✓ **كلما كان هناك التزام ديني أكثر كلما قل الاتجاه أو التفكير بالانتحار.**

5) فرز المعطيات وتبريرها: تساهم تقنيات الاستقصاء بجمع كم هائل من المعلومات، وهنا تقع على الباحث مهمة تصنيفها وفق الأسئلة ومفاهيم البحث المقررة، كأن يعمد الباحث مثلًا إلى تحليل أسئلة الاستمارة وفق ما هي مبوبة: أسئلة البيانات الشخصية/ أسئلة سلم الموافقة/ والأسئلة العامة. . كما في الدراسة التي أجراها مجموعة من الباحثين على عينة ممثلة لشباب لبنان طالت 4151 مستجوبًا بهدف معرفة: «تطلعات شباب لبنان في أواخر الثمانينات» وكان من بين الأسئلة الواردة:

☆ **من الغايات الأساسية ما هي تلك التي تعتبر أن على التربية أن تعيرها أعلى درجات الاهتمام (اختر واحدة فقط).**

1) تواصل التقاليد وحضارة الأجداد

2) التقدم والتطور

3) التصرف بحرية

4) الانفتاح على الغير

- باختيار الأمر الأول يوحي من يفضله أنه يولي أهمية للمكانة والمراتب الاجتماعية المتمثلة بكبار السن والأجداد ويُظهر أيضًا بعدًا معرفيًا آخر وهو الرغبة بالمحافظة على التقاليد، وممن يرون خلع المجتمع الماضي على الماضي والمستقبل نظرًا لأصالته.

- اختيار الأمر الثاني يوحي إلى حد ما بأن دور المكانة يجب أن ينحسر، وسلطة ورهبة التقاليد يجب أن تخف، وأن ننعتق من العادات الثابتة في كثير من مسلكيات الحياة.

- اختيار الأمر الثالث يشير إلى نمط الحياة الليبرالية (الفردية) وعندما يختاره أحد المستجوبين فإنما يختار قيمة فردية / خلقية/ سلوكية.. كأن يلبس مثلًا ما يروق له دون أن يضع في الاعتبار حساب الآخرين: أيروق لهم ذلك أم لا..

- اختيار الأمر الرابع لا يشير بدوره إلى شكل معين من التنظيم الاجتماعي، إنما يعين بشكل أساسي قيمة اجتماعية (انفتاح/ تسامح/ محبة..) ومن يختاره فإنما يشير إلى أن على التربية اعتماد الانفتاح على الغير.. وأن تكون خميرة خُلقية لأشكال التواصل الاجتماعي المفترض.

* إرشادات لتحليل مضمون صحف:

يتم غالبًا تحليل مضمون صحيفة معيّنة من خلال المنهجيّة التالية:

1 ـ عام.

أ ـ ما الذي يشير إليه عنوان الصحيفة.

ب ـ ما هي الرسالة التي تحاول الصحف في عناوينها الكبرى أن توصلها إلى جمهورها.

ج ـ الصفحة الأولى تحاول أن توصل رسالة إلى الجمهور ..ما هي؟

د ـ ما هي الرسالة التي تحملها الصور، من يوجد في الصور / كم مرة..

2 ـ الافتتاحية.

أ ـ عن أي موقف تعبر؟.

ب ـ من هي المجموعة التي تدعمها الافتتاحية.

3 ـ تحليل المضمون: وتتم عبر مستويين: الموقف الرسمي/ والمواقف المستقلة (القاعدية) مواضيع التنمية المحلية (مثلًا).

☆ رسمي: نوع التنمية الذي تنقله الصحيفة / الاتجاه الاقتصادي الوارد/ المشاريع المعروضة.

☆ قاعدي: ماذا يكتب عن الجهود المحلية الصغيرة/ وما هو مقدار الجهود ومقدار ما يكتب عنها؟ ما الحملات المستقلة كيف يتم تناولها وبأية طريقة تعرض.

ـ السياسة (مثال آخر).

✓ **رسمي: من هم اللاعبون الرئيسون؟ ما هي كلماتهم؟ ما الذي يهدفون إليه؟ ما التزاماتهم نحو الطائفة التي ينتمون إليها؟**

✓ **قاعدي: ما هي منظمات المجتمع المدني التي تذكر في الصحيفة؟ من قادتها؟ وما هي اهتماماتهم؟.**

4 ـ مصادر المعلومات:

أ ـ ما هي المعلومات الدولية (أسوشيتد برس (أمريكا) رويتر (بريطانيا) وكالة الصحافة الفرنسية..).

ب ـ ما هو حجم الأخبار الدولية من العالم العربي/ أفريقيا/ أقطار العالم الثالث.

ج ـ ما هي المواضيع الرئيسة في الأخبار الدولية.

د ـ ما هي الأخبار التي تتناولها الصحيفة بصيغة إيجابية وما هي الأخبار التي تتناولها بصيغة غير إيجابية.

*** تمرين في التحليل حول دور التلفزيون في العنف:**

نشاهد بانتباه نشرة أخبار أو برنامجًا تلفزيونيًا يعرض مشاهد عنف، ثم نكتب في الجدولين التاليين أمثلة من أفعال الاعتداء الجسدي التي نشاهدها ونتائج هذه الأفعال: على الشكل التالي:

نشرة أخبار الساعة (. . . .) اليوم (. . . .) المحطة / القناة	
فعل الاعتداء الجسدي.	نتائج فعل الاعتداء الجسدي.
1 -	
2 -	
3 -	

مثال آخر

اسم البرنامج التلفزيوني المحطة / القناة		
اليوم . . . . فترة بث البرنامج: من الساعة . . . . . إلى الساعة. . . .		
فعل الاعتداء	نوع الاعتداء (جسدي/ جنسي/ حقوقي/ ملكية/ حرية شخصية. . .)	نتائج فعل الاعتداء

الفصل الخامس
استطلاعات رأي في السوسيولوجيا

1) القيم الاجتماعية في عالم اليوم: أية مفاهيم؟

2) الجنوسة في فهم الشباب اللبناني

3) الفتيات والتحرش الجنسي

4) الأنا والآخر الطائفي: أية علاقة؟

5) السلوك الجماعي وظاهرة التظاهر

استطلاع رأي (1)

القيم الاجتماعية في عالم اليوم: أية مفاهيم؟

(مقاربة ميدانية في الوسط اللبناني)[1]

أين نحن من عالم القيم؟ هل انتفت المروءة من أعرافنا؟ كم بقي من نصرة الملهوف وإعانة الناس وشيوع الأمانة والصدق والاحترام وحب الخير؟ لماذا أصبح الوفاء وحفظ الجميل والإخلاص أشبه بالعملات النادرة؟ أين أصبحت المعايير القويمة، ماذا حل بها وما حل محلها..؟ جملة تساؤلات وأحداث دفعتني لأبادر مع مجموعة من طلابي إلى البحث ميدانيًا عن دلالات ومؤشرات ظاهرة القيم: إلى أي مدى لا زالت راسخة في وسطنا الاجتماعي المحلي وإلامَ يعود أمر تبدلها وانهيارها؟.

مدخل نظري:

من العناصر الجوهرية في جميع الثقافات منظومة الأفكار التي تحدد ما هو مرغوب وما هو غير مرغوب في المجتمع، ذلك أن في أي حضارة بشرية ثمة مؤشرات إرشادية توجه أفعال البشر مع الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، هذه المنظومة/ المؤشرات هي القيم بحد ذاتها، وتستدل ـ في تعريفاتها ـ من ذلك المخزون الفكري والتربوي الذي يعمل على الدوام في تشكيل الأسلوب الذي يجب أن يتصرف به أفراد جماعة ما إزاء ما يحيط بهم كونها تضفي معنى محددًا معينًا للأشياء من حولنا كي يتم على ضوئها التصرف

---

(1) استطلاع للرأي أجراه المؤلف مع مجموعة من طلابه خلال العام 2005 كتدريب عن البحث الاجتماعي (غير منشور).

والتقييم والتقدير. وقد عرفت القيم منذ عهد بعيد عندما كان القدامى يعبرون عنها بأسماء مختلفة مثل الخير الأسمى، الكمال، المثل العليا، الفضيلة والنبل وبهذا يعتبر الصدق والمروءة والأمانة والولاء وتحمل المسؤولية كلها قيم خيرّة، يناقضها الكذب والغدر والمكر والجبن كقيم قبيحة. إنما لهذه القيم معنيين أحدهما: موضوعي ووفق هذه المعنى تكون القيمة كل ما من شأنه أن يجعل شيئًا من الأشياء أو موجودًا من الموجودات جديرًا بالاحترام والرغبة في اكتسابه. أما المعنى الآخر فذاتي وهو ما يرغب فيه شخص معين أو يجله ويقدر أهميته بنظره، وهذا ما يجعل القيم تختلف من شخص لآخر وفقًا للحاجات والأذواق.

وتميز العلوم الاجتماعية في تناولها للقيم عادة بين القيم ـ الوسيلة التي تكون بمثابة معتقدات تفاضل بين سلوك وآخر، كقولنا مثلًا إن الصدق أفضل من الكذب، الكرم أفضل من البخل إلخ.. والقيم ـ الغاية وهي التي تكون بمثابة غايات مثلى نسعى إليها كي نحقق معنى وجودنا من خلالها كالحرية، العدالة، السلم، السعادة، الثروة، المساواة، الصداقة. وفق هذا التعريف تعبر القيم بكافة مفاهيمها عن أبعاد المجتمع التي تنشأ فيه، فهي الفضاء الاجتماعي والثقافي التي يستظله أي فرد/ جماعة/ نظام يود أن يكون لديه طابع خاص من المعايير والأعراف. ولهذا السبب نجد التمايز في إعلاء بعض القيم على حساب أخرى بين مجتمع وآخر انطلاقًا من الاحتياجات المشتركة، قواعد السلوك المتفق عليها ونمط الحياة المعاش والمخصوص؛ فقد تميل جماعات معينة مثلًا إلى التشديد على قيمة المعتقدات الدينية بينما تميل جماعات أخرى إلى إعطاء قيمة أعلى للعلوم والتقدم الحضاري، وتبين بالمثل أيضًا أن المجتمعات التي تولي «الملكية الخاصة» قيمة وشأنًا تأتي قوانينها صارمة لجهة أي تعد على حقوق تلك الملكية سواء بالسرقة أو العبث، وكذلك الثقافات التي تعلي من شأن الكرم وحسن الضيافة، فإن معاييرها الثقافية تؤكد التوقعات بتقديم الهدايا وتشدد على أنماط السلوك المتعلق بواجب الضيافة وتقدير الضيوف.

وهكذا تغدو القيم نوعًا من الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو

عدم التفضيل للموضوعات والأشياء والأشخاص على ضوء تقييمه وتقديره ورغباته، وتتم عملية التقييم هذه بناء على ما لدى الفرد من معارف وخبرات وتفاعل مع المحيط الذي ينشأ فيه وبذلك تصبح مقياسًا أساسيًا يحكم تصرفاتنا ويوجه سلوكنا، أنها وبحسب تعبير أحد علماء الاجتماع بمثابة «ممكنات اجتماعية متاحة أمام الشخص الاجتماعي في الموقف الاجتماعي..».

دراسة القيم:

استحوذت دراسة القيم اهتمامًا ملحوظًا منذ فترات طويلة مع بداية حديث الفلاسفة عن السلوك البشري والاجتماعي بدءًا من أفلاطون وأرسطو وكتاباتهما حول ما يمكن أن يسير عليها جماعة تضم أفرادًا غير متكاملين من شرائع حكم وسبل تنظيم معاش لتحصيل الحد الممكن من الفضيلة والسعادة. إلى الفلاسفة الغربيين المحدثين أمثال توماس هوبز (1588-1679) وآدم سميث (1723-1790) حيث أشار الأول إلى أن أعظم خير يمكن أن يصل إليه إنسان في هذه الدنيا هو «السلام»، حياة يسودها الأمن والاستقرار وبذاك لا يبدو السلام كعملية أخلاقية واجبة بين الناس فحسب وإنما قيمة غائية يمكن عن طريقها الوصول إلى هدف سام ألا وهو السعادة. أما سميث فقد لمح في كتابه «نظرية العواطف الأخلاقية» إلى أهمية التعاطف مع الغير أي ما يطلق عليه اليوم بالتفاعل الاجتماعي، فالتعاطف بحسب رأيه هو انفعالنا بعواطف غيرنا وإحساسنا بالآخر، إذ عندما ننفعل لما يحدث للآخرين (كأن نسعد أو نبكي) هو بحد ذاته قيمة. بدورهم الفلاسفة العرب أولوا اهتمامهم بمفهوم القيم عندما تحدثوا عن أهمية الاجتماع البشري ودور التنشئة الاجتماعية فابن سينا يرى أنه «يجب على والد الصبي أن يبعده عن مقابح الأفعال ومعايب العادات» وكذلك فعل ابن مسكويه الذي بيّن في مؤلفه «مكارم الأخلاق» جملة القيم التي تهدي إلى شخصية اجتماعية نامية، وفي السياق ذاته قال أبو حامد الغزالي الذي لمح في كتاباته عن النمو والاجتماع الإنساني بالحديث عن السواء واللاسواء ومعيار القبح والحسن والأفعال المحمودة والأفعال القبيحة.

هذا يعني أن موضوع القيم ظل مرافقًا لكل حقبة وعصر، انتشرت سماتها الروحية في جميع المجتمعات المعروفة، فهي ورغم تعدد العقائد والممارسات الدينية وتنوع الأمصار بين ثقافة وأخرى تنطوي على منظومة من الرموز التي تستوجب الاحترام والإجلال كونها ترتبط بسلسلة من الشعائر والتعاليم والأعراف التي يشترك فيها جميع المؤمنين بها.

و يتقدم موضوع القيم إلى صدارة الاهتمام عندما يتهدد مفهومها منعطفات التغير السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي، ويدخل الناس في مخاض ولادة قيم لم تكن مألوفة لمجالهم المحلي، ويبدأ الصراع بين هذا «الغريب» الوافد أو المستحدث وبين ذاك المأنوس لديهم.. وبعد برهة من الزمن تتحسر فئة من الناس على قيم «قيّمة» اندثرت إزاء قيم بات شيوعها بالنسبة لهم بمثابة وباءً اجتماعيًا حتى بات المجتمع ـ بها ومن خلالها ـ مأزومًا؟ لهذا كانت تساؤلاتنا عن واقع القيم في عالم اليوم في ظل **أية قيم اجتماعية / أخلاقية / إنسانية نعيش؟ ما هو المتداول بين الناس؟ هل هناك ثمة قيم طاغية على أخرى؟ هل انحسر وجود قيم الخير إزاء قيم الشر؟ما الذي انحسر منها وما الذي انتشر إزائه؟ هل نعيش فعلًا أزمة قيم في مجتمعنا الشرقي المحافظ؟** مختلف هذه الطروحات تم مقاربتها ميدانيًا في أوساط متفرقة من المجتمع اللبناني بتنوعه المناطقي والطائفي والاجتماعي والعلمي والمهني، وقبل أن نأخذ في تحليل المعطيات، نشير إلى تقنيات القياس التي استخدمت لغاية البحث.

كيف يتم قياس القيم؟

ثمة أساليب عديدة متعارف عليها في الدراسات المختصة بدراسة القيم حيث هناك: الملاحظة الميدانية التي ترتكز على المشاهدة العيانية لشملة من السلوك الاجتماعي في مواقع عدة، أو في موقع واحد خلال فترة زمنية محددة، كأن يهدف باحث ما بدراسة قيم معينة في مرحلة عمرية أو مجتمع ما، راصدًا بذلك مدى ثباتها أو تغيرها، الأسباب الآلية إلى ذلك؟

ومن وحدات القياس أيضًا المقابلة الشخصية واستطلاعات الرأي، وهي

عبارة عن مجموعة من الأسئلة تسبر آراء جماعات معينة، يدور مضمونها في الغالب حول سلوك اجتماعي يتطلب معرفة مآثره بأن يطلب من «المستجوب» نقده لها أو تقييمه عليها أو يبدي رأيًا حولها بناء على معايشته لها، وغالبًا ما تتوجه استطلاعات الرأي إما إلى عينات مختارة من نفس التوجه والأعمار والأذواق في مجتمع محدد، وإما أن تجري على عينات عشوائية من مختلف الأوساط الاجتماعية بهدف معرفة مدى تقبلهم أو رفضهم لما هو مطروح في الاستبار، وهذا ما تعمد إليه مراكز الدراسات والأبحاث الاجتماعية وعليه كان اعتمادنا لها في دراساتنا الآنية حيث قام طلاب باحثون باستجواب أكثر من 300 مستجوبًا عبر استبيانًا يتضمن الأسئلة التالية:

1 . ما هي الصفات التي تعجبك في الناس؟.

2 . ما الصفات التي تزعجك في الناس؟.

3 . ما هي القيم التي يجب الحفاظ عليها أكثر من غيرها؟.

4 . هناك أفعال غير مقبولة اجتماعيًا لكن بعض الناس يقوم بها، أي من هذه الأفعال تعطيها تبريرًا أكثر من غيرها؟.

5 . ما هي القيم / الأمور التي يجب أن تتغير في عالمنا الاجتماعي المحلي (لبنان)؟.

6 . ما هي القيم التي تحب أن تتصف بها/ أو تود أن تربي أولادك عليها؟.

* معطيات الاستطلاع:

بعد تدريب فريق العمل على آلية الاستطلاع ومناقشة خطة التحرك والعوائق التي يمكن أن تحدث، انطلق الباحثون لجمع المعطيات من مجالها الجغرافي المفترض، وبعد شهرين من العمل المتواصل (آيار وحزيران 2005) تم فرزالنتائج وتحليل مضمون الإجابات التي أمكن الحصول عليها وفق البيانات التالية:

جدول رقم (1) توزع المستجوبين بحسب تقديرهم للصفة التي تعجبهم في الآخر.

القيمة	صفاتها/ مظاهرها	%
الصدق	الصراحة/ الوضوح/ الشفافية/ النزاهة	%32
التعامل الحسن	الاحترام/ التواضع/ النظام/ اللياقة	%20
تقبل الآخر	انفتاح/ صبر/ بساطة / عفوية/ محبة	%17
التقدير	الوفاء/ الإخلاص/ الأمانة.	%16
الدافعية	الإباء/ الطموح/ الديناميكية	%12
الغيرية والإيثارة	التعاون/ المروءة/ حب الغير/ الإنسانية	%12

يبدو من دلالات هذا الجدول (رقم 1) تصدّر قيمة الصدق أعلى المراتب (32%) ولا غرو في ذلك باعتبارها المرتكز الأساسي لقوام شخصية اجتماعية صحيحة، فهذه القيمة اختيرت وتختار على الدوام لأهميتها النفسية والأخلاقية نحو بناء علاقات صحيحة مع الآخر، فهي فضلًا عن اعتبارها قيمة تربوية سامية نتشربها منذ الصغر عبر حلقات التنشئة، وتشدد عليها التعاليم الدينية أيّما تشديد، فهي عماد وجودنا الاجتماعي الحق وإلا بدونها يبدو كل شي زائف وزائغ. لهذا إن كان البعض شدد على أهمية وجودها انطلاقًا من اعتبارها «إرث ديني ـ تربوي ـ أخلاقي» قيّم، فإن البعض الآخر أشار إليها من باب التحسر على أنها قيمة سامية اندثرت وقلّ وجودها بين الناس أو من باب التمني لو أنها «تتعزز» بصفاتها ومظاهرها وأبعادها بعدما كثر الخبث بين الناس حتى بات الحديث عن مثل هذه القيمة كأنه أمنيات ليتها تتحقق.

أما فيما يتعلق بالنسبة التالية «التعامل الحسن» فقد جاءت ثانيًا (20%) ـ من حيث تدرج الأهمية ـ لما لذلك من أهمية في التواصل الاجتماعي الذي ينبغي أن يتم على أسس من الاحترام والسلوك الاجتماعي الحسن ومبادئ الكياسة، وما إن نجد شيئًا من هذا القبيل لدى أحد من الناس فإنه ولا شك يستحوذ إعجابنا، ذلك أن الخصال الحميدة والسمات الطيبة في التعامل: كالتواضع والانتظام، هي ما تجعلنا نقدر من يمتلكها، لقول أحد الحكماء: «كن كريمًا إذا أحببت، وجميلًا إذا استطعت ولكن ينبغي أن تكون محترمًا».

أما عن القيمة التي حلت ثالثًا ـ **تقبل الآخر** ـ (17%) فهي عبارة عن آراء شخصية متنوعة أشار إليها الناس إما اقتناعًا بجدواها كونهم يعيشونها وإما لأنهم يفتقدونها فيحنون إليها في عالم اضطرب بقيم مادية وثقافية مستوردة بات يشعر معها المرء أنه غريب في مجتمعه، حتى تعقدت حياته بمعطيات عصرية / تكنولوجية/ اجتماعية جديدة أخذ يشعر معها أن شيئًا من ذاته الاجتماعية الأصيلة فقد رونقه، فلا التزاور العفوي بقي موجودًا ولا التواصل البسيط بين الناس ما زال قائمًا بل كل بنفسه، يعيش عالمًا صنعه لذاته من التلفزيون والتلفون والسيارة. ثمة حنين إلى تلك القيم القائمة على حياة البساطة والمحبة والعفوية والتواصل المنفتح مع الآخرين دون أي مسافات أو «بروتوكول».

ومن الملاحظات الملفتة على معطيات هذا السؤال ورود قيم سامية **كالتعاون والمروءة والاندفاع لمساعدة الناس في أدنى النسب**، إذ في الوقت الذي تكثر فيه دعوات كثيرة نحو التضامن والتكافل الاجتماعي نجد ضمور هذه القيم، رغم «منفعتها» ليست الاجتماعية فحسب وإنما على الصعيد الشخصي والنفسي لفاعلها، فالاندفاع نحو مساعدة الآخرين يضفي على الحياة بعدها الإنساني، ويجلب السلام والحرية والأمان والعدالة لكل الناس.. التطوع من أجل الآخرين هو رحلة نحو اكتشاف الذات وتمرس القيادة وتحقيق الهوية وتربية مقدرتنا على السياسة» كما أنه يعلمنا كيف يمكن أن نكون ذوو مسؤولية اجتماعية، كيف نقدم وكيف نتقبل؟ كيف يدرب المرء ذاته وينمي قدراته ويغني شخصيته.

وما استوقفنا أيضًا في النسب إشارة المستجوبين إلى قيم أخلاقية هامة مثل الإخلاص والأمانة والوفاء (16%) وما أشارتهم إلى ذلك إلا بعدم انتشرت بينهم القيم النقيضة على نحو ما بينته نتائج معطياتنا على السؤال التالي حول الصفات التي تزعجك عند الناس، فكانت الإجابات التالية:

جدول رقم (2): توزع آراء المستجوبين حول الصفات الأكثر إزعاجًا ورفضًا.

الصفة	%
الكذب (نفاق/ رياء)	35
غرور (تكبر/ تعجرف)	16
غدر (غش/ خيانة)	8
غيرة (حسد/ نميمة)	8
وقاحة(قلة تهذيب/ تدخل سافر)	6
حقد(كراهية/ أذى)	5
وصولية (حب المال/ انتهازية)	4
رذائل أخرى (احتيال/ جشع/ سرقة/ ثرثرة/ قلة النظافة)	16

يظهر من هذه الجدول (رقم2) ارتفاع نسبتي: الكذب وهذا بطبيعة الحال كونها آفة اجتماعية خطيرة يترتب على انتشارها مخاطر جمة لا تنتهي ليس أقلها تعطل مصالح الناس أو انسياقهم إلى مشاكل لا تحمد عقباها. ونسبة الغرور المتمثلة في التشاوف، الادعاء، التكبر، التعجرف، والتعالي على الناس، الذي سببه إما كثرة المال أو تبوء المراكز أو ارتقاؤهم سلم العلم والتخصص، ليغدو أصحابها فوق مستوى الناس الاجتماعي والمعرفي ينظرون إليهم من خلال أنوفهم، ويصعرون خدهم وكأنهم خلقوا من طينة غير طينة البشر. وهذا ما جعل من بعض المستجوبين يشمئز ممن لديه صفات الغرور ومظاهره ويقيّمه في خانة الأكثر رفضًا وإزعاجًا، وهذا ربما ما يبرر لنا ما ورد عند تحليلنا للجدول السابق شوق الناس إلى «حياة البساطة» وإشارة الناس إلى «مسألة التواضع» فما كان ذلك إلا بعدما كثر حديثو النعمة بمظاهرهم الاستعلائية المتمثل في أكثر من جانب: هيئة جلوسهم أو مشيتهم / أحاديثهم وتخاطبهم / استهلاكهم التفاخري / تبجحهم بأفعالهم / ارتباطهم بمراجع مسؤولة.

في مختلف هذه الآراء ـ الواردة في نسب الجدولين ـ نلاحظ تنوعًا من الصفات الأخلاقية والاجتماعية المرغوبة والقيم المثلى ـ إزاء الصفات المزعجة والخصال السيئة. مثل هذا «التناقض» في وجوده ليس حديث العهد

في مجتمعنا، فهو انعكاس للصراع الأبدي المتواتر منذ أقدم العصور بين الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، الحق والباطل، ولكن أين الناس اليوم من هذا الصراع، في أي جهة يقفون؟ هل تغيّر الأفعال الماكرة وسوء النوايا والظروف الصعبة من نظرة الناس للقيم الخيّرة؟ بمعنى أدق: ما هي القيمة التي يجب الحفاظ عليها إزاء التحديات التي تواجههم؟ هذا ما توقفنا عنده وسألنا عن رأيهم بالقيمة الأساس التي يجب أن تسود بين الناس بل يجب الحفاظ عليها وإلا انتهينا كمجتمع؟ ليبرز الصدق بأعلى درجاته (29%) يليه الاحترام بكل ما تعني هذه الكلمة من مدلولات (18%) **فحسن التعامل** والمحبة ومساعدة الغير وتقبل الآخر (15%) يليه **التواضع** والتأدب (12%) **فالوفاء والإخلاص** (7%) والتسامح (4%) وغيرها من الخصال الحميدة(6%).

مع تغير نمط الحياة السائد الذي يحدث في مجتمع ما، تظهر إلى العلن أفعالًا اجتماعية جديدة نتيجة التخالط مع الثقافات والتلاقح في الحضارات، ومثل هذه الأفعال تكون مرفوضة و مستهجنة بادئ أمرها لكن مع انحسار الضوابط الاجتماعية تتسع دائرة انتشارها رغم معارضة الكثيرين لها، إزاء هذا الواقع الماثل بتصرفات اجتماعية غير مقبولة، وفي ظل قيم محافظة وبنى معرفية تقليدية ماذا يقول الناس عن بعض التصرفات الاجتماعية غير المقبولة رغم أنها منتشرة في وسطهم،حول ذلك قدم إلى المستجوبين سؤالًا مفاده: **هناك بعض الأفعال غيرالمرغوبة اجتماعيًا، ولكن البعض يبرر فعلها، أي من هذه الصفات تعطيها تبريرًا أكثر من الأخرى؟** ثم عرضت على المستجوبين لائحة من ثمانية أفعال تحدث في أي مجتمع ولكننا أردنا معرفة وزنها القيمي في المجتمع اللبناني على وجه الخصوص، لتأتي النتائج على الشكل التالي:

جدول رقم (3) توزع المستجوبين حسب تبريرهم للأفعال الاجتماعية غير المرغوبة.

الفعل.	%	التبرير.
الإجهاض.	28	وجود خطورة على صحة الأم.
عدم مساعدة مصاب.	23	تجنبًا لتحمل المسؤولية تجاه الشرطة والقانون.
الكذب.	13	منجاة من بعض المواقف المحرجة.
الرشوة.	9	فيها تيسير لبعض الأمور.
علاقة جنسية قبل الزواج.	7	اختبار لقدرات عاطفية وجنسية.
السرقة.	5	عندما يسرقك/ يظلمك أحدهم.
الخيانة الزوجية.	5	كثرة الإغراءات المنتشرة والمعلنة.
الدعارة.	3	رد فعل على قهر ما (فقر/ بطالة/ انسحاق).
لا إجابة.	7	باعتبار أن ما ذكر لا يمكن أن يبرر.

تردد المستجوبون كثيرًا عند الاختيار أو حتى عند قراءة هذه الخيارات باعتبار أننا مأخوذون بثقافة دينية تحظر مختلف ما ورد، لكن تصور البعض الواقعي بأن مثل هذه الأمور حاصلة في مجتمعنا ارتأى من نسبتهم (28%) بأن الإجهاض قد يكون مبررًا أكثر من غيره لما له من أبعاد صحية قد تؤثرعلى صحة الأم من جهة أو مع وجود مشكلة خلقية في الجنين أو لأنه حمل غير شرعي (سفاح)، ولكننا ترانا نتساءل هل الجميع يبرر الإجهاض بالطريقة ذاتها، لأن الإجهاض الذي كان يعتبر ولما يزل جريمة يعاقب عليها القانون ويمجها الشرع والدين هل أصبح أمرًا مقبولًا ومبررًا من قبل اللبنانيين؟.

أما عن النسبة التالية فكانت لعدم مساعدة مصاب (23%) ذلك أن مساعدة من هو بحاجة واجب ديني وأخلاقي وإنساني، خاصة إذا كان مصابًا وقليل من المساعدة قد تنقذ حياته، لكن الذي يجعل الناس تتردد في المساعدة هو تلك التبعات المترتبة على فعل المساعدة، فإذا أراد أحدهم ما ـ مثلًا ـ أن ينقل مصابًا بحادث سيارة إلى مستشفى لا يتم استقبالهما إلا بعد إجراءات مسؤولية تضع الناقل في موضع شبهة ويتم الاتصال بالشرطة للإبلاغ عن الحالة ويتوقّف الشخص لحين النظر في حالة المصاب. وهذا ما يجعل «فاعل الخير» يتروى عند عمل شبيه في المرة التالية، من هنا إذا كان أحد لم يساعد مصابًا

فإن التبرير متضمن في تبعات المسؤولية التي يرغب أن يكون بعيدًا عنها. على حين أشارت فئة لا بأس بها بضرورة المساعدة على رغم من كل التبعات القانونية أو الجزائية اللاحقة.

ومن النسب اللافتة «تبرير العلاقات الجنسية غير المشروعة سواء قبل الزاوج أو في إطار آخر» وترانا نتساءل هل تبرير البعض لها من قبيل أنهم يعيشون كبتًا جنسيًا وظروفًا صعبة ولا بد من إقامة علاقات عابرة ضمن حدود الممكن والواعي (عقود ارتباط عرفية.) أم لأن مجتمعنا أصبح مفتوحًا على كثير من المغريات الإباحية وأصبحت النظرة إلى الجنس متاحة عبر أكثر من وسيلة (مرئية) مما أشبع فضول الناس وجعل تقييمهم يتسم بشيء من «الإقرار بواقع الحال» وكأن الأمر شيء «عادي» ومقبول[1]؟ رغم أن المسألة الجنسية أضحت في الغرب جزءًا من الحريات الشخصية وأمرًا مقبولًا، لا زال المجتمع اللبناني ينظر إليها بنوع من الحذر والرفض فيما لو تمت خارج أطرها الشرعية (الزواج تحديدًا) فضلًا عن العامل الديني الذي يؤطر أي علاقة من هذا القبيل في إطار الحرام وهذا ما أثر في اتجاهات المستجوبين الذين لم يعطوها تبريرات عالية.

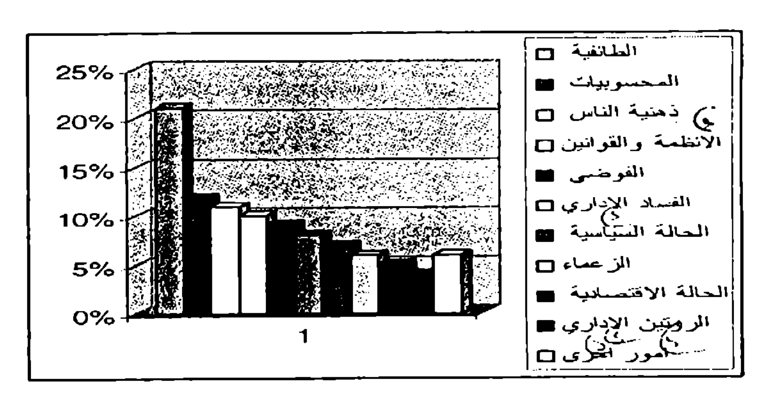
إذن تتسع الهوة بين حياة وقيم المجتمع الغربي عن المجتمع الشرقي ورغم أن المجتمع اللبناني يأخذ بكلتا الثقافتين إلا أنه في مسائل محددة تمس القيم فإنه يضعها في خانة المحرمات وهذا ما جعلها في آخر القائمة لناحية اختيارها من قائمة الأعمال التي لا يمكن أن تبرر.

(1) وفي هذا السياق أظهر استطلاع للرأي أجرته المؤسسة الدولية للمعلومات حول الشباب والمجتمع اللبناني وتقاليده (1997) بعض المعطيات المتعلقة بمسألة العلاقة الجنسية قبل الزواج حيث قبل من نسبتهم 35% من الشباب على مبدأ الجنس قبل الزواج في حين رفضته من نسبتهم 64%، وعن مدى استعدادهم للزواج من فتاة سبقوا وأقاموا معها علاقة جنسية ذكر 55% بأنهم يقومون بمثل هذا الزواج مقابل 44% أعربوا عن رفضهم للفكرة، وعن ردة فعل الأهل في حال عرفوا أن ابنتهم العزباء حامل (من علاقة ما) تراوحت ردود الفعل بين الغضب الشديد عند من نسبتهم (47%) وتفهم الوضع عند نسبة(28%) في حين أعرب من نسبتهم (24%) عن تصميمهم على معاقبتها بقساوة.

وتفاوت الناس في تقييمهم للذي يرغبونه أو يرفضونه من أفعال/ صفات/ تصرفات، دفعنا إلى مقاربة وجهة نظرهم نحو «الحال» الذي يجب أن يتغير في وسطهم الاجتماعي، بسؤالنا إياهم: ما هي الأمور التي يجب أن تتغير في البلد (لبنان) برأيك؟ لتتنوع آراء الناس وتعدد بين مسائل سياسية وأخرى اقتصادية وتالية اجتماعية وفق الترتيب البياني التالي:

رسم بياني رقم (1) يبين توزع اللبنانيين حول الأمور الأكثر طلبًا للتغيير:

رسم بياني رقم (١) يبين توزع اللبنانيين حول الامور طلبا للتغيير:



يرى غالبية اللبنانيين (21%) ضرورة التخلص من حالة الطائفية والولاءات المذهبية، باعتبارها مرض يفتك بالجسم اللبناني فمن جرائها عرف اللبنانيون ويلات الحرب والقهر والتقاتل، وهم شعب مسالم في بلد صغير ارتضوا العيش فيه معًا منذ وجودهم فيه، على أن يظهروا ولاءهم الكامل لأرض وكيان ووطن، لكن الظروف السياسية العاصفة التي مر بها لبنان جعلت الكل يتقوقع ضمن طائفته متوجسًا الآخر ويرسم مسافات البعد عنه، ولأن الأوطان لا تبني بالتقاسم والتمذهب والتعصب كلٌّ لملته، وللخروج من حالات التصارع والانزواء رأى البعض أهمية التخلص من علة العلل ألا وهي الطائفية.

ومن أكثر الأمور التي يرفضها اللبنانيون: المحسوبيات والاستزلام لزعيم أو جهة ما والتوظيف بالواسطة، فمثل هذه المسائل لا تقل خطورة عن مرض الطائفية أو لعله أحد إفرازاتها حيث تمنع المراكز والوظائف عن أصحاب الكفاءات وتترك لأقطاب الطوائف كحصص من تركة الدولة ليتصرفوا بها كيفما يرغبون عبر توظيف أزلامهم بها. لينسحب على ذلك خدمات خاصة لجماعة هذا الزعيم دون الآخرين.

ومن الأمور اللافتة والمفترضة تغيير ذهنية الناس تجاه دولتهم (11%) الذين لا يكنون أدنى احترام أو تقدير لها ولمؤسساتها. ولعل هذه النظرة المجحفة في حق الدولة وتوصيف الناس فيها أقوالًا مذمومة مرده إلى الفوضى وتجاوز القانون (9%) ولامبالاة المسوؤلين الذين يفترض بهم أن يعملوا على خدمة الناس أيًا كانوا، لا خدمة أبناء ملتهم أو أنصار زعمائهم فحسب، أو ربما يعود ـ تناول الناس للدولة ـ إلى وجود أنظمة وقوانين قديمة لا تجاري الواقع الحالي سيما لجهة الإجراءات الإدارية المتطلبة والمتعبة في آن. لكن الأمر الأشد تمنيًا في التغير هو الفساد الإداري المتمثل في دفع الرشاوى، ناهيك عن الإجراء الإداري المضني لإنجاز معاملة معينة (خاصة عندما يجهلون دهاليز المؤسسات العامة فيقعون فريسة «سماسرة تخليص المعاملات» مقابل بدل مادي تقرر قيمته بحسب أهمية «المعاملة») وفي كل الأحوال تتعطل أمور الناس وتكلفهم عناء الوقت والجهد والتنقل والمال مما يغيض أصحاب الدخل المحدود أو ممن ليس لديهم جهات نافذة، فيكيلون الشتائم والسباب على الحال الذي أوصلهم إلى أن يكونوا تحت رحمة «موظف حكومي». من هنا لا نستغرب إشارة نسبة معينة إلى ضرورة تغيير «الرئيس الحالي والزعماء» (6%) باعتبارهم المسؤولون عن هذا العبث القائم بعدم محاسبة هؤلاء على تجاوزاتهم.

وانطلاقًا من هذه «الحالة المزرية» التي يتمنى أكثر الناس تغيرها، وبعد أن حدد المستجوبون لأبرز القيم السائدة في محيطهم، رأى فريق البحث من الأهمية بمكان أن يستمزج آراءهم بشكل استنتاجي عن القيم التي تبدو أكثر أهمية في بناء نسق قيمي اجتماعي سليم آنيًا ومستقبليًا، فتوجهنا بالسؤال

التالي: ما هي القيم التي تحب أن تتصف بها/ أو تود أن تربي أولادك عليها؟ فظهرت النتائج التالية:

جدول رقم (4) يبين توزع المستجوبين بحسب رأيهم للقيم المطلوبة.

القيمة	%
احترام الآخر	23
الصدق والصراحة	21
حب الوطن واللاطائفية	9
الأمانة	8
التهذيب والعفة	7
محبة الناس	7
الثقة بالنفس والمسؤولية	6
النظام	5
الالتزام بالدين	4
قيم أخرى(العطاء/ العلم/ التسامح/ المثابرة/ الوفاء...)	9

ويمكن ترجمة هذه المعطيات بمؤشرات عدة.

* توزع آراء الناس في بنود قيمية عدة منها:

1 ـ قيم خاصة تتعلق ببناء الذات، وبدت في تحديدهم للثقة بالنفس/ المسؤولية/ التهذيب.

2 ـ قيم معينة تتوجه إلى الوطن وتجلت في: نبذ الطائفية/ احترام النظام.

3 ـ قيم تدور حول قواعد التعامل مع الآخر من خلال: محبة الناس / احترام الآخر/ الأمانة / الصدق / قول الحق والصراحة.

4 ـ قيم دينية وأشير إليها بأكثر من وجه عبر تحديدات مثل: مخافة اللّٰه/ حب الدين / الالتزام بمبادئ روحية سامية كالتسامح/ العطاء/ العفاف/ . .

* تحديدهم قيم دون غيرها، مما يعني ضرورة الأخذ بمظاهرها في المواقف التي تستدعيها.

* اتفاق الناس على شبكة معينة من القيم يجب أن تسود، فالإنسان لا يعيش في فراغ اجتماعي والآخرين لا يمكن أن يستمروا في نظام اجتماعي دون قواعد سلوك معينة، لابد من «معايير» تحدد علاقتهم ببعضهم بعضًا، وليس هناك أفضل من وجود سلم قيم راسخ وممارس.

* تنوع في اختيارهم لنظام القيم المفترض وذلك يعود لاختلاف الناس في فروقهم الفردية وأعمارهم وجنسهم وثقافتهم ومناطقهم.

إذن يمكن اعتبار القيم على أنها محددات سلوك اتفق عليها من قبل الجماعة، أو معايير يطلقها الفرد بصفة أحكام على الآخرين بناء على أفعال يقوم بها بعضهم. ولا يتم هذا الحكم أو التقييم إلا من خلال تفاعل حاصل بين الفرد بمعارفه وخبراته وبين الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه. فقد تبين مثلًا أن هناك فرقًا بين تقييم المتدينين أو فيما يتبنونه من قيم عن غيرهم من غير المتدينين، فالأشخاص المتدينون يعطون أهمية أكبر للقيم الأخلاقية: كالأمانة والتسامح، في حين أن الأشخاص الأقل تدينًا تحتل لديهم القيم الخاصة بالكفاءة والقدرة والاستقلالية.. كذلك الحال يمكن القول عن الذين ينتمون إلى طبقات مهنية واجتماعية راقية كيف يميلون إلى تقدير الأمور من خلال التعبير عن الذات والإنجاز والنجاح والأهداف الطموحة، في حين يميل ذوي الطبقات الاجتماعية الدنيا والعمال إلى أن يعطوا أهمية لقيم التدين والصداقة والطاعة والتهذيب.

هكذا نفهم القيم على أنها بمثابة مستوى أو معيار يقيس به الشخص واقعًا ما ويقيمّ من خلالها الأشياء من حيث فاعليتها ودورها في تحقيق مصالحه، ويتم هذا التقييم غالبًا بناء على درجة وعي الشخص الاجتماعي وإدراكه للأمور وما يتأثر به من أوضاع اقتصادية أو سياسية أو دينية أو جغرافية ويعتبر بعض الباحثين أنه يمكن تصور القيم على أنها إحدى المعاني التالية:

- أشياء مطلقة لها هوية مستقلة.
- متضمنة في الموضوعات والأشياء المادية أو غير المادية.
- تعبر عن أفكار الشخص/ الجماعة والآراء التي يتبنوها.

- تشير إلى حاجات الفرد النفسية والاجتماعية وحتى البيولوجية.

من هنا تبدو القيم الخيرة في كل وجودها ومظاهرها وصفاتها على أنها ذلك التناغم الاجتماعي الذي يجب أن نعيشه جميعًا في حال من التواصل والتفاعل والانتماء والتشارك، وعندما تتخاذل الناس أو تتوانى عن ممارسة «القيم» الطيبة وتتصرف بردود فعل مؤذية ستعم الفوضى وتسود المساوئ، بينما إذا كانوا يفكرون بالمثل والقيم التي تؤيد الخير والحق والجمال يرتقي المجتمع فوق الفوضى والتصرفات غير اللائقة، الناس يجعلون المجتمع على ما هو عليه، كل مجتمع يعج بما يلائمه[1].

لماذا تتغير وكيف؟ يمكن إرجاع تغير القيم إلى جملة أسباب منها:

1 ـ **التغير الاجتماعي**: عبر ما يعرف بصدمة الحداثة، أي ذلك الصراع القائم منذ القدم بين ثنائية التقليد والحداثة، التي نجدها في كل مكان مع أناس يرغبون أن يبقوا على تقليديتهم ويستمروا بالقيم التي تشرّبوها عن آبائهم وأجدادهم وبين أناس ينزعون نحو التمثل بقيم أخرى جديدة/ دخيلة باعتبار أن القديمة عفى عليها الزمن أو أنها لم تعد تصلح لمجاراته. في مطلع عام 2000 نشرت إحدى اللجان الحكومية المفوضة في اليابان تقريرًا أوضحت فيه المعالم الرئيسة للأهداف التي يبنغي على اليابان أن تسعى إلى تحقيقها في القرن الحادي والعشرين، وكان رئيس وزراء اليابان طلب تشكيل هذه اللجنة في أعقاب ما شهدته اليابان من ركود اقتصادي وارتفاع في معدلات البطالة، وبغرض تحديد المسار الذي ينبغي على البلاد سلوكه في العقود القادمة، كانت النتائج التي خلصت إليها مدعاة لاستغراب الكثيرين، إذ أن التوصيات دعت

(1) ويقارب الباحث (روبرت سبالديني) مفهومه للقيم بمبدأ البرهان الاجتماعي عندما يبين من خلال استعراضه لشتى التجارب كيف أن كثير من مشاكلنا تحدث نتيجة حالة «الجهل الجمعي» الذي نمر به أو نعيشه، فحينما يحاط المرء بملايين الناس متعرضًا لضغوطهم فالسبيل الوحيد لتجنب الضغط هو تجاهلهم كلما أمكن، هذا فضلًا عن أن عدم اهتمام المرء بجاره أو بمتاعبه أو بأخيه الإنسان فعل منعكس شرطي في حياة الجماعات غير المتماسكة ولعل عدم الاهتمام للتورط هو ما يجعلنا لأن نكون جماعة من أناس أنانيين وبلا حساسية، إن صعوبات الحياة العصرية جعلتنا قساة، إننا ننحو نحو مجتمع بارد.

المواطنين اليابانيين، إلى أن يتساهلوا في بعض القيم الجوهرية التي يأخذون بها إذا ما أريد للبلاد أن تواجه بنجاح ما تمر به من مشكلات، وأوضحت اللجنة أن الثقافة اليابانية تعلي من شأن الانصياع والمساواة ودعت إلى اتخاذ إجراءات للتخفيف من التجانس والتماثل التام، فارتداء جميع أطفال المدارس في اليابان مثلًا زيًا كحليًا موحدًا يلغي نواحي التميز فيهم بوصفهم أفرادًا. واختتمت اللجنة دراستها بالقول إن هذه القيم (المساواة/ الانصياع/ التجانس..) تحول بين اليابانيين وبين اعتناق الأفكار الداعية إلى تمكين الفردنة والتميز والانطلاق.

2 ـ التحضر: والذي يعتبر أحد ثمرات البيئة الإنتاجية وأنماط العمل، مما يعني أن هناك حراكًا مكانيًا ومهنيًا أخذ مكانه في الأوساط الاجتماعية، فبعدما كان جميع أفراد العائلة ـ مثلًا ـ يعملون معًا في عمل زراعي أو حرفي واحد بكثير من روح التماسك والتساند، حدث انتقالا على صعيد هذا النمط (العائلي) مع انتشار نمط العمل الوظيفي الذي نتج عنه نزوح الشباب نحو المدينة واستقلالهم عن العائلة ونمط حياتها ومعاشها، وتحرروا نسبيًا من سلطة الكبار وأخذوا يتماهون بحياة مدينية قوامها: الإنجاز / التطلع/ المصلحة/ الربح السريع/ الترفيه وما إلى ذلك من مغريات المدينة وقيمها. فالمدنية وحياة التحضر تؤدي غالبًا إلى ضعف العلاقات الاجتماعية بين الناس(1).

3 ـ التعليم، لو استعرضنا واقع التعليم تاريخيًا في العالم العربي للاحظنا التحول الهائل عن بداياته في الكتاتيب الصغيرة في الأرياف، إلى مبانٍ فيها مراحل تعليم متوسط، إلى فروع جامعية متقدمة ومتنوعة بكافة

(1) حتى ولو كانوا متجاورين لبعضهم، خاصة في الأحياء المدنية الراقية حيث تمر سنين دون أن يتعرف الإنسان على جيرانه في نفس المبنى، وأحيانًا قد يتعرف الإنسان على أحد الأشخاص في مركز العمل أو في أحد الأماكن العامة فيتبين له فيما بعد أنه يسكن نفس الحي الذي يسكنه، أو ربما نفس المبنى الذي يقطنه، فمثل هذا الاغتراب في الحياة المدنية يعزز الفردية على نطاق واسع كما في ظهور آفات اجتماعية بعيدة عن القيم السليمة كتشرد الأحداث، التسول، والدعارة، وذلك لندرة الضبط الاجتماعي غير الرسمي.

الاختصاصات، ثمة تبدل ذهني صاحب الانتقال الفعلي لمؤسسات التعليم. حيث أخذنا نلمس معطياته في حراك اجتماعي هائل عند الخريجين ونمط التفكير لديهم. ومن المعروف أن للتعليم ارتباطًا وثيقًا بالقيم والسلوكيات الاجتماعية إذ مع التوسع في فرص التعليم العالي، وانتشار الجامعات وسهولة السفر لغاية التخصص، أملى هذا الواقع نوعًا من الانفتاح المعرفي الجديد حتى أصبح التعليم ليس إحدى القنوات الرئيسة للحراك المهني والاجتماعي فحسب وإنما الذهني والقيمي لما للتعليم من ارتباط وثيق بالسلوك الاجتماعي يتجلى أحيانًا عبر إقدام «النخبة المتعلمة» على التحرر من رواسب الماضي (أعراف / عادات تقاليد).

4 ـ **الهجرة**: كثيرًا ما تساهم الهجرة وخاصة بين البلاد المختلفة ثقافيًا إلى انتساخ العادات والتقاليد التي كان يعيشها أي مهاجر، وذلك نتيجة ظروف فرضها الواقع الجديد فكثيرًا من التقاليد المألوفة لديه لم تعد تستخدم، فيضطر عندها إلى الأخذ بثقافة الجماعة الذي حل فيها، ومع الوقت ينتج عن اختلاطه تغير بشري (أجيال جديدة من جراء التزاوج) وتغير لغوي (من جراء تعلمه اللغة الجديدة) وتغير قيمي (يتنازل عن بعض ما ألفه ويأخذ بما هو سائد)، وقد تبين بالملاحظة ما لهذه الظاهرة الديموغرافية من اختراق وتأثير على منظومة القيم سواء على المهاجر نفسه الذي ما إن يقصد بلدًا غريبًا عن موطنه حتى يأخذ رويدًا رويدًا يتمثل قيم هذا المجتمع خاصة إذا طالت إقامته فيه، أو سواء كان ذلك عبر «الأموال الاغترابية» التي ترسل من المغتربين لذويهم الذين يتبحبحون بدورهم ويترفون، وعندها تدخل العائلة عالم الترف والكمال ينعكس ذلك بدوره على نمط حياتهم ليس المادي فحسب وإنما عالمها السلوكي والقيمي لقول (ألفن توفلر): «عندما يتغير شيء ما من حولك فإن ثمة أشياء أخرى تتغير في داخلك».

5 ـ **الإعلام**: مع تقدم ثورة المعلومات وتكنولوجيا الإعلام هناك جديد كل يوم، وبما أن الناس يركنون عادة إلى ما تعلّموه واعتادوه، لايقبلون بسرعة تغير الأنماط المعرفية المألوفة، لكن مع الأجيال الجديدة سوف نجد أطفالنا ـ ولا شك ـ متآلفين مع فكرة العمل بأدوات معلوماتية مغايرة لما نعرفه نحن،

فالتكنولوجيا لن تنتظر حتى يصبح الناس مهيئين لها، خلال السنوات العشر القادمة سنبدأ برؤية تغييرات جوهرية في الكيفية التي نعمل بها، وفي نوعية الوسيلة الإعلامية التي نستخدم (من الصوتي إلى الرقمي/ من الأحادي الاتجاه إلى الثنائي/ من الثابت إلى النقال/ من شيفرة اللغة الواحدة إلى الشيفرة المتعددة اللغة) ومع استخدامنا لهذه التقنية سيتوفر المزيد من المرونة والكفاءة وتظهر قواعد جديدة لآداب الاجتماع والتشريع والمعرفة، ستؤسس وسائل الاتصال المرتقبة ـ بدلًا من الثقافة الشعبية المحلية ـ ثقافة إشهارية إعلامية تصنع الذوق الاستهلاكي والرأي السياسي المعولم، وتهندس أذواقنا وفق أنماط سلوك موحدة وقيم مستجدة.

6 ـ عوامل نفسية حينما يجد بعض الناس أنفسهم في مواقف صعبة أو ضحية انهزام أو غبن ما، يضطرون عندها إلى التصرف بما ليسوا مقتنعين به أصلا من قيم، حال الشباب الذين يعانون صراعًا داخليًا يصل بهم إلى حد الشعور بالضياع نتيجة ما يصادفونه من ازدواجية معايير، فيعبرون عن سخطهم إزاء الوضع القائم ويزداد إحباطهم عندما يصطدمون بأناس اختاروا لأنفسهم هوية: الدجل، الغش، السرقة، اللامبالاة، الوصولية، الجشع، فيختار عندها هذا الشباب إما العزلة، أو العنف وسيلة لحماية الذات من السقوط والهزيمة، أو الانتقال من العالم المثالي الذي بناه على قيم سليمة، إلى واقع غير إنساني يختصره بمقولة: «إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب»، ليتمثل حينها قيمًا أخرى مغايرة قائمة على لا أخلاقية الذات والقوة البدنية.

إزاء هذه المتغيرات كان من الطبيعي أن تتعرض منظومة القيم المنتشرة في مجتمعنا الشرقي لمجموعة من «التعديلات» المهمة لصالح التكيف مع التحولات الاجتماعية سواء كان ذلك في حراك مهني (من قطاع لآخر) أو مكاني (من الريف إلى المدينة أو إلى المهجر) أو في بنية العائلة لناحية انحسار وظيفة السلطة من الرجل على أبنائه واستقلاليتهم، أو في تغير المكانة الاجتماعية للمرأة وإعطائها أدوارًا فاعلة تجاه الأسرة (خاصة إذا كان الزوج مهاجرًا) أو في المجتمع (مع العمل الوظيفي)، كل هذه المؤشرات كانت نتيجتها المباشرة وغير المباشرة تحولًا اجتماعيًا ومعرفيًا وذهنيًا وحدوث انتقال

محوري ملموس لمنظومة القيم السائدة، يبدأ من داخل العائلة في تكوينها البنائي المستجد عبر وجوه معينة (انخفاض في عدد المواليد/ حجم العائلة / نمط العلاقات السائد بين الزوج والزوجة، بين الصغار والكبار/ انحسار السلطة الأبوية ـ الطاعة/ تأنيث الأسرة/ وإعادة النظر في مسألة الشرف والاحتشام) التي أخذت تفاعلاتها تظهر شيئًا فشيئًا، ودفع مثل هذا التحرير المتزايد في حياة الشباب والنساء ـ في المحصلة النهائية ـ إلى حدوث انتقالات نوعية ومحورية ملموسة في عالم القيم، بتنا نلاحظ معالمها ومظاهرها استتباعًا في طريقة تعاملنا، تواصلنا، تصرفاتنا وحتى أحاديثنا وآرائنا على نحو ما أظهرته تقارير المستجوبين اللفظية.

استطلاع رأي (2)
الجنوسة في فهم الشباب اللبناني[1]
ثبات في الأحكام وتبدل في المواقف

المدخل المنهجي:

ما تؤكده الدراسات النفسية أن الشباب يمرون بفترة مأزمية قوامها الرغبة في تشكيل هوية ذاتية قائمة على قاعدة الانفصال والفردانية، تترافق مع مراحل تطورهم البيولوجي ونمائهم الاجتماعي والنفسي، ومثل هذه الرغبة يشوبها كثير من الغموض وصعوبات تكيف وتقلبات آراء تتجلى في أكثر من مجال منها: التعليم والخيار المهني / الخوف من المستقبل/ تكوين المعارف والصداقات/ كيفية التعامل مع الإحباط العاطفي/ انهيار القيم وانقلاب المعايير ومشكلة العلاقة مع الجنس الآخر. وغيرها من الأزمات التي يعتبرها (أريكسون) بأنها أزمة جيل وأزمة أيديولوجيا في المجتمع، باعتبار أن هناك تفاعل بين الهوية والأيديولوجيا. وحتى لا يكون البحث شموليًا للمآزم التي تتعلق بالشباب توقفنا عند أكثرها جدلًا في مختلف الثقافات ألا وهي العلاقة مع الجنس الآخر، فهي اليوم وربما في كل عصر تبدو الهاجس الحاضر على الدوام في أذهان الشباب والفتيات على حد سواء، ولأنه يشغل حيزًا من الاهتمام والتفكير ارتأينا أن نتبين مقتضيات هذا الهاجس في إشكاليات منها:

(1) نُشر في مجلة «إضافات»، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد السادس، ربيع 2009، بيروت، لبنان.

وفق أيّة معايير تقوم عليه علاقة الشباب بالفتيات اليوم؟

ما هي التوجهات القيمية التي تحكم نظرة كل منهما للآخر؟

وهل هناك تحولًا في النظرة على مستوى التصور والتصرف؟

في سبيل الإجابة قررتُ ومجموعة من طلاب الجامعة اللبنانية خلال ربيع 2008 استقصاء أكبر عدد ممكن من آراء الشباب فوجدنا من المناسب اعتماد أسلوب الاستقصاء الإحصائي عبر الاستمارة المقننة، وهو أسلوب يساعد ـ وإلى حد كبير ـ على جمع معلومات وتفضيلات واقعية سيعبّر عنها الشباب من خلال أسئلة الاستمارة المفتوحة بحيث يصبح بالإمكان التعرف على أفكاره/ آرائه/ مواقفه اتجاهاته الحقيقية ورسم معالم الأوضاع التي يمثل، ولأنه يصعب دراستهم بالأعداد الكثيرة تم اختيار جزء منهم فكانت عينة ممثلة من بعض المناطق اللبنانية، يتحدرون من مختلف الانتماءات الدينية وينتمون إلى بيئات حضرية وريفية ومن أعمار شبابية متفاوتة.

كذلك روعي خلال الاستطلاع التركيز على استكشاف نمط العلاقة السائدة بين الجنسين من خلال الوقوف على آراء الشباب سواء على صعيد الموقف المبني أو على صعيد السلوك اليومي المعاش، وثمة فارق منهجي بين هذين البعدين: **الموقف والسلوك**، فالموقف هو عبارة عن نظرة تقييمية للأحداث والأشياء والظواهر والعلاقات تشير إلى حكم معين (تصور ذهني) يكون أقرب ما يكون إلى الرأي أو الاتجاه، ترسّخ بفعل تراكم ثقافة وتربية خاصة حتى ترك آثاره على طريقة التفكير والتصرف. من هنا يعتبر الموقف هو المحرك الرئيس للسلوك. .وبذاك يصبح السلوك هو تجسيد الموقف/ التصور الذهني الذي يظهر على مستوى الفعل ولا يقف عند حدود الانطباع المبدئي أو العام. مثال: ورد في الاستمارة:

* هل تقبل الارتباط.

- (للفتيات) بشاب له علاقات سابقة مع فتيات   نعم / لا
- (للشباب) بفتاة معروف عنها بعلاقات سابقة   نعم / لا

أو

*** ما هو موقفك الشخصي في فكرة أن تبادر البنت إلى طلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيد/ين؟**

نعم (لماذا).................................

لا (لماذا).................................

في الموقف المتبنّى سيجاوب أكثرية المستجوبين بلا، نظرًا للبعد الثقافي السائد في مجتمعنا الشرقي الرافض لفكرة الارتباط بفتاة تشوبها شائبة، أو كأن يكون الأمر مخالفًا للعادات والتقليد كما في السؤال التالي.. ولكن كي لا نبقى على مستوى التوقعات بالإجابات الممكنة أحببنا أن نستطلع سلوك الشاب للموقف المتبنّى على صعيد الفعل فكان إدراجنا لسلوك آخر مفاده:

*** (للشباب) ما هي ردة فعلك إذا تقدمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟**
....

*** هل تقبل الزواج بفتاة قد اعتدي عليها جنسيًا؟ نعم لا**

*** هل تتسامحين بخطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟ نعم لا**

وفق هذا المنظور في صياغة الاستمارة بين مواقف وسلوك يتكشّف لنا مستوى الظروف التقليدية المحيطة بالمستجوب وحدود التصورات المفترضة أو المطلوبة أو الممكنة لتوجهات جديدة في العلاقة، عبر تقييم الشاب أو الشابة (المستجوب) للخلفيات الموقفية المتبناة لديهم. وتحديد السلوك الفعلي للشباب في وسطنا الاجتماعي كيف يفكر؟ إلى ما يطمح؟ كيف يجسد ما يتصوره.؟ سواء كان ذلك عبر ردات فعل (أجوبة الأسئلة المغلقة) أو سواء كان على مستوى السلوك المتخذ من خلال الآراء الحرة (الأسئلة المفتوحة) في النظرة للآخر ولما يرغب أن يكون عليه.

الإطار النظري

لو سألنا الشباب: كيف ينظرون إلى البنات؟ ثم عاودنا الكرّة وسألنا رأي البنات في الشباب.. لوجدنا ثمة أفكار منمطة تحكم تقييم أحدهما

للآخر. .على أن تفسير هذه الأفكار يختلف باختلاف المجتمعات فما يقوله شباب مجتمع شرقي (محافظ) يختلف عن ما يقوله شباب مجتمع آخر امتاز بالمدنيّة والانفتاح الاجتماعي والاقتصادي، حتى ضمن المجتمع الواحد قد نلحظ تباين بين الجنسين باختلاف درجة وعي أبناء هذا المجتمع ودرجة تمثله للأفكار المستحدثة أو مدى تمسك فئة دون أخرى بالعادات والتقاليد. . فلو أخذنا المجتمع اللبناني مثلًا نجد ظواهر التقليد والمحافظة إلى جانب مظاهر الحياة الغربية، وكثير ما يتأرجح بنُوه بين هذه وتلك: ففي حين يطمح إلى أن يتمثل بالحياة الغربية وثقافاتها وأفكارها، يتواجه مع جماعته التي تتمسك بالعادات والتقاليد، كما هو الحال في مسألة الزواج المدني مثلًا، فمنهم من يؤيده من حيث المبدأ باعتباره خيارًا حرًا لمن يريد أن يرتبط. . ولكن في قرارة أنفسهم أو عند مواجهتهم الواقع الأثني الذي يعايشون تجدهم يتراجعون عن تأييدهم للفكرة، أي هم يؤيدونه من حيث المبدأ إنما يرفضون أن يطبقونه لأسباب تقليدية محضة.

* هل يعني فارق الجنس بالضرورة فارق رأي؟

ماذ يعني أن يكون الإنسان رجلًا/ وماذا يعني أن يكون امرأة؟ قد نعتقد للوهلة أن يكون المرء رجلًا أو امرأة يرتبط الأمر بالخصائص البيولوجية ـ الجسدية التي ولدنا بها، غير أن مفهوم الذكورة أو الأنوثة يأخذ بعدًا واهتمامًا بحثيًا أدق عندما يتعلق الأمر في الفوارق القائمة على الخصائص الفكرية والعقلية وحتى الاجتماعية. . فبعض الناس سواءً كانوا ذكورًا أو إناثًا يعتقدون أنهم ولدوا بالجسم الخطأ من الوجهة الاجتماعية ولو كانوا من الجنس الآخر لتغيرت نظرة الناس إزاءهم، فهم برأيهم يحملون وزر نظرة المجتمع إلى «هو» ماذا يعني؟ وإلى «هي» ماذا تعني؟ ذلك أن تصورات الهوية الجنوسية رغم أنها تشكل جانبًا أساسيًا من شخصياتنا إلا أنها أضحت تسهم في كثير من القرارات والخيارات فيما يتعلق بتفاعلنا الاجتماعي اليومي حيث «إننا ـ من الوجهة الاجتماعية ننتج ونعيد إنتاج الجنوسة من خلال الآلاف من الأفعال والممارسات التي نزاولها كل يوم».

وتختلف المقاربات التي ينتهجها الدارسون في تفسيرهم للأدوار الاجتماعية القائمة على أساس الهويات الجنوسية، ومحور الجدال يكاد يختصر في سؤال واحد مفاده: ما قيمة وحجم المؤثرات الاجتماعية الحاصلة بناء على فوارق الجنوسة؟ ذلك أن البنية الاجتماعية لا زالت تقف عند حد الهوية الجنوسية على رغم التغييرات السياسية والاقتصادية في النظرة إلى كليهما بداعي المساواة واحترام الحقوق، فعلى سبيل المثال أظهرت بعض الدراسات التي أجريت حول تفاعل الوالدين مع أطفالهما أن هناك اختلافات مميزة في أسلوب التعامل مع كل من الأولاد والبنات حتى في الحالات التي يعتقد بها الأبوان أنهما يعاملان الذكور والبنات بصورة مماثلة، ويتكرس هذا «التميز» بشكل أوضح عندما نقدم للمجتمع أجيالًا تربت وترعرعت على حكايات وبرامج تلفزة يلعب شخصياتها فيها الذكور أدوار المغامرة وأنشطة القوة والنفوذ، بينما يجري تصوير البنات باعتبارهن مخلوقات سلبية وساكنة لأدوار محض أسرية (إنجاب/ رعاية/ تربية/ تدبير منزلي).

على ذلك توزعت تفسيرات علماء الاجتماع للاختلافات القائمة بين الجنسين وأوجه عدم المساواة في ثلاثة اتجاهات يمثل الاتجاه الأول: اعتبار الخصائص البيولوجية أساسًا لاختلاف السلوك بين الرجال النساء، وهناك ـ كاتجاه ثانٍ ـ من يضفي أهمية مركزية على عملية التنشئة وتعلم الأدوار الاجتماعية، وهناك من جهة ثالثة من يعتقد أنه لا الجنوسة ولا الجنس يقومان على أسس بيولوجية بل هما نتيجة تصورات اجتماعية... وبناء على هذا الاتجاه أصبح يُميّز بين مصطلحي الجنس والجنوسة، فالأول يشير إلى الفروق الفيزيولوجية بين الذكور والإناث، أما الجنوسة فتعني الأفكار والتصورات الاجتماعية لمعنى الرجولة والأنوثة وهنا بيت القصيد في عملنا البحثي.

* الدور الجنوسي:

في إحدى عيادات الأطفال اصطحب والد ابنه المريض في منتصف نهار يوم عمل، وبعدما تقدم من سكرتيرة الطبيب لتسجيل حضوره جلس ينتظر دوره، إذاك همست السكريترة في سرها: يا له من أب رائع؟ ولكن هل كانت

ستقول ذلك لو جاء الطفل برفقة والدته؟ بالطبع لا، لأن الدور الجنوسي للذكور والإناث لا يتحدد فقط في طريقة عملنا (مهن للرجال وأخرى للنساء) أو تصرفنا (هذا يليق بالإناث / وذاك لا يليق بالذكور) وإنما يتحدد من خلال توقعات الآخرين وتفاعلنا معهم. فكثير من الناس لازالوا يتمكسون بالتوقعات المفترضة لكلا الجنسين، فهم لا يتصورون مثلًا أن يكون كابتن طائرة سفر «امرأة» أو أن يتأخر «رجل» عن عمله صباحًا لأنه كان يهتم بحوائج ابنه الصغير. وبالرغم منه أصبحت المرأة «مساوية» للرجل في كثير من النشاطات الاجتماعية والاقتصادية.

لا زال الدور الجنوسي حاضرًا بقوة في أذهان الناس ومعظم المجتمعات حتى لدى الثقافات الغربية التي سبقت المجتمعات العربية إلى تكريس المساواة عبر مفهوم «الجندرة»[1]، حيث هناك سياق واضح محدد لكل من الأنوثة وما يستتبع ذلك من مهام، وسياق آخر للرجولة وما يتطلب هذا المصطلح من قيم كي يبقى الرجل رجلًا، وليس من الصعب أن تلاحظ ذلك، فالأمثلة الواقعية في حياتنا اليومية العادية كثيرة حيث النظرة لكلا الجنسين لا زالت منمطة على معايير ثابتة من ذلك مثلًا:

✓ تدخين سيدة للسيغار الكوبي في مكان ما... له نفس استغراب حمل الرجل «محفظة نسائية» أثناء التسوق.

✓ أبطال الحكايات الشعبية ونجوم الإثارة في أفلام التلفزة مخصوصة بالرجال ومسائل الإغواء بالنساء.

✓ من الغرابة جدًا أن تبصق امرأة في الطريق، أو تتكلم كثيرًا عن السيارات أو تفتح الباب لرجل يرافقها، يوازيه غرابةً قيام رجل بطلاء أظافره أو

---

(1) أصل المفهوم من التعبير الأجنبي Gender، وتعرّف الموسوعة البريطانية الهوية الجندرية بأنها شعور الإنسان بنفسه كذكر أو أنثى، وهي ليست ثابتة بالولادة بل تؤثر العوامل النفسية والاجتماعية بتشكيلها.

ويفهم هذا المصطلح في الأدبيات العربية على أنه مساواة المرأة للرجل وترقية دورها في التنمية وأهميتها في العمل وزيادة المشاركة في الدخل والأعباء الحياتية مع الرجل ـ الزوج (المؤلف).

وضع ماكياج أو يزيل شعر جسمه أو يبكي أمام حشد من الناس كما تفعل النساء.

هذا يعني أنه نادرًا ما تتغير المواقف والسلوك والنظرة إلى طبيعة الجنسين ليس البيولوجية فحسب وإنما الاجتماعية. وقلما يحدث التغيير حول الدور الجنوسي لكل من الرجل والمرأة، وهذا ما دفع الرجال المشجعين لنضالات المرأة في التحرر إعادة النظر بآرائهم بانتقاد التحرك النسوى المفتوح على احتمالات مضاهاة النساء لهم بعدما بدأت تتبين مساوئه الأسرية والنفسية والاجتماعية.. إزاء ذلك أخذت التساؤلات تطرح: هل تعي المرأة صحة ما تقوم به وإنه لا عجز في الفطرة البيولوجية للدور؟ هل يجب أن تتابعه حتى النهاية أم إنها تتراجع أمام حقيقة كيانها امرأة حيث تتكامل في مواقع مخصوصة بها دون غيرها؟ هذا ما يعيدنا إلى تحديد الدور الجنوسي على أنه التوقعات الاجتماعية المفترضة لكل من المرأة والرجل على حدة.. والمشكلة ليست في أن يقوم أحدهما بمهام الآخر بل تكمن في النظرة الاجتماعية «المعيبة» التي تلاحق الرجل فيما لو «تأنث بدوره» والمرأة فيما لو «استرجلت» ليس في دورها وحسب وإنما في حديثها وشكلها.

الإطار التطبيقي

قدمت المعطيات المستقاة من استطلاع ميداني موسع إجابات هامة حول التساؤلات المطروحة، وانسجامًا مع التبويب المعتمد في الاستمارة سوف يتم استعراض بعضًا من هذه النتائج سيما عن:

1. أبعاد العلاقة بين الشباب والبنات.

2. الآراء الخاصة بمفهوم الارتباط العاطفي والزواج.

3. آراء اجتماعية عامة.

المحور الأول: العلاقة بين الشباب والبنات.

كيف يقيّم الشباب البنات وكيف يقيّم البنات الشباب؟ بكلمة مختصرة

كيف ينظرون إلى بعضهم بعضًا؟ تعددت الإجابات وتنوعت في أكثر من صفة حتى وصل بعضها إلى وصف الآخر بتعابير سلبية صارخة مثل (وصف البنات للشباب بأنهم «هُبل» (تعبير عامي لبناني يعني الحماقة الفارطة) أو وصف الشباب للبنات بأنهن مجنونات / مائعات/ فاسدات / وغيرها، وقد حاولنا إحصاء هذه الصفات في المعطيات التالية:

* توصيف الشباب للبنات: متهورات (24%) متحررات (20%) ضائعات (12%) جميلات (8%) متشاوفات (6%) وصفات أخرى مثل: قهارات / غدارات / كاذبات / فاشلات/ .....

* توصيف البنات للشباب: متهورون (38%) ضائعون (20%) واعون (10%) غير جديين (6%) وصفات أخرى منها: ماديون / عصبيون/ محبطون/ أنانيون/ ممتازون / طموحون ...

من توصيف كلا الجنسين لبعضهم بعضًا نلاحظ أن إجابات البنات كانت أقل حدة وأكثر مجاملة وتهذيبًا من الشباب فأكثرهن وصف الشباب بصفات طيبة مثل أنهم: ممتازون / طموحون/ منفتحون/ رائعون.. بينما في المقابل نجد قلة قليلة من الشباب وصف البنات بصفات حسنة، والملفت للنظر أن توصيف البنات كان يطال الانطباع والتصرف والسلوك والتفكير، في حين جاء توصيف الشباب للبنات مقتصرًا على الجسد والجمال والغرور والموضة وما إلى ذلك من توصيفات حول الشكل. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه نتاج بنية عائلية ـ تقليدية قوامها توزع هرمي يكون فيه تقسيم العمل على أساس العمر والجنس لينسحب هذا التراتب الهرمي في مفاهيمه على علاقة الذكور بالإناث حيث يحتل فيها الذكور المكانة العليا والنساء مكانة دونية في أسفل الهرم الاجتماعي. وتنعكس صورة هذا الواقع التقليدي في مواقف وسلوك، فالذكور أولَى بالسلطة والمسؤولية والإطاعة والاحترام وإصدار الأوامر والنصائح والإرشادات والتهديدات. .بينما النساء يجب أن يهتمين بالأمومة والأمور الزوجية والمهارة في الشؤون المنزلية، لأن المجتمع لا يُقدّر الأنثى إلا بمدى نجاحها في هذه الأدوار بجدارة.

وانسجامًا مع هذا الإطار التقليدي للتنشئة الاجتماعية يشب ذكور المجتمع العربي ـ الشرقي وفق قاعدة: «الفوقية على النساء»، تتمثل مبادئها في أن تكون المرأة مطيعة / مخلصة / أمينة / تحترم أقربائها/ تعيش راضية دونما تمرد على أي حال/ وأي سياق تقوم به خارج الأدوار المنوطة بها هو من قبيل الخروج عن المألوف تبدو فيه الأنثى مستهجنة، لهذا لاحظنا توصيف الشباب كيف بدا سلبيًا لأنه يرى في الفتاة ما هو مغاير لبنيته التقليدية فهي في نظره أصل الغواية والفتنة والتعاسة والشر، وما تعبيرهُ هذا إلا لأن مجتمعهم صوّر لهم ذلك وفق مفاهيم تربوية تنمطت لديهم وأصبحت بمثابة أحكام صادرة بحق «الجنس الآخر كأنثى» تبرز بين حين وآخر عند مستوى علاقتهم بهن.

ووفق هذا المنظور هل من علاقة صداقة بين الشباب والفتاة؟ وماذا تعني هذه الصحبة؟ كيف ينظرون إليها وما رأي البنات في المقابل بمستوى علاقتهن بالشباب؟ كيف يقفن عند مفهوم الصحبة خاصة وإن بعض الدراسات أشارت إلى أن البنات لا يرون في العلاقة مع الشباب نوعًا من الحرية بل وسيلة إلى هدف تقليدي هو الزواج، فهن أصبحن يميزن بين فئتين من العلاقات مع الشباب: الصاحب والصديق، فما تعني العلاقة بين الطرفين؟ نطرح هذه التساؤلات لأننا ننتمي إلى مجتمع تقليدي يعتبر الارتباط بالجنس الآخر دون ارتباط رسمي (بزواج أو قربى) أمرًا مشكوكًا به، لجهة السمعة / والعيب / والقيل والقال عن واقع هذه العلاقة. فأين الشباب اللبناني كنموذج عن الشباب العربي في اتجاهاتهم نحو الفتيات؟ وماذا يكنّ الفتيات بدورهن تجاه الشباب في ظل التغييرات الاجتماعية التي يعيشها، هل لا زال تقليديًا في تفكيره ومحافظًا في سلوكه، أم أنه منفتح ويعتبر علاقة الصحبة مع أي إنسان أمرًا بدهيًا من العلاقات الاجتماعية الموزونة؟ حول ذلك قُدّمت مجموعة من الأسئلة نبرزها بالمعطيات التالية:

*** هل تؤيد علاقة الصداقة بين الشاب والفتاة، ا) نعم أؤيد. . . .ب) لا أؤيد، لماذا** . . . .

* (للفتيات) هل يمانع أهلك صداقتك للشباب والخروج معهم ....

* إذا اكتشف أهلك علاقة صحبة/ صداقة حميمية تربطك بشخص من الجنس الآخر هل يسبب لك ذلك:

1) حرجًا ـ 2) خلافًا ـ 3) مشكلة ـ 4) تفهم ـ 5) لامشكلة ـ 6) غير ذلك:

ليتبين أن أكثرية المستجوبين من كلا الجنسين مع الصداقة، فالذكور (48%) والإناث (82%) على حد سواء هم معها في مقابل (14% ذكور) و(18% إناث) قالوا لا يؤيدونها، ولعل استحواذ مؤشر نعم على نسبة عالية يعود إلى اهتمام الإنسان بالصداقة إذ لا يمكن له أن يعيش بمفرده بل لا بد من أقرناء، فالصداقة تقدّم خيارات سارة في الحياة، لذا هي قدس الأقداس كما يوصفونها. وحول ما إذا كان الأهل يمانعون صداقة البنات لشاب، وهل بالإمكان استضافته في المنزل كصديق أو زميل أو حبيب.. على ذلك أجاب 34% من الفتيات بأن ذووهم يمنعوهن من مصادقة «شاب» بينما أشارت ما يقدر بثلثي العينة (64%) بأنه لا مانع في ذلك، ولكن ماذا يحدث إذا عرف الأهل أن ابنهم أو ابنتهم على علاقة بأحد من الجنس الآخر هل يتسبب ذلك أية مشكلة؟ وما طبيعة هذه المشكلة: حرجًا / خلافًا / أم يتفهمون الأمر؟ يعتبر حوالي نصف العينة (49%) من كلا الجنسين أنه يحدث أحيانًا سوء فهم بين الأهل، مقابل ما نسبته (46%) أجابوا أبدًا، ولكن من بيان النسب تبين اختلاف الشباب عن البنات لناحية النسبة الأعلى، فالشباب لا يحبذ الأمر (27%) على عكس الفتيات (29%) منهن قالوا أحيانًا، وهذا معطى معقول في مجتمع ذكوري حيث يسمح فيه للذكور القيام بأمور محظورة على الفتيات، حتى في مجال التعارف ومصادقة الآخرين، فالأهل دائمًا أدرى بمصلحة أبنائهم وخوفهم الدائم من مصاحبة رفاق سوء يبقى حاضرًا كي لا ينحرف أبناؤهم، لهذا يشتد التصادم عندما يقوم شاب بمصادقة أحدهم لا يعجب الأهل، فكيف الحال إذا تعلق الأمر بمصاحبة بنت أو مصاحبة بنت لشاب.

المحور الثاني: مفهوم الزواج

أن تسأل مجموعة من الأفراد المتزوجين عن الأسباب الذي دفعتهم إلى الزواج فإن كل واحد سوف يجيب بأن زواجه تم بناءً على مواقف شعورية متعددة منها: تبادل الحب مع شخص آخر، تحقيق الاستقرار النفسي والعاطفي، الاستجابة لرغبة الوالدين، الهروب من الوحدة، الحصول على الرفقة والإشباع الجنسي، الشهرة، الوصول إلى مكانة اجتماعية وأسباب أخرى. .ولكن هل الرأي ذاته بالنسبة لغير المتزوجين؟ لأن الزواج يستحوذ تفكير الشباب والشابات على الدوام، وباعتباره هو إحدى العلاقات التي تقوم بينهما، ما هي نظرتهم إليه؟ كيف يقيّمونه؟ هل لا زال تقليديًا في مفهومه أم تغير في صورته مع الظروف الحاضرة، إلى أي مدى ما زلنا نعيش واقع الشباب الهائم في الحب، المتحدث عن فتاة أحلامه؟ وهل هناك شباب وشابات منعزلين عن الجنس الآخر؟ محور هذا التوجهات وردت في استطلاعنا عبر أسئلة هادفة أبرزها:

1 ـ كيف تقيّم زواج اليوم برأيك؟

2 ـ ما هي مواصفات الشريك التي ترغبها.

3 ـ هل تقبل الارتباط:

ـ (للفتيات) بشاب له علاقات سابقة مع بنات نعم لا

ـ (للشباب) بفتاة معروف عنها بعلاقات سابقة (من واحد لواحد) نعم لا.

4 ـ هل تقبل الزواج بفتاة قد اعتدي عليها جنسيًا؟ نعم لا

5 ـ هل تتسامحين بخطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟

نعم لا

6 ـ هل توافق على الزواج من شريك ينتمي إلى طائفة غير طائفتك:

نعم لماذا: . . . ./ لا، لماذا. . . . . . .

7 ـ أي من هذه الأسباب تعتبرها العائق الأهم أمام عدم التوافق الزواج:

8 ـ (للإناث) ما هو موقفك الشخصي في فكرة أن تبادر البنت إلى طلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيدين.

نعم (لماذا)..............................

لا (لماذا) ....

(للشباب) ما هي ردة فعلك إذا تقدمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟

....

حين يتناقش مجموعة من الشباب غير المتزوجين عن رأيهم في الزواج فإن الآراء قد تتعدد، حيث يخطط كل فرد لزواج يلائمه ويرضيه، وبين خبرة المتزوجين في تجربة الزواج ورغبة المقبلين عليه من الشباب، يبدو الزواج بمفهومه العام النمط الاجتماعي الذي يجد قبولًا واسعًا ومشروعية لإقامة علاقات بين الجنسين، فالتعاون والتشارك وبناء حياة أسرية عوامل تجذب الأفراد نحو بعضهم بعضًا وبالتالي نحو الزواج. وهذا أظهره توصيف الذكور والإناث للزواج في إجاباتهم المتقاربة، ففي الوقت الذي يرى فيه الشباب الزواج: استقرار/ مسؤولية/ ارتباط مقدس/ حياة سعيدة/ التزام / تعاون/ بناء أسرة/ شراكة / راحة بال/ ثمر حب، نجد الفتيات أيضًا ينظرن إلى الزواج على أنه: حياة ثانية قوامها المسؤولية والاستقرار والتفاهم والأمان والشراكة والرباط المقدس لعلاقة أبدية. ورغم أن أكثرية الجنسين وصف الزواج بتعريفات إيجابية برزت تعابير مغايرة عنه مثل: الزواج نهاية الإنسان/ قاتل الطموح/ لا شيء ... لا معنى له/ قفص ذهبي / حدٌّ للحرية.

ولمعرفة توجهات الشباب نحو العلاقة مع الآخر في الزواج بشكل أكثر دقّة، قُدّم للمستجوبين سؤالًا هامًا حول المواصفات التي يبحث عنها لدى شريك الزواج المستقبلي. على أن يحدد من الخيارات المرفقة، فتبين بالنتائج:

جدول رقم (1) توزع المستجوبين بحسب تحديدهم لمواصفات الشريك.

المواصفات	الذكور	الإناث
غنية/ غني	%4	صفر
متعلمة / متعلم	%34	%42
موظفة / موظف	%2	%10
من عائلة معروفة	%6	%4
ذو/ ذات شخصية استقلالية	%22	%28
لديها جنسية/ مغترب	%6	%2
لا مواصفات لدي	%6	صفر%
غير ذلك	%14	%8
لا جواب	صفر	%2

يلاحظ من الجدول أن مستوى التعليم هو العامل الأبرز الذي اشترطه كلا الجنسين، لأن أغلبهم جامعيون ولا زالت تدور في أذهانهم أهمية أن يكون الآخر متعلمًا وذو مستوى علمي، لما تهيّأه «الشهادة» من أبواب عمل في المستقبل وهذا ما يُشعر الفتيات بالأمان إذا ما عاكستهم الأيام بظروف صعبة، وأن يشترط الشباب المستوى العلمي فلأسباب عدة أهمها تقديره لمسألة الوعي والإدراك عند الفتيات في تعاملهن مع المجتمع. وبعد مؤشر التعليم حلت الشخصية ثانيًا وخاصة من قبل الفتيات، باعتبار أنهن يرفضن شابًا ذا شخصية ضعيفة أو مسحوقة لا تحسن تدبير أمرها في المواقف الصعبة.. وأن يشترط كلا الطرفين وجود الشخصية فذلك من باب التمرد على تربية اجتماعية جامدة لا زالت تسري في أوساطنا، قوامها تنشئة أسرية قائمة على الاتكالية والعجز والتهرب وعدم المسؤولية. فالآباء الشرقيون لازالوا يقررون عن أولادهم دون مناقشة. وإلى جانب الرغبة بأن يقترن الفتيات بصاحب عمل (موظف) حيث الوظيفة تعني دخل دائم يؤسس لحياة مستقرة، نجد رغبة الشاب الاقتران بفتاة لديها جنسية أجنبية حيث يتيح له ذلك سرعة السفر والهجرة وهي رغبة موجودة في ذهن شباب الريف اللبناني -خاصة البقاعي والعكاري ـ لما يقدمه الاغتراب من فرص حياة أفضل. ولم نقف عند

تقرير الصفة المفترضة في «شريك المستقبل» حيث التقرير اللفظي غالبًا ما يكون مغايرًا للواقع لأجل ذلك وضعنا المستجوبين أمام مواقف أكثر جرأة تنبئ عن الرأي الفعلي فيما لو تم، ماذا تكون ردة فعله؟ ومن هذه الأسئلة:

1 ـ هل تقبل الارتباط.

أ ـ (للفتيات) بشاب له علاقات سابقة مع بنات نعم / لا.

ب ـ للشباب) بفتاة معروف عنها بعلاقات سابقة نعم / لا.

عن ذلك أظهرت المعطيات مفارقة واضحة بين رأي الشباب والبنات في مسألة الاقتران بآخر له علاقات سابقة فرغم أن نصف عينة البنات (50%) رفضت الارتباط بشكل قاطع نجد أن نصفهن الآخر تقريبًا (46%،) يقبلن بالارتباط ويبرر ذلك بأنه من غير المعقول أن لا يكون للشاب علاقات مسبقة، ويرون أن كل الشباب لهم ماض فلا يمكن محاسبته عما سبق إذا قرر فتح صفحة جديدة مع فتاة أخرى (والتي قد تكون أنا).

أما بالنسبة للشباب فالموقف والرأي مختلف تمامًا فهم يرفضون ألبتة (86%) على تجنب الزواج من فتيات لديهن علاقات عاطفية سابقة (سواء كانت معهم أو مع غيرهم) بسبب عدم ثقتهم بها أو خوفًا من أن تكون تلك العلاقة قد وصلت إلى حدود جنسية مباشرة. . وهذا ما يرفضه الرجل الشرقي في قرارة ذاته. ومن الأسئلة في هذا السياق وُجّه للمستجوبين السؤال التالي:

1 ـ (الشباب) هل تقبل الزواج بفتاة قد اعتدي عليها جنسيًا؟ نعم لا

2 ـ (الفتيات) هل تتسامحين بخطأ قيام شريك حياتك بعلاقة ما مع فتاة أخرى؟ نعم لا

فتبين: أن 38 % من الشباب يقبلون بينما، 58% يرفضون، أما بالنسبة للفتيات فتبين رفض أكثري لعدم المسامحة (76%) قلن لا، مقابل (24%) لا يرون ضيرًا في ذلك. . .هنا أن لا تتسامح الفتاة قيام شريكها بعلاقة مع فتاة أخرى قد يكون أمر بدهي لأنه يُعتبر من باب الخيانة وإهانة مباشرة لها، لذا تعتبر عدم مسامحته أولى فهن يعتبرن أنه من الأفضل أن تكون الأمور واضحة

منذ البداية وأي خلل في الميثاق من شأنه أن يهز متانة العلاقة، وأن يرفض الشاب الشرقي الارتباط بفتاة سبق وتعرضت لاعتداء جنسي أو فعلته هي بملء إرادتها أمر محسوم الرفض لأنه ربيب تربية اجتماعية محافظة لا زالت تقول بأن شرف البنت في عذريتها وليس عليه أن يتقرب من فتاة سمعتها «غير نظيفة»...

رغم أن المسألة الجنسية أصبحت في الغرب جزءًا من الحريات الشخصية وأمر الارتباط بأية فتاة أمرًا مقبولًا لا حذر فيه، إلا أن المجتمع الشرقي لازال يشدد في ثقافته على النظر بحذر إلى العلاقة القائمة بين الجنسين إذا تمت خارج إطار الزواج أو قبله، فعندما يتقابل اثنان من الجنسين (بعيدًا عن الأعين أو منفردين) فغالبًا ما يؤشر إلى ذلك ب«المحظور» نتيجة المناخ الاجتماعي المتأثر دينيًا والذي يعتبر مثل هذه العلاقات في خانة الحرام أو غير الجائز، ولأننا في مجتمع يوزن الأمور دائمًا بمعيار الدين جاءت نسبة الرفض عالية. لكن الملفت للانتباه هو إجابة نسبة من الشباب عن عدم ممانعتهم الارتباط بفتاة تعرضت للاغتصاب، وهذا يمكن إرجاعه إلى درجة تحرر معينة لدى الشاب اللبناني، أو هو رأي ممن تلقوا و تابعوا دراستهم في جامعات غربية حيث يرون أن ليس البنت دائمًا من تصنع الخطايا بل غالبًا ما تكون الخطيئة من حكم المجتمع الجائر فلِمَ نحاسبها عليه؟

وبما أن العلاقات اللامشروعة خارج إطار الارتباط الرسمي محظورة ومرفوضة من قبل الطرفين ويمكن أن تؤشر إلى نسفه فيما لو حدثت، استعرضنا أمام المستجوبين جملة عوائق يمكن أن تحول دون الزواج بهدف معرفة رأيهم: هل الجنس وحده يزعزع العلاقات؟ في سياق ذلك ـ قدمت جملة خيارات أخرى هي:

جدول رقم (2) توزع المستجوبين بحسب رأيهم للأسباب التي تحول دون التوفق الزواجي.

العائق	الذكور	الإناث
فارق العمر	%22	%10
فارق الدين	%32	%48
فارق البلد	%6	%0
فارق العرق	%0	%4
فارق التعليم	%24	%16
فروق أخرى	%10	%18
لا جواب	%6	%4

الملاحظ تقارب واضح بين كلا الجنسين في اختيار فارق الدين بنسبة مرتفعة باعتباره مؤشرًا ممكنًا لعدم التوافق في الزواج وسبب ذلك أرجعه المستجوبون إلى اختلاف الثقافة الدينية والعادات والتقاليد التي تفرضها كل ديانة على أتباعها قد تنعكس سلبًا على حياة الشريكين: في أي محكمة سيتم الزواج؟ تنشئة الأطفال أيّة عادات اجتماعية تناسبهم أكثر؟ إلخ.. ولوحظ ارتفاع هذا المؤشر بشكل لافت عند الفتيات ـ خاصة المسلمات ـ حيث يُحظّر عليهن دينهن الزواج من غير طائفتهن إلا إذا اتبع ملتهم وأشهر «إسلامه» وهذا ما لايحدث، لذا تفضل الفتيات عدم الذهاب في علاقة غير مضمونة النهاية بزواج إذا كان الطرفين من دينين مختلفين.. وهذا ما أكده معظم المستجوبين في سؤالنا التالي:

* **هل توافق على الزواج من شريك ينتمي إلى طائفة غير طائفتك؟** ليظهر أن 62% من الشباب قالوا لا مقابل 36 % قالوا نعم (ممكن) في حين أشار 14% من الفتيات بنعم مقابل 86% منهن أجبن بلا. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن الزواج الداخلي بين أبناء المذهب الواحد أو من المنطقة القريبة هو الرائج والأكثر تقبلًا عن الزواج الخارجي وقليلون هم الذين يجرؤون على الزواج المختلط. ولعل سبب ذلك يعود ـ وكما أشار إليه السوسيولوجي (ريتشارد شيفر) ـ إلى احترام الشباب والشابات لرغبة آبائهم في أن يعيشوا حياة

شبيهة بحياة آبائهم، فإن اختاروا لهم الأهل زوجًا أو زوجة وهو ما يعرف بالزواج المرتب (ARRANGED MARRIAGE)يقبلون طوعًا به لأنه الأكثر استقرارًا وأكثر إدامة في المستقبل من الزيجات الأخرى، وثمة سبب آخر يلعب دوره هنا في دفع المقبلين على الأخذ به وهو أنهم يكونون ملتزمين دينيًا، حيث ـ لاحظ شيفر ـ أن الأفراد الأكثر تمسكًا بديانتهم يهمهم أن يكون الشريك من أبناء ملته، نظرًا لما تمليه كتبهم وتعاليمهم من تكريس عهد الله بالرباط المقدس ضمن الطائفة الواحدة وهذا ما لاحظه لدى الأقليات التي هاجرت إلى أمريكا من ثقافات تقليدية متدينة (الهنود/ الآسيويون/ المكسيكيون).

وهكذا نفترض أنه كلما كان الإنسان أكثر التصاقًا بجماعته الأثنية فكرًا ومعتقدًا واجتماعًا، كلما خف وقل لديه الزواج خارجها، وكلما ابتعد الشخص عنها لايجد حرجًا في أن يرتبط بآخرين من خارج ديانته، لهذا نجد كيف أن الزواج المختلط يكثر مع ذوي الاتجاهات الليبرالية والعلمانية.

وكي لا نبقى على مستوى التنظير والرأي المبدئي، قاربنا الآراء المقدمة بطرح واقعي يتمثل في سؤالنا الشباب: **ما هي ردة فعلك إذا تقدمت إحداهن إليك وطلبتك للزواج؟** هل تقبل أو تحبذ الفكرة ليجيب 30 % بنعم مقابل 20% بلا، بينما استغرب الآخرون السؤال ولم يبدوا رأيًا صريحًا وإنما تعليقات عابرة مثل قولهم: «تظهر لنا كم هي جريئة، يعني بتخوّف/ إذا فعلت الفتاة مثل هذا الشيء تفقد احترامها/ لا يجب أن تفعل كي تبقى على قيمتها/ باعتقادي يجب أن تشوف البنت حالها .. لأن الحلو بالبنت كبريائها». ثم عاودنا وسألنا الفتيات: **ما هو موقفك الشخصي في فكرة أن تبادر البنت لطلب يد الشاب في مجتمعنا، هل تؤيدين؟** 14 % أشرن بأنهن مع الفكرة، بينما 30% منهن كن ضدها، لسبب أن: «كل له دوره في الحياة وهذه الأدوار مقدسة بين الاثنين وفق أصول/ الشاب في مجتمعنا لا يتخلى عن عقليته الشرقية إن تقدمت إليه واحدة سيظل ينظر إلى تصرفها على أنه شيء مستغرب وغير مقبول».

وفي الوقت الذي عبرت فيه أخريات عن تشجيعهم للفكرة انطلاقًا من حق الفتاة في التعبير عن مشاعرها، وبأنها فكرة جيدة فيما لو كنا فعلًا نؤيد

التطور الاجتماعي، وبأنه مثلما لا يوجد هناك اختلاف بين الشاب والبنت في كثير من المسائل كالتعليم وقيادة السيارة والعمل، لماذا يكون هناك تمييز في هذه المسألة.. نجد منهن من يرفضن الفكرة من حيث المبدأ باعتبار أنه يخالف عاداتنا وتقاليدنا، وإن فعلت البنت ذلك فقد يفقدها احترامها أو يقلل من قيمتها أو يحط من مستواها. حتى ذهبت إحداهن بعيدًا في توصيف الطرح بالقول: «إن قامت به الفتاة فهو: وقاحة وقلة أدب». تباين الإجابات بين كلا الجنسين يؤكد لنا ما افترضناه مسبقًا من أن شباب المجتمع اللبناني لا زال يعيش ازدواجية رأي وموقف، فمن جهة يشجع الأفكار المستحدثة وقد ظهر ذلك صراحة في مسألة تقدم الفتاة لطلب يد شاب فهو بنظر البعض من قبيل: الانفتاح، وإنه من حق الفتاة أن تعبر عن مشاعرها ورغباتها، وأنه إذا كنا ننادي بالمساواة بين الجنسين فلما نقف عند هذه المسألة ونرفضها، وباعتبار أن كثير من الشباب يصعب عليهم المباشرة بعلاقة ويحبذون فكرة أن تتقدم إحداهن و«تختصر عليهم الطريق» (حسبما عبّر أحد المستجوبون الشباب المؤيدون للفكرة) تُظهر عينة في مكان آخر تحفظها باعتبار أن التقاليد لا تسمح بذلك «تصور أن يقال بأن فلانة تقدمت لفلان وتزوجته، يا ضيعان الرجولة» كما علق أحدهم.

على ما تقدم نخلص إلى القول بأنه أيًا كان نمط الزواج أو نوعه أو توجهاته، فإنه لا يزال يعتبر في أوساط كثيرة شأنًا عائليًا أكثر منه فرديًا، أي لا زالت العائلة ترتبه وفق عاداتها وتقاليدها الموروثة لدرجة أن كثيرًا من الأهل يأنفون من لا يناسبهم في الدين أو الطبقة والنسب والبلد والمستوى التعليمي. ورغم تغير حاضر الزواج عن ماضيه بسبب ما طرأ من تغيرات خلال السنوات الأخيرة، لا زالت عملية ترتيب الزواج مرتبطة بعدد من الظواهر الاجتماعية مثل: الحد من حق الاختيار الفردي/ تفضيل زواج الأقارب. فقد لوحظ من المتابعات الميدانية أن هناك عوامل أخرى تلعب دورها قبل الحب، ويرجع السبب في ذلك على أن كثير من الزيجات في الوسط التقليدي المحافظ لازالت تتم بترتيب من ذوي العروسين لمصالح معينة (يحدث في بعض الثقافات اتفاق مسبق بين الأهل على تزويج أبنائهم وهم لا

زالوا صغارًا)، أو كأن يتم الزواج بالإكراه أو للمصلحة حيث تنعدم الروابط العاطفية فيه . .

وعلى هذا الأساس يأتي الحب ثانيًا بعد مقتضيات الواقع المعاش، ولعل نظرة على كثير من علاقات الحب نجدها قد انتهت لأنها اصطدمت بقيود اجتماعية أوجدها المجتمع قبل «الحبيبين» ومن هذه القيود: الاختلاف الديني (وقد رأينا عينة من الإجابات) التمايز الطبقي، التباين المناطقي والعلمي. حيث يقدر لهذه العوامل أن تحول دون تكريس العلاقة برباط مقدس، لهذا يرغب شباب اليوم في أن يسير بعلاقات متعددة مع فتيات مختلفات دون أن يرتبط ـ فعليًا ـ بعلاقة عاطفية ثابتة، بل إن منهم من يفضل البقاء على علاقة طويلة الأمد من أن يرتبط فورًا لبناء أسرة، وهذا يعني أن الحب الرومنطيقي لم يعد ضروريًا للزواج، بل إن مقتضيات الواقع وليست المشاعر والأحلام الوردية هي التي تفرض الزواج (لهذا السبب نلاحظ انتشار حالات زواج مختلفة كزواج شاب من سيدة متقدمة عنه في العمر حيث هي متيسرة ماليًا بخلافه، وارتباط الشباب العربي بفتيات أجنبيات بهدف الحصول على تأشيرة دخول إلى بلد أجنبي للحصول على جنسية، وزواج الإنترنت حيث البحث عن شريك/ شريكة المستقبل في المواقع الإلكترونية متاحًا كحصولك على خدمة إنتاج، وزواج المكاتب الذي تتولاه جمعيات خيرية بهدف الحد من تكاثر ظاهرة العنوسة)، ورغم أهمية غاية هذا الزواج إلا أن مبرراته أبعد من ذلك حيث الروابط الاجتماعية انعدمت لدرجة يصعب على الشريك إيجاد شريكة حياته بسهولة لانشغاله الدائم، أو لعدم وجود من يهتم لأمره في هذا الموضوع فليجأ إلى مكاتب متخصصة وتقديم «طلب زواج».

المحور الثالث: آراء اجتماعية عامة:

يواجه الشباب كثيرًا من صور الحراك الاجتماعي حتى يصبح إنسانًا اجتماعيًا، فهو ينتقل من حالة الاعتماد على الغير إلى حالة الاستقلال النسبي، من مرحلة التعليم إلى مرحلة سوق العمل، من المنزل إلى البيئة الخارجية (بعيدًا عن المنزل) وكذلك من العيش في ظل أسرة إلى تكوين أسرة خاصة به،

إنه في حركة طموح دائم قوامه الرغبة في تحقيق الذات وإثبات القدرة على تحمل المسؤولية. إزاء صورة الواقع الماثل في عالم الشباب من حراك وطموح وتطلع توجهنا إلى المستجوبين بأسئلة عامة بغية معرفة آرائهم فيما يتعلق بهم تجاه مجتمعهم منها:

1) **ما هي أبرز اهتمامات شباب اليوم برأيك ...؟........؟**

2) **ما هي أبرز مشاكل الجنس الآخر اليوم برأيك: ....؟**

3) **من المسؤول عن هذه المشاكل ....؟**

4) **ما هي المشكلة الأهم التي تقلقك أكثر من غيرها ....؟**

5) **إلى ما تطمح من أهداف في الحياة ....؟**

6) **كيف تنظر إلى مستقبلك ....؟**

* تطلع مشوب بالقلق:

بالتوقف عند الاهتمامات ظهر تباين ملحوظ بين الجنسين ففي الوقت الذي اعتبر فيه الشباب أن أبرز اهتماماتهم منصبة الآن على: نيل الإجازة والحصول على شهادة والسعي نحو العمل والمال والشهرة ولو بالهجرة لتأمين مستقبله وتكوين أسرة خاصة، أشار الجنس الآخر بأن اهتمام الفتيات اليوم يدور حول عالم الموضة والبرستيج الاجتماعي والأناقة والتسلية عبر الإنترنت والسهر والخروج لقضاء أوقات ممتعة.

أما فيما يتعلق بالمشكلات التي تؤرق كل من الشباب والبنات، فهي متعددة لتنوع وجهات النظر، فالشباب يعتبرون مشاكل البنات تتلخص في: الغرور والكبرياء والعناد/ الانفعال الزائد وقلة الوعي وعدم فهم الآخر/حب الظهور والغيرة والأنانية وعدم الثقة بالنفس / عدم الصراحة والاحتيال/ الغواية وحب المال/ تقيدهن بأعراف واهية والخوف من عدم الزواج. أما البنات فهن يجدن مشاكل الشباب في: تفكيرهم الدائم بالجنس/ اللامبالاة وعدم الجدية وعدم النضوج والاستهتار/ الإدمان/ عدم الإخلاص/ التهور والعنف والتعصب / عدم قدرته على تأمين حياته وتأسيس أسرة وقد اعتبر كليهما أن هناك أكثر من

طرف هو المسؤول عن هذه المشكلات، فقد أرجع من نسبتهم 58% السبب إلى الأهل، فالدولة (بما تمثل من أجهزة ومؤسسات) تاليًا 42%، فالوضع الاقتصادي ـ ثالثًا ـ برأي من نسبتهم 32%، يليه وسائل الإعلام 22%، فقلة الإيمان 16% فالشباب أنفسهم 18%. . هذا فضلًا عن أسباب أخرى مثل (الفقر/ التمثل بالغرب/ العادات / الصحبة السيئة / . .).

وعن أبرز المشاكل التي يمكن أن يمر بها الشباب عمدنا إلى مقاربة الموضوع بسؤال المستجوب عن المشكلة الأهم التي تقلقه فكانت إجابات متعددة:

* **ما يقلق الشباب:** عدم إيجاد عمل بعد التخرج/ عدم تحقيق طموحه/ عدم استقرار الأوضاع السياسية/ تدخل الأهل/ وصوله إلى المكان الخطأ بعد جهد جهيد/ غضب الله/ عدم تأمين حياة أسرية كريمة/ وغير ذلك.
* **ما يقلق الفتيات:** الزواج من شخص غير مناسب / الوقوع في الخطأ / انعدام الصدق وعدم الصراحة / فعل الحرام والفساد/ فقد عزيز / الخيانة / عدم القدرة على تأمين مستوى معيشي لائق/ الحرب / الوحدة / الفلتان الأمني والأخلاقي ووضع البلد المضطرب/ . . . .

يلاحظ هنا أن ما يقلق الشباب يتعلق بمسائل مهنية أكثر منها نفسية واجتماعية التي تبرز بدورها بشكل ملحوظ عند الفتيات، وسبب ذلك يعود إلى دور كل منهما في الحياة، فدور الشاب الدراسة ثم العمل وتأمين وظيفة مرموقة وحياة اجتماعية مستقرة، بينما الفتيات يقلقن من الوحدة وعدم الصدق واضطراب الأوضاع، ذلك أن في استطاعة الشباب عند اضطراب الأوضاع أن يهاجر أو يتنقل من مكان لآخر بحثًا عن الأمان والمستقبل العملي، بينما الفتيات لا يستطعن بسهولة المغامرة في الهجرة. وعلى رغم هذه المشاكل كيف يتطلعون إلى مستقبلهم أبتفاؤل أم بتشاؤم؟ وما هي أهدافهم في الحياة؟ عن ذلك أبرزت المعطيات النتائج التالية:

جدول رقم (3) توزع المستجوبين بحسب نظرتهم إلى المستقبل

الجنس	تفاؤل	تشاؤم	ما بين وبين	لا جواب
ذكور	%54	% 24	% 16	% 6
إناث	%68	% 16	% 12	% 4

النظرة الغالبة من كلا الجنسين هي إلى التفاؤل منها إلى التشاؤم، فنصف عينة الشباب (54%) وثلثي عينة الفتيات (68%) يتطلعون إلى مستقبل زاهر واعد ومشرق ومزدهر.. مما يعني أن أهدافهم في الحياة يجب أن يشوبها الأمل والتطلع لتحقيق الطموحات، ولكن هل هي فعلًا كذلك أم يشوبها إحباط وضبابية وغموض ويأس من عدم تحقيقها؟ عن ذلك أظهرت المعطيات المؤشرات التالية:

* من أهداف الشباب: الاستقرار العائلي / بناء أسرة / تأمين الشيخوخة / حياة كريمة / النجاح والشهرة / وظيفة مرموقة / السعادة / أن أحقق ذاتي / أن أكون مسؤولًا وجديرًا بالحياة.

* من أهداف الفتيات: العيش بسلام / الزواج السعيد / إنجاز علمي / تحقيق طموحي / العمل المشرف / التزام المبادئ وعدم الوقوع بالانحراف / السياحة / السفر / الرفاهية.

يقول (جالز فرنش): **«في سن الثامنة عشر يفكر المرء في إصلاح العالم، وفي سن الثلاثين يفكر في إصلاح وطنه، وفي الأربعين يفكر في إصلاح منطقته وفي الخمسين يفكر في إصلاح بلده أما في الستين فيفكر في إصلاح... نفسه»** إنه واقع التطلع الذي يبدأ مع الشباب فكلهم يرغب في تحقيق طموح أكبر من عالمه، فيُكثر من الأماني ويتصور الأمجاد التي يتمناه والأعمال التي يتوقعها والمستقبل المشرق الذي يرغب ببنائه، وهي مسألة بدهية ترافق تكوّن البعد النفسي لدى الشباب الذي يتمثل في: الرغبة في الحب

والمغامرة (التوتر الجنسي) تمثيل البطولة والتماهي بالرموز (الهوية) التأمل وأحلام اليقظة، توكيد الذات والاستقلالية.

*** الشباب و.....العيب:**

من العناصر الجوهرية في جميع الثقافات منظومة الأفكار التي تحدد ما هو مهم ومرغوب في المجتمع، وهذه الأفكار المجردة هي سلم القيم الذي يتعارف عليه الناس وفق ما يعرف بالعُرف الاجتماعي الذي يعمل على توجيه تفاعل البشر في تعاملهم وعلى تشكيل قواعد السلوك التي ينبغي أن يتصرف بها فرد ما في محيط معين . . ويحدث أن هذه المعايير تترسخ مع الوقت في الأذهان وتتجسد قيم وعادات وتقاليد في حياة الناس اليومية. وهكذا نجد أنفسنا ـ وحتى نكون لاتقين اجتماعيًا ـ نسير وفق المتعارف عليه، ونغلّب كل قيمنا الأخلاقية ضمانًا لسلامة حياة الجماعة التي ننتمي إليها تجنبًا لأي فوضى، فهل يعي الشباب هذا الواقع من مراعاة «النظام الأخلاقي العام»؟ وهل الانحراف عنه لا زال يعتبر بنظرهم عيبًا؟ أين مفهوم العيب؟ في أيّة مسائل يتجلى بشكل صارخ؟ هل لا زال هذا التقليد الاجتماعي (القيم / المعايير/ .العيب .) معمولًا به؟ عن ذلك قدمنا للمستجوبين أسئلة هادفة منها:

1) هل برأيك مفهوم العيب لازال فاعلًا في أوساطنا الاجتماعية: نعم/ لا، (إذا لا) لماذا.........................

2) أي الأمور تعتبرها الأكثر خروجًا عن عرفنا وتقاليدنا بالنسبة:

* للفتيات:.................................

* للشباب..................................

أن نطرح مثل هذه التساؤل لأن الشباب طاقة التغيير المثلى والثائر على كل تقليد بالٍ، ولا يأبه غالبًا بأعراف يعتبر الخروج عنها عيبًا، سيما وأن صور الضبط الاجتماعي غير الرسمي كالعرف والمعيار والخوف من العيب هي لازمة اجتماعية مهمة لمنع التفسخ الاجتماعي وظواهره كالانحراف والإجرام،

فهل لازال يؤخذ بشيء اسمه العيب؟ بالاستدلال البياني بينت المعطيات: أن أكثرية المستجوبين 66% من الذكور و68% من الإناث رأوا فاعلية واضحة لرهبة العيب مقابل 34% من الشباب و30% من الفتيات لا يرون تأثيرًا له. أي أن ثلثي العينة يقولون باعتبار العيب ووجوده الهام في الأوساط الاجتماعية فهو وبحسب التعريفات عنه: «منظومة متكاملة من المفاهيم الاجتماعية المتعلقة بسلوكيات البيئة التقليدية، ميزة هذه المنظومة أنها ترتدي قوة القانون، ومصدرًا للتشريع الاجتماعي غير المكتوب»، ولعل أبرز أنواع ما نطلق عليه العيب يتعلق بسلوك المرأة الشابة وسلوك الرجل الشاب، (و أحيانًا الأطفال عندما يقومون بأعمال غير لائقة) لهذا حرصنا على أن نعرف رأي كلا الجنسين عن أكثر المسائل التي تعتبر معيبة بنظرهما، وعليه طُلب من المستجوبين تحديد ما يعتبرونه معيبًا سواء فعلته الفتاة أو فعله الشباب (رأي الشباب بهم وبهن وكذلك رأي الفتيات بهن وبهم) لتتنوع الآراء في أكثر من سياق نعرض أبرزها:

- ✓ اعتبر 48% من الشباب أن من أكثر مواطن العيب بالنسبة للفتاة عندما تغادر منزلها مع شلة أصحاب لقضاء أيام بعيدًا عن الأهل.
- ✓ اعتبر 44% من الفتيات أن من أكثر الأمور المعيبة بحق بنات جنسها أن تعود متأخرة إلى بيتها ليلًا.
- ✓ 50% من الشباب رأوا من أكثر الأمور المعيبة بحق أنفسهم عندما يتمردون على آبائهم ويتركونهم وهم بحاجة إليهم، وكذلك رأت من نسبتهن 46% من الفتيات هذا المؤشر معيبًا إذا فعله الشباب.

يلاحظ أن أكثرية المستجوبين ركزوا على مسألة خروج الفتاة بعيدًا أو عودتها ليلًا على أنه أمرًا غير مستحبًا ورغم التبريرات التي قدمت حول هذا الخروج (دواعي العمل كممرضة في دوام ليلي أو نادلة في مطعم أو إعلامية في محطة تلفزيونية)، إلا أن الخط الأحمر بالنسبة للشباب عن الفتيات هو: **«أن تذهب بعيدًا عن المنزل لقضاء وقت ممتع مع شلة أصحاب»** فبرأي بعضهم نحن لسنا في أوروبا أو أمريكا حيث التساهل في هذه المسألة متاحًا إلى

أقصى حدوده، وأن يترك الشاب أهله برأي الفتيات دون الاهتمام بهما لهي مسألة مرفوضة، واللافت في معطيات هذا السؤال توافق رأي في بعض المسائل بين كلا الجنسين واختلاف رأي في مسائل أخرى، فهما (الشباب والإناث) اختلفا على مسألتي العودة متأخرة ليلًا، حيث أكثرية الفتيات (44%) يرفضنها دون أية ذريعة وخروج الفتاة بعيدًا عن المنزل لا يحبذه الشباب مطلقًا حيث بالنسبة ل 48 % هو الأكثر عيبًا، أما عن توافق كليهما فكان على مسألة «ترك الآباء» (50% و46%) حيث هي مستنكرة ليس أخلاقيًا وحسب وإنما اجتماعيًا ودينيًا. كذلك تبين من الإجابات مسائل أخرى اعتبرها الجنسين من الأمور المعيبة كقيام الشباب بأعمال مشبوهة من الاحتيال والنصب (بنظر 20% من الفتيات و16% من الشباب) وانتماء الفتاة إلى تنظيم حزبي (حيث 12% من الفتيات يرونه مستنكرًا)، ومن المعطيات أيضًا اعتبر بعض الشباب أن هناك مسائل أخرى معيبة وهي: مساكنة البنات لشباب دون رابط شرعي/ تفحّش الفتيات في اللباس غير المحتشم إلى درجة التعري/ الميوعة الزائدة عند بنات اليوم وخاصة الجامعيات. . .بينما رأت البنات عيب الشباب في ممارسة الجنس دون أية اعتبارات أخلاقية أو دينية، (وإن لم يمارس يفكر دائمًا في هذا الموضوع ولا ينظر إلى البنت إلا كجسد ومتعة جنس) أو أن يغير من أطباعه ويدخل عالم الصرعات ويصبح «شاذًا» أو أن يعمد إلى تغيير دينه.

هنا ثمة «ذهنية تقليدية» ضاربة عميقًا في داخل المستجوبين وتطفو إلى العلن عند إشارة اختبار لمواقف أو سلوك حين يتواجه بها أحدهم، مما يؤشر إلى أننا لازلنا نعيش مجتمعًا شرقي السمات، للعُرف فيه قوة صارخة، فالفتيات في المجتمع الإحصائي تتجنّب الذهاب بعيدًا خوفًا من «القيل والقال» واحترامًا لمكانتها وكي لا تلوث سمعتها بأقاويل هي بغنى عنها، والشباب كذلك يلازمون آباءهم لأن رضا الله من رضا الوالدين، وأي توفيق في حياتهم يتوقف عن مدى رضاهما عليهم، ومن يعقّهما لا يسلم من ألسنة الناس بالذم والتحقير، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن شبابنا لازال متأثرًا كثيرًا في بعض القيم العائلية.

خلاصة عامة:

عن العلاقة مع الجنس الآخر يبدو أن إجابات المستجوبين العفوية فضحت الكثير من الأفكار التي تختزن في داخلهم، وما هذه التعبيرات سوى مرآة للبنية الذهنية وتعبير عن ذات مجتمعية تشربت فيه وتمازجت مع ذاته الخاصة حتى صعب فصله، ما يمكن ملاحظته هو وقوع الشباب في ازدواجية تعبير، برزت معالمها في «أحادية نظرة» بناء على أحكام مسبقة و«ثنائية تصرف» في مواقفه وسلوكه (مع وضد في نفس الوقت).. أي هو في أفكاره منمّطًا على قديم بالٍ وتعصب فكري أعمى وفي الوقت ذاته متطلع نحو العصرنة ومعطياتها المعرفية الراقية...وترانا نتساءل:

- هل يعي الشباب اللبناني أن العصرنة والمدنية لا تعني فقط الأخذ بما تقدمه الحداثة من مبتكرات تقنية نستعملها في يومياتنا وإنما تعني أيضًا تطور فكر، وسلوك مهذب ووعي مجتمعي راق واستيعاب الآخر بسمات اختلافه؟.
- هل سيجرؤ على تمثل قيم الحداثة والتحضر أم أنه سيبقى أسير الأحكام المنمطة والمواقف الماثلة؟.
- هل سنعيد النظر في نظرتنا كشباب ـ للمرأة ـ من كونها موضوعًا جنسيًا وبأن رأسمالها هو جمالها، إلى اعتبارها إنسانًا مشاركًا وليس فقط مجرد دور (أم / زوجة / مدبرة)؟.
- هل سنعيد النظر كفتيات تجاه الشباب بأنهم ليسوا نسخة طبق الأصل عن أسياد الزمن الساحق، وعلى أنهم أوعية صبت فيها «مسموحات وممنوعات»؟.

في ظل عالم سريع التطور والتغير لا بد من أن يتغير الشباب نحو الإحساس بالمشاركة أكثر فيما يقرر مصيره الاجتماعي، وبالتمرد عن كل ما يهمش دوره كإنسان مشارك ومعطاء ومسؤول، لأن قيمًا جديدة أخذت تنبثق مع عصر العولمة وأخذت تفرض نفسها في المجتمع العربي، حيث بتنا نشهد مزيدًا من تحرر المرأة في تبعيتها للرجل مع إقبالها على العلم (ولو بعيدًا عن

الأهل) والعمل خارج المنزل (ولو اقتضى الأمر السفر لفرصة عمل مغرية) والمشاركة الاقتصادية والعمل السياسي . .ووفق هذا السياق بات يظهر للعيان بقدر ما تتعلم الفتاة (كأنثى) وتعمل وتنتج، تسهم في صنع مصيرها ومساواتها بالرجل أمرًا واقعًا وحقيقيًا . .وحتى يتحقق هذا الأمر، فإن المرأة في بعض أوساطنا الاجتماعية لا تزال «مغتربة» (بالمعنى السيكولوجي) تعاني من مشكلات أساسية ليس أقلها نظرة «الذكورة» التي تنصاع بدورها ـ هذه الأخيرة ـ حكمًا لأنساق اجتماعية هي بمثابة «التابوهات»، لأن الانصياع ـ في مفهومه ـ ما هو إلا نوع من الاستعداد لتقبل أشياء محددة ورفض أخرى، إنه «محصلة تجارب سابقة عديدة استخلص منها مسلكًا أعمق بكثير من العادة، مسلك يتجاوب مع الحياة اليومية والعملية بعقلانية الاختيار الشخصي الاجتماعي» وهذا ما يتصف بالجانب الاجتماعي لدى الشباب بمظاهر رئيسة في تآلفه مع الآخرين، حتى يؤثر ذلك على سلوكه ونشاطه وسعيه الدائم نحو توسيع آفاق الحياة ويقترب ـ فكرًا وسلوكًا ـ من معايير الناس ليكرس دوره المفترض. وفي المقابل قد نجد عندهم ـ اجتماعيًا ـ حالة من النفور الذي يظهر في صور تمرّد وسخرية على نظم مفروضة من السلطة القائمة. .كما يزداد تعصبه لآرائه متأثرًا في ذلك بأطر مرجعية تنشأ عن علاقته بالوالدين وبأنماط ثقافية ـ تربوية مستمدة من الشعائر الدينية التي يؤمن بها والطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها وبالزعامات التي يوالي.

إن نظرتنا تجاه بعضنا بعضًا وتغيرها نحو استيعاب وفهم أعمق «للجندرة» لا يحدث إلا إذا حدث تحول في البنى الاجتماعية والنظام العام، التي لا زالت بدورها تعزز من علاقات السيطرة والاستغلال في مختلف مؤسسات المجتمع بما فيها العائلة والمدرسة والعمل، فهرمية العائلة جزء من هرمية المجتمع، فلا يتم تحرير المرأة مثلًا بمعزل عن تحرر المجتمع نفسه، أي هناك علاقة جدلية بين عمليتي التحرر ووجود المرأة ككائن منتج، بمزيد من الانفتاح الفكري وبأن يكون كلا الجنسين على قدر من الوعي والمسؤولية في الموقف والسلوك . .عندها تتغير النظرة وندخل عالم الجندرة بالتوصيف الذي أراده مطلقوه.

استطلاع رأي (3)
الأنا والآخر الطائفي: أيّة علاقة؟[1]

توطئة:

حين تتأمل في أحداث الواقع الراهن لبنانيًا، تستوقفك تساؤلات عدة عن مآل هذا الوطن، في أية خانة يُصنّف؟ هل هو مجتمع: متجانس أم مجتمع تعددي أم فسيفسائي؟ كيف يمكن أن ننظر إلى أبناء هذا المجتمع هل هم متنافرون، متعايشون، على حالة من التقارب أم النفور والابتعاد؟.

تدور التصورات السوسيولوجية عن العمليات الاجتماعية التي تتضمنها التفرقة الإثنية في عدة صور أبرزها: **التمركز الإثني وانغلاق الجماعة**، تشير الصورة الأولى إلى التوجس والشك تجاه الأجانب مقرونًا بالميل إلى تقييم ثقافة الآخر بمعايير ترتكز على ثقافة الجماعة الأولى نفسها، يشوبها في أحيان كثيرة «التفكير التنميطي» والنظر إلى الآخرين المختلفين باعتبارهم غرباء/ منحطين أخلاقيًا/ متخلفين. . . (ومثل هذا التصور أدى إلى مصادمات إثنية لا حصر لها عبر التاريخ) أما عن الصورة الثانية فهي تشير إلى محافظة الجماعة الإثنية على الحدود الفاصلة بينها وبين الآخرين ويجري تشكيل هذه الحدود عن طريق وسائل إقصائية تحدد وترسخ حواجز الفصل بين مجموعة إثنية وأخرى (كحظر التزاوج بين الجماعات المختلفة دينًا ومذهبًا مثلًا) وهكذا تأخذ كل جماعة إثنية بالحفاظ على «مسافة» دون أن تقوم إحداهما بمحاولة فرض سيطرتها على

---

(1) نُشر في صحيفة النهار اللبنانية، 14/ 4/ 2008.

الأخرى. وقد تتراوح العلاقة القائمة - في مواضع معينة - بين الانصهار والانفصال من خلال درجة ما تطمح إليه في علاقتها بالجماعات الإثنية الأخرى التي تعيش وإياها في نفس المجتمع السياسي. وفي التاريخ الحديث توجد أمثلة عديدة للحركات الاندماجية بين الجماعات الإثنية بحيث تؤدي إلى انبثاق وحدة متجانسة وكثيرة هي الدول التي تعتبر من الأمثلة لتلك المحاولات.

واذا ما أردنا أن نصف العلاقات القائمة بين الجماعات التي يتكون منها المجتمع فإننا يمكن أن نصنفها من حيث درجة انصهارها بحسب مجموعة من السياقات الاجتماعية وهي: النزاع، التعايش والانصهار، «ويمكن اعتبار لبنان مؤلفًا من عدة جماعات طائفية تشدد على هوياتها الخاصة على حساب الهوية اللبنانية وتتمتع فيه بعض الجماعات بامتيازات سياسية واقتصادية واجتماعية دون الجماعات الأخرى، أو على حسابها، وقد انبثق عن هذا الحال تمسك الجماعات المختلفة بهوياتها الخاصة بدل أن تتحرر منها، وبسبب هذا الواقع ظل المجتمع اللبناني مجتمعًا فسيفسائيًا يتراوح بين التعايش والنزاع»[1].

إزاء هذه الافتراضات أين الجماعات اللبنانية على كافة تلاوينها الطائفية اليوم؟ هل هي على شيء من التجانس أم على شيء من المراوحة بين التعايش والنزاع؟ هل عوامل التنافر هي السائدة أم عوامل الانسجام؟ أين مكامن الالتقاء وأين مواطن النفور، متى يقترب **فعليًا** اللبناني من الآخر الذي يختلف عنه دينًا ومتى يبتعد؟ للإجابة على هذه التساؤلات كان لابد من مقاربتها واقعيًا وفق تقنيات استطلاع وبحث، فوجدنا أنسبها «سلم المسافة الاجتماعية» الذي وضعه بوغارديس (BOGARDUS) لقياس المواقف (باعتبار أن الموقف يختلف عن الرأي لأنه يعكس مستوى أعمق للشخصية ويمثل حضورًا ذهنيًا أفعل في غالب الأحيان) في هذا القياس تطرح الأسئلة بشكل يتناسب وحياة الأشخاص المستجوبين، عندما نضعهم أمام جملة خيارات وعليهم تحديد موقع يناسبهم على سلم مُعدّ سابقًا.

ويرى بعض الباحثين في دراسات علم النفس الاجتماعي أهمية هذه

(1) د. حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1981.

التقنية في قياس المواقف المتعصّبة والوطنية و لقياس المسافات القائمة بين الأفراد أو الجماعات، بحيث يُظهر الخيار المشار إليه على السلم موقف الفرد الفعلي تجاه شخص آخر يختلف عنه بالعقيدة أو اللون أو العرق أو البلد. وقد افترض بوجاردس في ذلك سبعة استجابات متدرّجة على مقياس من سبع اختيارات تمثل العبارة الأولى (الزواج) أقصى درجات التقارب الاجتماعي والعبارة السابعة (الاستبعاد) تمثل أقصى درجات التباعد الاجتماعي وبينها خيارات تؤشر لمواقف ممكنة مثل الصداقة/ الزمالة/ المصلحة/ المواطنة.

*** المقاربة الميدانية:**

تمت المقاربة على مرحلتين زمنيتين (2002/ 2007)، بحيث استطلعت مجموعة من طالبات قسم الإشراف الصحي ـ الاجتماعي (الجامعة اللبنانية) رأي أبناء الطوائف اللبنانية المختلفة، وقد اختيرت **محافظة البقاع** كواحدة من المناطق اللبنانية الغنية في التنوع الطائفي/ المذهبي (موارنة/ سُنّة/ دروز/ شيعة/ أرثوذكس / كاثوليك) وضمن كل مذهب استُجوبت فئات مختلفة عمرًا وجنسًا وتخصصًا وعلمًا ومهنةً ومنطقةً (البقاع الغربي / راشيا/ الهرمل/ بعلبك/ زحلة/ البقاع الأوسط) وكان على المستجوبين أن يحددوا خيارًا واحدًا على المقياس الاجتماعي المقدم عبر سؤال رئيس يشتمل على قائمة محددة تدرّجت خياراتها على سبعة مواقف، يمثل الرقم (1) أكثرها «قربًا» من الآخر والرقم (7) أكثرها «بعدًا» وفق التالي:

أولًا: حدد موقفك اتجاه الآخر الطائفي بخيار واحد فقط من الخيارات المدرجة:

1) أقبل الزواج منه.

2) أقبل صداقته.

3) أقبله جارًا لي.

4) أقبل أن أتشارك وإياه زمالة أو العمل.

5) أقبل أن أتعاون وإياه.

6) أقبله واحدًا من المواطنين في محيطي.

7) أقبل استبعاده من المحيط/ الوسط الذي أعيش فيه.

*** في معطيات الاستطلاع الأول (2002).**

أظهر الواقع الميداني اختلافًا في الاختيارات تمثلت أكثرها إيجابية مع مواقف المرونة الاجتماعية وأقلها سلبية في مواقف التصلب الاجتماعي، فالمرونة (التقارب أو التماثل) بدت واضحة في أكثر من مكان بمؤشرات عديدة مع عبارات: الزواج، الصداقة الحميمة، الزمالة القوية في العمل، الصحبة في الجامعة، إلخ. أما درجات التصلب الاجتماعي فقدت بدت في مواضع: التجنب والابتعاد لعدم الانسجام، رفض وجوده في المحيط المجاور، عدم التعاون... كما هو مبين في الجدول التالي:

المعطى / الخيار.	مقياس العلاقة عند المسلم.	مقياس العلاقة عند المسيحي.
1) الزواج.	%28.	%8.
2) الصداقة.	%48.	%42.
3) الجيرة.	%2.	%4.
4) الزمالة.	%16.	%32.
5) المصلحة.	%2.	%4.
6) المواطنة.	%4.	%10.
7) الاستبعاد.	صفر %.	صفر%.

في قراءة أولية لنتائج هذه المعطيات يتبين أن الذين اختاروا من 1 إلى 3 (ونسبتهم 78 % عند المسلمين 54% عند المسيحيين) يرجع إلى ما يتمتعون به من عوامل مثل: القدرة على الاندماج، التفهم، تقدير مشاعر وأفكار الآخرين، التي تعتبر بدورها من الشروط اللازمة لإقامة علاقة اجتماعية ناجحة تتسم بالمودة والتدعيم المتبادل نتيجة الإدراك الصحيح لرغبات الآخر من خلال مجالات لاحظها فريق العمل تتجلى في مواقف أبرزها: معدل مرتفع للاتصال اليومي بين الأنا والآخر، الحفاظ على مسافة مناسبة من الاحترام لإبقاء العلاقات في مسارها الودود والرغبة في معرفة كل منهما عن الآخر

معلومات تتعلق به (كرقم هاتفه/ عنوانه/ يوم ميلاده/ أفراد عائلته/ عاداته تقاليده/ مناسباته) أو معرفة هواياته وتفضيلاته وخصاله الخاصة (الأشياء التي تسعده أو تضايقه كي تكون محطة تقرّب وإهداء).

هذه المجالات/ الدلالات من شأنها أن تحدد مهارات اجتماعية متنوعة: كالمشاركة (SOCIAL PARTICIPATION)، التعاون (COOPERATION) المساندة (VALIDATION)، وإظهار الاهتمام متى حضر والسؤال عنه متى افتقد. أما عن الذين اختاروا من 4 إلى 6 (ونسبتهم 22 % عند المسلمين و 46% عند المسيحيين) فيمكن تبرير اختيارات هذه الفئة وفق مسألة «التماثل» عملًا بمبدأ: المثيل يجذب المثيل، أي أن من المستجوبين من يفضّل أصدقائه/ علاقاته من جماعته القريبة (المثيلة) فكرًا ومعتقدًا ومنطقةً، ويحدد تواصله مع الآخرين بناءً على الرموز الطقسية الخاصة بكليهما عبر أكثر من إشارة يعمد إليها بعضهم فيما لو دخل وسطًا متنوعًا من الناس كيف يحاول أن يبين هويته الطائفية[1]، هذا ما تحاول أن تفسره «نظرية العلاقات الأساسية بين الأشخاص (شويتز/ 1955)» التي تقول بأن الناس يتجهون بأنفسهم نحو الآخرين من خلال دوافع تعتبر بمثابة المحددات الأساسية للسلوك بينهم، ويمكن تحديد هذه الدوافع في ثلاث مفاهيم هي:

1. الاحتواء عبر الحاجة للارتباط بالآخر والتواجد معه، وتتضح هذه الحاجة غالبًا عند قيام الشخص باهتمامات محببة للآخر كي يجذب انتباه

(1) لاحظت مثلًا أن الطالبات المسيحيات في الوسط الجامعي يرتدين سلسلةً ذهبيةً تحمل صليبًا أو أيقونة معينة (وفي فترة الصوم يرسمن صليبًا على جبينهن) والفتيات الشيعيات يميزهن حجابهن وخمارهن الطويل، ولكن حتى في شكل الحجاب الذي يرتدينه هناك أكثر من دلالة وفقًا للمرجع المقلد (وأثناء أيام عاشوراء الجميع في لباس أسود موحّد)، وبالمثل يلاحظ عند الفتيات السنيات في طريقة ارتدائهن للحجاب والزي الشرعي كيف يختلف تبعًا للاتجاه (سلفي/ حبشي/ خليجي) أما بالنسبة للشباب فلهم في الرموز الطائفية لغة تواصل وتعريف أيضًا، فالمسيحيون منهم يلبسون على معصمهم سوارًا جلديًا فيه صليبًا خشبيًا، والشيعيون يوشمون على ساعدهم السيف ذي الرأسين (باعتباره ذو الفقار ـ سيف الإمام علي) أما ممن ينتمون إلى المذهب التوحيدي الدرزي فجل بعضهم يرتدي سلسلةً فيها نجمة ملونة بخمسة ألوان في إشارة للحدود الخمس التي ترمز للعلماء الذين أسسوا هذا المذهب.

ويستحوذ تقديره، (لهذا نلاحظ أن كل من أراد إقامة علاقة مع آخر مختلف كيف يكون ودودًا/ منفتحًا/ لطيفًا/ صديقًا، يحترم ما لديه كي يحوز مكانة أكبر في جمهوره.).

2. التوجيه، أي عندما تكون لدى طرف رغبة في توجيه الآخر وضبطه وفق ما يريد، تكون لدى الطرف الآخر رغبة في توجيه وضبط من يقابلهم أيضًا، والشخص الذي تكون لدية حاجة عالية للتواصل مع الآخر عليه أن يكون منضبطًا في تصرفاته / كلامه/ كي لا يُواجَه بالاعتراض والرفض.

3. التعاطف، ويقصد به مشاعر الحب والكراهية، مدى الانسجام والتجاذب، عوامل التقرب والنفور، إذ على ضوئها يمكن التنبؤ بوتيرة العلاقات القائمة بين الأقرناء والأفرقاء، على اختلاف سماتهم. فالشخص الذي تكون لديه حاجة قوية من العاطفة مع الآخر يصادقه، ويحاول أن يقيم معه روابط انفعالية قوية، أما من تكون لديه حاجة منخفضة فإنه يتجنب إقامة علاقة قوية.

*** في معطيات الاستطلاع الثاني (2007).**

خلال السنوات الثلاث الأخيرة شهد لبنان أحداثًا سياسية وأمنية خطيرة، كانت مفصلية في مسار حياة أبنائه، انعكست على بُناهم الذهنية والاجتماعية، حتى برزت على ضوئها نتوءات حادة في مسار العلاقات القائمة بين أبناء هذا البلد الواحد، انفرز الجميع في كتل وتيارات سواء ضمن الطائفة الواحدة تجاه الطائفة الأخرى، أو سواء بخليط عدة مذاهب في توجه سياسي واحد إزاء خليط آخر له اهتماماته وتوجهاته المختلفة.

إزاء هذا الواقع المستجد كان افتراضنا حول المسافة الاجتماعية الموجودة في ظل هذا التغير الحياتي المتوتر بعد مرحلة استقرار، هل لا زالت العلاقات ثابتة على انسجام أم حدثت تبدلات؟ إلى أي مدى اختلفت المسافات بين ذوي المذاهب المتعددة؟ هل لا زالت موجودة أم أنها تغيرت؟. وفيما لو تغيرت في أي سياق تغيرت؟ هذا ما دفعنا إلى إعادة إجراء الاستطلاع في المكان ذاته ومع عينة متشابهة لنرصد مدى التغير الذي حصل على مقياس العلاقة السابقة.. وباستخدام التقنية ذاتها تحصلت لدينا المعطيات

الإحصائية التالية:

المعطى / الخيار.	مقياس العلاقة عند المسلم.	مقياس العلاقة عند المسيحي.
1) الزواج.	%20.	%12.
2) الصداقة.	%40.	%30.
3) الجيرة.	%6.	%12.
4) الزمالة.	%16.	%20.
5) المصلحة.	%6.	%6.
6) المواطنة.	%4.	%10.
7) الاستبعاد.	%8.	%10.

في هذا الجدول نلاحظ اختيارًا للخيارات السبعة عند مختلف الفئات بنسب متقاربة إلى حد ما، حيث احتل مؤشر الصداقة أعلى نسبة اختيار لكلا الطائفتين، يليها عامل الزمالة فالزواج. أما المصلحة والمواطنة والاستبعاد جاءت تاليًا في الجهة المقابلة عند شريحة من الناس في كلا الطائفتين. وقد لاحظ فريق العمل خلال الاستجواب ملاحظات هامة أبرزها:

- ✓ إشارة البعض إلى أهمية التنوع الطائفي كميزة عريقة في لبنان شرط أن تبقى في إطار المسالمة والاحترام المتبادل.
- ✓ رغبة بعض البنات المسلمات منهن والمسيحيات الزواج خارج إطار الطائفة والمذهب تمردًا على الحواجز التقليدية القائمة (فالحب يجب أن يتغلّب على التفرقة كما علقت إحدى المستجوبات).
- ✓ أهمية أن يتعرف كل صاحب مذهب على ما لدى الآخر من مقومات روحية سامية، فهذا بدوره يهيئ إلى مناخ الانفتاح والتقبل.
- ✓ ردد كثيرون عبارة: تعامل مع الآخر كما تحب أن تُعامل، كقاعدة سليمة للتواصل الأمثل بين الطوائف.
- ✓ اعتبار البعض بأن «الطائفية» وباءٌ يصيب أفراد المجتمع اللبناني بين الحين والآخر وخاصة في الوسط الجامعي بين الشباب، لذا يجب العمل على الحد منه.

يتبين هنا وجهة التفاعل القائمة بين الطائفتين، حيث التباين الإثني - وإن بدا متماثلًا في نسب بعض الخيارات - بين الجماعتين، فكل جماعة تضفي على هذا التباين أهمية قصوى وترتب عليه مواقف وأنماطًا من المعتقدات والسلوك المتبادل عبر ما يسمى بالتشريط الحضاري (culture conditioning) أي الضغوط النفسية والاجتماعية والثقافية الممارسة على أفراد الجماعة الإثنية، كما في مسألتي الزواج والاستبعاد (طرفي المقياس)، فالزواج هو مفضّلًا أكثر داخل الجماعة الإثنية المصغرة (المذهب). وإذا ساور الفرد فكرة التزاوج من خارجها فإن علامات التعجب تأخذ بالظهور عبر الاستهجان والاستغراب وصولًا إلى العزل من الجماعة الأصل. أما الاستبعاد فمرده إلى شيوع مواقف «التحيّز» التي تتمثل في تغليب ثقافة معينة أو منظومة من القيم مع النظر بازدراء إلى ثقافة أو قيم تتبناها شرائح أخرى.

*** عن المقارنة بين الاستطلاعين:**

بمقارنة المعطيات المتوفرة زمنيًا (والواردة في الجدولين) يتبين لنا فارقًا ملحوظًا في بعض الاتجاهات والمواقف نختصرها في التالي:

1) تراجع نسبة المفضلين للزواج عند المسلمين من المذاهب الأخرى وتقدمها بشكل بسيط عند المسيحيين.

2) ثبات مؤشر الصداقة عند كلا الطائفتين وإن زادت نسبته إنما بقي على مساره.

3) تقدم ملحوظ في اختيار عامل الجيرة من كلا الطائفتين على حد سواء.

4) ثبات في مسألة الزمالة عند كلا الطرفين.

5) تقدّم بيّن على صعيد علاقات المصلحة.

6) ثبات في مؤشر المواطنة.

7) تغير ملحوظ في مسألة الاستبعاد، ففي الوقت الذي الذي لم يختاره أحد في استطلاع 2002 لُوحظ بروزه في استطلاع 2007 لدى كلا الطرفين

بنسب متقاربة.

وعليه يبدو أن هناك ثلاث اتجاهات ومواقف قدمتها نتائج الاستطلاعين هي:

☆ ارتفاع مؤشر الصداقة ومبرر هذه الزيادة في نسبته يمكن إرجاعه إلى اعتبار هذا الموقف أخف الخيارات جدلًا مما لو اختار المرء مؤشرات أخرى. لهذا كان يلجأ أكثر المستجوبين إليه باعتباره أكثر إعفاءً للحرج، بل إن بعضهم اعتبر أنه من خلال الصداقة يمكن أن ينتقل المرء إما إلى الزواج (بحيث تتطور العلاقة بعد التواصل الحميمي) أو يمكن أن تستدعي تقربًا في السكن والجيرة. .لذا لتكن هي البداية!.

☆ ثبات النسب في مؤشري الزمالة والمصلحة عند شريحة معينة من الناس التي تعتبر أن ما يربطها بالآخر هو مجرد زمالة. (دراسة أو عمل أو نشاط تجاري أو خدماتي). لا أكثر ولا أقل. أي هناك نوعًا من القبول الظاهري الذي يبدو في المجاملات وحكم الضرورة.

☆ بروز ملحوظ لمؤشر الاستبعاد، فبعدما كان هناك انعدام لاختياره في الاستطلاع الأول (حيث لم يحدده أحد من المستجوبين) استحوذ نسبة معينة لدى شريحة من المستجوبين، وهذا إن دل على شيء إنما يدّل على التبدل الحاصل في وقائع الحياة اليومية التي أخذت تتشكل معالمها رويدًا رويدًا نتيجة الأحداث السياسية الحاصلة بعد الاستطلاع الأول من أحداث أمنية عصيبة / اغتيالات سياسية/ خطاب سياسي متشنج/ إعلام متحيز، كل ذلك ألقى بظلاله على ذهنية الناس وتصوراتهم ومواقفهم، لدرجة بات استبعاد الآخر مطلوبًا، أو أمُنية لو تتحقق، وكأن هناك انغلاق على الأنا الجماعية وتوجسها من الآخر الطائفي. . والسعي نحو منافذ الخروج من هذا التوجس إما بالرحيل التلقائي (السفر والاغتراب) أو التحصّن داخل قوقعة الانتماء المناطقي/ الديني (الاحتماء بزعيم منها/ تغيير مكان السكن/ ترك عمل بين أناس ليسوا من ملته إلى آخر)

وإما رفض الآخر والنفور منه وعدم التعامل معه وتجنبه لدرجة استبعاده من الوسط الذي يعيش فيه كي لا يتواجه وإياه.

وعندما تأخذ كل طائفة بالتكتل على خوف، متوجسةً من الآخر شرًا، تدخل عندها في مآسي توازن الرعب الطائفي. يحاول كل منهما أن يصارع الآخر في مد وجزر الإلغاء، فتكون النتيجة تغير ديموغرافي ونفسي وثقافي خطير، لأن «أيديولوجيا التخاصم التي تميز الحروب هي منظومة فكرية تقوم على صورة جوهرية هي صورة النحن لا على صورة الكل، النحن تعني جماعة دينية أو إثنية محددة أو عصبية قبلية، النحن تعني جماعتنا، كتلتنا، وفي النحن لا مجال للآخر وطالما لا مجال للآخر فكيف بالتالي أن يكون مجال للكل، فالكل هو مجال الدولة، جميع المواطنين أما النحن فهي مجال القبلية / الجماعة/ الحزب المغلق/ الطائفة والإثنية..»[1].

في الاستنتاجات:

إذا كانت العلاقات الاجتماعية الموزونة تقوم على تماثل الاتجاهات بصفة خاصة وتحمل دلالات بالغة الأهمية تمس توافق الفرد واستقرار الجماعة لما تتسم به من تجانس في الاهتمامات والتفضيلات والقيم والظروف الاجتماعية فإن هذه الدراسة قدمت دلالة اجتماعية على استقرار العلاقات بين الأنا والآخر على مستوى الصداقة لدى غالبية المستجوبين، إلا أن ذلك لا يمنعنا من التغاضي عن الاستنتاج بأنه في مكان ما يلاحظ درجات تصلب مختلفة كانت تتجلى إما بشكل سلبي واضح عبر صور: التصادم، السباب، الاحتقار، الاستهزاء، اللااعتبار(كأشد درجات التصلب) وإما بشكل غير ودي عبر: الابتعاد، التجنب، عدم التعامل (كأخف درجات التصلب) وكأن هناك صورتين تتمثل:

أولهما في «SOCIAL MOBILITY» أي برغبة الالتقاء والارتقاء على

(1) د. فردريك معتوق: جذور الحرب الأهلية، دار الطليعة، بيروت 1994.

نوازع العنف والشر وقد عبر عنها المستجوبون في أكثر من مجال عنها بقولهم ووصفهم للآخر الطائفي: بأنه إنسان مثلي مثله/ نحن أبناء بلد واحد/ أحترمه وأحبه كأخ لي / كلنا مثل بعض/ لا يوجد هناك «آخر» - برأي إحدى المستجوبات - لأننا بالنهاية نحن ننتمي لوطن واحد ولا تفرقة بيننا/ هناك تشابه في كثير من الأمور.

وثانيهما في «SOCIAL RIGIDITY» أي برغبة البعد والتجنب وتحاشي التواصل مع أبناء المذاهب الأخرى، بل ذهب بعضهم أبعد من ذلك عندما شطح في توصيف من يختلف عنه مذهبًا ودينًا بأنه: لئيم/ متعصب/ إرهابي.

مما يؤكد لنا كيف أن اللبناني ينمو ضمن نماذج اجتماعية تتسم بوجهين متكاملين: توجّه نحو الانسجام مع المقاييس السائدة بحكم التطور والانفتاح والحداثة، وتوجه آخر نحو التمايز بخاصية الإثنية (ethnic) تدمغه بطابعها الخاص فيحدد لنفسه معنى من خلالها قوامه مناخ نفسي وذهني وتراثي خاص. وهذا ما يعرف بالسمات الإرثية (ascriptive traits) التي تنميها الجماعة الإثنية في أفرادها مبكرًا كجزء من عمليات التنشئة وكضرورة للحفاظ على الكيان الجمعي، ولتكريس مصالح ومزايا مكتسبة، كما أن الآخرين يفعلون بدورهم الشيء ذاته لنفس الاعتبارات لأن وجود الآخر المختلف أهم عامل في تنمية وعي إدراكي للإثنية. وبذلك تنطوي العلاقة الإثنية صراحة أو ضمنًا على آليات نفسية واجتماعية وذهنية للاندماج والاستبعاد قوامها شروط يكون فيها المرء إما من جماعة «النحن» وإما من جماعة «الهُم».

لأجل ذلك لا بد من إيجاد خصائص علاقات الأنا والآخر في السياقات الاجتماعية عبر تعزيز مهارات التفاعل الاجتماعي والارتقاء المعرفي والانفتاح الحضاري، وإبراز مجالات التقارب وصولًا نحو التماثل في درجات المرونة الاجتماعية كي لا نبقى أسرى ذهنية التصلب والأفكار المنمطة، لتحل عبارة «إننا» بدل عبارة نحن أو الأنا المغلقة، لأن مفتاح السياقات الأيديولوجية في تشكيلية اجتماعية ترغب في التغير نحو الأفضل موجود في «العلاقة مع الغير»، في تغيير الصورة القائمة: اتجاه من الوطن إلى الطائفة (حيث التفسخ) نحو

الأخرى الأكثر مطلبًا: اتجاه من الجماعات نحو المجتمع (حيث التوحد)، قبل أن يصبح لبنان ـ والذي يعتبر اجتماعيًا بلدة واحدة ـ رسم المسافات بين مناطقه وطوائفه سهلًا للغاية.

استطلاع رأي (4)
السلوك الجماعي في ظاهرة التظاهر[1]

(قراءة سوسيولوجية ومقاربة ميدانية)

مدخل:

بماذا يمكن وصف السلوك الجماعي المحتشد؟ ما هي الأسباب الموجبة لكل تحرك؟ أين يندفع المتظاهرون وأين يخفتون؟ هل الاحتجاجات الشعبية هي فعلًا وسيلة تغيير أم مجرد تحرك للتأييد؟ وهل كل تحرك متظاهر يوصل إلى نتيجة؟ كيف يمكن وصف «ظاهرة التعبير الشارعي» هل هي فعلًا مظهر ديموقراطي، كما يقال، أم أنها فوضى يثيرها الرافضون؟ هل يمكن اعتبار التظاهرة وسيلة تعبير مرتجلة لإيصال رسالة ما؟ إن كان ذاك، كيف؟ بتعبير أدق، ما هي دلالات ظاهرة التظاهر؟ كيف يمكن رصد أبعادها النفسية والاجتماعية والفكرية؟ مجمل هذه الأسئلة حاولت الإجابة عليها عبر الأطر النظرية المتمثلة مما يراه علماء النفس والإعلام والاجتماع حول «السلوك الجماهيري»، ثم مقاربة هذا الموضوع/ الظاهرة على ضوء عينة من آراء اللبنانيين خلال فترات التظاهر التي حدثت في بيروت.

أولًا: السلوك الجماعي والتظاهر: جمهور نفسي.

على الرغم من زخم التظاهر الظاهر في مختلف الشوارع العربية والأوروبية، و ليس فقط لبنانيًا، تبقى هذه الظاهرة في مدلولاتها الشائعة من أكثر الظاهرات غموضًا، ذلك لأن طبيعة السلوك الجموعي، يمكن فهمه من

(1) نُشر في صحيفة النهار اللبنانية: 8/ 4/ 2005.

خلال درس تجمعات متنوعة مثل الحشد، الرعاع، التدافع، السلوك الشمولي، الرأي العام، الحركات الاجتماعية، الثورات الإصلاحية، التحرك النقابي، وغيرها مما يصعب معه فهم طبيعة هذه الجمهرة كونها تنطلق من «تلاوين» متعددة لها أسبابها ونتائجها الشتى. لكن القاسم المشترك بين كل هذه المدلولات يرتكز على القول بخاصية العدد الكبير الذي يتميز به «حشد التظاهر» فمثل هذه الاعتبار يلعب دورًا تأسيسيًا في تحديد معالمه، لهذا نجد كيف أن منظميه يحرصون دائمًا على توسيع الدعوة إليه، والحث على المشاركة، لما يوحيه «العدد» من فعل تأييد لما يطرح. لكن هذا الاعتبار غير كافٍ للتفسير أساسًا وجوهرًا لمعنى التظاهر وأهميته، لأنّا إذا أردنا التوصل إلى وصف حقيقي للكتلة الجماعية باعتبارها فريقًا ـ أي جزءًا مساهمًا وفعالًا في عمليات التعبير ـ وجب علينا أن ننظر إليها كجمهور أو كتلة تتألف من أناس يشترك أفرادها في ظهور/ لقاء/ أو نقاش عفوي حول إحدى القضايا العامة ـ يندفعون غالبًا ـ من شعور مشترك، لينتهوا إلى قرارات جماعية وآراء مشتركة.

لهذا فإن ألفًا أو مائة ألف يتواجدون بالصدفة في ساحة لا معنى لتجمعهم أو عددهم إن لم يكن لديهم توجهًا واضحًا، في حين أن بضعة مئات ـ على سبيل المقارنة ـ من عناصر متحركة لها هدف وتنطلق وفق خطة مطلبية يمكن اعتبار تحركها ذات جدوى. باعتبار أن خاصية العدد لا يفرضه سلوك التجمع بقدر ما يفرضه فعل الإيمان بجدوى الاحتشاد/ التظاهر. وهنا يصبح هذا التكتل البشري «الهادف» ممتلكًا خصائص جديدة مختلفة جدًا عن خصائص كل فرد يشكله إذ تنطمس الشخصية الواعية للفرد وتصبح عواطف وأفكار الوحدات المصغرة المشكلة للجمهور موجهة في نفس الاتجاه، فتتشكل روح جماعية عابرة ومؤقتة لكنها تتمتع بخصائص محددة، لتصبح والحالة هذه ما يمكن تسميته بالجمهور النفسي له كينونته ووحدته العقلية المشتركة. بهذا السياق يمكن النظر إلى جمهور التظاهر فأيًّا كانت هويتهم أو مهنتهم أو جنسهم وأيًّا كانت المصادفة التي جمعتهم، فإنهم ينصهرون في بوتقة «التركيب» أو بصورة أدق في الفاعلية التي تحرك الجماعة ككل مما يجعلها وحدة خاصة بها. تنشئ من يمثلها ومن يفسر اتجاهاتها ومن ينطق باسمها،

وعندما يتمكن هؤلاء من مس وإثارة عواطف أفراد الجماعة بشكل عميق في التأثير الدعائي، لا يغدو المضمون المستوعب مادة للتفكير وحسب، وإنما مصدرًا للهيجان والاضطراب وقوة دافعة نحو رغبات وطموحات جديدة. ومثل هذه الإثارة الانفعالية جماهيريًا غالبًا ما تشق الطريق نحو واقع الجماعة المرتقب.

إن التقاء اختيارات الناس هو ما يجعل من «ظاهرة التظاهر» قوة ذات تأثير، خاصة في الظروف المثيرة التي ترتفع فيها قابلية التأثر بالنداءات الحماسية التي تعمل على تهييج جماهير متنوعة ومتعددة وتحركها إلى أبعد حدٍّ.

ثانيًا ـ التظاهر والشعارات: إعلام مباشر.

وبالنظر إلى التظاهر على أنه حشد بشري يتلاقى ويتكثف، إلا أن ما يتمم هذا الحشد ويختصر توجهاته في آنٍ هو الشعارات التي ترفع سواء كانت مكتوبة أو منطوقة أو مرمزة، كثيرة هي التعابير التي يستخدمها المتظاهرون في تحركهم، لأن التظاهر وفي أحد وجوهه هو «تجسّد الذات الجماعية المقهورة» وانعتاقها نحو منافذ تنفيس، ليتوج هذا التنفيس بوسائل متنوعة أبرزها الشعارات الظاهرة في «اليافطات» التي ترفع، والصرخات التي تطلق وهنا ثمة دلالة وتنوع في طبيعة ما يرفع. أذكر أبرزها:

1 ـ الشعار المخطوط: أي ما يعرف باليافطة القماشية أو قصاصات الكرتون، التي تتضمن كتابات واضحة ببنط عريض، بليغة من حيث استخدام العبارات المناسبة، ومختصرة بكلماتها كي يسهل على المراقب قراءاتها في لحظات قصيرة أو يتسنى لعدسة الكاميرا المتجولة التقاط مضمون اللافتة بسرعة. ويذكر في اليافطة من حيث المضمون: شعار التحرك، المطالب التي يهدف إليها المتظاهرون، أو كلمات تنم عن حالة القهر والغبن الذي يشعر به بعض المتظاهرين إزاء حالة اللامبالاة و التعنت الذي يمارس ضدهم، وتبدو صورة التحرك ـ من خلال كلمات اليافطات ـ كأنه حالة استنكار ضد مواقف يتظاهر الحشد من أجلها، فمن جهة نجد توافق على سياسة ما فترفع كتابات التأييد التي غالبًا ما يؤشر إليها بنعم كبيرة، ومن جهة أخرى نجد تعارض مع

قرارات سياسية تعتبرها شريحة من الناس مجحفة في حقوقها ووجودها (و تظهر مع النقابات غالبًا، أو قوى حزبية محلية تجاه قرارات سياسة دولية وتتخذ صفة الخطاب المكتوب هنا بكلمة لا الناهية والرافضة). وفي أحيانًا نادرة يحدث في بعض الأوساط المتعددة الأهواء تجاذب بين ال: نعم واللا في فريقين متظاهرين، ليحدث ما يسمى بالتظاهر والتظاهر المضاد، وذلك انطلاقًا من مبدأ الدمقرطة، لا ينسجم كل الأفرقاء على غاية «النعم» بل يقابله آخر برد فعل تظاهري معاكس تجاه نعمه بلا .. وتصبح الشعارات المرفوعة تلاوين خطية تعكس في مضمونها وإيحاءاتها وجهات نظر متنوعة الأطياف ولتعبر عن نسيج اجتماعي تعددي. من أمثلة التظاهرات الأخيرة في بيروت:

- لا للوصاية ...نعم للديموطراقية.
- لا للتدخل الأجنبي .. نعم للاستقلال و للعروبة والحرية.
- لا للمشاريع التقسيمية ...نعم للوحدة الوطنية.
- إن الصلاة في ظل الاحتلال خطيئة إن لم تكن لإزالته.

*** WHOEVER DIGDS A PIT, MAY FALL IN IT *.**

*** UNITED we stand, DIVIDED we fall.**

*** 1.6 million ?! Yeah right I'm alive.**

أما من حيث الشكل، فإن الذي يحدد لون اليافطات وحجمها هو مناسبة الحدث، فاللون المتعارف عليه هو الأبيض لكن في مواقف الأسى ترفع اليافطات السوداء تعبيرًا عن انفعالات الحزن والقهر التي ألمت بالناس، حتى يبدو الموقف وكأنه حالة من الرثاء على فقد زعيم، أو نتيجة انكسار ونكسة في حرب، أو عند استحضار مناسبة حزن تاريخي..

تأتي الشعارات المخطوطة والكتابة على العرائض في إطار آخر، كوسيط مادي ينقل الأفكار والأحاسيس، وكل مجال وسائطي يتبع واقعية ما، وهنا واقعية الحركات العفوية الغاضبة، المحرومة من التطلع الشمولي، المستنكرة لواقع ضاغط، لأن الثورات الشعبية ـ تاريخيًا ـ ومهما كانت لغتها هي الالتقاء

بين فكر وسلطة، هي «رأي يجد له حرابًا» على حد تعبير (ريجيس دوبريه)، حتى لو اتخذت في شكلها السياسي هجومًا على السلطة / الدولة من قبل أقلية فاعلة، فهي أكثر من انقلاب عسكري، إنها تحوّل الكلمة إلى فعل، تحوّل جماعة فكرية إلى جماعة قائدة، تحول الأقلام إلى بنادق، الشعور إلى شعارات و الألم إلى صرخات.

2 ـ الشعار المنطوق: ويقصد به ما يردده المتظاهرون خلال مسيرتهم من نقطة انطلاقهم وتجمعهم إلى مكان وصولهم، فهم لا يسيرون بصمت وكأنهم في جنازة، بل على النقيض من ذلك كثيرًا ما تتفتق عبقرية بعض المشاركين بإنتاج «صرخات» صادحة من وحي المناسبة، وغالبًا ما يأتي إطلاق هذه الصرخات هوبرة متسلسلة بإيقاعات مسجّعة كي يسهل حفظها وترديدها من الآخرين، ولغاية ذلك يعمد بعضهم إلى تحريف أغنيات متداولة من الوسط الشعبي (في النموذج اللبناني يحور المتظاهرون: الهوارة، الحوربة ودلعونا وزجليات) كذلك هناك الصرخات القصيرة التي تطلق بين الحين والآخر لشد عزيمة الشباب كي لا تبقى المسيرة صامتة، أو تطلق كمحطة فصل بين ترديد مسجع وآخر سينطلق بعد حين ريثما يستحضر «القوال» شيئًا آخر من جعبته. أو تأتي في سياق التعريف بهوية المجموعة المتظاهرة كما حدث في تظاهرة يوم 14 آذار عندما تضافرت مجموعات من كل حدب وصوب، ولا تعرف هوية المجموعة القادمة في خضم هذا الخليط إلا عندما يقول رائدها شيئًا ما عن زعيمه، أو يردد صرخات حول منطقته، منها ما ردده شباب الحي البيروتي في الطريق الجديدة مثلًا: الله/حريري... طريق جديدي، كذلك كانت مجموعة أخرى تصدح: يا لحود طل شوف/شو بيعمل زعيم الشوف.. (وهذا يوحي بأن القادمين هم من مناطق الشوف الدرزي، يحيّون زعيمهم..)، أو تلك التي تردد: يا الله يا الله ... احفظ لنا نصر الله، (وفي ذلك إشارة إلى أن المجموعة من مؤيدو حزب الله وأمينه العام السيد حسن نصر الله). كذلك تعرف مؤيدو «الحكيم» (سمير جعجع) والقواتيون من ترديدهم لعبارات منها: براءة، براءة ... سمير جعجع براءة، وبالمثل يعرف جماعة التيار الوطني الحر من ترديد أنصار زعيمه: بدنا ناكل بدنا نعيش ... بدنا يرجع أبو الميش

(ميشال عون). ونشير إلى أن القوّال غالبًا ما يختاره البعض لأنه جهوري الصوت أو حماسي التحرك، أو بارع في إطلاق القفلات الغنائية برفقة آخر على الطبلة أو الطبل أو الصنج أو المزمار[1].

3 ـ الشعار المرموز: وكثيرًا ما تكون التظاهرة مسرحًا لمواهب الإبداع ليس فقط في الغناء المحرّف والصرخات الحماسية، وإنما أيضًا مع الرسوم والصور ووسائل أخرى مرمزة لما يتظاهر الحشد من أجله وفيما يلي بعض الأمثلة:

- رفع أحدهم مثلًا رغيف خبز: وهذا بدوره دلالة على سياسة التقشف التي تعتمدها الحكومات أو عند الرفض لضريبة ما، أو عند رفع الأسعار لأنها في النهاية سوف تؤدي إلى الفقر وتمس لقمة عيش المواطن.

- أو يرفع أحدهم الحذاء: وخاصة العسكري، وذلك رفضًا لمبدأ العسكرة أو العنف أو الحرب من قبل جهات أمنية تهدد أمن الناس في حياتهم اليومية.

- أو يرفع أحدهم الجنزير الحديدي: وكأن بذلك إشارة إلى السجن، أو الأسر أو سياسة القمع والجور الذي يعتمد من سلطات ما تجاه الناس العُزّل.

- الحبل المعقود وفيه إشارة إلى المشنقة وتباعًا «الإعدام» يرفعه بعضهم استنكارًا لقانون إعدام صدر بحق أحدهم، مما يجعل مناهضي العنف

---

(1) وثمة صورة طريفة تظهر خلال التظاهر مع الشعار المنطوق، إذ وجدت كيف أنه في بعض الأحيان يتعطل الانسجام بين مجموعة وأخرى، تجد مجموعة المقدمة تردد شيئًا ما، فيتناهى إلى سمع المجموعات الوسطية ـ ونتيجة الضجة أو البعد ـ بعضًا مما يردده الأولون لينطلق هؤلاء بترديد شيء مقارب من حيث الواقع، في حين تغني مجموعات المؤخرة على ليلاها بشيء آخر....

ذكرني ذلك بطرفة رواها لي أحد الأصدقاء، أنه وخلال تقرير وعد بلفور المشؤوم خرج الناس في تظاهرات استنكار، وحدث في إحداها أن المتقدمون في التظاهرة كانوا يصرخون: فليسقط وعد بلفور، ليردد وراءه المتأخرون في التظاهرة: فليسقط واحد من فوق.

وجمعيات رافضي الإعدام التحرك ميدانيًا بشعارات رمزية.

- الدمى والرسم الكاريكاتوري: وفيها دلالات على السخرية والكره والاستهزاء تجاه مسؤول ما، عندما يجسده فئة متظاهرة على هيئة دمية أو رسم كاريكاتوري استخفافًا به وبمواقفه أو تصريحاته.

في مختلف أشكال الشعار المرمز ثمة معانٍ ودلالات، فإذا كانت الصورة تختصر ألف كلمة، فإن الرمز الظاهر في الحشود الشعبية وعلى اختلاف أشكاله يختصر المواقف كلها، لأنه واجهة لغوية إضافية قد تغني عن معانٍ كثيرة لايمكن للكلمات وحدها أن تنقلها، الرمز ـ في مدلوله ـ بديل لشيء نستجيب له بطريقة غير مباشرة وهذه الاستجابة عملية تتضمن فترة يتخللها التفكير والتأمل والتذكر، لتصبح سلوكًا معرفيًا يستعمل من جانب الإنسان لينبه به نفسه تجاه عالمه الخاص أو محيطه العام. بواسطة الرموز يستطيع الإنسان ـ من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي ـ استثارة وتنبيه الآخرين باعتبارها عملية اجتماعية يشترك فيها صاحب الرمز والمرموز إليه، ويظهر ذلك فيما نلاحظه عند الإنسان من ميل نحو الانفعال أو الغضب معبرًا عن ذلك في شكل أصوات أو رسوم أو تصرفات أو إيحاءات تبدو للآخرين بمثابة رسالة.

ومن الأمثلة على الشعار المرموز ما ظهر منه خلال تظاهرات بيروت الحاشدة، ما رفعه أحدهم من قرآن كريم وأيقونة تمثل السيد المسيح وقبعة بيضاء يرتديها مشايخ الطائفة الدرزية وفي ذلك إشارة إلى الوحدة الوطنية القائمة والمرجوة على الدوام بين أبناء الشعب اللبناني بكافة طوائفه الإسلامية والمسيحية والدرزية.

إلى جانب الشعارات المذكورة هناك الصور التي يوحي فعل رفعها دلالات عدة منها:

- التبين الدلالي اللغوي حيث تتلازم الصورة مع حاشية شرح ثابت كوظيفة إرساء ونقل للمعنى (ويظهر هذا جليًا مع صور زعماء الاغتيال السياسي

والتنويهات المرافقة: القائد الرمز/ الحلم / على عهدك مستمرون / باقٍ في قلوبنا. .الخ).

- العامل الأيقوني المباشر عندما تبرز دلالة الصورة من خلال ردها إلى عناصرها الموضوعية الخالصة بحذف المعاني المتراكمة (صورة الشهيد أو الراحل أو الزعيم دون أية كتابة . .).

- العامل الأيقوني المركب الذي يظهر عندما يكون للصورة دلالاتها الثقافية والمجتمعية، لا يتبيَّنها المرء على وجه جلي كونها تتضمن مزيدًا من الإيحاءات (الصور المركبة بطريقة إعلانية وتعليقات ساخرة عليها . .).

والإعلام عبر اليافطات والشعارات يبرره منظرو الدعاية بعوامل نفسية واجتماعية، وذلك عند حديثهم عن الخلفية النفسية الكامنة في وعي الجماهير، ثمة حالات شعبية يسيطر عليها شعور عام من الفرح أو الحزن، فتأتي الشعارات عندئذ لتعبر عن هذا المزاج النفسي، وكما أشرنا آنفًا عن الحشود الشعبية المتظاهرة كيف تخضع لقانون الوحدة العقلية حتى تصبح جمهورًا نفسيًا منظمًا، كذلك تأتي الشعارات خلال التظاهر كبثٍّ إعلامي مباشر بين المشارك / المتظاهر والآخرين يعمل على تصريف الانفعالات المكبوتة إعلاميًا ونفسيًا وفكريًا، ويعزز لدى صاحبه ليس فقط المشاركة الجسدية وإنما الحسية والذهنية.

وهذا ما يؤكده سوسيولوجيُّو الاتصال بأن هناك خط اتصال بين الحالة الاتصالية والموقف النفسي للناس والشراكة بأهمية الحدث الإعلامي ومدى ما يتركه ذلك من انطباع واهتمام، إنها معادلة متعددة الأطراف ذلك أن مضمون شعار ما مثلًا يضعنا دائمًا أمام تحليلات تفصيلية لذلك الشعار، فإذا كان الشعار مطابقًا لاستعداداتنا يكون تأثيره أكبر، كذلك إذا كان متناسبًا مع الوقائع الموجودة يكون التأثير واضحًا أيضًا، بينما في حالات أخرى قد يتكرر الخبر خمس مرات بشكل متوسط، وتتلى الشعارات مرارًا دون أن يثير ذلك رد فعل جماهيري، لماذا؟ لأنه لا يتلاءم واهتمامات الناس ولا يتناسب والوقائع الطارئة. من هنا يحرص قادة الرأي الداعين إلى التظاهرات على توضيح الغاية منها أو تحديد عناوينها المطروحة (شعار التظاهر) لأن الناس لم تعد تنخرط

في التظاهرات بآلية القطيع بقدر ما أخذت تعي الجدوى من هذا التحرك الشارعي، وهذا يعني أن رغبة الناس في التظاهر بات يحددها ـ أولًا ـ مدى اهتمامها واقتناعها بالشعارات المرفوعة، وتلبية لرغبة الداعين إليها ثانيًا، ذلك أن حشد التظاهر يحدث في أحيان كثيرة بفعل بعض المحرضات المثارة من الآخرين أو نتيجة للعبة وسائل الإعلام الذكية في تضخيم الأمر.

ولكن ـ على الرغم من ذلك ـ يتوقف رد فعل المشاركة بالحشود عند رغبة المرء واقتناعه، فقد لاحظتُ (المؤلف) مثلًا ـ وعبر آراء مستطلعة ـ كيف أن كثيرًا من الناس لا يشاركون في التظاهرات رغم دعوة منظموها المتكررة لأنهم ليسوا مقتنعين مسبقًا بجدوى هذه الشعارات، بينما في حالات أخرى تأتي المشاركة ـ عفويًا ـ دون دعوة أحد أو بناء لطلب، لأنهم أدركوا شعوريًا مغزى الحدث وأقنعوا أنفسهم بضرورة المشاركة، وهذا ما لمسته خلال لقائي لعدد من الناس أثناء التظاهر كيف أنهم كانوا يبادروني بالقول: «لأول مرة في حياتي أشارك في تظاهرة، لم يكن ذلك بناء على دعوة من أحد إنما تلبية لنداء داخلي وإحساس بالمشاركة الوجدانية مع الآخرين» وقد عبّرت إحداهن بالقول: «لم يكن التظاهر يعني لي شيئًا من قبل ولكن بعد مشاركتي اليوم أحسست بأنني شخص آخر يهتم بالقضايا السياسية والوطنية، وإن ثمة فرح غامض تشعر به في داخلك»؛ وأخرى تعلق: «جاء نزولي إلى الشارع في آخر لحظة، بعدما كنت أشاهد كثافة الحشود على التلفزيون، لأتركه وأنطلق نحو الشارع كي أسجل موقفًا تجاه نفسي ـ أولًا ـ بأنني شخص ينبغي أن يكون له حس ما، وتجاه الآخرين ثانيًا، الذين أرفض توجهاتهم ولا أعتبرهم ممثلين لي».

وتحقيق مثل هذه الخطوة / المشاركة ليس أمرًا سهلًا، لأن التحرر الذهني من الأفكار المسبقة، وإعادة النظر في جميع ركائز الفكر الموروث مسائل يتطلب تبدلها بعضًا من الوقت، ولكن في ظرف تاريخي سرعان ما يؤمن المرء إيمانًا راسخًا بإمكانية التغيير جذريًا دون أية مقدمات، فيكيف نفسه مع فكرة هذا الإيمان لتترجم على الأرض تحركًا مطلبيًا، وبقدر ما يعي الناس بأن هذا الظرف التاريخي مفصليًا بقدر ما تتسع دائرة المشاركة نحو شرائح شعبية واسعة تطال حتى البرجوازية منها.

ثالثًا ـ الشباب والتظاهر: إستراتيجية تغير.

هل ما زال ينظر إلى الشباب على أنهم نواة التغيير في المجتمع؟ هل هم فعلًا «ثروة وثورة» كما وصفهم أحد الأدباء اللبنانيين؟ كيف يحقق الشباب وعيهم الاجتماعي للقضايا الوطنية، بالعنف والتمرد أم بالخنوع أم بالتحركات الاحتجاجية؟ في أي اتجاه يسير شباب لبنان اليوم هل الاعتصام والتظاهر يمكن أن يؤشر إلى فعل لتغيير؟ في بلد مثل لبنان يمثل الشباب الثروة الحقيقية والعامل الأكثر أهمية في دفع التنمية، وذلك لاعتبارين أولهما ديموغرافي حيث أن المجتمع اللبناني مجتمع فتي (45% دون سن ال25) وثانيهما : مستقبلي لجهة المشاركة في القرارات. من هنا يطرح دور الشباب كطاقة بشرية من حيث هم عنصر تطور يمكن استشراف مستقبل البلاد من خلال طاقاتهم الراهنة، فلم يعد ينظر للشباب على أنهم متلقين للسياسات والأوضاع الحالية وحسب، إنما يتجاوز ذلك إلى اعتبارهم عامل تغيير ورصيد بشري واجتماعي مشارك.

ولطالما كان الشباب اللبناني جزءًا من الحياة المدنية والسياسية، فالتاريخ يبين محطات نضال عديدة قبل الاستقلال وبعده، فقد شاركوا في تحرير لبنان من الانتداب الفرنسي، كذلك قادوا الحملة الوطنية على تأسيس دولة إسرائيل في العام 1948، وتطوعوا في المقاومة ضدها ولما تزل، وكانت مشاركة الشباب ناشطة أيضًا عبر التظاهرات لتأسيس الجامعة الوطنية، وشكلوا عبر السنين الشريحة الأساسية في فرق التطوع والمجتمع المدني، كما لعبوا دورًا خلال الحرب عندما انضم القسم الأكبر منهم إلى المليشيات، أما القسم الآخر فأخذ يشارك بتظاهرات سلمية ضد الحرب ومآثرها. لأنها كانت تؤثر عليه في اتجاهاتها الاجتماعية والنفسية بشكل حاد وكان لهذا دور كبير في قطع ما يمكن اعتباره مسارات طبيعية لتطور مواقف الشباب ومنظوماتهم القيمية وخصائصهم النفسية والفكرية على مختلف المستويات.

وقد أظهرت عدة تحقيقات اجتماعية واستطلاعات رأي حول توقعات الشباب اللبناني عدم رضى هؤلاء الشباب بشكل عام عن ظروف حياته، نتيجة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم.

من هنا يجد الشباب / اللبناني نفسه، وإزاء الواقع المزري، أمام اعتماد إستراتيجية التغيير وفي هذه الإستراتيجية طرق تعبير وتحرك مختلفة منها: إستراتيجية القوة، التي تقوم على قاعدة من أساليب الضغط سواء في شكله السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو القوة المعنوية ـ حسبما أشار إلى ذلك كل من روبرت شن وكينث بيين (1985) في مؤلفهما التغيير المخطط ـ. ويمكن لهذا الضغط أن يظهر بشكل عنفي (الثورات / حركات التحرر . .) وإما بشكل لاعنفي الذي يظهر بصورة الاعتراض الهادئ غير العنيف عبر وسائل منها: مقاطعة المستهلكين لشراء منتوج ما، الامتناع عن دفع الضرائب، مظاهرات الحقوق المدنية، الرفض المعلن (كرفض الشباب في سن التجنيد من الانضمام إلى الخدمة العسكرية) والعصيان المدني. خلال هذه الإستراتيجية والتي تعرف بإستراتيجية الإكراه القوية، يمكن تحقيق الأهداف والحصول على الامتيازات أو الاتفاق على مجمل الحقوق، وفق مجموعة من الخطوات:

1 ـ محاولة حل الخصومة بواسطة التفاوض.

2 ـ استخدام الدعاية في الشرح والوصف والتأييد(وكلاء التغيير السياسي المعارض وظهورهم المكثف في الإعلام والشارع . .).

4 ـ استخدام صور مختلفة من المقاطعة وعدم التفاوض مع السلطة.

5 ـ تصعيد التحرك بخطوات شعبية / سلمية.

وهكذا نجد أن التغيير عبر التحركات الشعبية المتظاهرة لا يدوي صداها إلا بعد مرورها في عمليات عدة، فدعاة التغيير والتظاهر من الشباب يعوا بأن لديهم حرمان نسبي أو ثمة قهر وغبن قد ألحق بهم حتى أوصلهم إلى حالة الإحباط، يأتي بعدها مرحلة تعاظم الغضب لينفجر ذلك جماهيريًا بتحرك عنفي أو سلمي. وبناء على معظم الكتابات التي تناولت التغيير الاجتماعي المخطط اعتبرت أن التحرك اللاعنفي أمضى وأقوى من العنف الحقيقي. ذلك أن الشباب يعمدون خلاله إلى إيجاد العوامل المناسبة له والتوعية بشأنها، ثم تهيئة الظروف الملائمة للتحرك، ثم التشديد على الاستمرارية في هذا التحرك (سر قيام خيم الاعتصام) وصولًا إلى تحقيق الأهداف المنتظرة والمرغوبة.

يرى عالم الاجتماع الفرنسي ألان تورين: «أن زمن الأحزاب السياسية والتقليدية والحركات الأيديولوجية قد انتهى، وأن «تجمعات» سياسية وثقافية قد حلت محلها مثل التجمعات الشعبية التي تمكنت في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات من إسقاط الأنظمة الشيوعية في دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفياتي دون تنظيم مسبق ودون اللجوء إلى العنف، وميزة هذه الحركات ثلاث صفات: غياب الأيديولوجية الموحدة، غياب القيادة المركزية وتغلب التعددية التي جمعت فئات الشعب المختلفة سياسيًا واجتماعيًا، وضمت الطلاب والعمال والنساء وجماعات كبيرة» .. فهل يمكن القول بأن لبنان دخل مع شبابه مرحلة الحركات الاجتماعية الجديدة الهادفة للتغيير؟.

الإجابة على هذا السؤال بحاجة إلى بحث أعم وأشمل، بل مرهون بانتظارات الشباب والنتائج التي يمكن أن تحصل، سيما وأنهم على تباين واضح في المنطلقات والتوجهات إزاء قضاياهم المصيرية، ثمة «موزاييك» من الآراء المستطلعة هنا وهناك، عند كل موقف أو مسألة أو تحرك.

* من الآراء المستطلعة

مقاربة لموضوع البحث حول ظاهرة التظاهر ودواعي المشاركة استطلعتُ (الباحث) آراء بعض الشباب والشابات ممن شاركوا وأولئك الذين لم يشاركوا في تظاهرات بيروت وأخصها التي حدثت في 8/ آذار / 2005 بدعوة من لقاء الأحزاب اللبنانية وعرفت بتظاهرة المعارضين للسلطة اللبنانية، وتلك التي حدثت في 14/ آذار/ 2005 بمناسبة مرور شهر على اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري، والتي صنفت على أنها تظاهرة الموالاة .. فماذا تعني المشاركة في التظاهر بالنسبة للشباب اللبناني؟ ولغاية الإجابة بشكل موضوعي عمدنا إلى استطلاع رأي عينة كبيرة من أبناء المجتمع اللبناني في مختلف مناطقه، طال هذا الاستطلاع مجموعات شبابية موزعة بين عكار / طرابلس/ المتن الشمالي/ الشوف / حاصبيا/ النبطية/ الضاحية الجنوبية / زحلة / الهرمل/ بيروت / البقاع الغربي، وفق البيانات التالية:

1 ـ توزع المستجوبين بحسب العمر:

فئة الأعمار	النسبة المئوية%
20 سنة وما دون	%13
21 ـ 30	%52
31 ـ 40	%23
41 ـ 50	%6
51 ـ 60	%3
61 وما فوق	%2

يلاحظ أن المشاركة طالت كافة الأعمار إلا أن النسبة الأعلى كانت لفئة أعمار الشباب (21 ـ 30) ممّا يؤشر إلى طبيعية مشاركة الشباب الدائمة للحركات الاجتماعية.

2 ـ توزع المستجوبين بحسب الجنس:

الجنس	%
ذكور	%47
إناث	%53

هناك تقارب بين كلا الجنسين في المشاركة، إلا أنها مرجّحة عند الإناث مما يعطي انطباعًا عن مشاركة فاعلة من الفتيات بالتظاهرات ولوعي سياسي من قبلهن إزاء ما يدور حولهن.

3 ـ توزع المستجوبين بحسب المناطق:

المنطقة	%
بيروت	%23
جبل لبنان	%22
الجنوب	%20
الشمال	%19
البقاع	%16

تبين أن المشاركة كانت تطال أبناء كافة المناطق اللبنانية على حد سواء، وبدت بيروت كأعلى نسبة باعتبار أن التظاهرات كانت تتم غالبًا في وسط العاصمة بشكل مختلف عن أبناء المناطق النائية الذين يجدون أحيانًا مشقّة في الانتقال.

4 ـ توزع المستجوبين بحسب نسبة المشاركة:

الرغبة في المشاركة بشكل عام	%
نعم	61
لا	%37
لا رأي	%2

وعند توزع نسبة المشاركة أظهرت النتائج بأن حوالي ثلثي العينة يرغبون دومًا المشاركة، في حين وجد من نسبتهم 37% أنه لا تعني لهم ولا يرغبون بالمشاركة.

5 ـ توزع المستجوبين بحسب رأيهم في قدرة التظاهر على التغيير:

المظاهرة والتغيير	%
تغيير نحو الأفضل	%77
تغيير نحو الأسوأ	% 5
لا تغيير	%18
لا جواب	

تبين أن 77% من المستجوبين يرون بأهمية التظاهر في التغيير نحو واقع آخر قد يكون أفضل مما كان.

6 ـ توزع المستجوبين بحسب نظرتهم إلى التظاهر؟

التظاهر هو	%
تعبير ديموقراطي	%79
فوضى وشغب	%3
حشود لا تعرف ماذا تريد وإلى أين تذهب	%17
غير ذلك	%1

وعن تقييم المستجوبين لحركة التظاهر فإن الغالبية تراها تغيير ديموقراطي (%79).

7 ـ توزع المستجوبين بحسب اعتبارهم التظاهر «حل» القضايا المصيرية.

التظاهرة حل	%
نعم	%87
لا	%27
لا رأي	%4
إحدى الحلول	%2

ولكن يمكن اعتبار التظاهرة حلًا يمكن اللجوء إليه عند كل قضية متأزمة، أو مشكلة اجتماعية أو سياسية طارئة، حول ذلك عبر من نسبتهم 87% إيجابًا مقابل 27% لا يرون في التظاهر سنين من هذا القبيل.

8 ـ توزع المستجوبين بحسب التظاهرات المشارك بها:

اتجاه المتظاهر	%
موالاة	%32
معارضة	%41
الاثنين معًا	%5
لم يشارك	%22

إزاء أي حدث لبناني ـ سواء كان سياسيًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا ـ سرعان ما ينقسم الناس «فرقاء» وبالمثل كان الانقسام عن المشاركة أو الآراء حول ظاهرة التظاهر، فقد كان لدى كل فريق حجته في التظاهر، إما إثباتًا لوجود أو تسجيلًا لموقف أو إحساسًا تجاه شعار أو بناء لدعوة زعيم أو تلبية لرغبة ذاتية، أو نتيجة لإكراه أو ما شابه، ولعل عينة الآراء المستطلعة تعكس مونوغرافيا لبنانية في الاختلاف والتنوع ما بين موالٍ (32%) معارض (41%) وموالٍ ومعارضٍ في آنٍ (5%) ولا مبالٍ (22%)، ونورد أبرزها كمثال: يقول أحد المشاركين في تظاهرة 8 آذار (المعارضة)، «جاءت مشاركتي ردًا على احتكار البعض الآخر للمواقف.... واعتبارنا غير معنيين بالتغييرات الحاصلة، بل لنبين أنا ومن معي بأننا نرفض التهميش»، كذلك تذكر سيدة في الخامسة والثلاثين من العمر، تعمل في مجال التدريس، بأن مشاركتها في التظاهرات الموالية إنما جاء لتسجيل موقف عبر حضورها على الأرض لأنها تجد في بعضها «ما يقنعني بأهدافها».

أما عن المشاركة في تظاهرة 14 آذار (الموالية)، تقول إحداهن من بيروت: «جاءت مشاركتي لأكثر من سبب منها لأرى هل كل الشعارات التي تطرح يتمثلها الناس حقيقة على الأرض ويريدونها فعلًا، وثانيها لأنني سنية (من الطائفة السنية) كي أبيّن أنه في استطاعة أبناء هذه الطائفة - التي طالما عرفت السكون والاعتدال - التحرك المنفعل، وثالثها كي أحس بأنني مشاركة في مطلب ما». وضمن هذا الموقف أيضًا تقول أخرى من الطائفة المسيحية: «إنني أنتمي إلى فئة من الناس شعرت لوقت طويل بأنها مقموعة ولم يكن لها أن تعبر أو حتى تحكي، وقد جاءت دعوة التظاهر فسحة لنا كي ننطلق ونرفض ذلك القمع».

وقد وجدت أن هناك من شارك في كلا التظاهرتين، ولدى السؤال عن السبب يبرر مشارك من البقاع ذلك بقوله: «لقد شاركت في الأولى لأنه لم يكن لدي خيار، بحكم أني أعمل لدى أحد الموالين وطلب منا المشاركة، لذلك أن تشارك أفضل من ألا تشارك، في تظاهرة الثلاثاء (الموالية) وجدت أناس كثيرون مثلي مسيرون وليسوا مخيرون، في الثانية تشعر بأن شيئًا يدفعك للمشاركة دون تردد» وتشير مشاركة من الجنوب بأنها تؤيد: «بعض طروحات المعارضة وبعض طروحات الموالاة، لهذا جاءت مشاركتي للاثنتين، و لكي لا أظهر بمظهر المنحازة لأحد».

ومثلما قد تجد أناسًا شاركوا في كلا التظاهرتين لأسبابهم الخاصة، فإننا وجدنا آخرون رفضوا المشاركة في كلا التظاهرتين، ومن آرائهم: «أنا أعرف التظاهر على أنه فعل التأييد، وبما أنني لا أؤيد طروحات كلا التظاهرتين، أو مقتنعًا بأي من الموقفين فضلت البقاء في المنزل مع قناعاتي الخاصة»..، وكذلك عبرت أخرى بقولها: «لم أشارك لأنني أرفض أن أكون رقمًا يعد! فالذي بدا أن كل فريق كان يسعى لحشد أكبر عدد من الناس ليبين مدى شعبيته، ولأنه كذلك رفضت أن أنساق، خاصة وأنه سيأتي وقت يحصّل فيه الكبار مغانمهم ويذهب جدوى التظاهر سدى».

كما يبدو الانقسام الحاد في الآراء والمواقف والاتجاهات المؤدلجة

التي تميز اللبنانيين. ولاحظناها في الآونة الأخيرة في أكثر من مسألة: كمسألة إقرار الزواج المدني، أو إلغاء الطائفية السياسية، أو حل الأحزاب، أو إقرار قانون انتخاب، أو فرض ضريبة القيمة المضافة، كذلك كان هو الحال إزاء دواعي التظاهر وشعاراته حيث غنى الآراء المتفاوتة والانقسام الشعبي الجلي في الشارع والحياة اليومية عند اللبنانيين ـ أي ما يسمونه اليوم بالاصطفاف ـ الذي وصل بدوره ليتمثل ميدانيًا عند المشاركة بالتظاهرات، إذ انقسم الناس ليس فئتين وحسب (مع أو ضد) وإنما انقسموا إلى أربع: موالٍ ومعارض، ومؤيد الاثنتين ورافض لكل شي. ويمكن إرجاع هذا التفاوت إلى أكثر من عامل:

- هناك العامل الاجتماعي المتمثل في «إطار المرجع» الذي يترعرع فيه الشاب ومدى تقبله واستعداده للقيم التي يقدمها أسياد ذلك الوسط، حيث من شأن هذا الاستعداد أن يربي وينمي فيه قيمًا متضادة: التبعية والاستقلال، الفردية والجماعية، الثورية والمحافظة، التقبل للآخر أو رفضه.

- وهناك العامل السياسي/ الحزبي أو «التعبئة الأيديولوجية» حيث يتم هنا وعلى حد تعبيرالسوسيولوجي فردريك معتوق «فتل الذاكرة الشعبية» وتقنية الفتل هذه يلجأ إليها عادة طرف من الأطراف عندما يختار صورة تاريخ ما (حادث عبر/ مأساة زمن مضى/ . . .) كي يستثير من خلاله مشاعر آخر، ليقوم الآخر بدوره باستحضار صورة أخرى بالمقابل وتبدأ الصراعات بين الذاكرات الشعبية، ومثل هذه الاستثارة المتبادلة بين الأطراف من شأنها أن تعزز وتدخل أي حوار في دائرة التخاصم التخاطبي ومع الفتل تنمو الأيديولوجيا كذهنية خاصة جدًا، تتسم بإطلاقية غير محدودة للعصبية والقبلية، حتى تجعل حامل الأيديولوجيا وكأنه مصاب بحمى زائدة، لايستطيع أن ينظر إلى العالم الآخر سوى نظرة مخطئة وبأنه وأنصاره هم على «صح»[1].

(1) د. فردريك معتوق، جذور الحرب الأهلية، مرجع سبق ذكره.

- وهناك العامل النفسي الذي تحركه مثيرات ومحرضات إعلامية أو خطابية مما جعل هذا الشاب ـ الذي لم يكن أصلًا يهتم ـ يتجه إلى تأييد أو رفض ما تتناوله وسيلة ذلك المحرض. ولكم دخل الإعلام ووسائله ـ لبنانيًا ـ لعبة التنازع والأدلجة حتى عمق الشرخ النفسي بين الناس، لما لا؟ أوَ ليس هو «بوق» الأفرقاء.

كان كلٌّ يفرز أيديولوجيته الخاصة، لأن كل امرئ ـ وكما يقول فرويد ـ: «ينتمي إلى عدة أرواح جماعية: روح عرقه، روح طبقته وروح طائفته» فهل الواقع الماثل في ظاهرة التباين على التظاهر يندرج تحت هذا القول؟ أم أنه دلالة على روح الديموقراطية والتعبير الحر وقبول رأي الآخر كما يدّعي البعض؟ وهل أن الأفكار النضالية ستموت وتتلاشى كزمن منتجيها وتتحول إلى «طوبى جديدة» بعد التظاهر؟.

استطلاع رأي (5)
الفتيات وأشكال التحرش

مدخل

بعدما كثر الحديث عن ظاهرة التحرش الجنسي في الآونة الأخيرة عبر وسائل الإعلام وخاصة حادثة الاعتداء التي حدثت خلال ليال عيد الفطر (2006) في وسط العاصمة المصرية، عندما تعرضت فتيات بين المارة إلى مضايقات سافرة من شباب موتورين[1].

ومع تنامي خوف الفتيات من الاعتداء عليهنّ حينما يكنَّ في طريقهن إلى العمل أو الدراسة بعد الأخبار المرعبة التي يسمعنها يوميًا عن حوادث تعدي واغتصاب.

وإزاء الشكاوى العديدة من نساء عديدات عن مضايقة الرجال لهن سواء في مكان عملهن أو خارجه. تكثر التساؤلات عن الأسباب والدوافع وسبل العلاج المفترضة لهذه الآفة الاجتماعية، ارتأيتُ مقاربة هذه الظاهرة سوسيولوجيًا من زواية:

✓ **المرأة في مكان عام**: لماذا وجود المرأة في مكان عام ذو إشكالية اجتماعية أو ثقافية أو حتى دينية؟ إلى ما يعود خوف «الأنثى» منفردةً وسط عالم من الرجال؟.

✓ **المرأة ومداها الشخصي**: ما هي الحدود المرسومة في علاقة الأنثى بالآخرين؟ هل هناك مسافات يفترضها حضورها العام والخاص؟ هل يعي

(1) «الحق على البنات»، (مقالة)، ملحق صحيفة النهار اللبنانية 19/ 11/ 2006.

الآخرين هذه الحدود ويحترمونها؟ وماذا يحصل في حالات الاختراق؟.

✓ المرأة ومعاكسات الشباب: ماذا يقولون لها؟ كيف تتصرف هي إزاء المضايقات والمعاكسات الحاصلة؟ هل صحيح أن المرأة تُسَرُّ حين تلفت نظر الآخرين ويبدون الإعجاب بها والكلام عنها؟.

1) المقاربة النظرية:

يأتي حديثنا عن ظاهرة التحرش الجنسي هامًا بطرحه لجهة الوقوف على أسبابه ودوافعه وآلية الحد من آثاره. إذ لا يكفي أن نتكلم عما يحدث كما يرد في نشرات الأخبار، بل لا بد من تشخيص الحالة والنظر في سبل المعالجة.

* المسألة الأولى:

المرأة والأماكن العامة: هاجس الانفراد

لنميّز أولًا بين الأماكن العامة والتي نقصد بها: رصيف الشارع، موقف السيارات، محطات الانتظار، مداخل المؤسسات؛ عن الأماكن الخاصة مثل: المقاهي، المطاعم،المسابح المختلطة، المكتبات العامة، مكاتب الخدمات، شركات التوظيف. الأولى هي مكان مفتوح أمام أناس غرباء دون رقيب. أما الثانية فهي عبارة عن مجالات تواصل يتيسّر فيها لكل من المرأة والرجل مساحة من الحرية دون أن يكون للطرفين أية علاقة أو حتى معرفة وثيقة، يتصرّف كلاهما على شيء من التحفظ لأنه موجود وسط جماعة.

ولكن لماذا وجود المرأة «وحيدةً» في مكان عام يبدو مثار قلق وتساؤل؟ لماذا هو مستهجن ومستغرب في أوساط دون أخرى؟ في بعض مجتمعات الشرق الأدنى والأوسط (المحافظة) تلازم المرأة بيتها ونادرًا ما تكون وحيدة في مكان عام، حتى الأسواق والمقاهي هي مجالات الرجل دون النساء بالمطلق، كما هو الحال في ماليزيا/ السعودية مثلًا حيث يحظر على المرأة الظهور في مكان عام، بينما مسموح به إلى درجة ما في بعض الأماكن التي يرتادها النساء، بينما في الأوساط الأوروبية والأمريكية تظهر المرأة بحرية تامة في الأماكن العامة والخاصة، ويعتبر أي تخصيص لأماكن دون جنس آخر هو

بمثابة نوعٍ من التمييز الجنسي المرفوض أصلًا. إن تخوّف المرأة من أن تكون وحيدة فيِ مكان ما يعود في بعض أسبابه:

- ✓ إما إلى رغبة داخلية مكبوتة في اللاوعي قوامها احترام تابوهات دينية وأخلاقية - تقليدية وتجنب معاندتها حتى لا تحدث أمور رديئة كانت بغنى عنها، لهذا تفضل أن تكون بمنأى عن كل ما من شأنه أن يزعجها من فضول الرجال بالكلمات أو النظرات أو أي تصرف فيه نوع من التحرش.
- ✓ إما إلى «حفظ سمعة» حتى لا يُفهم مقتضيات وقوفها على الطرقات على أنه شبيه بوقوف ما يطلق عليهن: «فتيات الطريق» اللواتي يقفن على الأرصفة منتظرات فرصة التقاط شباب لممارسة البغاء.
- ✓ أو إلى قلق «بديهي» من حالات اعتداء جسدي أو تحرش جنسي عنيف أو اغتصاب دون أن يكون أحد ما إلى جانبها (خاصة وأن مثل هذه الاعتداءات تحدث في أماكن عامة: حديقة/ طرق فرعية/ أروقة مؤسسات/ أنفاق للمارة. . .).

وعلى هذا يأتي - وبحسب رأي إحدى الباحثات الأمريكيات - وجود المرأة في مكان عام «فرصة سانحة» ليفجر بعض المهووسون - أو المعنّفين من قبل نساء أخريات - كبتهم أو غضبهم أو حقدهم على النساء - على واحدة منهن فيعمدون إلى دفعهن أو قهرهن أو حتى ضربهن انتقامًا أو تنفيسًا لكبت عايشوه مع أنثى. فتكون الضحية بمثابة كبش فداء[1].

* المسألة الثانية:

المرأة والمدى الشخصي: احترام المسافات

عندما نتحدث عن حالات اعتداء على أي فرد (وعلى نحو مخصوص المرأة) يعني ذلك تعدٍّ - وبمعنى ما - على «ملكية خاصة» تشوهت بموجبه خصوصية هذا الشخص وصورته النقية أوتهدد كيانه الحر، ومثلما يعمد بعضنا

(1) Schaefer, Richard: Sociology, 11th edition, new york, mcgraw - hill, 2008.

إلى تحديد ممتلكاته على مساحة معينة من الأرض لتكون بالنهاية خاصته يُمنع انتهاكها، كذلك يكون الحال في عالم تواصلنا الاجتماعي، على حد رأي العالم الأنتروبولوجي الأميركي إدوارد هول الذي يرى أن هناك مجالًا هوائيًا محددًا حول جسد كل منا، يعتبره بمثابة مدى فضائي خاص يمتد على مسافات معينة و مناطق محددة يسميها اصطلاحًا بالمسميات التالية:

1 ـ **المنطقة الحميمية**، وهي المنطقة القريبة من جسد الإنسان حتى مسافة نصف متر منه، لا يسمح الدخول إليها إلا القريبون عاطفيًا ونعني: المحبين، الوالدين، الزوجة، الأولاد، الأصدقاء، الأقرباء.

2 ـ **المنطقة الشخصية**، وهي المسافة التالية من محور جسدنا، تمتد ـ وبالقياس ـ بين نصف متر وحتى المتر ونيف، تتحد غالبًا عند لقاء الأصحاب والعلاقات الاجتماعية في المناسبات والحفلات الرسمية واللقاءات الودية.

3 ـ **المنطقة الاجتماعية**، إنها مسافة الذين لا نعرفهم جيدًا تمتد حتى مسافة الثلاث أمتار، تتحدد حين نقف إزاء أناس غرباء نقصدهم أو يقصدوننا لخدمة ما: كالسمكري أو النجار الذين يأتيان لإصلاح شيء في المنزل، أو كما هو الحال مع موظف العمل الجديد.

4 ـ **المنطقة العامة**، وهي المنطقة التي تلي المنطقة الاجتماعية تتحدد غالبًا عندما نتوجه إلى جمع ما من الناس بالكلام نقف عندها على مسافة مقبولة (ثلاث أمتار وما فوق) لنخاطبهم.

وبناء على هذه المسافات ندرك ماذا يعني التطفل، فعندما يدخل غريبًا منطقتنا الحميمية نستفز ونعتبره بمثابة تعدٍ ونتحفز للهجوم، وحين نتساهل مع غرباء في أن يتحركون داخل منطقتنا الشخصية لظرف ما (الطبيب مثلًا) نبقى على حذر من أن يدخل منطقتنا الحميمية، لهذا ـ وفي حال تطفل أحدهم على منطقتنا الحميمية أو حكم ظرف الواقع بأن نكون قريبين منه (داخل مصعد أو جنب إلى جنب على مقاعد الباص) ـ فإن ثمة تغييرات فسيولوجية تجري في أجسادنا، يبدأ القلب يضخ بكيفية أسرع، يتدفق الأدرينالين في مجرى الدم ثم

يرسل إشارات إلى الدماغ والعضلات تهيئ جسدنا لصراع محتمل أو لحدوث حالة هروب عند الاعتداء العنيف. وهذا ما يشير إليه الباحث السيكولوجي غسان يعقوب بقوله: «إن المتعضي (الكائن الحيوي) من الوجهة البيولوجية يقوم عادة باستجابتين إزاء الخطر، الهرب أو الانسحاب، والعراك / الهجوم وعندما لا يتوصل الفرد إلى درء الخطر أو تجنبه يصاب بالقلق الذي يعني عدم القدرة على التحرك والسيطرة على الوضعية»[1]. من هنا نستطيع أن نعلل سر احمرار الوجه والإرباك الذي يُلاحظ عند الفتيات في الأماكن المغلقة والمكتظة ثم بقائهن مستعدات للعمل بمقتضى الاستجابة.

* المسألة الثالثة

المرأة ومعاكسات الشباب: نزعة التقارب

تتميز المجتمعات الحديثة في المقام الأول بالتعامل غير المباشر الذي يفتقر بداية إلى الحضور الإنساني المتبادل، وهذا ما يدفع البعض إلى التصرف بوحي النزعة إلى التقارب، أي الرغبة و الميل إلى لقاء الناس بصورة مباشرة قدر الإمكان، الذي يبدأ عبر أحاديث عابرة ثم ـ وبعد حين ـ يتطرق الطرفان إلى بعض الخصوصيات لينتهي الأمر إلى تعارف ومواعدة على الالتقاء ثانية بهدف تمتين هذا التعارف في علاقة اجتماعية / شخصية دائمة. هذا في الإطار العام إنما في عالم الجنوسة تأخذ مجالات التواصل حذرًا أكبر، خاصة عند اقتحام الفضاءات التي تخص النساء من دون أن تكون بين الطرفين أيّة علاقة أو معرفة مسبقة، إذ في الوقت الذي يلمس فيه رجل يد امرأة ما تسير بجانبه ليدلها على الطريق أو ليساعدها على اجتياز عائق معين أو يلمس ظهرها لتدخل بابًا قبله، ويعتبر المجتمع هذا التصرف دليلًا على التهذيب والاحترام، نجد أن التقليد الاجتماعي يتخذ اتجاهًا معاكسًا عندما تقتحم المرأة الفضاء الشخصي للرجل حيث يعتبرها حينئذ محاولة للاستمالة

(1) غسان يعقوب، سيكولوجيا المراهقة، دار النهار للنشر، بيروت.

والاجتذاب الجنسي، إزاء هذه المفاهيم بدأت محاولات عديدة في كثير من المجتمعات لوضع قوانين ومقاييس سلوك للحيلولة دون التحرش الجنسي والحفاظ على الفضاء الشخصي لكل من النساء والرجال على السواء . .

ورغم أن بعض القوانين الجزائية لم تنص صراحة على عقوبات واضحة ومحددة لكل حالة تحرش، باعتبار أن هذا المفهوم هو بحد ذاته مختلف الأبعاد، حيث هناك:

- **تحرش غير مباشر**: عندما يعمد رب عمل مثلًا إلى ابتزاز موظفة للقيام بما يرغب لقاء حوافز وتقديمات، وإلا منعها من المكافآت في حال رفضها.
- **تحرش مباشر**، ويظهر عندما يعمد أحدهم (زميل) بإغواء إحداهن أو التعرض لها بكلمة/ بحركة/ بتصرف/ بإيحاء جنسي بهدف الانجذاب.
- **تحرش فظ**: ويظهر من شباب الشوارع عبر الكلمات البذيئة والمعاكسة والملاحقة.
- **تحرش مهذب**: ويظهر في حالات المغازلة وإبداء الإعجاب وكلمات الإطراء وعبارات التملق والمواعدة.

ويُذكر في هذا السياق بأن المعاكسة تختلف عن التحرش من حيث المعنى الدلالي والفعلي للحدث، فالمعاكسة هي فضول الناس وخاصة الشباب على خصوصية البنات بالنظر أو الكلام أو الإيحاء أو الرسائل (إعطاء رقم عبر ورقة في مقهى/ أو التصفير/ أو من خلال الهاتف المحمول عبر ما يعرف بالبلوتوث. . حيث يستطيع أحدهم إرسال رسائل قصيرة أو صور أو أرقام هاتف إلى فتيات بقربه في الأماكن التي يتواجدون فيها). بينما التحرش هو مفهوم مختلف إذ قد يكون فعلًا مباشرًا باللمس أو الضرب أو الاعتداء أو المطاردة كما أفادت إحداهن كيف أنه يزداد خوفها ليس فقط من المعاكسة بالكلام عن بعد ـ وعندها الأمر هيّن ـ وإنما عندما يلاحقنها ويطاردنها، كيف تبدأ بالجري والخوف ينتابها.

إزاء هذه التعريفات المتعددة ارتأيتُ اعتماد تعبير التحرش كونه الأكثر تفهمًا ودلالة وانتشارًا من غيره، ذلك لأنني وجدت بأن التعابير الأخرى مثل:

معاكسة/ مغازلة/ تلطيش / تزنيخ/ مضايقات .. تختلف بين بلد وآخر باختلاف اللهجات العامية وحتى لا يساء الفهم وكي لا يقع المستجوبات في لبس ما أشرنا في عنوان البحث «الفتيات وأشكال التحرش»؟ ما هي آراء الإناث فيه، كيف يقيّمنه؟ ماذا كان نوع المضايقة / المعاكسة؟ وكيف يتصرفن إزاءه؟ وهل من المفترض عقوبة لمن يتحرش وأي نوع من العقوبة يعتبر الرادع بنظرهن؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت محور استطلاعنا لرأي عينة من فتيات المجتمع العربي (لبنان/ الكويت/ المغرب/ ..) خلال بداية العام 2007 بهدف معرفة أبعاد هذه الظاهرة من خلال معطياتها الميدانية ومقاربتها من أصحاب الشأن.

2) المقاربة الميدانية:

هل يقف أمر المعاكسة عند عمر معين؟ هل يطال أعمار دون أخرى؟ ما هي الأعمار الأكثر معاكسة؟ لوحظ من استطلاعاتنا أن الفتيات على اختلاف أعمارهن هن عرضة للمعاكسة، فقد تبين ولدى سؤال العينة: هل تعرضت يومًا أو تتعرضين لمضايقة (معاكسة) من الشباب؟ بأن جميعهن قد أجبن بنعم بما نسبته (100%)، ولعل الجدول الوارد يشير إلى مدى انتشار هذه الظاهرة في أوساطنا الاجتماعية.

جدول رقم (1) توزع المستجوبات بحسب العمر.

الفئة العمرية	%
أقل من 18 سنة	5
19 ـ 22	40
23 ـ 26	25
26 ـ .30	12.5
أكثر من 30 سنة	17,5

يلاحظ من المعطيات أن الفئة الأكثر تعرضًا هي الفئة العمرية التي تقع بين 19و22 سنة، على اعتبار أنه في هذه المرحلة تبدأ الفتيات ـ وحسب

دراسات علم النفس ـ تولي اهتمامًا قويًا للاعتناء في صورة الجسد تأنقًا وملبسًا وزينة وهي مرحلة من التطور النفسي الجنسي حين تكون الذات موضع اهتمام قد يصل بالبعض إلى حد الهيام بها (narcissism). لهذا السبب نجد الشباب والفتيات يلجأون كثيرًا إلى المرآة لمراقبة جسدهم وتقاطيعه المختلفة والاهتمام بهندامهم وبشراء مستحضرات التجميل وأدوات الزينة والحلي، لأنهم لا يستطيعون أن يتقبلوا الواقع بصورة كاملة إلا بقدر ما يتعرفوا إلى أنفسهم وجسدهم لهذا يكون «حب الظهور» الذي يساورهم حول حقيقة جسدهم مسألة مهمة في هذا الطور من الحياة.

ومع نزعة الظهور المتأنق من الفتاة يُستفزّ الشباب الذين في مثل عمرهن عبر إطالة النظرات نحوهن وإرسال الإشارات الغامزة والتفوه بكلمات الغزل التي تشيد بجمالهن، خاصة وأن شباب هذه المرحلة هو أيضًا ممن تبرز لديه نزعة «التباهي» بقدراته البدنية فيأخذ بتعظيم ذاته عبر لفت الآخريات إليه بالكلام «أي.. وا .. نحن هون.. يقبرني جمالك.. فينا نتعرّف» (من مقتطفات الشباب في التلطيش والمعاكسة) وفق ما عبرت عنه صحافية لبنانية (33 سنة) في تقييمها لتصرفات الشباب عبر استطلاعنا هذا بالقول: «يتصرف الشباب على هذا النحو كي يبرهنوا للآخرين ـ وخاصة البنات ـ أنهم أصبحوا رجالًا جذابين.. إنه عمل الفائض الهرموني لديهم..» ولا تقف المسألة عند الشاب فحسب وإنما هناك نزوع من الإناث أيضًا في هذه الحالة كما يشير السيكولوجي (د. غسان يعقوب) في مفهومه للجسد الاجتماعي بالقول: «يلعب وجود الآخر دورًا مهمًا في تشكيل صورة الجسد، أي هناك نزوع باتجاه الآخر إنها الرغبة في رؤية جسده وفي لمسه والوصول إليه، فالفتاة التي تحاول من خلال فستانها القصير أو لباسها شبه المعرّى أن تبرز مفاتنها ترغب من ميلها الاستعراضي في أن ترضي فضولها الجنسي، آملة في أن تكتشف الآخر في جسده ومشاعره»[1].

وبالحديث عن الأعمار نسوق رأي فتاة تونسية في هذا الإطار حين

(1) د. غسان يعقوب، سيكولوجيا المراهقة، المرجع نفسه.

سئلت عندما تسمعين مغازلة أو معاكسة ما، ماذا تكون ردة فعلك فأجابت: لو كنت في مرحلة المراهقة لتأثرت، ولكن الآن (وهي في الثلاثين من العمر) لا يعني لي ذلك شيئًا، فالتأثر بالكلمات الجميلة يخف بريقه بين عمر وآخر، ففي مرحلة المراهقة قد تجعل المغازلة (المعاكسة/ الإطراء) الفتاة في غرور ما، ولكن في مرحلة عمرية متقدمة أعتقد أن الأمر يختلف».

جدول رقم (2) توزع المستجويات بحسب المهنة

المهنة	%
طالبة	37
موظفة	22,5
عمل حر	15
ربة منزل	5
غيره	20

ولم يتوقف حد المعاكسة عند فئات العمر الشابة، بل تبين لنا توزعه أيضًا على مختلف الإناث سواء كن طالبات أو موظفات أو ربات منزل، وهذا يجعلنا نعتقد كيف أننا لا زلنا نعيش ثقافة الاشتهاء للجسد الأنثوي كائنًا من كان، دون أن نقف عند حواجز اجتماعية أو اعتبارات أخلاقية حيث وجدت أن الشباب لا يعنيهم إن كانت الأنثى متزوجة أم لا، طالبة أو ربة منزل، محجبة أو غير محجبة، (على اعتبار أن الحجاب قد يقصر طرف الذكور فتبين أنه لم يكن حائلًا عن المعاكسة حسبما أشارت عينة من الفتيات المحجبات في الاستطلاع) أو إذا كانت في صورة جامدة أو حاضرة فعليًا أمامهم، فأكثرهم يمعن النظر مع رغبات شبقية لحاجات جنسية غير ملباة.

جدول رقم (3) توزع المستجوبات حسب أماكن التحرش

المكان	%
مكان عام (طريق/ مواقف الانتظار)	32,5
مكان العمل	7,5
الوسط الجامعي	40
مقاهي / مطاعم	2,5
أثناء التجمع في احتفالات	10
وسائل النقل	25
أماكن أخرى	7,5

ويتبين لنا هنا تعدد الأماكن التي تحدث فيها المعاكسات بدءًا من شارع الحي الصغير أو ساحة البلدة أو المنتزه أو السوق كأمكنة عامة، إلى المقاهي والمطاعم والاستراحات والمسابح التي يرتادها الشباب والإناث على حد سواء، إلى وسائل النقل(خاصة الباصات) والتجمعات الشعبية للتظاهر أو للاحتفالات التي تبدو أكثر الأماكن تحرشًا نظرًا لما يتيحه الاحتشاد من اندفاع وتقارب وتلامس يستغلها الشاب «الصائع» فرصة لإظهار مواهبه الممجة، وللاختفاء بين الجموع فيما لو ترتب على تصرفه تحديات لا يقوى عليها، وصولًا إلى الأماكن المغلقة كمكان العمل الذي لا يتورع فيه أصحابه أو العاملين فيه عن التحرش أو المعاكسات. . (ويبدو ذلك واضحًا من بعض الحالات التي يبتز فيها رب العمل موظفاته في أعمال جنسية مباشرة أو استغلالهن وظيفيًا عبر جمالهن الأنثوي لمآرب خاصة).

إزاء هذا الواقع كثرت الاحتجاجات وتنامت الشكاوي من نساء عديدات عن مضايقة الرجال وأرباب عملهن ليتصاعد الاحتجاج عبر حركات نقابية تدعو إلى إنصافهن وحمايتهن من تسلط الرجل الإداري في مكان العمل، وهذا ما دفع بعض الدول ومحاكمها لأن تولي اهتمامًا في القضايا التي تنتمي إلى التحرش غير المباشر لما له من أبعاد اجتماعية ومهنية خطيرة لاسيما وأن ظاهرة التحرش إلى ازدياد بين عام وآخر حسبما ذكرت مؤسسة الأبحاث

الأمريكية للدراسات الاجتماعية، إذ تبين لها أن 32% من النساء قد تعرضن لتحرش خلال عملهن وخارجه (تنفيذ الابتزاز).

جدول رقم (4) توزع المستجويات حسب طبيعة التحرش

طبيعة التحرش	%
مباشر	5
غير مباشر	72,5
الاثنين معًا	12,5
لا جواب	2,5

وفقًا للتصنيفات المشار إليها آنفًا عن ماهية التحرش أو المعاكسة المقصودة توجهنا إلى المستجوبات بسؤال يتضمن: نوع التحرش الذي يتعرضن له في الغالب أو إذا قد تعرضن إلى تحرش غريب، فأفادت أكثرية المستجوبات (72،5) إلى أنهن يتعرضن لتحرش من النوع الذي عرفّناه بأنه: تحرش غير مباشر عبر الكلمات التي تمتدح جمالهن أو شيء من أعضاء جسدهن أو لسِمة يتميزّن بها أو تشبيههن بشيء. حيث أشارت أغلبية المستجوبات أن ما يقوله الشباب لهن يتنوع ما بين طريف وخفيف وبذيء فاضح وعنيف، وقد تم تصنيف حصيلة ما قلنه من «معاكسات» في أربعة أطر هي:

1. عن الشكل: يقبرني هالطول/ تسلملي هالقامة/ بتعطيني عيونك/ شو هالجسد يا أسد/ من وين مشتريي هالعيون/ جمالك قبّع البلاط/ شو هالجسم اللي بيعقدّ!! القالب غالب.

2. عن الجوهر: غمرينا بلطفك/ تقبري عظامي، كيف كلك هضامي/ شو هالغندرة يا كندرة/ يا حلو مش للألك ..لألو / حنّي علينا شوي / قتلتني ..النعومة/ تدلل يل مدلل / شو هالغنجة / شو عنيفة / .

3. عن أوصاف: يسلملي هالصوت/ زمان القمر ما بان/ شو هالأحمر/ حبك طعوجني / شو هالحلا بيعمل بلا/ عطرك جنني/ يسلملي الأزرق شو بيلبق !.

4. طرائف: جيبولي الأطفائية/ بتروحي خطيفي / أوعا يفقع/ شو غالي القماش بهالأيام (للتنورة القصيرة)/ فرديها بقا/ ليش التعصيب (للعابسة)/ عبرّينا شوي (للامبالية) / أوعا تروحي بتاخذي روحي / بحبك يا وحش/ يا أرض احفظي ما عليكي/ يا ريتني مدعسة / كربوجي والله / عاشو شايفي حالك (للمغرورة).

مما ورد نتبين أن أغلب الكلمات تطال ميزة معينة لدى الأنثى، ويحاول الشاب المعاكس قدر الإمكان أن يقول شيئًا ما (وغالبًا ما يكون ظريفًا) كي يجعل الآخر يبتسم أو يضحك فيسرّ عندها لأن كلمته تركت صدى، ويستوقفنا هنا رأي لبنى (22 سنة/ الكويت) التي تشير بأنه «في السابق كانت مضايقات الشباب سيئة جدًا حسبما يقال لي، أي أنها كانت محرجة وفاضحة جدًا، أما اليوم فهي أقل إحراجًا بل إنني أجدها أحيانًا ترتدي طابع الرمزية أو تأتي مضحكة بين الحين والآخر».

ومثلما هناك نسبة ضئيلة امتنعن أو تحفظن عن التصريح بطبيعة التحرش الذي تعرضن له، حيث منعهن حياؤهن ربما عن ذكر الإجابة ولكنهن تعرضن حسبما أشرن، نجد في المقابل جرأة القائلات بأنهن تعرضن لكلا الأمرين في نسبة لابأس بها (12,5%) وهي نسبة بتقديرنا لا يستهان بها. بين هذين الرأيين بأنه يجب أن يصرحن أو يتكتمن، تعلق طالبة إعلام /لبنانية (20 سنة) على ذلك بالقول: «في رأيي وعندما تتعرض فتاة لتحرش مباشر(اعتداء جسدي أو اغتصاب أو ما شابه) لا يجب عليها التكتم عن الموضوع بل رفع دعوى إلى السلطات المختصة لمعاقبة الفاعل، بدل من انزوائها في البيت بمرارة على ما حدث لها، يجب أن ترد اعتبارها وكي تحمي فتيات أخريات من التعرض إلى نفس التجربة..».

وفي هذا السياق وردنا رأي لفتاة من الكويت (22سنة) كيف أنها لاحظت تشابهًا في أسلوب المعاكسة بين الشباب في مختلف البلدان العربية التي زارتها، إذ غالبًا ـ وكما تقول ـ: «يبدأ أسلوب المعاكسة عن طريق مدح الشكل وإذا لم تتجاوب معهم يقومون بالسب والشتم وحتى بالبصق عليها، يا له من تصرف مخزٍ من شبابنا» تعلّق أميرة.

جدول رقم (5) توزع المستجويات بحسب ردة فعلهن على التحرش

التصرف	%
تبتسم	12,5
تنزعج	25
تشكر	-
تحقر	15
تضرب	2,5
لا تهتم	27,5
غير ذلك	5

وبما أنهن يتعرضن لشتى ضروب المعاكسة والتحرش أردنا أن نرصد رد فعلهن على تصرفات الشباب، فقدمنا على ذلك الخيارات الممكنة في الرد من قبلهن فأشارت أكثريتهن بأنهن لا يهتمين (27,5%) وأخريات ينزعجن (25%) ومنهن من تحقر (15%)، أي نلاحظ ثمة تفاوت في رد فعل الفتيات ما بين:

- اللامبالاة وهو برأيهن أمضى سلاح على الذين يعاكسونهنّ، خصوصًا في الأماكن العامة حيث لا يعيرهنّ اهتمامًا، ويمشين وكأنهنّ لسن المعنيين وحينئذ لا يدخلن في أخذ ورد.
- الانزعاج باعتباره تطفل وقلة ذوق وعدم احترام من شباب فظ.
- التحقير فيما لو تمادى المعاكسون في ألفاظهم وتحركاتهم فبعضهن أشارت بأنهن قد يعمدن إلى الضرب ويدخلن «في عراك إذا اقتضى الأمر».
- أو يبتسمن أحيانًا من تصرفات الشباب، ولدى الاستفسار عن ذلك أشرن بأن الأمر مرتبط بنوع «المعاكسة» فمن الشباب من يكون «ظريفًا بكلماته» «خفيفًا في تصرفاته» يحاول لفت نظر الفتاة التي تعجبه بطرق خجولة فيصدر عنه تصرف يبدو بالنسبة لنا «مهضومًا» نبتسم لحظتها ونتابع سيرنا.
- أو ننسحب من المكان الذي نتواجد وإيّاه أو نكلف شابًا لإفهامه بأننا لسنا

في وارد التعرف أو الأخذ والرد، كما أشارت نسبة القائلات بغير ذلك.

ولكن هل تستلزم معاكسات الشباب عقوبة ما؟.

جدول رقم (6) توزع المستجوبات بحسب نوع العقوبة المقترح

العقوبة	%
غرامة مالية	17,5
سجن	22,5
تأهيل (توعية وإرشاد)	15
توبيخ وتعنيف	7,5
إبلاغ الشرطة	10
كتابة تعهد	2,5
لا أعرف	12,5

* رغم أن هذا التصرف يعتبر من وجهة نظر الشاب الملتزم دينيًا تصرفًا غير لائق ويحاسب عليه صاحبه ومحظورًا بل محرمًا دينيًا ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [سورة النور، الآية: 30]/ «يا عليُّ لا تتبع النَّظرَةَ النَّظرَةَ فإنَّ لك الأولى، وليست لك الآخرة». /(حديث نبوي)، ورغم أن القانون لا يعتبر مثل هذا الفعل فعلًا جرميًا إلا أنه إذا وصل إلى حد الاعتداء والتعرض الجسدي المباشر ورغم أن مثل هذه التصرفات تدرج ـ اجتماعيًا ـ في باب الأعمال غير المضبوطة أخلاقيًا...
* ولأن هذه المسألة تبقى نسبية على نحو ما أشارت إحدى المستجوبات بأن مثل هذه الظاهرة موجودة في أغلب المجتمعات تلاحظها أثناء سفرك بين بلد عربي وآخر غربي، وأخريات قلّلن من أهميتها لأنها تنمُّ عن ضعف شخصية أو جهل وضياع وقلة ثقة بالنفس لدى الشباب وهي تصرفات مراهقة وتسلية سخيفة عابرة لا تقدم ولا تؤخر إنما أفعال لا أهمية لها كونها تنم عن مستويات طيش يمر بها الشباب في أي مكان.
* ولأن اللوم ليس دائمًا يقع على الشباب في تصرفاته الهوجاء حيث للفتيات نصيب منه أيضًا على نحو ما أشارت أكثر من مستجوبة بآراء مفادها: نحن لا نلوم الشاب أكثر مما نلوم البنات فهي التي تفسح

المجال أحيانًا سواء عن طريقة لبسها أو نظراتها أو مشيتها أو حركاتها، مما يدفع الشاب لمغازلتها وعندما يقوم بذلك تصرخ وتقول: «يا بلا تهذيب» (رأي لموظفة / 36 سنة/ من لبنان).

تبقى النظرة إلى تبعات المعاكسة ـ ليس من باب أخلاقية هذا الفعل أو عدمه ـ بل من باب وضع وازع قيمي أو ضابط اجتماعي يحول دون تمادي أو تفشي هذه الأفعال حتى لا تصبح خطرًا على المجتمع وخصوصيات الناس. . مما يعني ضرورة تقرير عقوبة معينة لتستخدم عند لزوم الأمر، فهل من المفترض معاقبة الشباب على «تطفلهم»؟ 35% من مستجوباتنا أشرنا بأنه ليس بالضرورة أن يكون هناك عقوبة قاسية، فالفتاة تستطيع أن توقف حد الشباب عن هذه التصرفات بعدم إعارته الاهتمام، أو يمكن توعيتهم والنظر إلى هذا التصرف على أنه بمثابة قلة وعي لديهم أو نقص تربية أو نتيجة مرض نفسي يعتريهم. فلِما نعاقب إنسان بحاجة إلى مساعدة في التربية والتأهيل، ولكن بنظر المستجوبات الأخريات وهن الأغلب (55%) يجب معاقبتهن بحسب الفعل المرتكب أو التصرف الذي أذين فيه الفتيات، وبرأيهن يمكن أن تكون العقوبة إما سجن لمدة شهر وأكثر إذا لزم أو دفع غرامة مالية أو إبلاغ الشرطة وكتابة تعهد.

3) الرأي الآخر:

وفي الوقت الذي اقترحت فيه أغلبية المستجوبات حلولًا لهذه الظاهرة من:

- ✓ إدخال التثقيف الجنسي في البرامج المدرسية.
- ✓ العمل على تغيير نظرة المجتمع نحو المرأة.
- ✓ البوح بقضايا التحرش العنيف وعدم التكتم عليه.
- ✓ إتاحة الاختلاط المعقول ليتم احترام الجنوسة على مبدأ المساواة.
- ✓ إقامة حلقات توعية وإرشاد وتهذيب . . خاصة للشباب المتعطل.

نلاحظ أن المعاكسات أو أفعال التحرش بمفهومها المبسط تنم عن واقع نفسي واجتماعي، تشير إلى العديد من المشكلات السوسيولوجية المغيبة خلف ستار من الهموم الاجتماعية والذهنية والنفسية، فهناك البطالة والتهميش والفقر

والتسكع والهوة القائمة بين طبقات المجتمع وتأخر سن الزواج والكبت الجنسي والسيطرة الذكورية وهيمنة الصورة النمطية التي يحملها كل جنس عن الجنس الآخر وشيوع رهبة التقاليد المحافظة وغياب أي حيز عام للاختلاط السليم، وصولًا إلى «حالة الانفصام الجماعية التي يحياها شباب اليوم بين الواقع الافتراضي الذي تبثه قنوات التسلية والفيديو كليب الفضائية، والواقع المعيوش بما فيه من قحط مادي وثقافي وأخلاقي وجسدي» ولكن هل هذه الأسباب هي فعلًا ما يجعل الشباب يعاكسون، يلطشون (حسب التعبير العامي اللبناني) ويتحرشون؟ ما الذي يدفعهم إلى فعل ذلك؟ ما هو رأي الشباب الآخرين إن كانوا لا يلطشون؟ وبالتالي ماذا يكون رد فعلهم عندما يتعرضون لمعاكسة من فتيات؟ أسئلة نقاش حملتها إلى عينة منهم على اختلاف الأعمار والمستويات فكانت الإجابات التالية:

✓ نادر (25 سنة/ عامل في مكتبة) «عندما ألطّش (أعاكس) انبسط، أشعر بأنني قلت كلمة حلوة، عبرت عن شيء داخلي، ولكن بصراحة بعد أن ألطّش وخاصة إذا كانت كلمة ثقيلة أشعر بنوع من الذنب، لأنني أعتبر ذلك بمثابة اعتداء على العرض .لأن مثلما أنت تلطش بنات الناس يمكن حدا غيرك عم يلطش أختك».

✓ ياسر (24 سنة/ مهندس) «أنا لا ألطّش بالكلام إنما أنظر فقط، لا أجد نفسي مثل أولئك الشباب الذين يطلقون على البنات صفات ونعوت حين تمر، فإذا لفتت نظري بنت أتطلع وأتأمل جمالها».

✓ ربيع (20 سنة / طالب) أنا لا أعاكس البنات ولم يحدث أن حصل وربما لا أفكر بذلك أن أقوم به لاحقًا.. (لماذا..هل تعتبر ذلك سخافة؟) لا.. لا أعتبرها سخافة، طالما كثير من الشباب يقوم بها... فإذن هو ليس بشيء سخيف .. إنما بالنسبة لي لم يحدث أن قلت لإحداهن شيئًا من هذا القبيل».

✓ هشام (40 سنة/ موظف) «برأيي هناك تلطيش مهذب وهناك تلطيش غير مهذب، هذا يعود إلى من يلطش (هو) ومن تلطش(هي)، فمن الشباب

من يعاكس البنات «عالرايح والجاي» بكلام، بغمز، بلمز، بتحرش، بفظاظة، هنا تنزعج البنت بطبيعة الحال، بينما في أوضاع أخرى قد تكون رد فعلها إما ابتسامة أو لا ترد أو قد تتوقف وتجري حديث. إذًا المسألة مرهونة بمستوى الشباب والبنات على حد سواء.

ومما استنتجته ـ بالملاحظة والمناقشة ـ أن مستوى المعاكسة الكلامي يختلف مستواه بمستوى الارتقاء الاجتماعي، فكلما تدرج المرء في سلم وجوده الفكري والاجتماعي كلما جاءت المعاكسة أكثر تلطفًا، ذلك أن الناس ليسوا فقط نتاج القيم التي يحملون، وإنما نتاج الأماكن التي يأتون منها ويتواجدون فيها، فقد يتحرز شاب ذو مكانة اجتماعية مرموقة أو رجل أعمال مبتدئ من التحرش بفتاة في مكان عام، وإن حدث فإنما يحدث بطريقة لبقة وغير مباشرة، بشكل يختلف عن أسلوب «شُلة الشوارع» الذين يتسكعون عند زوايا الطرقات أو على الأرصفة فيتناولون الناس وخاصة الفتيات ذهابًا وإيابًا.

وفيما لو عمدت إحداهن إلى معاكسة أحد الشباب فكيف ينظرون إلى المسألة؟ برأي عينة منهم اقتطفنا الردود التالية:

1. «أرد بأسلوب الكلام نفسه إذا كانت مهضومة وإذا ما أعجبتني أسمح لها بالتمادي» (مارسيل/ 25سنة).

2. «أرد عليها في حالة واحدة وهي إذا كانت جميلة، أما إذا كانت لا تتمتع بالجاذبية فلا أهتم لذلك وأتصرف تبعًا للموقف، ومن تكون «المُعاكِسة» (زياد/ 30 سنة).

3. «أرد حسب طبيعة التحرش، فإذا تفوهت بكلام لطيف أرد بالمثل، أما إذا كان العكس أرد أيضًا، ولكن أن تصل الفتاة إلى حد مغازلة الشاب فهي برأيي إما سيئة النية، أو أن من أمامها يعجبها!!» (طلال 33 سنة).

4. «عندما تقول لك فتاة معينة» «يا قمر» مثلًا، فهذا يعني أنك لفتَّ نظرها ومعجبة بك (وسبق لهذا الموقف أن حدث معي) ليكون بعدها تعارف ولقاءات. فالتلطيش غالبًا ما يكون بداية تعارف فصداقة. (كمال 27 سنة).

5. «عندما تعترضني فتاة في الطريق وتبادر إلى سلام وحديث، ـ وهذا حصل معي أكثر من مرة ـ أعرض عنها وأتهرب منها، إذ يتبادر إلى ذهني اعتقاد بأنه كما تفعل معي (تتحرش بي) ربما فعلته مع غيري ومع شباب كثيرون قبلي، ما يدريك!!» (يوسف/ 23 سنة).

يلاحظ من إجابات بعض الشباب أن الرد على المعاكسة مشروط بجمال الفتاة، وكأن الجمال أصبح عامل جذب وجسر عبور للتعارف، ويفوتهم أن الجميلات نادرًا ما يلطشن، فقد تبين بالتجربة أن الفتاة الجميلة تصون جمالها بالخفر والحياء والكبرياء والإباء وحتى بالغرور. (أي تكون مشغولة بنرجسيتها) لهذا فالوسيمون والجميلات يعتبرون معاكسات الآخرين لهم أو لهن نوع من «ثقل الدم» الذي يبدو في مظاهره تصرفات مزعجة وربما وقحة إذا كانت فظة الأسلوب.

ومع تنامي معاكسة الفتيات للشباب وانتقالها من داخل غرف المحادثة عبر الإنترنت إلى الحياة اليومية في الأماكن العامة، تبين من المتابعة الإعلامية للظاهرة[1] أن السبب الكامن وراءها يعود إلى كثرة أوقات الفراغ التي تعيشه الفتيات في ظل عدم وجود رقابة أسرية وسهولة الاختلاط، تأثرًا بالمسلسلات التركية، وانصراف الشباب إلى فتيات أجنبيات فيحاولن لفت النظر كبديلات أو الرغبة بالانتقام نتيجة علاقة عاطفية فاشلة (هذا بالنسبة لصغيرات العمر)، أما بالنسبة للفتيات المتقدمات فالدافع إلى ذلك غالبًا ما يكون بهدف إيجاد «عريسًا» (ولذلك طرق استدعاء عديدة).

إزاء تنامي هذه الظاهرة ظهرت حملة على موقع الفايس بوك الإلكتروني يتزعمها مجموعة من الشباب للاعتراض على معاكسة الشباب من قبل البنات، وينتقدن مظهرهن عندما يقمن بمعاكستهن، ويضم ذلك الموقع أكثر من 1406 أعضاء من الشباب الذين يشاركون في كثير من المناقشات المطروحة، منها أن يحكي الشباب المواقف التي تعرضوا فيها للمعاكسة مثل: الابتسامات،

(1) فتيات اليوم يلاحقن الشباب لإيقاعهن (استطلاع رأي) مجلة الأسرة. العدد 847، كانون الثاني 2010.

النظرات، تعليقات الكلام، الحركات باليدين، إرسال أرقام الهواتف، الرسائل القصيرة، البلوتوث، المكياج الصارخ، الاستعراض بالثياب الصرعة، التباهي بالأشياء القيمة (الساعة، السيارة، الهاتف، وغيرها من الإكسسوارات).

4) في التحليل والاستنتاج

يرجع بعض باحثو علم النفس الاجتماعي المعاكسة / التحرش إلى نوع من الجمود النفسي الذي ينشأ عن شذوذ في التفكير أو انحراف وكبت في العاطفة، ومثل هذا الجمود له علاقة شديدة بإخماد الغريزة الجنسية التي تحاول أن تتفلت عبر فلتات لسان ونظرات عيون وإشارات يد. وهذا ما يعرضه الباحث السوسيولوجي (أنطوني غدنز) عن العالم النفسي (فرويد) بتحليله لزلات اللسان، التي يرى فيها تعبيرًا «عن مواقف ومشاعر خفية تكمن في أعماق النفس إزاء شخص أو أمر ما، إنها تنبعث من أعماق اللاوعي بعد مرحلة من الكبت الذي يمارسه العقل الواعي عليها، وتتضمن مثل هذه المشاعر في بعض الأحيان تداعيات ذات طابع جنسي كما أنها تحمل محمل الدعابة والفكاهة في كثير من الأحيان وقد تبدو عفوية وتلقائية في أحيان أخرى»[1].

ورغم أننا نلجأ إلى التواصل من خلال المؤشرات غير الشفوية في سلوكنا لإعطاء معنى لتصرفاتنا أو لتفسير المعاني التي ينطوي عليها سلوك الآخرين تجاهنا، فإن الجانب الأكبر من تفاعلنا إنما يجري من التبادل العرضي للحديث في سياق غير رسمي مع الآخرين، وقد استقر الرأي لدى علماء الاجتماع منذ زمن بعيد على أن اللغة تمثل محورًا جوهريًا للحياة الاجتماعية، بيد أن الأشكال والأساليب التي تستخدم قد أصبحت في الآونة الأخيرة محط اهتمام عدد قليل من الدارسين عبر ما يصطلح على تسميته بـ «الأثنوميتودولوجيا» وهي اتجاه من الدراسة الاجتماعية تحاول أن توضح كيف يفهم الناس ما يقوله الآخرون ويفعلونه أثناء التفاعل الاجتماعي اليومي، لأن كثيرًا ما نستخدم أنماط التفاهم بصورة عادية من دون وعي.. وهكذا في

(1) أنتوني غدنز، علم الاجتماع، المرجع نفسه.

كل لقاء بيننا وبين الآخرين يتمثل جانب من معنى التفاعل بيننا في ما نتفوه به من كلمات بينما يكمن الجانب الآخر في الأسلوب الذي يتشكل فيه القول في السياق الاجتماعي.

المراجع

1 ـ علم الاجتماع، أنتوني غدنز، ترجمة د. فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2006.

2 ـ المجتمع العربي المعاصر، د. حليم بركات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1981.

3 ـ علم النفس الاجتماعي، محمود سيد أبو النيل، دار النهضة العربية، بيروت 1989.

4 ـ مقدمة لدراسة المجتمع العربي، د. هشام شرابي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1977.

5 ـ نظريات معاصرة في علم الاجتماع، عمر معن خليل، دار الشروق، عمان 1997.

6 ـ علم الاجتماع القروي، محمد عاطف غيث، دار النهضة العربية، بيروت، د ـ ت.

7 ـ سيكولوجيا الجماهير، غوستاف لوبون، ترجمة هشام صالح، دار الساقي، بيروت، 1991.

8 ـ معجم العلوم الاجتماعية، فردريك معتوق، أكاديميا، بيروت، 1993.

9 ـ المظاهر الثقافية في الديانتين المسيحية والإسلامية، مكتب الأونيسكو الإقليمي، بيروت، 2008.

10 ـ تغير القيم في العائلة العربية، (ورقة عمل) صادرة عن اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الأسكوا) كانون الثاني، 1996.

11 - RICHARD SCHAEFER, SOCIOLOGY (11 th. edition), Mcgraw hill companies inc, new york, 2008.

12 - JUDITH BELL, doing your research project, open university press, Milton Keynes, England, 1989.

الفهرس

نبذة عن المؤلف:

* حائز على شهادة الدكتوراه اللبنانية في علم الاجتماع، الجامعة اللبنانية، بيروت.
* حائز على دبلوم دراسات معمقة في علم النفس الاجتماعي، الجامعة اللبنانية، بيروت.
* أستاذ محاضر لمادة علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي في العديد من جامعات لبنان ابرزها:
  1) الجامعة اللبنانية، كلية الصحة العامة، زحلة.
  2) الجامعة الحديثة للإدارة والعلوم MUBS، بيروت.
  3) معهد كلية الدعوة الجامعي، بيروت.
  4) جامعة بيروت الإسلامية.
* أستاذ مشرف ومناقش للعديد من الأطروحات والدراسات الجامعية المتعمقة في إطار علم الاجتماع والإعلام والخدمة الاجتماعية وعلم النفس الاجتماعي.
* عضو في العديد من المنظمات الأكاديمية والأهلية أبرزها:
  1 ـ المنظمة الدولية للجهود التطوعية، ولشنطن.
  2 ـ الرابطة العربية ـ الأمريكية لأساتذة الاتصال، جامعة جورجيا، اتلانتا، U.S.A.
  3 ـ ندوة البقاع الثقافية، زحلة.
  4 ـ جمعية خدمات التطوع ـ لبنان.
  5 ـ استشاري في وقف لشؤون المجتمع، بيروت.
  6 ـ منسق التدريب والأبحاث في مركز الإعلام والإعلان المتخصص للأبحاث والدراسات ـ بيروت.

أصدر العديد من الكتب في مواضيع التنمية الذاتية، ابرزها:

1 ـ «تميز وتواصل بنجاح/أسس في تقدير الذات واحترام الآخر» دار المعرفة، بيروت 2005.
2 ـ «وصفة معنويات» دار المعرفة، بيروت، 2006.
3 ـ «الشخص المناسب» دار المعرفة، بيروت، 2007.
4 ـ «قاموس الأقوياء» دار المعرفة، بيروت، 2008.
5 ـ «الحياة ببساطة» دار المعرفة، بيروت 2009.

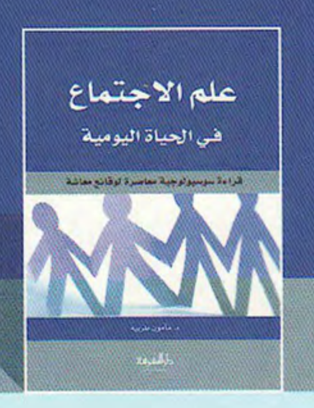
* وكتب أخرى في إطار علم النفس الاجتماعي قيد الإعداد والنشر ومنها:
  1 ـ علم النفس الاجتماعي (مفاهيم وتطبيقات).
  2 ـ في بناء الشخصية الاجتماعية... كيف تكون أنت؟ (دليل تدريبي وإرشادي).

للتواصل مع الكاتب:

البريد الإلكتروني

Tarabeym @hotmail.com

drtarabey @hotmail.com



من خلاصة تجربته السوسيولوجية في العمل الاكاديمي المتواصل في اطار تدريس مادة علم الاجتماع وتنظيمه لاستطلاعات الراي وقيامه بالعديد من الابحاث وتوليه الاشراف على دراسات اجتماعية جمة. يأتي كتاب د.مامون طربيه ليكون واحدا من كتب علم الاجتماع المنتشرة في المكتبة العربية، الا ان ما يميز كتابه هذا عن غيره من الاصدارات جملة ميزات ابرزها:

1 ـ معالجته الظاهرة الاجتماعية من وجهة نظر حقول معرفية ثلاث هي : علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية وعلم النفس الاجتماعي.

2 ـ الاستشهاد بكثير من نتائج الابحاث والدراسات والمعطيات الاحصائية في سياق تناوله للمصطلحات السوسيولوجية وفي ذلك افادة للطالب المتخصص.

3 ـ اعتماد سلاسة الاسلوب وبساطة التعبير في تناوله لمفاهيم علم الاجتماع كي يسهل على غير المتخصصين الانتفاع بها واستيعابها.

انه جهد علمي رائد تفخر دار المعرفة باصداره لانه يتضمن تعريفات مفيدة عن الظاهرات الاجتماعية المعاشة. لهذا ارتأت الدار اضافة عنوان فرعي الى جانب العنوان الرئيسي هو: "قراءة سوسيولوجية معاصرة لقضايا معاشة" عله يكون رؤية علمية هامة للمتخصص وللطالب وللقارئ العربي جميعا.

الناشر


ISBN 9953-85-271-5



www.marefah.com